



عدد
20
21

الملف فن التشكيل بالمغرب

كتاب العدد

- | | |
|-----------------------|--------------------|
| محمد جادور | حسن بحراوي |
| محمد أديوان | أحمد جاريد |
| سعيد بنگراد | حسان بورقية |
| عبد الرحيم مؤذن | بنعيسى بوحالة |
| عزيز أزغاي | فريد الزاهي |
| حسن يوسف | شفيق الزكاري |
| عبد الرحيم حزل | إبراهيم الحيسن |
| أحمد بلخاج آية وارهام | نورالدين فاتحي |
| عبد الكريم الطبال | بوجمعة العوفي |
| عبد السلام المساوي | حسني أبو المعالي |
| نجاة الزبائير | بنيونس عمبروش |
| أحمد هاشم الريسوني | عبد الكبير الخطيبي |
| سعد سرحان | عبد الرحيم العلام |
| مراد القادري | زهرة زيراي |
| مبارك ربيع | إكرام عبدي |
| هشام حراك | علي تيزلكاد |
| محمد قنديل بعاير | عبد الحي أزرقان |
| مصطفى لغتيري | مبارك الشنتوفي |

في البدء

حققت الحركة التشكيلية بالمغرب تراكمًا ملحوظًا ولافتًا للنظر في الكم والكيف. وتعرف الآن حيوية فائقة ودالة في الإنتاج والعرض. رغم الصعوبات أو العوائق أحيانًا. هذه الحيوية تبدو مطبوعة بالتنوع في التجارب والاتجاهات، وبالثراء في الرؤى وصور العلاقات. وبالابتكار والتجديد في مواد الرسم والتصوير وفي تقنياتها وأساليهما الفنية.

إن جماليات التشكيل في تلاحق تطورها بالمغرب، تجسّد ما للفنانين من وعي وخبرة فنية متطورين. إنها لذلك ما فتئت تزداد إثارة للاهتمام، وإغراء بالمشاهدة والدراسة، وباتصال الحوار بين الفنانين وبين جمهور المتلقين أو المهتمين. هذا الحوار يتفاعل على هامش المعارض وبموازاتها. وعبر قنوات الاتصال المتاحة، وعبر مقاربات فنية متنوعة أخذة في الاتساع. وتجتهد في تكريس هذا الصنف من الإبداع، موضوعًا للاستلذاذ والتأمل، وللتفكير النقدي في آن واحد.

فأية قراءة استيعابية ومُنصفة لتحوّلات الحقل الثقافي بالمغرب ولمكاسبه المعرفية، لم يعد بإمكانها إغفال ما للتشكيل وغيره من الفنون البصرية من أهمية ودور. باعتبارهما، من مؤشرات ذلك التحول وتجلياته ومحتواه.

اللوحة "مؤلف" فني، يمتلك القدرة على التعبير التصويري عن المشاعر والبنى الذهنية للماضي والحاضر، ويمتلك كذلك القدرة على التواصل مع الأفكار. هذا "المؤلف" لا يقدم كثافات ورموزًا خالصة فحسب، إنه يوحي عبر ذلك بموضوعات "لملموسة" تابعة من الوجود، وقابلة للتحليل والتأويل والإمتاع، وضرورية لحياة المجموعات الاجتماعية مهّاد الفنان وفضاء تداول مبدعاته. إن فيها غذاء للعين والوجدان والفكر معًا.

إن مجلة "الثقافة المغربية" تخصص ملف عددها المزدوج (20-21) لفن التشكيل بالمغرب، لعله يكون إضافة أخرى لمنجز هذه التجربة ولما رافقها من دراسات فنية أو تأملات فكرية.

إن المقاربات التي تولّف مضمون هذا الملف تأخذ أهميتها على اختلاف وجهتها في التناول من أنها:

1. تلقي أضواء جديدة على تاريخ هذا الفن بالمغرب وعلى مراحل تطوره وأبرز اتجاهاته وأعلامه.
2. تقترح تأملات فكرية وتصورات منهجية لكيفية قراءة اللوحة باعتبارها "مؤلفًا" فنيًا يختزن عالما ثري الرموز والأبعاد والدلالات.
3. تحلّل من منظور نقدي فني وثقافي أحيانًا المكونات الجمالية لهذا الفن في واقعه المكّرس لوحةً أو اتجاهًا أو أفقًا في الرسم والتصوير.

4. تقدم مراجعات وتعريفًا إيجابيًا ببعض الإصدارات النقدية المخصصة للتشكيل.

5. فيما يعتبر نص "محترف البيروتو جياكوميتي" نافذة نطل منها على تجربة عميقة ورائدة في مقاربة النحت، نص التقت فيه عبقريّة كاتب/فنان مدهش، بعبقرية نحات استثنائي؛ وقد حرصت الترجمة بدقتها على إبراز القيمة المضافة لهذا النص.

6. تأنيث جل المقاربات بصور مصغرة بالألوان لبعض أبرز اللوحات التشكيلية على امتداد نصف قرن تقريباً أو أكثر من تاريخ هذا الفن بالمغرب.

إن الملف لذلك، إسهام في إثراء الوعي البصري وتأكيد لما له من ضرورة وتأثير في تجديد الرؤى والعلاقات، وعسى أن يكون فيه بعض العذر أو العزاء عن الصدور المتأخر للعدد عن مواعده.

عبد الحميد عقار

الثقافة البحرانية

العدد 21/20 - فبراير 2003



في البدء

عبد الحميد عقار

ملف: فن التشكيل بالمغرب

الفن التشكيلي بالمغرب من الرسم الفطري إلى الفن العالمي
الحركة التشكيلية بالمغرب: ملامح النشوء والتحول
قيم تفكير اللوحة؟

القراءة الشعرية: محمد السريغيني

التشكيل المغربي وأصلته الجمالية

من مظاهر الحركة التشكيلية الملائكية بالمغرب

نظرة على التجريب التشكيلي المعاصر بالمغرب

التشكيل الحدائي ومسألة التواصل: اختراق الحدود

التشكيل المغربي: أسئلة الأفق والتجريب

المكي مغارة: حوار العنمة والنور

الكتابة والنقد الفني حصيلة 1999-2001

التجريدية العربية وأصلها الحدائي عبد الكبير الخطيبي

"كأس حياتي" كتابات في التشكيل لإدريس الخوري

الرياح البنية أو قطعوني من حقول القصب

حول التجربة التشكيلية لمحمد شبعة

محترف البيروني جياكوميني جان جونييه

قراءات ... عروض

أسلامة السياسة لمواجهة تسييس الإسلام

الغابت والمتحول بالأطلس الكبير: قبيلة غجدامة نموذجا

الذاكرة وبناء الخطاب التاريخي (معركة الملوك الثلاثة)

يصدد محو الأهمية والتنمية المستدامة بالمغرب

البناء الأسطوري في "حكاية وهم" لأحمد المديني

الأعمال غير الكاملة لـ "محمد زغراف"

"حلقه رواية طنجة" أو الديكة التي تبض ذهابا!

فنون

الملحون في المسرح المغربي من التمسرح إلى المسرحية

ترجمة

من وظائف الأدب: أمبرتو إيكو

شعر

الجنة الدهريّة

كالقصيدة

كحل غربي عن عيني

التفاسيم القيسية على الربابة الوهمية

المساء

أندلس أخرى

موسكو 1989

قصة

ذات طائر: خط وحده

كان بالإمكان أن يكسبون

زمن الرحيل

الفرح الجديد

- 5 حسن بحراوي
16 أحمد جابر
21 حسان بورقية
28 ترجمة بنعيسى بوجمال
41 فريد الزاهي
52 شفيق الزكاري
62 إبراهيم الحيسن
76 نور الدين فانحي
80 بوجمعة العوفي
89 حسني أبو المعالي
91 بنيونس عميروش
108 ترجمة فريد الزاهي
120 عبد الرحيم العلام
124 زهرة زيراوي
129 إكرام عيدي
133 ترجمة علي تيزلكاد

- 161 عبد الحي أرقان
180 مبارك الشنتوفي
191 محمد جادور
198 محمد أديوان
205 سعيد بنگراد
219 عبد الرحيم مؤذن
224 عزيز أرغاي

- 230 حسن يوسف

- 240 ترجمة عبد الرحيم حزل

- 255 أحمد بلحاج أية وأرهام
261 عبد الكريم الطبال
262 عبد السلام المساوي
264 نجاة الزباير
266 أحمد هاشم الريسوني
269 سعد سمرخان
271 مراد القادري

- 273 مبارك ربيع
278 هشام حراك
282 محمد قنديل بعاير
287 مصطفى لعنبري

الثقافة المغربية
مجلة تصدرها وزارة الثقافة

21/20 - فبراير 2003

أسسها
محمد الفاسي

تولى إدارتها ورئاسة تحريرها أو تنسيق أعمالها :

محمد بن شقرون
محمد بن البشير
محمد الصباغ
عبد الكريم البسييري

المدير المسؤول
عبد الحميد عقار

هيئة التحرير
محمد مفتاح
كمال عبد اللطيف
عبد الأحد السبتي

الإخراج : أحمد جاريد
تنفيذ الإخراج : إدريس بريدة

سحب : مطبعة دار المناهل

عنوان المراسلة :
وزارة الثقافة
مجلة الثقافة المغربية
1. زنقة غاندي - الرباط
الهاتف : 037 67 50 48
الفاكس : 037 67 50 41

الإبداع القانوني : 1970/6
ISSN : 0851-366X

الدراسات والمفالات تعبر عن آراء أصحابها.
المواد لا ترد لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

(*) الترقيم الجديد للمجلة يأخذ في الاعتبار مجموع مصادرها
من أعداد منذ تأسيسها في يناير - فبراير 1970

الخلافة البحرانية

العدد 21/20 - فبراير 2003



عبد الحميد عقار

في البدء

ملف: فن التشكيل بالمغرب

الفن التشكيلي بالمغرب من الرسم الفطري إلى الفن العالمي
الحركة التشكيلية بالمغرب: ملامح البشوة والتحول
فيم تفكر اللوحة؟

الفراة الشعرية: محمد السريغيني

التشكيل المغربي وأسئلته الجمالية

من مظاهر الحركة التشكيلية الطلائعية بالمغرب

نظرة على الفجرب التشكيلي المعاصر بالمغرب

التشكيل الحدائي ومسألة التواصل: اختراق الحدود

التشكيل المغربي: أسئلة الأفق والتجريب

المكي مغارة: حوار العتمة والنور

الكتابة والنقد الفني حصيلة 1999-2001

التجريدية العربية وأسئلة الحدائفة عبد الكبير الخطيبي

"كأس حياتي: كتابات في التشكيل" لإدريس الخوري

الرياح البنية أو قطعوني من حقول القصب

حول التجربة التشكيلية لمحمد شيعه

محترف البيرنو جياكوميني جان جوتيه

- 5 حسن بحراوي
- 16 أحمد جاري
- 21 حسان يورقية
- 28 ترجمة بوعيسى يوحمال
- 41 فريد الزاهي
- 52 شفيق الزكاري
- 62 إبراهيم الحيسن
- 76 نور الدين فاتحي
- 80 بوجمعة العوفي
- 89 حسني أبو المعالي
- 91 بيونس عميرونش
- 108 ترجمة فريد الزاهي
- 120 عبد الرحيم العلام
- 124 زهرة زيراوي
- 129 إكرام عيدي
- 133 ترجمة علي نيلكاد

قراءات ... عروض

أسلمة السياسة لمواجهة تسييس الإسلام

الثابت والمتحول بالأطلس الكبير: قبيلة عجدامة نموذجا

الذاكرة وبناء الخطاب التاريخي (معركة الملوك الثلاثة)

يصدد محو الأمية والتنمية المستدامة بالمغرب

البناء الأسطوري في "حكاية وهم" لأحمد المديني

الأعمال غير الكاملة لـ "محمد زغراف"

"حلقة رواية طنجة" أو الديكة التي تبض ذهبيا!

- 161 عبد الحي أرقان
- 180 مبارك الشنتوفي
- 191 محمد جادور
- 198 محمد أديوان
- 205 سعيد بنگراد
- 219 عبد الرحيم مؤذن
- 224 عزيز أزغاي

فنون

الملحون في المسرح المغربي من التمسرح إلى المسرح

- 230 حسن يوسف

ترجمة

من وظائف الأدب: أمبرنو إيكو

- 240 ترجمة عبد الرحيم حزل

شعر

الحبسة الدهريّة

كالقصبدة

كحل غريبي عن عيني

التفاسيم الفيسية على الرابة الوهمية

المساء

أندلس أخرى

موسكو 1989

- 255 أحمد يلحاح آية وأرهام
- 261 عبد الكريم الطبال
- 262 عبد السلام المساوي
- 264 نجاة الزياير
- 266 أحمد هاشم الريسوني
- 269 سعد سرحان
- 271 مراد الفادري

قصيدة

ذات طلائر: حظ وحده

كان بالإمكان أن يكون

زمن الرحيل

الفرح الجديد

- 273 مبارك ربيع
- 278 هشام حراك
- 282 محمد فتيدل بعاير
- 287 مصطفى لعيتري



حسن بcharawi

الفن التشكيلي بالمغرب من الرسم الفطري إلى الفن العالم

فحتى تاريخ إقامة الحماية على المغرب سنة 1912، لم يكن أحد من الشبيبة المغربية قد تجاوز مرحلة المشاهدة السلبية والانبهار بما كان يعرض أمام أعينهم من مناظر وصور ولوحات، هي وإن كانت مستمدة من مألوف حياتهم وصميم معيشتهم، فإنها كانت تبدو غريبة حقا وحريفة النكهة بانتقالها من الحياة الهادئة في الواقع إلى الإقامة المهادنة على القماش والتسريل الزاهي بالألوان على ظاهر السند.

ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى شاب مغربي ذي خمس وعشرين سنة اسمه محمد بن علي الرباطي (1939/1861) جاء من مسقط رأسه وافدا على مدينة طنجة التي كانت أطماع الاستعمارات الأجنبية قد حولتها إلى مدينة دولية كوسمبوليتية، وقد أتاحت له الصدفة أن يعمل طباحا لدى أحد الأثرياء الأجانب لم يكن غير الرسام الإنجليزي المسترجون لفري الذي كان قد استهوته هذه المدينة العربية ذات الإيهاب الفجري الساحر، فوقعت في

ليست الفنون البصرية بذلك القادم الطارئ أو الحدث العابر في مجتمعات الغرب الإسلامي. وإنما هي ممارسات رسخت حضورا عضويا وعميقا في التربة المحلية منذ أقدم العصور، وتركت آثارها وطرونها في مجتمعات الغرب الإسلامي. وإنما هي ممارسات رسخت حضورا عضويا وعميقا في التربة المحلية منذ أقدم العصور، وتركت آثارها وطرونها في المجتمع والحضارة والإنسان عبر الاشتغال على أشياء الحياة اليومية من حلي وزرابي وخزف ومطرزات.. إلخ. أو من خلال باقي المشغولات اليدوية التقليدية التي تؤثث فضاء البيت المغاربي بوصفه بؤرة اجتماعية وإثنوغرافية. ولنا في فنون الزليج والفسيفساء والنقش على الخشب والجبص وتصميم الحداثق والمشربيات والنافورات والحمامات شاهد ما يزال قائما على عمق التأثير العربي الإسلامي، الأندلسي والمشرقي، وعلى الوفاء للجدور الماقبل إسلامية، الإفريقية والبربرية الضاربة في القدم.

ليست الفنون البصرية بذلك القادم الطارئ أو الحدث العابر في مجتمعات الغرب الإسلامي. وإنما هي ممارسات رسخت حضورا عضويا وعميقا في التربة المحلية منذ أقدم العصور، وتركت آثارها وطرونها في مجتمعات الغرب الإسلامي. وإنما هي ممارسات رسخت حضورا عضويا وعميقا في التربة المحلية منذ أقدم العصور، وتركت آثارها وطرونها في المجتمع والحضارة والإنسان عبر الاشتغال على أشياء الحياة اليومية من حلي وزرابي وخزف ومطرزات.. إلخ. أو من خلال باقي المشغولات اليدوية التقليدية التي تؤثث فضاء البيت المغاربي بوصفه بؤرة اجتماعية وإثنوغرافية. ولنا في فنون الزليج والفسيفساء والنقش على الخشب والجبص وتصميم الحداثق والمشربيات والنافورات والحمامات شاهد ما يزال قائما على عمق التأثير العربي الإسلامي، الأندلسي والمشرقي، وعلى الوفاء للجدور الماقبل إسلامية، الإفريقية والبربرية الضاربة في القدم.

ولكن الطارئ الجديد فعلا هو الفن التشكيلي بالمعنى الحديث والمعاصر للكلمة.

هو الفن التشكيلي



محمد بن علّال

معرضه الأول بمتحف الأوداية على اهتمام النقاد الأجانب سنة 1931. ومحمد المنبهي سليل العائلة المخزنية المعروفة الذي عاش في مدينة طنجة وأبدع الكثير من اللوحات التي ظل يرفض عرضها أو بيعها.

وسبرز في مدينة مراكش، خلال الأربعينيات، فنانان فطريان سيكون لهما شأن خطير في ترسيخ خطوات الفن الحديث بالمغرب وفتح على إمكانات جديدة تغني هذا اللون من الإبداع الوطني وتكرسه على نحو لافت؛ وهما مولاي أحمد الإدريسي (1924/1973) الذي تعود في طفولته أن يرافق الرسامين الأجانب في جولاتهم إلى المواقع الأثرية بمراكش. فعنهم أخذ حرفة التصوير، وولج مغامرة الفن التشكيلي من أبوابها الواسعة. فجاب بمعارضه بقاع العالم من أقصاه إلى أقصاه. بعد أن أقام أول معرض شخصي له بلوزان سنة 1952.

والفنان المشهور محمد بن علّال (1924) الذي كان قد بدأ الرسم بطريقة شبه سرية مقلدا مشغله الرسام الفرنسي جاك أزيما كان بن علّال يعمل لديه طبّاخا. وقد استطاع بمساعدة أستاذه أن يقيم أول معرض فردي في واشنطن سنة 1952. وأن يطوّر فنه الفطري ذا الإيهاب التراثي المغاربة.

نفسه موقعا حسنا وقرر أن يحطّ بها الرحال ويبدع ماطاب له من أعمال فنية على غرار ما قام به في بقاع أخرى من العالم.

وفي أعقاب ثلاثين عاما من هذا اللقاء سيتاح لمحمد بن علي الرباطي أن يستكمل استكناه أسرار حرفة الرسم وتملكها أولا بأول، ويطلع على خبايا هذا الفن وهو ساهم يتأمل أنامل مشغله ومعلمه وهي تصنع عالما من الألوان والخطوط. وتبث الحياة في كائنات ومناظر هي أقرب إليه من حبل الوريد.

وقد تمكن الرباطي ليس فقط من تعلم الإمساك بالفرشاة، بل أصبح له في وقت وجيز أسلوبه الخاص، الفطري إلى حد ما، في التقاط مظاهر الحياة اليومية المغربية وتأثيرها بعبرية وابتكار مشهودين بمقاييس ذلك العصر، مما سيسمح له بإقامة أول معرض له في الخارج سنة 1916 بالعاصمة البريطانية، ثم معرض ثان في فرنسا سنة 1919. فضلا عن المعارض العديدة التي تعودت الدوائر المخزنية والأهلية أن تقيمها له في الحواضر المغربية.

إلى جانب هذا الفنان الرائد تذكر مؤرخة الفنون الإيطالية طوني ماريني أسماء أخرى لعدد من الرسامين المغاربة الذين اعتمدوا على عصاميّتهم ومواهبهم الفطرية لكي ينتجوا أعمالا فنية أصيلة أمثال عبد السلام بن العربي المزداد سنة 1914 بفاس وخريج ثانوية المولى إدريس بها، والجيلالي بن شلان الذي حاز

هذه الجماعة أو تلك. وأنتجت في ظلها مجموعة من الأعمال الفنية المتميزة بهذه الصفة أو تلك.

ومن ذلك أن الرسم الفطري بالمغرب يتميز بعلاقته الوطيدة مع المعيش والعابر في الحياة اليومية للناس البسطاء والبدو وعابري السبيل. وهو يعتمد على الذاكرة الطفولية باستثمار تلقائيتها وشعريتها الخبيثة، وبقدر أقل على النموذج الواقعي أو المتخيل الذي يكون مصدره وعي الراشد المتحذلق.

ولا عجب في هذا الأمر، فإن الفنان الفطري عاش على الدوام في علاقة تماس جذورية مع البيئة المحلية التي أنتجته. ومن هنا صدره عنها في مجموع إبداعه ومتخيله وموضوعه. فقد كان محمد بن علال طباحا بمدينة مراكش. وظل شغوفا في فنّه بتصوير مظاهر الحياة الشعبية والتقليدية التي تجري أطوارها فوق السطوح وفي أعماق الحارات بعيدا عن مجريات الأحياء الأوروبية الحديثة.

وكان أحمد الوردغي (1974/1928) بستانيا بمدينة سلا. ومن هنا شغفه برسم الزهور والكائنات الخرافية التي تنبع من صلب الطبيعة بألوانها القزحية الزاهية. وقد عرض هذا الفنان الفطري المغربي في أشهر القاعات العالمية في أوروبا وأمريكا واليابان. وحضر أندري مالرو الكاتب الفرنسي ووزير الثقافة في عهد دوغول لافتتاح معرضه بباريس سنة 1963.



مولاي أحمد الإدريسي

ومن ذلك أن الرسم الفطري بالمغرب يتميز بعلاقته الوطيدة مع المعيش والعابر في الحياة اليومية للناس البسطاء والبدو وعابري السبيل. وهو يعتمد على الذاكرة الطفولية باستثمار تلقائيتها وشعريتها الخبيثة، وبقدر أقل على النموذج الواقعي أو المتخيل الذي يكون مصدره وعي الراشد المتحذلق.

وعليه يصح القول، إن نشوء الفن التشكيلي بالمغرب كان محكوما بتضافر تأثيرين وتصاديهما : أولهما برآني غربي جسده احتكاك الرسام الفطري بفنانين أجانب محترفين وعمقه ارتياده المتاحف وقاعات العرض والمحترفات. وثانيهما داخلي استمدته من مخزونه التراثي ونظرتة المحلية..

ولذلك لانعدم ونحن نتفحص أعمال الفطريين أن نلاحظ ذلك الازدواج العميق بين التأثير الغربي المتمثل خصوصا في استعمال السند القماشي والألوان الصناعية، والتأثير العربي الذي يبرز تارة في استلهم المنمنمات الإسلامية ومتعلقاتها من الفن الشرقي والزخرفة الأندلسية، وتارة في الموضوع المحلي حيث الحارة والسطح، والساحة والسوق العموميان.. إلخ

جماعة الفن الساذج

يعترض كثير من نقاد الفن التشكيلي بالمغرب على هذه التسمية ويرون فيها وصفا يتضمن الكثير من التعميم والإطلاق بل والتجني في التصنيف. ولكن إذا كنا نقرّ بصعوبة إقامة تمييز صارم بين مختلف الاتجاهات والميول التي تخترق المشهد التشكيلي المغربي، فإنه في الوقت الراهن للبحث ليس أمامنا سوى الاحتكام إلى الخطوط العامة لكل تجربة والإمساك عبرها، إذا لم يكن بتيارات واتجاهات واضحة، فعلى الأقل بنزعات وأساليب تتخلق حولها

الاقتصادية التي كان يقوم عليها نيابة عن أصحابه أناس يأخذون بالقيم الاستبدالية ويؤمنون بالتسليع المطلق للفن. وبالتالي يعتبرون هؤلاء الفنانين «السذج» بمثابة «الدجاج الذي يبيض ذهباً»..

وقد كانت النتيجة المباشرة لهذا الوضع أن استهلكت أعمال هؤلاء وجرى استنفادها إلى آخر قماش من طرف وسطاء ومرايين لم يقيموا أدنى اعتبار لجهود أصحابنا من زمرة الرسامين الفطريين. فعلوا ذلك في العشرينات مع ابن علي الرباطي حتى اضطر إلى فتح دكان لتصريف لوحاته بمعرفته. ثم أعادوا الكرة مع محمد بن علال المراكشي ومع أحمد الوردغي. وقد غادر كلاهما مهنته الأصلية : الطبخ والبستنة، ليشرف على شؤون مبيعاته ومتعلقات فنه.

لقد نشأ الفن الفطري أو الساذج برعاية مأجورة من دهاقنة الاستعمار الثقافي بعد رحيل سادة السياسة وقادة الحرب. وكانت الغاية الظاهرة المعلومة من وراء ذلك هي قطع الطريق أمام نخبة الفنانين المتعلمين والأكاديميين من الذين يفترض أنهم يملكون وعياً واستقلالية ينافحون عنهما ولسانا يعبرون بواسطته عن الاختلاف وفضائل الإخلاص لمسقط الرأس. وربما لأجل كل هذه الحشيشات ستفتح جماعة مدرسة الدار البيضاء النار على أرباب الفن الفطري والأوصياء عليه من الأجانب وذوي الفكر الكولونيالي والنزعة الإثنوغرافية. وعندما حانت الفرصة وجهوا لهم الضربة القاضية من خلال



الشعبية طلال

ربما كانت مفارقة الفن الفطري بالمغرب أنه بالرغم من حضوره

المدوّى في الداخل والخارج فقد عاش دائماً على هامش دائرة المنافسة الاقتصادية التي كان يقوم عليها نيابة عن أصحابه أناس يأخذون بالقيم الاستبدالية ويؤمنون بالتسليع

واتجه مولاي أحمد الإدريسي إلى نسج أسلوبه التعبيري الخاص حيث تتوالد كائنات هلامية فاقدة لكل خصوصية تقريباً، اللهم تلك الألبسة المحلية التي يسرّبها بها وهي ذاهبة نحو فناء محقق «لوحة المحكوم بالإعدام» مثلاً.

وتأخرت الشعبية طلال (من مواليد 1924) إلى ما بعد سن الأربعين لتبدأ في مغازلة الريشة تحت إغراء ثم تأثير إبنها الرسام الحسين طلال وصديقها الفنان أحمد الشرقاوي. ولكن ما خسرت هذه المرأة في التأخر الزمني ربحت في قوة البصمة وبراعة الإبداع. حيث تبرز في لوحاتها تلك الوجوه المستلّة من بين الخرائب ولكن الزاهية الألوان، المبتسمة في بلاهة أو المقطبة في وجوم. وحيث صفاء الألوان يذكر بوحداية طفولية لا يمكن مغادرتها.

وأما الفنان الراحل صلاحي فإنه يقتحم بنا عالماً مكتنزاً بالعجائب وغرائباً على نحو لا نظير له حتى في الأساطير، حيث مخلوقات حريفة الشكل تأهل فضاء لاعقلانيا وذا أبعاد غير أقليدية. وحيث تجتمع المتناقضات والمفارقات من كل نوع. الدقة والصرامة إلى جوار التردد المدروس والحيرة الهذيانة لكل حركة فرشاة. فهل نحن حقاً وفعلًا أمام صباغة ساذجة؟

ربما كانت مفارقة الفن الفطري بالمغرب أنه بالرغم من حضوره المدوّى في الداخل والخارج فقد عاش دائماً على هامش دائرة المنافسة



أحمد الشرقاوي

لكن في مقابل ذلك سوف تزداد وضعية الحصار والتهميش استفحالا برحيل الفرنسيين الذين كانوا يحتفون بالفنون البصرية مشاهدة واقتناء وتداولاً، وبإدارة النخبة

المغربية ظهرها لهذا الفن «الدخيل» ومفرط التجريد. على أن الفنانين المغاربة لم يدعوا هذه الوضعية تدفعهم إلى اليأس بل اتخذوها حافزا للدراسة والسفر والمغامرة للتعرف على الاتجاهات والمدارس الفنية العالمية.

وهؤلاء سيعملون على

تشكيل المشهد الفني المغربي، وتأكيد البعد الوطني والعربي الذي يخرقه من خلال الوعي بأهمية التجذر في الواقع واستبطان الذات، إلى جانب استمرار معانقة الأفق العربي وخوض التجربة الإنسانية والكونية.

هكذا سيلتحق أحمد الشرقاوي (1967/1934) بمدرسة الفنون والحرف بباريس سنة 1956. ثم بعد حصوله على شهادتها سينتقل إلى مدرسة الفنون الجميلة حيث سيتواصل مع الميول الطليعية للفن الأوروبي لسنوات الخمسين. وستكون رحلته الدراسية إلى بولونيا سنة 1961 فرصة للانخراط في أكاديمية فارسوفيا ونقطة تحول حاسمة في مساره وتجربته الفنية والحياتية برمتها. ذلك أن اطلاعه على الجهود التي كان يبذلها الفنانون البولونيون في مجالات البحث الفني والجمالي أثارت انتباهه إلى أهمية توظيف العلامة والرمز ودورهما في تفعيل فضاء اللوحة وفتحها على عوالم دلالية تخصبها وتغني بها. كما أن صلته بالتراث الصوفي الإسلامي ستزيد في

ملف الفنون التشكيلية الصادر ضمن مجلة «أنفاس» أواخر الستينيات..

الاتجاه المخضرم

مع نهاية الأربعينات، ستبرز للوجود مجموعة من الأسماء الشابة في الساحة الفنية مدفوعة بحب الرسم سيكون في طليعتها فنانون بارزون أمثال محمد السرغيني الذي سيتخرج من معاهد إسبانيا ويدير مدرسة الفنون الجميلة بتطوان لسنوات طويلة، والمكي مورسيا الذي سترأس سنة 1965 أول جمعية مغربية للفنانين التشكيليين، وحسن الكلاوي الذي عرض خيوله في باريس ونيويورك منذ الخمسينات، ومريم أمزيان أول رسامة مغربية عرضت أعمالها في المغرب والبلاد الأوروبية في هذه الحقبة.

لكن بعد حصول المغرب على استقلاله سنة 1956 سيتاح لبعض الشباب المغاربة أن ينالوا قسطا من التكوين الأكاديمي في المعاهد الأجنبية. وستكون ثمرة ذلك كوكبة من الفنانين المتميزين الذين سيأخذون على عاتقهم إعادة إكتشاف هذه القارة الجديدة القديمة التي هي الرسم والصباغة على السند. وهؤلاء سيعملون على تشكيل المشهد الفني المغربي، وتأكيد البعد الوطني والعربي الذي يخرقه من خلال الوعي بأهمية التجذر في الواقع واستبطان الذات، إلى جانب استمرار معانقة الأفق العربي وخوض التجربة الإنسانية والكونية.



الجيلالي الغرباوي

يخوض هذا الصراع القدري بين التقليد والحدثة، وينجب تلك الرؤية الاستثنائية القائمة بين الغنائية والمأساوية، سوف يقدم مقابلاً لها ثمناً باهظاً من حياته ووجدانه قاده إلى الموت في إحدى حدائق باريس في ربيع 1971.

ومن الواضح، أن هذا الاتجاه المخضرم الذي مثلناله بهذين الفنانين البارزين، يأخذ اسمه من ذلك الموقع الذي ظل يتمترس خلفه أصحابه، والذي كان يقف في مهبط التيارات الفنية العالمية تأثراً واستلهاماً من دون أن يسلم في جذوره الثاوية هنا بعيداً عن بلدان الاستقبال.

فبين تأثير بول كلي الذي رزح تحته الشرقاوي، وتأثير السوربالية الذي كاد يعصف بالغرباوي، تقوم مسافة من الانتماء الجذوري إلى فنون مسقط الرأس وخصوصياته.

فلم يكن رواد هذا الاتجاه ينصتون سوى إلى تلك النداءات البعيدة الغور الصادرة عن أعماقهم. ولم يكن أحد منهم يستجيب لرغبات الزبناء الموسمييين من عشاق النزعة الفطرية والفولكلورية البدائية ولا إلى تلك التي يطالب بها أرباب النظرة الكولونيالية المناهضة لكل تجديد أو مغامرة.

ولما عجز هؤلاء وأولئك عن تدجين هؤلاء الرواد وتطويعهم لإنتاج فن تحت الطلب بالمعنى الأدواتي للكلمة، انفضوا من حولهم

تعميق قدراته التعبيرية وتقوي إمكانياته في الانتساب إلى سجل فني جديد، قوامه حروفية بدائية وإيقاع من اللطخات تفشي الحركة في اللوحة وتبدد بكارتها لصالح تلك العلامة المتحركة فوق السند أو الجلد.

لكن الموت المبكر للشرقاوي سيضع حداً لهذه المغامرة الفريدة في تاريخ التجريد المغربي والعربي التي مازلنا نحفظ منها بمجموعة فنية ذات مستوى رفيع لم ينفك يثير اهتمام النقاد في هذا الطرف أو ذاك من العالم.

أما الجيلالي الغرباوي (1930/1971) فكان قد تابع دراسته الأكاديمية بفرنسا كذلك. ولكنه عوّل أكثر على تجربته الشخصية وعلاقاته مع كبار فناني المرحلة. وهكذا انتسب للحركة السوربالية الفرنسية لفترة من الوقت منبهاً بفتوحاتها ومنساقاً وراء تهويماتها التخطيطية والصباغية، قبل أن يتحرر منها نسبياً، ويبتدع لنفسه أسلوبه التجريدي الخاص الذي ينأى به عن التقليد والاجترار.

وتبدو أهمية رسم الغرباوي في كونه أول من اخترق جدار الفن التجريدي من المغاربة مستعملاً في ذلك رموزاً وحركات ومواد وألواناً وتقنيات جديدة تسمح له، من خلال الخربشات و البقع، بالتعبير عن متخيل جامع ظلت الأساليب التقليدية عاجزة عن اجتراحه.

على أن الجيلالي الغرباوي، وهو

وتركوهم فريسة الحاجة (حالة الغرباوي) والمرض (حالة الشرقاوي) ..

جماعة 65

لقد اتسمت تجربة جماعة 65 من بداية منشئها إلى أواخر السبعينات بنوع من المفارقة التي يصعب تفسيرها بغير مزيد من الحيرة والتخبط. فبينما سعى أعضاؤها نظرياً على الأقل، أي في الخطاب، إلى العودة إلى الجذور التراثية واثمنوا مسألة استلهم مظاهر الإبداع المحلي والتقليدي، بل والخروج، كما فعلوا، إلى الساحة العمومية لاخترق جدار القاعة «البورجوازية» المكتنزة بقيم الاستبدال والتسليع، نجدهم على المستوى العملي قد جنحوا في منجزهم الفني إلى تبني نزعة شكلية هندسية تفتقر بوضوح إلى الشعرية والغنائية، وتميل أكثر، رغم ألوانها الحارة، إلى صرامة الخطوط والمنحنيات ذات البعد التصميمي الذي لا تخطئه العين.

أف يكون انتهاج هذا الأسلوب المثقل بالتناقض سبيلاً إلى إضمار الموقف الإيديولوجي الذي كان ثمن إعلانه باهظاً في تلك الحقبة الملتهبة..؟

هل هو الانشداد الديناميكي والجذوري للأوفاق والأساليب الأكاديمية الملقنة لهؤلاء القادمين من المدارس الغربية الأكثر انغراساً في حداثة لا تقبل المساومة أو التراجع أمام أي إغراء أو مقاومة..؟

أم أن ذلك يعود إلى ضالة التأثير الذي مارسه البيئة السوسيوثقافية القومية والوطنية، وعجزها عن بلورة وعي جديد وفاعل بجماع الممارسة البصرية..؟

إن ابتعاد رواد مدرسة 65 عن التشخيص واعتناقهم لمبدأ التجريد سيكون بمثابة الجواب «الفني» على عديد من الأسئلة الوجودية والجمالية التي كانت تملأ أفقهم في تلك الفترة. وهي برأينا على ثلاثة مستويات مختلفة لكن متضامنة :

- انسجاماً مع خلوّ التراث الفني المغربي والإسلامي من مظاهر تشخيصية بسبب الموقف الديني المعروف والذي قابله انتشار نوع من التعبير الأقرب إلى التجريد كما في فنون الزخرفة والزليج والسجاد والوشم.. إلخ

- تخييب ظن تجار السوق الفنية من مغاربة وأجانب وغيرهم من طلاب المنظر الإثنوغرافي والوجه الأهلي الذين كانوا قد وجدوا ضالتهم لدى زمرة الفنانين الفطريين والأقل فطرية من أمثال بني سَف وأحرسان والكلاوي..

- وأخيراً اعتبار التشخيص مرحلة أكاديمية انتهت بخيرها وشرها: طبيعة ميّنة. وجوه، شخوص ومناظر طبيعية.. ولا بد أن تقود طبيعياً إلى مرحلة التجريد الذي يعتبر مرحلة عليا في ممارسة الوعي بالإبدال الفني والمجاز التعبيري الذي لا يرغب في البقاء سجين النموذج والمثيل الشبيه.

إن ابتعاد رواد مدرسة

65 عن التشخيص

واعتناقهم لمبدأ

التجريد سيكون بمثابة

الجواب «الفني» على

عديد من الأسئلة

الوجودية والجمالية

التي كانت تملأ أفقهم

في تلك الفترة. وهي

برأينا على ثلاثة

تويات مختلفة لكن

متضامنة

وكانت انطلاقة الثلاثة الأوائل قد سجلت ظهورها الانقلابي سنة 1966 من خلال معرضهم الجماعي بمسرح محمد الخامس. والذي أعلنوا فيه تنظيراً وممارسة عن منهجهم الفني. وقد أريد لهذه التظاهرة أن تكون لحظة تحوّل بالقوة وبالفعل، وذلك من خلال جملة من العناصر :

- سيادة اللوحة العملاقة ذات القياسات الجدارية غير المألوفة في المشهد البصري المغربي.

- استعمال الألوان الصافية والحارة ونبذ الخلطات اللونية أو أنصاف الألوان إسوة بالرسامين الفطريين.

- التبشير بالنزعة التصميمية ذات الأبعاد الهندسية والانشغال بالأشكال والقوالب والمكعبات.

- إرفاق المعرض، ربما لأول مرة في تاريخ المشاهدة المغربية، ببيان تأسيسي تكلفت الناقدة التشكيلية طوني ماريني بصياغته وضمته الرؤية الفنية التي يعبر عنها الفنانون الثلاثة.

- مغادرة القاعة الصالونية المألوفة ومناهضة العرض الفردي الذي يكرّس النرجسية، باختيار نطاق البهو الشاسع الذي يعيش على الضوء والانفتاح.

وخارج الإطار الفني والجمالي الصرف الذي خضنا فيه حتى الآن، لابد من الوقوف السريع على مظهر قلماً حظي باهتمام مؤرخي الفن التشكيلي بالمغرب. ويتعلّق الأمر بالبعد الفكري الخافت ولكن الحاسم والمؤكد الذي رافق انبثاق تجربة جماعة 65 وتطورها.



محمد شبعة

وخارج الإطار الفني

والجمالي الصرف الذي

خضنا فيه حتى الآن، لابد

من الوقوف السريع على

مظهر قلماً حظي باهتمام

مؤرخي الفن التشكيلي

بالمغرب. ويتعلّق الأمر

بالبعد الفكري الخافت

ولكن الحاسم والمؤكد

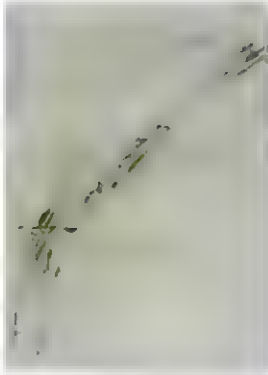
الذي رافق انبثاق تجربة

جماعة 65 وتطورها

على مستوى الممارسة والأداء على أرض الواقع، يسجل لجماعة 65 من أساتذة مدرسة الفنون الجميلة بالدار البيضاء، وخاصة منهم شبعة، المليحي وبلكاهية، أنهم، وبعد أن ناضلوا طويلاً من أجل تحديث مناهج تدريس فنون الرسم والنحت والمعمار، استبدلوا النموذج الإغريقي اللاتيني بمعانقة أوفاق الحداثة ورموزها التي كانت مظاهرها آخذة في التبلور في معاهد أوربا وأمريكا، وربما في تساق مع ذلك سوف يقومون بتدشين خطوة الانفتاح على الفن الشعبي في الحواضر والقرى برغبة الاقتراب منه واستلهاء نماذجه وأساساً بهدف تقوية العلاقة بين الفنان الوطني الحديث والصانع التقليدي، وتبديد تلك القطيعة المفتعلة بين الفن العالم والفن الفطري.

لكن أهم حركة ستخوضها هاته الجماعة هي الانخراط في تجربة التنظير للفن التشكيلي بالمغرب عبر سنّ تقليد النقاشات العامة في محافل المنتديات والجمعيات، أو بالاشراف على إعداد ملفات خاصة في المجلات كأنفاس وأنتيغرا.

ثم كانت تلك الطفرة النوعية غير المسبوقة بالخروج باللوحة إلى الفضاء الواسع حيث اللقاء الحميمي مع الجمهور الكبير بعيداً عن محدودية الأروقة وبروتوكولات التدشين والاحتفال في ردهات الفنادق الباذخة. يتعلّق الأمر بمعرض ساحة جامع الفنا الذي أقامه في مارس 1969 الفنانون الستة : المليحي، شبعة، بلكاهية، الحامدي، حفيظ، وأطاع الله.



فؤاد بلامين

كوكبة السبعينات

بعد أن أرسى هؤلاء الرواد بمشاربهم الفطرية والأكاديمية اللبنة الأولى في صرح التشكيل المغربي باعتباره رافداً من روافد الإبداع الفني المعاصر، سوف يفتح الباب على مصراعيه أمام رجيل جديد من شباب الفنانين، الذين سيخترقون الساحة التشكيلية المغربية بأدوات جديدة مدججين برؤية فنية مستقلة، تبتعد قدر الإمكان من جهة عن التصور الفطري للممارسة الصباغية التزيينية، ومن جهة أخرى عن استنساخ التجربة الغربية في أفقها التجريدي المكرس عالمياً.

وسوف تتشكل هذه

الكوكبة من طائفة الرسامين الشباب ذوي الموهبة العالية والميول التخطيطية واللونية البالغة الغنى والتنوع أمثال : محمد القاسمي والحسين الميلودي وعبد الله الحريري وفؤاد بلامين وعبد الكريم الغطاس وعبد الرحمن رحول، وآخرين عديدين. ومع هؤلاء ستمت الإفادة من كل ذلك الإرث الفني والجمالي السابق عليهم

وسوف تتشكل هذه الكوكبة من طائفة الرسامين الشباب ذوي الموهبة العالية والميول التخطيطية واللونية البالغة الغنى والتنوع أمثال : محمد القاسمي والحسين الميلودي وعبد الله الحريري وفؤاد بلامين وعبد الكريم الغطاس وعبد الرحمن رحول، وآخرين عديدين. ومع هؤلاء ستمت الإفادة من كل ذلك الإرث الفني والجمالي السابق عليهم

إن تسمية هذه الجماعة نفسها تضرع إشارة إلى الخلفية السياسية والإيديولوجية الثاوية في أصل تخلقها. فالإحالة هنا قوية على أحداث مارس 1965 التي قادتها جماهير الدار البيضاء وقوبلت بما هو معروف من العنف والقمع الدموي.. وسواء أكانت هذه الإشارة مجرد قرينة زمنية أم تبنيًا معلنا لمرحلة بكامل دلالتها السياسية، فإنه من الواضح عدم براءتها وحيادها على نحو كلي.

يعزز هذا الطرح انضمام الجماعة إياها لتيار مجلة «أنفاس» ذات التوجه اليساري، وذلك في أعقاب تعرفهم على مديرها الشاعر عبد اللطيف اللعبي وأعضائها من الكتاب المعبرين بالفرنسية كمصطفى النيسابوري وعبد الكبير الخطيبي والطاهر بنجلون.. إلخ

ولاشك أن هذا اللقاء يشكل انعطافة ذات دلالة في تجربة التفاعل مع معطيات الواقع والمعيش الذي ظل في حكم المعلق أو المؤجل إلى ذلك الحين في عمل جماعة 65. ومن ذلك مثلا أن مجلة «أنفاس» هي التي ستبني وتنشر بيان تظاهرة ساحة جامع الفنا، حيث سيقع التطرق إلى جملة التحديات التي تحول دون انطلاق فن تشكيلي وطني تقدمي من قبيل فساد التسيير الإداري للشؤون الفنية، وهيمنة مراكز الثقافة الأجنبية على القطاع، وندرة قاعات العرض الوطنية.. إلخ



محمد القاسمي

عاش الفن التشكيلي
المغربي تجربة
الارتحال هاته بروح

ومأهولة بالقلق

ولكنه استطاع أن
يستثمرها لصناعة
تاريخه الخاص
الذي ناهض فيه
الخطية والثبات
والواحدية، في
مقابل أن يعانق
التعدد والتنوع
والاختلاف.

أن نذكر مثالين دالين هما : جداريات
موسم أصيلة التي أنجزت في صيف
1978 من أحد عشر فنانا مغربيا
بدعوة من رئيس المجلس البلدي
للمدينة محمد بنعيسى، وأصبحت
تقليدا سنويا لفترة طويلة، وتظاهرة
مستشفى الأمراض العقلية ببرشيد
التي أقيمت في صيف 1981 وشارك
فيها خمسة عشر فنانا تشكليا قاموا
بمساعدة المرضى بإنجاز مجموعة
من الجداريات داخل بناية المستشفى
وخارجها في جو احتفالي لم يتكرر
للأسف لأسباب بيروقراطية حرمت
الجميع من ممارسة هذا الأسلوب
العلاجي الذي يخفف من آلام المرضى
ويقلص من العزلة المضروبة عليهم.

على سبيل الخاتمة

أما بعد، فقد عاش الفن التشكيلي
المغربي تجربة الارتحال هاته بروح
غير مطمئنة ومأهولة بالقلق والتوتر
الدائم. ولكنه استطاع أن يستثمرها
لصناعة تاريخه الخاص الذي ناهض
فيه الخطية والثبات والواحدية، في
مقابل أن يعانق التعدد والتنوع
والاختلاف. وكان أهم مكسب تحقق
خلال هذه الرحلة هو الانتقال
بالممارسة التشكيلية من طور
الفطرية التلقائية ذات النكهة
الفولكلورية التي لا تخطئها العين،
إلى الأداء الفني العالم المسنود بوحي
بصري ونشاط تأملي يحقق التميز
وينشد تأكيد الخصوصية العربية
والمتوسطية للفنان المغربي. وإذا كان

ذلك. من صميم الثقافة الوطنية
والعراقة التاريخية.

ومن الإنصاف الإشارة إلى أن
أعضاء من جماعة 65، خاصة المليحي
وشبعة، سينضمون إلى الكوكبة
السبعينية ويمحضونها العطف
والنصيحة، ويدفعون بقاطرتها إلى
الأمام، خاصة من زاوية تكريس ذلك
التعاقب بين الفنون التشكيلية والآداب
والثقافة في إطار فكرة الالتزام التي
ظلت على الدوام هاجسا وهما
مشتركا.

وخلال هذه الحقبة ستبرز بقوة
تلك العلاقة المتمفصلة التي تتمثل
في حضور الثقافة في الفنون
وحضور الفنون في الثقافة.
وستتلاشى تدريجيا مظاهر القطيعة
المصطنعة بين الرؤية الثقافية
والرؤية الفنية. ويكون بوسعنا أن
نشهد ذلك الانخراط غير المسبوق
للفنان التشكيلي في تأثيث الحياة
الثقافية سواء من خلال مساهمته في
إخراج الكتاب ورسم الأغلفة
والمصقات، أم عبر استبدال عزلة
الفنان بانفتاحه على المحيط الثقافي
 والاجتماعي، والذي كان من أبرز
علاماته إطلاق نشرة «الإشارة» سنة
1976 في شراكة مثمرة بين الجمعية
المغربية للفنون التشكيلية واتحاد
كتاب المغرب، والتي للأسف لم تستمر
سوى لأعداد بسبب ظروف ملتبسة لم
يكشف أحد عنها النقاب حتى الآن.

ولتشخيص هذا التحول المنظور
الذي شهدته الساحة التشكيلية
الوطنية خلال هذه الحقبة لا أقل من

عن العبور، التاريخي والموضوعي،
للفن التشكيلي في المغرب من
مرحلة النشأة التي انطبعت بالفطرية
والسذاجة إلى مرحلة التطور
والنضوج الذي يجسد الأصالة
والانشداد إلى الجذور دون أن يفرط
في الانفتاح والتلاحق، فإنه يكفينا من
ذلك ما تحقق بالإشارة العابرة والبالغة
النسبية التي وإن كانت لا تسدّ حتما
مسدّ التحليل المفصل والمقاربة
الشاملة، فإنها تفتح أفقا للسؤال
والنقاش المثمر، وحسبنا ذلك في
الوقت الراهن.

وحيث أن الغاية من هذه
الصفحات كانت تحديدا
هي الحديث عن العبور،
التاريخي والموضوعي،
للفن التشكيلي في المغرب
من مرحلة النشأة التي
انطبعت بالفطرية
والسذاجة إلى مرحلة
التطور والنضوج الذي
يجسد الأصالة والانشداد
إلى الجذور دون أن يفرط
في الانفتاح والتلاحق.

بعضنا لا يوافق على مثل هذه
المقاربة القطاعية التي اقترحناها
لمسار الفن التشكيلي بالمغرب، أو يرى
أنها تجزئية ولا تكشف سوى عن
مظهر منعزل في تطور هذا الفن،
فإننا نتذرع في صنيعنا ذاك بإكراه
منهجي محض صرفنا عن إسداء
الاعتبار لكل المراحل والاتجاهات
والأشخاص، وحملنا بالتالي على تبني
هذه النظرة «الاختزالية» نوعا ما
والتي تعطي الامتياز لبعض المظاهر
والتجارب على حساب أخرى.

وحيث أن الغاية من هذه
الصفحات كانت تحديدا هي الحديث



أحمد جاريـد

الحركة التشكيلية بالمغرب :

ملامح النشوء والتحول

غير أن انطلاقة الفن التصويري، الذي سيطلق عليه التباساً اسم، "l'Art naïf" كان على يد أشخاص لم ينالوا حظهم من التكوين ولكن انشغالهم بهذا الفن كان بإيعاز من الأجانب فنانيين ونقاداً وتجار لوحات بل وحتى من ضباط فرنسيين، وكانت هذه الكوكبة الأولى من الفنانين هي ما سيعرف فيما بعد بالفطريين وهم: أحمد الرباطي، وعبد السلام بن العربي الفاسي، والجيلالي بن شلان. ووجد الاستعمار في أعمال هؤلاء ومن سيتلوهم أمثال ابن علال ومولاي أحمد الإدريسي والشعبية طلال وفاطمة حسن، تصنيفاً، «مناسباً» لصورة الفن المغربي! وهو ما ولد رد فعل عنيف لدى الطلائع الأولى من الفنانين الشباب في الستينات والسبعينات.

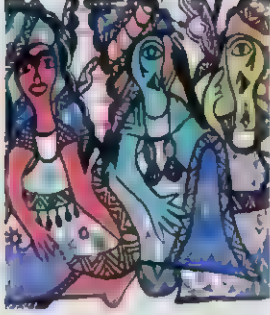
غير أن ما يميز هذه الحركة الفطرية بالمغرب هو أنه فن ولد من تلقائية العيش، لكنه لم يخلُ مع ذلك

غير أن انطلاقة الفن التصويري، الذي سيطلق عليه التباساً اسم، "l'Art naïf" كان على يد أشخاص لم ينالوا حظهم من التكوين ولكن انشغالهم بهذا الفن كان بإيعاز من الأجانب فنانيين ونقاداً وتجار لوحات بل وحتى من ضباط فرنسيين.

فيما قبل استقلال المغرب وحتى بعيدة كانت طنجة ومراكش وغيرها من المدن المغربية قبلة لفناني أوروبا مثل دولاكروا، هنري ماتيس، ماجوريل، نيكولا دوستايل، جون كوستو مستطيل لدى حتر لنداء بالرباط دوماً، وبيرطوتشي الذي استقر بتطوان وأسس مدرسة الشمال والتي لا تزال مدرسة الصنائع بتطوان شاهداً على إقامته.

الفنون التشكيلية المغربية فيما قبل الاستقلال

في فترة 1920 و 1930 نجد مثقفين تخرجوا من جامعتي ابن يوسف والقرويين قد انخرطوا في لحركة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي والإسباني وقاوموا الظهير البربري وساهموا في تكوين وعي وطني، هؤلاء أصبحوا النواة الأولى التي ستفتق منها الحركة الثقافية والإبداعية فيما بعد.



فاطمة حسن

الإسباني. إن كانت أجواء مدرسة الشمال لم تشبها رجاءات رياح الستينيات والسبعينيات الإيديولوجية والسياسية التي اجتاحت مجموعة الدار البيضاء منذ حركة 65 وأزمة هوية اللوحة المغربية والعرض في الساحات العمومية وفن النخبة مع ما صاحب ذلك من قلق الوعي الثقافي لدى دوائر من التشكيليين والشعراء. إلا أن مدرسة الشمال ستعرف تمرداً هادئاً من طرف جيل جديد مؤسساً لحدث ما بعد الرواد يقوده عبد الكريم الوزاني وخليل الغريب.

أما ما كان من أمر مدرسة الفنون لجمعية بالدار البيضاء فستنجب فنانيين أغلبهم سيتابع تكوينه بمعاهد أكاديمية في أوروبا وسيعودون للمغرب محميين بحيرة جديدة لكن بسنة مقلقة، وأهم هؤلاء هم فريد بلكاية، محمد حميدي محمد تبة، محمد المليحي وغيرهم...

بداية التجريدية:

بدأت التجريدية هي الطابع الغالب في أعمال الخمسينات وأخذت تستقيم شخصية اللوحة المغربية وتعبّر عن بلوغها سن الرشد. وينقل عن «طوني ماريني» أن الوثائق المعروفة تؤكد أن الجيلالي الغرابوي هو أول فنان افتتح التجريد بالمغرب، إذ تعود اللوحات التجريدية الأولى إلى 1953، 1957، بل إن أحمد الغرابوي

من خيال بصري، ومن اجتهاد في تحويل الزخارف القروية والحناء والوشم والتطريز إلى (موتيفات) ستصبح جملاً تشكيلية تحيل على أسلوب محدد في المشهد التشكيلي المغربي. هذه الحركة ستصبح نزعة ثقافية فيما بعد الاستقلال كما هو الحال في أعمال فاطمة حسن والودغيري وغيرهم؛ إلا أن الشعبية طلال ستحصد كل شهرة الفن الفطري بالمغرب فيما بعد، وستنتقى أعمالها في متاحف دولية.

حدث الرواد

ومن الأحداث التاريخية الأساسية المؤرخة للفن التشكيلي المغربي المعاصر تأسيس مدرسة الفنون الجميلة بتطوان في شمال المغرب ومدرسة الفنون الجميلة بالدار البيضاء. أما الأولى فيرجع تأسيسها إلى الرسام الإسباني بيرطوتشي. وقد انبثق عن هذه المدرسة ما يسمى بجماعة الشمال المتأثرة بالاتجاه الإسباني ومن رواد هذه المدرسة محمد السرغيني، المكي مغارة، مريم أمزيان ومورسيا والفيق الريراكي والقصري وعطاء الله وأحمد العمراني وبنيسف وسعد السفايح. وقد لعبت هذه المدرسة دوراً بارزاً بعد الحرب العالمية الثانية في تأسيس أسلوب يغلب عليه روح الواقعية الأكاديمية ذات الطابع



خليل غريب

البصري، ثم يبلورها بعد ذلك لونها وتكوينياً في لوحات صافية على نسيج بارز بألوان بهية وحارة. أما معاصره الجيلالي الغرباوي فكانت تجربته الغنية مسرحاً لتوتره وكثافة انفعالاته التي تكشفها جلية حركة اليد القلقة اللامهتمة بتنضيد الألوان وغوايتها، وهو ما ينم عن تراجعياً وجودية عنيفة، والملاحظ أن مظهر الاطمئنان البارز في أعمال الشرقاوي، كما يقول الناقد عبد الكبير الخطيبي، يقابلها هنا عند الغرباوي مظهر قلق وتشنج كرافيكى كثيف.

ومع حلول الستينات أخذت معالم إشكالية الفن الحديث بالمغرب تتضح أكثر. فكانت الانطلاقة بمدرسة الفنون الجميلة بالدار البيضاء مقترنة بإدارة الفنان فريد بلكاية في ما بين 1962 و 1974، ثم تبلورت حلقة ستدعى بجماعة الدار البيضاء التي حوّلت مركز الاهتمام إلى مسألة الهوية التشكيلية.

ويعتبر محمد شبعة ومحمد المليحي وآخرون هم فرسان هذه التجربة التي صادفت نهوض حركة ثقافية جديدة ذات منحى يساري تبلورت نواتها التاريخية في "حركة 65". ثم التفت حول مجلة «أنفاس» التي كان يديرها الشاعر عبد اللطيف اللعبي. ووسط هذا المناخ الفائر برزت أفكار طليعية آنذاك مثل العرض



أحمد الشرقاوي

نفسه يؤكد أنه وقع لوحات تجريدية منذ 1952. وفي السنة نفسها نظم شاب مراكشي يدعى فريد بلكاية معرضاً لأعمال تجريدية، وهكذا عرض بعدهما محمد المليحي سنة 1957، وأحمد الشرقاوي سنة 1963 فكريم بناني، ثم محمد شبعة وسعد السفاج ومحمد حميدي وحسن العلوي ومصطفى حفيظ وميلود لبيض.

ريح الحداثة

والواقع أن ريح الحداثة يمكن التأريخ لها فعليا مع أحمد الشرقاوي، ذلك الفنان الشاب الذي توفي وهو لم يتجاوز بعد 33 سنة. حيث كان أول من دشن تجربة الحوار بين الحداثة والتراث. وتحديداً بين أوربا وجذوره القروية بمنطقة أبي الجعد. إذ استطاع أن يقدم وجهاً فنياً ناضجاً دون حاجة لحجر أو وصاية أجنبية. فكشف عن مخزون ثقافي إبداعي يدخره المغرب. فوضع بذلك، التجربة الأكاديمية، التي تلقاها في أوربا، ومسألة الهوية وجهاً لوجه، وخرج منها منتصراً. فكانت أعماله التشكيلية تنهض على نسقية خطية ولونية بتكوين بسيط مختزل ميكروسكوبي للتراث البصري القروي وذلك بعد دراسات يقوم بها في كرايسه ودفاته حول العناصر التراثية الشعبية والزخرفية والموروث



محمد المليحي

المنفرد بأسلوب الرسم إلى جانب الحسين الميلودي بمدينة الصويرة.

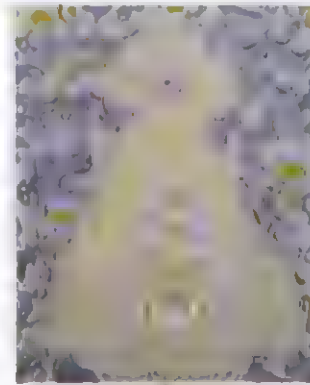
وغير بعيد عن الرباط، تتمركز نسبة هامة من القاعات والبنيات الفنية بمدينة الدار البيضاء حيث محترفات الشعيبة طلال وعبد الكبير ربيع وسعد الحساني وعبد الله الحريري وعبد الرحمن رحول وعبد الحي الملاخ وعبد الكريم الغطاس وأحمد جاريد ومصطفى حفيظ ومحمد حميدي وإكرام القباج ومحمد لمرباط وأمال بشر. إلا أن أسلوب هؤلاء يتباعد من حيث التصنيف والمعالجة والإشكاليات التي يشتغلون عليها، من الحروفية والتراثية والصوفية إلى الكولاج والمنشأة المجهزة في الفراغ.

حادثة ما بعد الرواد

إن حادثة ما بعد الرواد وإن كان يمكن التأريخ لها ابتداء من الثمانينات فإنه لا يمكن ضبطها جغرافياً، ذلك أن فنانين من تطوان وأصيلة والدار البيضاء وأزمور.. استطاعوا أن يجدوا مخرجاً لما ظل سائداً في الساحة الفنية المغربية ومن بين هؤلاء عبد الكريم الوزاني من تطوان الذي يجعل من التخيلات الطفولية مصدراً للوحاته ومنشأته النحتية. وغير بعيد عن تطوان وبالذات في أصيلا ثمة خليل غريب وهو فنان عصامي يعيش على عمق التأمل وشق تجربة فريدة وغنية بالأبعاد الصوفية. وهو ما نجد



الجيلالي الغرباوي



مليكَة أكرناي

بالهواء الطلق، ونزول الفنان إلى الشارع/الجمهور، واستبدال قاعات العرض النخبوية بالساحات العامة (مثل معرض ساحة جامع الفنا بمراكش، وساحة 16 نوفمبر بالدار البيضاء).

وكانت ثلة من الشعراء إلى جانب عبد اللطيف اللعبي ومصطفى النيسابوري تكرر هذا الحس الحدائي خاصة في أوراقها النقدية مع جماعة "الثقافة الجديدة" وبيان الكتابة الذي وقعه محمد بنيس ومحمد القاسمي حول القصيدة الفضاءية والتفاعل بين الرسامين والشعراء. حيث أنتج في هذا الجو عدد من (البورت فوليوها) تجمع بين نصوص شعرية وأعمال تصويرية حفرية وسيريكرافية. ولعبت الملاحق الثقافية لجريدة "المحرر" دوراً بارزاً في بلورة هذا الحس.

حين نتحدث عن هذه الفترة التي تفودنا إلى الثمانينات يتصدر اسم محمد القاسمي حركة فنية نشطة في مدينة الرباط في طليعتها ميلود لبيض وعبد الرحمن الملياني ومحمد بناني بوصفهم رواد حركة فنية تغلب عليها التعبيرية التجريدية، عزيز السيد ولطيفة التجاني المتجهان نحو نوع من التشخيصية ومصطفى البوجمعاوي وبوشتي الحياتي نحو التجريدية الانطباعية، وعيسى يكن

نظيراً لها في الدار البيضاء من خلال أعمال فنية تتميز بالادخارت اللونية وتجنب القصصية المباشرة ومجانية الحركة وكأنها أعمال تخفي أكثر مما تعلن، ومن بين هؤلاء عبد الكبير ربيع والتباري كنتور وأحمد جاريد.

أما الطباعيون فثمة مليكة أكرناي بالدار البيضاء وبوشعيب هبولي وعبد الكريم الأزهر وأمهرهم التباري كنتور وهي جماعة جعلت من مدينة أزموور عاصمة فنية لمنطقة دكالة.

وفي مجال النحت يتصدر عبد الرحمان رحول قائمة النحاتين بغزارة إنتاجه، غير أن إكرام القباج وعبد الكريم الوزاني يعتبران طليعيين بمنحاهما الحدائي وجراتهما. دون أن ننسى قيدومهم الزكاني والسجلماسي. أما أمهرهم على الخشب فهو السلاوي، ومع أن النحت على الخشب (خاصة العرعر)

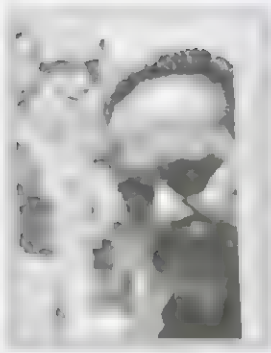
متمركز في جنوب المغرب بمدينة الصويرة فإن العامل التجاري يفوت على المتعاطين لهذه التجربة هاجس البحث الفني.

خلاصة

إذا كانت إشكالية الفن المعاصر في المغرب في مرحلة معينة منصبة على مسألة الهوية والتراث، فإن انفتاح الثمانينات والمناخ السياسي جعلها معنية بموضوعات ما بعد حداثة دون الانسلاخ عن الجذور الإفريقية والعربية. ينضاف إلى ذلك الرهان المعقود على طاقات شابة وواعدة ويраهن النقاد على الدخول بها إلى الألفية الثالثة.

وبأعين مترقبة لما يجري فيما وراء الضفة الأخرى من حوض المتوسط ثمة فنانون ما فتئوا يسجلون حضوراً منقطع النظير.

أحمد جاريد



حسان بورقية فيَمَ تفكّر اللوحة؟

لا يوجد إبداع ممكن إلا فيما
وراء الممكن
بتعاقب الحركة
تحقق المادة

يتكون الجسد، يمنح ذاته، يتكلم، يرى، يستجيب ويصغي.

محمد القاسمي (1)

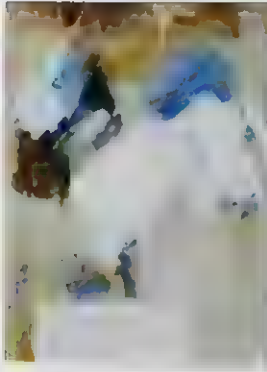
يسير باتجاه ما يوجد أمامنا، للوحة -
أو الأثر الفني - إذن «خاصها» الذي
تخال القراءة نفسها مكرهة على
الدخول إليه، بمثابة قول يريد أن
يكون ويجب أن يكون عبر فهمنا له،
تعبيرنا عنه وتثبيتنا له.

2-

أمام الأثر الفني، يمكن أن نتحدث
عما يسميه پول ريكور (3) ببعد
المباعدة الخلاق، أي تلك المسافة التي
تنفي المماثلة أو التطابق بيني وبينني،
بينني وبين الآخرين، بيني وبين العالم
كما خبرته أو جربته حتى الآن، نتيجة
ما يسمح به هذا الأثر الفني من
«تغيرات واسعة الخيال» في أنا
المشاهد القارئ، ويقصد بهذه
التغيرات ذلك الانفتاح المتعلق
بالإمكانيات الجديدة التي يعود
مصدرها إلى «شيء» اللوحة
اللامحدود، وما يحدثه في مثلاً وأنا

1-

هناك نصوص، أو مقاطع
نصوص، تكتب على اللوحة (2)،
وبفرشاة، بأداة أو بالأصابع، مشكلة -
ككل النصوص - معنى ما، أو معاني
متعددة.. وككل النصوص أيضاً،
نجدها تعلم عملية تحليل، فك أو
تشريح، تقتضي أدق أنشطة القراءة،
لأنها لم تكتب بالكلمات، بل بالبناء،
الخطوط، الألوان، البقع، النقاط،
التطابق، التضريس، اللصق وغيرها، أي
كصور ملموسة عادة ما نصفها
بالجمالية، أو بالإبداع الجمالي. فأن
يكون هذا «المرئي» نصاً، هي مسألة لا
ريب فيها، كما لا مناص لنا نحن، من
قراءته بالكلمات أو بالجمال بصفة
أدق، مع أنه لا ينطق كما تنطق
الكلمات التي تحمل معاني النصوص،
ولا يقدم للرؤية سوى ذاته، كصورة،
دون صوت بإمكانه أن يعين أو أن



حسان بورقية

لفكرة العلاقة المباشرة بين الرغبة في القول، أو النطق، وبين الرسم، هو وظيفة القراءة في علاقتها بهذا الأخير. والحال أن الرسم يستتبع القراءة في ضوء العلاقة التالية التي ستقوم على التأويل؛ لنقل إن المشاهد القارئ يأخذ مكان المخاطب، مثلما يأخذ الرسم مكان التعبير والتكلم؛ كما أن علاقة الرسم بالقراءة ليست وضعية من أوضاع الكلام والجواب، أي أنها ليست علاقة تخاطب أو علاقة حوار. المشاهدة ليست حواراً مع الفنان من خلال لوحته، كما أن الفنان ليس مطالباً بأن يجيب المشاهد، ذلك أن اللوحة تفرق بين طرفي المعادلة؛ فعل الرسم وفعل المشاهدة - القراءة اللذين لا يتواصلان. في حالة الرسم ولحظته، يكون المشاهد غائباً - في الواقع - من الرسم؛ والفنان غائباً - في الواقع - من القراءة. لهذا تكون اللوحة حجباً مزدوجاً؛ للمشاهد والفنان. حجباً يحلّ في علاقة الحوار التي تربط مباشرة صوت أو رسم الواحد بسماع أو مشاهدة الآخر. عندما يحدث لنا أن نحضر إلى لقاء مع فنان ما ونتكلم معه حول لوحة من لوحاته مثلاً، نشعر بارتباك عميق في تلك العلاقة الشخصية والحميمية جداً، التي كانت لنا مع الفنان في لوحته وبها، وهو ما يمكن سحبه أيضاً على القصيدة أو الرواية أو القصة؛ بل يخامرنا أحياناً الإحساس بأن مشاهدة لوحة ما وقراءتها، هي النظر إليها كأنها عملٌ بعديّ، كأن الذي وقّعها قد مات؛ ساعته تصبح علاقتنا مع

أشاهد لوحة ما لأحمد الشرقاوي، عزيز أبو علي لبيض، الغرباوي، القاسمي، بلكاية، بلامين، الوزاني، نبيلي، الميلودي وغريب، أو غيرهم؛ وشيء اللوحة هذا هو ما يسمّى باحتمالات «اللعب» الذي يحرر، في رؤيتنا للواقع، إمكانات جديدة يطمسها عقل «الجديّة»، ويفتح في الذات إمكانات تحول قلمًا تسمح رؤى أخلاقية أو اجتماعية أو حتى سياسية بإبصارها بوصفها كينونة جديدة تتشكّل في أولاً داخل الخيال. باعتباره بعد الذاتية الذي يستجيب للوحة باعتبارها قصيدة. وعندما يستجيب الخيال لما يخلقه «شيء اللوحة اللامحدود»، أو يحفره في الواقع، تستجيب شعرية الوجود لشعرية الخطاب؛ ذلك أن مرح الفن هذا، «يكن في جوهرة اللعب، لا فيما يعبر عنه من أفكار» (1). الفن هو نقد الرصانة البقرية التي يدفع الواقع الناس إليها (4). ولعل هذه النتيجة، كون شيء اللوحة فوق فهم الذات، هي الأهم، لأن اللوحة تكلم المخيلة في المقام الأول. وهي تقترح عليها رسومات تصويرية تحررها، المخيلة القادرة على الاستسلام لإمكانات جديدة. أكثر من قدرة القرار والاختيار. ولعل هذا هو ما قصده من زمان، كل من الفارابي، ابن سينا وحازم القرطاجني، في حديثهم عن مفهوم التخيل (5).

وضعية من أوضاع الكلام والجواب، أي أنها ليست علاقة تخاطب أو علاقة حوار. المشاهدة ليست حواراً مع الفنان من خلال لوحته. كما أن الفنان ليس مطالباً بأن يجيب المشاهد، ذلك أن اللوحة تفرق بين طرفي المعادلة؛ فعل الرسم وفعل المشاهدة -

هنا أن نشير إلى المغامرات التي دخلتها أعمال أحمد الشرقاوي في سماء كل من إدمون عمران المليح وعبد الكبير الخطيبي التأويلية، أو قراءة هذا الأخير ومحمد القاسمي وفريد الزاهي لأعمال عزيز أبو علي، على سبيل المثال لا الحصر. معنى هذا، أن اللوحة حينما تحتل موقع الكلام، يولد شيء مهم، بحيث أننا في حوارنا المباشر مع الفنان نكون حاضرين معا، كما يكون الواقع والظروف والمحيط والوسط كذلك. ولا يأخذ خطاب اللوحة معناه إلا بالمقارنة مع تلك الظروف التي يكون فيها الكلام مسلحا بما فيه الكفاية ليرسو بنا في مرجعية واقعية، يختلط فيها الفني بالنفسي، بالاجتماعي، بالتاريخي والسياسي. لكن عندما ينتفي الكلام بفعل الخصوصية الفنية أو الجمالية، وتتعدر إمكانية الحوار مع الفنان، فإن مطلق اللوحة يتضاءل. تؤجل المرجعية. وتغدو كأنها «في الهواء» خارج العالم، أو بلا عالم محدد. ما العالم المباشر لأعمال المليحي، الهبّولي، جاريد، بينين، السلاوي، كنتور، قريشي، يامو، بورقية، النويري مثلا؟ بانتفاء هاته العلاقة مع العالم، تصبح كل لوحة حرة في الدخول في علاقة مع مجرة لوحات أخرى، ومع «واقعات» أخرى وشروط أو ظروف غير التي أنتجت فيها. وهذه هي العلاقات الجديدة التي تولد في امحاء «العالم» الذي «تتكلم» عنه، تولد شبيه عالم



حسان بورقية

نى هذا أن تحرر الرسم مما يجعله دائما كلاما، هو «شهادة ميلاد اللوحة»، لأن المرسوم يحافظ على الخطاب ويجعل منه وثيقة، كأى نص إبداعي، رهن إشارة الذاكرة الفردية والجماعية، كما أن الرموز والأشكال والألوان والمواد تسمح بترجمة تحليلية لما «تسرده» اللوحة

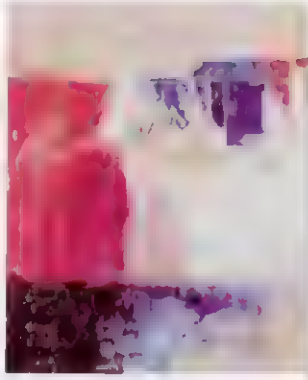
اللوحة تامة وقارة بشكل من الأشكال، بحيث لا يمكن للفنان أن يجيب أو أن يربك تلك العلاقة، ولا تبقى سوى القراءة المفتوحة زمنيا للوحة. بهذا الحس أدرك كل من طابيس وغومبروفيتش مثلا أنه لا جدوى حتى من عنوانة لوحاتهما.

- 4

هذا الفرق بين فعل قراءتي للوحة كمشاهد، وبين فعل الحوار. تأكيد على أن اللوحة إنجاز يحتل مكان الكلام ويحجبه، لأن ما يأتي إلى اللوحة، هو خطاب ما، نية معينة في القول، وأن الرسم تسجيل مباشر لتلك النية، حتى وإن كان الرسم قد بدأ، تاريخيا ونفسيا، بتسجيل علامات الكلام على شكل تخطيط. معنى هذا أن تحرر الرسم مما يجعله دائما كلاما، هو «شهادة ميلاد اللوحة»، لأن المرسوم يحافظ على الخطاب ويجعل منه وثيقة، كأى نص إبداعي. رهن إشارة الذاكرة الفردية والجماعية، كما أن الرموز والأشكال والألوان والمواد تسمح بترجمة تحليلية لما «تسرده» اللوحة، وبذلك تزداد فعاليتها وديمومتها، خصوصا بعد تحررها من مرجعيتها الوحيدة، أي مما اعتقدنا أنها «تتكلم» عنه، الذي هو مرجع خطابها، إذ تبعا للوظيفة المرجعية ذاتها، في وجهها الخفي، لا تنقل اللوحة تلك العلامات التي قصدتها ساعة ميلادها فحسب، بل أخرى غائبة، لكنها على صلة وثيقة بالعالم، لا تظهر إلا بعد حين، يكفي

الملموس، حيث يمرّ فهم الذات عبر خفايا فهم علامات الثقافة، العلامات التي تتوثق فيها الذات وتتشكل، من جهة؛ ومن أخرى، حيث لا يكون فهم لوحة ما هو مبتغى تلك اللوحة. إنما يكون وسيط علاقة ذات بذاتها، ذات «لم تعثر في دارة التأمل المباشر القصيرة، على معنى حياتها الخاصة».

بمفهوم الملاءمة هاته، تقاوم المسافة الثقافية بين الأجيال، لأن القراءة على هذا النحو التأويلي، تقرب وتساوي وتصير ما كان «غريباً»، معاصراً ومتشابهاً. يمكن للنماذج السياسية، الاجتماعية والاقتصادية، أن يتداعى كل واحد منها تلو الآخر، لكن «سبقى ما أبدعناه بأكبر جدية، أكبر حرية، وأكبر سعادة أيضاً؛ إنتاجاتنا الثقافية، الرواية، القصيدة، الرسم، العمل السينمائي، التأليف الموسيقي، البحث - والآثاء، الطبخ، الحب والذاكرة كذلك، فهي بأجمعها ثقافة، بما فيها ما سماه خوسيه أورتيغا، مجموعة - مواقف أمام الحياة» (7). ما تمّ الاحتفاظ به من الكلام هنا، ليس كونه رسم، إنما كونه صار حدثاً دالاً في الحال، وعندما تصبح اللوحة «حالية»، تجد محيطاً وحضوراً، فإنها تستأنف حركتها من مرجعية بعينها إلى عالم وذوات آخر؛ عالم جيل مشاهد جديد، وذوات قراء مؤولين جدد يساهمون في خطاب اللوحة الخاص، لأننا «نتذكر هنا، واليوم، لكننا نتخيل كذلك هذا الهنا، وهذا اليوم. ولا يجب علينا أن نفصل



حسان بورقية

ولا يجب علينا أن نفصل بين ما بوسعنا تخيله وبين ما بوسعنا تذكره» (8)، لأن الذاكرة والرغبة هما الخيال الحاضر، وهذا هو الأفق الذي يسير فيه كل إبداع، واللوحة لا تريد أكثر من هذا؛ أن نضع أنفسنا في معانيها هذه، وهذا القصد هو الاتجاه الذي تفتحه للفكر

اللوحات أو ما يسمى عموماً بالفن التشكيلي، إنها الصيغة الوحيدة لدوام الأثر الفني، والتي تكمن - كما رأى كلود ليفي ستراوس - «في أن يمنح هذا الأثر الميلاد لآثار فنية أخرى (.) وأن ضياع استمرارية تسلسل هذا الإنتاج سيكون خسارة لا تعوّض (.) لأن الناس لا يختلفون، بل ولا يوجدون، إلا بأآثارهم»، والتحدي الأساسي الذي على النقد الفني أن يرفعه يتجلى في صيانة وعي هذه الاستمرارية وذاكرتها (6).

- 5 -

يمكن لاحتجاب العالم المؤقت الناتج عن شبيه عالم اللوحات، أن يكون تاماً إلى درجة أن العالم نفسه، في امبراطورية الرسم، لا يبقى هو العالم الذي نقصد أو نشير إليه ونحن نرسم، ويختزل إلى ذلك النوع من «النفس» الذي تنثر الأعمال الفنية والأدبية والشعرية، يمكن أن نقول هذا العالم خيالاً، أحسن مما كنا نستحضره به كلامياً، لأن هذا الخيال في حد ذاته مخلوق فني، خيالي جمالي، وهو ما يطلق عليه ريكور اسم «الملاءمة»، التي يقصد بها أن تأويل لوحة من اللوحات، أو أثر فني من الآثار (وإن كان ريكور يتحدث عن النص الأدبي)، يتم داخل تأويل ذات ما لذاتها، ذات ستفهم نفسها منذ ذلك الحين بشكل مخالف، ربما أحسن، وهذه هي الخطوة الأولى لإكمال فكر اللوحة في فكر الذات المتأمل، يسميها ريكور (دائماً)؛ التأمل

بين ما بوسعنا تخيله وبين ما بوسعنا تذكره» (8). لأن الذاكرة والرغبة هما الخيال الحاضر. وهذا هو الأفق الذي يسير فيه كل إبداع. واللوحة لا تريد أكثر من هذا: أن نضع أنفسنا في معانيها هذه. وهذا القصد هو الاتجاه الذي تفتحه للفكر، أي السير باتجاه «شرق اللوحة».

-6-

يسمى هذا الإجراء، تبعا لغاستون باشلار، بالرنين. أي تخفيف المعنى ونشره في حلم اليقظة الطافي. يفهم ما سبق، على ضوء افتراض أن الرنين لا يصدر عن الأشياء التي شوهدت، وإنما عن أشياء قالتها الأشياء التي شوهدت فوئد استعمالها إمكانية خيالنا. نجد لهذه الأمور ما يوضحها من مرادفات في الدرس البلاغي والنقدي العربي القديم، عند الجرجاني والآمدي وأبي هلال العسكري والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم. في تحليلهم للاستعارة، كما نجد نفس المعنى عند أرسطو. القاضي بأن «استعمال الاستعارة الجيد، يعني إدراك المتشابه». والتشابه في الأصل يقوم على توظيف مسندات شاذة، تلغي في تجاورها المسافة المنطقية بين شيئين، إلغاء يولد بدوره شرارة الاستعارة ومعانيها، «لينتشر الخيال في كل الاتجاهات، ينشع التجارب السابقة، يوقظ الذكريات الخامدة ويسقي حقول الحواس المتلاحمة». هكذا يكون التخيل إعادة بناء، رجعا، إصداء.

صورة فيها ماء، قريبة المأخذ (العبارتان الأخيرتان للجاحظ) الخ. نفاجئها كلها في الاتجاه الذي تفتحه اللوحة للفكر (باعتبارها استعارة وقراءة مجازية لواقع أو حدث ما)، فينتشر هذا المعنى أو ذاك في مناخ آخر يحمل اسم اليوتوبيا، يبقى بمثابة «لعبة حرة بإمكانيات ما، في حالة عدم التزام حيال عالم الإدراك أو الفعل. وفي حالة عدم الالتزام هذه، نجرب أفكاراً جديدة وطرقاً جديدة للكينونة في العالم. غير أن هذا «الحس المشترك»، المرتبط بمفهوم الخيال، غير معترف به بما فيه الكفاية. داخل المؤسسة، مادامت خصوبة الخيال غير موصولة بخصوبة الكلام» (9). من ذلك المناخ الآخر، أو من اللعبة أعلاه، التي أصبحت مرجعية تخيل متجهة إلى خارج ما، إلى لا مكان معين، تولد الرؤى الجديدة للواقع، ومنه يفتح حقل الممكن خارج حقل الواقع، موجهاً بطرق عيش وإحساس أخرى، على ضوءها نعيد التفكير جذريا في المؤسسات وإكراهاتها، بحيث أن من هذه القفزة إلى «الخارج»، تنبجس أبهر منازعة للموجود، وهكذا تبدو اليوتوبيا، في نواتها الأصلية، كالرأي المخالف السديد لمفهوم الأيديولوجية باعتبارها وظيفة الاندماج الاجتماعي. وطبقاً، تكون اليوتوبيا هي وظيفة التغيير الاجتماعي». لا يبتعد كارلوس فوينتيس، عن هذا الرأي وهو يتحدث عن المبدعين الذين يرى فيهم أنهم

هكذا يكون التخيل
إعادة بناء، رجعا،
إصداء، صورة فيها
ماء، قريبة المأخذ
(العبارتان الأخيرتان
للجاحظ) الخ. نفاجئها
كلها في الاتجاه الذي
تفتحه اللوحة للفكر
(باعتبارها استعارة
وقراءة مجازية لواقع
أو حدث ما)، فينتشر
هذا المعنى أو ذاك في
مناخ آخر يحمل اسم
اليوتوبيا

نيتشويون أكثر من كونهم هيغليين، لأنهم «سمحوا لنا بفهم أنه من المستحيل تكيف الكائن البشري تماماً مع مشروع عقلي مآ، ولأنهم مبدعو «تاريخ» آخر. يعتبر الفنانون غائضين في «تاريخنا». ومن التاريخين يولد التاريخ الحقيقي، دون مزدوجتين، الذي هو على الدوام نتيجة تجربة، لا نتيجة إيديولوجيا سابقة على الوقائع. الإيديولوجيا تقتضي تطابقاً بين افتراضاتها وبين الوقائع والأحداث؛ تعترض وتحتج على الخيانة عندما لا يتحقق ذلك التطابق. ولكن بما أن التطابق لا يحصل أبداً، فإن الخيانة تحمل في نظر الإيديولوجي، اسم الحياة؛ وكما يتعذر على الإيديولوجيا فضح الحياة، فإنها تفضل فضح الأثر الأدبي والفني الذي يخون الهوية الإيديولوجية»⁽¹⁰⁾.

-7-

بهذا يرينا الأثر الفني، ما «نسينا» رؤيته، أو مالم نره قط. وقد لاحظ ميرلويونتي هذه العلاقة مع الجسد، وهذا الانغراس في الواقع مع الجسد الحي الذي يحتمله الفن بمختلف أشكاله. بالفن يستعيد الإنسان جسده بوصفه أداة معرفة، ينفلت من ضراوة هيمنة المؤسسة على جسد الإنسان وخياله. فبهذا الجسد الحي ينفتح الإنسان على العالم. «يعمل الفن على إلغاء الخوف والخضوع، يعبر متخيل القيود القديمة، للدخول إلى فضاءات

المتعة والخيال وإقرار حركة الإبداع المتنوعة. لهذا تسمى حرية التعبير، الكرامة الإنسانية، الحق والعدل، انشغالات الفنان الرئيسية. مادامت هذه الانشغالات في الواقع راسخة في أعماقه وتمثل جزءاً من أدوات مساره الأكثر سرية»⁽¹¹⁾. في هذا الأفق يكون الفن على علاقة بولادة جديدة توقف التجارب التي تتجذر في وعي الآخرين، كأنها تتخيل الماضي وتتذكر المستقبل، الولادة التي تشعرنا بشهية التاريخ التي يحفظها فضاؤنا حينما يكون شاسعاً؛ ولا يكون كذلك إلا مع الذي يكتشف، وهو «ذاك الذي يشتهي، الذي يتذكر، الذي يسمى والذي يتكلم». وهنا يكمن ما تفكر فيه اللوحة، وما ينتجه الفن بعامة، إذ تستيقظ مع جسدي الأجساد المشتركة، الآخرون، الذين ليسوا أمثالي ولكنهم يسكنونني وأسكنهم؛ وقد عبر ريلكه عن ذلك جيداً في معرض حديثه عن رودان، قائلاً: «أشعر أنني أشبه من يريد أن يذكرك بطفولتك. ليس بطفولتك فحسب، بل بكل ما كان طفولة. يتعلق الأمر بإثارة الذكريات فيك، الذكريات التي لست أنت صاحبها، الذكريات الأقدم منك، كما يتعلق باسترجاع علاقات مآ وبتجديد صلات ضاربة فيما هو أقدم منك»⁽¹²⁾. إن اللوحة، وهي تقرأ الحياة العادية، اليومية - بحلقاتها المحزنة أحياناً، وباهتماماتها وإكراهاتها الناهشة - تجتنبها، لأنها وهي تقرأ مجازياً، وتقرأ جمالياً،

إن اللوحة، وهي تقرأ الحياة العادية، اليومية - بحلقاتها المحزنة أحياناً، وباهتماماتها وإكراهاتها الناهشة - تجتنبها، لأنها وهي تقرأ مجازياً، وتقرأ جمالياً، تستأصلنا من ذواتنا ومن العالم، استئصالاً خاصاً

ضيّق، بحيث إن أدنى أثر ينبعث من اليد يخلق حدثاً، وكدت أقول : يخلق واقعة فعلية»⁽¹³⁾، لذا يكون فعل قراءة ما تفكر فيه اللوحة والانخراط فيه، لا يستأصلنا من العالم، إلا ليردّه لنا مغايراً، مضاءً ومشاهداً من جديد، إنها فعل ولادة عالم يسود فيه التأمل من أجل توسيع تجاربنا الجمالية والفكرية، وبالتالي الحياتية.

لذا يكون فعل قراءة ما تفكر فيه اللوحة والانخراط فيه، لا يستأصلنا من العالم، إلا ليردّه لنا مغايراً، مضاءً ومشاهداً من جديد

تستأصلنا من ذواتنا ومن العالم، استئصالاً خاصاً؛ لذلك غالباً ما نتصور «أن الفنان - يقول عبد الكبير الخطيبي - وقد انعزل في مرسمه لا يقوم سوى بتشخيص مكان عمله. فالعالم يختزل في تلك الجدران، وتلك الطاولة وتلك الأدوات وتلك المواد، كما لو أن الحواجز بين المنفي وعالمه، وبين ماضيه وذاكرته البصرية تغدو هنا مكبوسة في مكان

هوامش

- 1 - Mohamed Kacimi, Parole nomade, ed. Al Manar, p. 12 1999
- 2 - حتى نصل إلى معنى اللوحة كما في حدّ نفسه، نذكر عدّة وجهات نظر من أمدح بينها حول النص واللائق، على اللوحة واللوحة. انظر كتاب «الأدب والغربة»، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1982، ص 12، فما فوق.
- 13 - Paul Ricoeur, Du Texte à l'action, Collection Esprit/Seuil; 1986
- يصدر قريباً بالعربية، ترجمة محمد برادة وحسان بورقية، القاهرة.
- 4 - Theodor Adorno, L'art est-il gai ? in, Notes sur la littérature, ed. Flammarion, p. 431, tr. par sylvie Muller 1984
- 5 - جابر عصفور، مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، دار التنوير للطباعة والنشر، ط 1، 1982، ص 161.
- 6 - وردت الإشارة في مقالة بعنوان :
- Heureux les peuples - François Wahl, in Horizons MAGHREBINS art contemporain marocain, n° 33-34, 1997, p 76.
- Carlos Fuentes, Le sourire d'Erasmus, ed. Essai- Gallimard, Tr. Eve-Marie et Claude Fell, 1992, p. 15.
- 8 - كارلوس فوينتيس، ص 20.
- 9 - پول ريكور، مرجع مذكور. يمكن الإطلاع في هذا السياق على :
- Paul Ricoeur, La métaphore vive, chap. l'espace de la figure, ed. Points/Essais, p. 184; 1997
- Paul Ricoeur, L'idéologie et l'utopie, tr. de l'anglais par Myriam Réveillac d'Alfonnes et Joel Roman, ed. Seuil La couleur des idées, 1997.
- 10 - Le Sourire d'Erasmus, p. 17.
- 12 - وردت الإشارة في مقالة بعنوان :
- Art et artisanat, figure double de la créativité - Marie Cecile Dutron, El Marzi, Horizons maghrebins, Ibid, p 40
- 13 - فنيت لمصطفى من الفن والكتابة عند الفلاس، تحرير امير موسى، عبد الكبير الخطيبي، ترجمة فريد الرهي منشورات مرسم، 2000، ص 30.



بنعيسى بوحماله

محمد السرغيني

القراءة الشعرية

تقديم وترجمة بنعيسى بوحماله

تقديم

معروف عن الشاعر محمد السرغيني شغفه الفائق بالفنون التشكيلية، وتشبعه ذهنيا ووجدانيا، بثقافة تشكيلية عميقة، ثرية، وواسعة الحدود. وبالعودة إلى بعض إصداراته الشعرية يسهل علينا تلمس المحايثة القوية، في نسيج النصوص، لقارئ الاقتصاد التشكيلي المتمثلة في تقنيات الأسلبة والأداء والتعبير التي تصدر عنها مخيلات الفنانين التشكيليين وتتوسلها في إنشاء المساحات والحجوم، الأشكال والأبعاد، الإضاءات والتظليلات.. و في اجترار الموضوعات والرميزات والإيهامات، هذه القرائن التي تشكل، إلى جانب مستمداته الصوفية والفلسفية، المكونات الضاربة في ممارسته الكتابية.

إنه بهذا الانفتاح، العارف والعاشق في آن معا، على التشكيل باعتباره

معروف عن الشاعر محمد السرغيني شغفه الفائق بالفنون التشكيلية، وتشبعه ذهنيا ووجدانيا، بثقافة تشكيلية عميقة، ثرية، وواسعة الحدود. وبالعودة إلى بعض إصداراته الشعرية يسهل علينا تلمس المحايثة القوية، في نسيج النصوص، لقارئ الاقتصاد التشكيلي

أحد أرقى تمظهرات الفاعلية الجمالية، وأشقها كذلك، وإدمانه قراءة المنجز التشكيلي الغربي الحديث، الانطباعي والسريالي والوحشي.. من خلال نماذجه العليا (سيزان، ماتيس، مونيه، فان غوغ، براك، كلي..)، أضاف إلى ذلك انشداؤه الوثيق إلى الإبداعية المبهرة لرسومات الفنانين الإسبان. الكلاسيكيين منهم (فيلاسكيز، غويا) والمحدثين (بيكاسو، دالي، ميرو)، ما انفك يغذي نصوصه الشعرية بثمار هذه الفاعلية واستكشافاتها منضويا بهذا، وعن استحقاق، في زمرة الشعراء الغربيين الحدائين الذين لم تنزل درجة اعتنائهم بالتشكيل عن تلك التي خصوا بها الشعر، بما هو نشاطهم الإبداعي الأصلي، كبودلير وريلكه وماياكوفسكي ولوركا وميشو و أونغاريتي.. انضواءه، بالمثل، في صف قلة من الشعراء العرب المعاصرين ممن انتبهوا إلى قيمة ما

يمكن أن تستفيده الكتابة الشعرية من التشكيل من إمكانات سيان على صعيد البناء أو من حيث التخيل فأكبوا على هذا الأفق التعبيري انكبابهم على الشعر، مثل بلند الحيدري وعبد الوهاب البياتي وجبرا إبراهيم جبرا وأدونيس وسعدي يوسف...

لذلك، وفي مضمار الاقتراب أكثر من هذه الفاعلية ضمن مسعى نقدي يوائم بين المعرفة المكنية والعشق اللامشروط، لم يكن مستغربا أن يخص السرغيني الرسم في المغرب بكتابيه الموسوم بـ

Esotérisme et peinture abstraite au Maroc

منشورات البلابل، فاس 1999. محاولا، كما يشير إلى ذلك في مستهل الكتاب، قراءة البصري توطأ بالمقول. هذا وإذا كان المؤلف قد اشتغل أساسا على جانب من المتن التشكيلي المغربي، التجريدي تحديدا، فإنه يمكن سحب زاوية النظر المستحكمة في التحليل و أيضا استخلاصات هذا التحليل على الاتجاه التشكيلي التجريدي بعامة. فالكتاب بقدر ما هو مجلى لتقاطع تاريخين متكافئين: تاريخ عين رائية، فطنة، لها مراس بالمشاهدة ولا تنقصها حصافة التملي ولا كياسته، تخفرها روح تلقي، في لحظة التقاطع هاته، بكامل مداركها وخبراتها وحدوسها، وتاريخ لوحة فنية، موضوعة موضع إبصار وتدبر لملفوظها اللوني،

يضيف سننها البنائي وإعجازها التعبيري وإشاريتها المتمنعة على اللحظة نصيبا من التحدي وقسطا من الإمتاع سواء بسواء. يشكل الكتاب، مزاجية موفقة بين لغة واصفة، علمية، قوامها النمذجة و التصنيف و الأعمال المقولاتي في تشخيصها لفضاء اللوحة، لعناصره و مؤثراته، ولما يعتمل فيه من تمفصلات وتفاعلات وتجاذبات، لغة تستلف عدتها المفهومية، الصارمة والمستشكلة، من مرجعيات تشكيلية إستراتيجية وبلاغية وعقدية وصوفية وفلسفية، وبين لغة إبداعية، سلسة، تكشف عن تعاطف أو، بالأولى، عن تماه دال مع الواقعة التشكيلية وتواطؤ سافر مع فذاذتها الإنشائية والرمزية، لكن من غير التضحية المطلقة بانتظارات شريحة من المتلقين هم أحوج ما يكونون إلى الشرح والتفسير والتفصيل والتقريب والتجيب، الشيء الذي سيفسح المجال، نتيجة لذلك، للغة ثالثة، إن شئنا، تلقينية، تثقيفية، ذات مسوح ديداكتيكي بين، تنغيا استحصال تقبل فاعل ومنتج للإبداع التشكيلي.

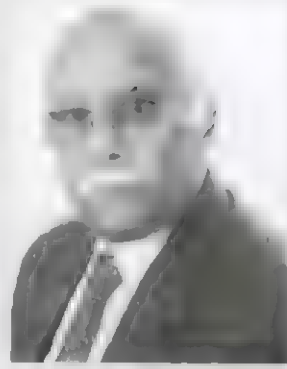
ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام رئيسية ينفرد كل قسم منها بوحدة من القراءات الثلاث، المتعاضدة والمتكاملة ضمنا، التي يقترحها المؤلف منطلقات ولوج إلى صلب اللوحة التشكيلية التجريدية في

ينقسم الكتاب إلى
ثلاثة أقسام رئيسية
ينفرد كل قسم منها
بوحدة من القراءات
الثلاث، المتعاضدة
والمتكاملة ضمنا،
التي يقترحها المؤلف
منطلقات ولوج إلى
صلب اللوحة
التشكيلية التجريدية
في المغرب

لرسم التجريدي جائز إجراؤها على العناصر الثمانية المسطرة والموصوفة سالفاً، وما دام الأمر كذلك فإننا سنلجأ، في هذا المقام، إلى مباشرة ضرب من التحليل ستتخذ بمقتضاه هذه العناصر قوام أزواج تتنفذ في كل زوج منها ماهيتان متجاذبتان: الساكن في تعارضه مع المتحرك، الوقف المناظر لذلك الذي يحصل عند منتصف البيت الشعري بإزاء حياد الوقف الآخر، العضوي، المرئي في مقابل المحسوس، ثم السافر كحد مضاد للمخفي.

فمع الساكن يعثر الإبداع التشكيلي على تجريديته التي تتجسم في الارتفاع عن العام والمشاع إن حميمياً أو على صعيد الخيال، نقصد كونه ينتقل من محض الهيئة النواتية أو الجنينية إلى الإبداع الواعي بما فيه الكفاية، لكن الغاية هنا لا صلة لها باستدمام، باستبشاع، أو تبشويه الشكل وإنما هي تتعلق بالإفصاح عن توارى حقيقة الجمال خلف حقيقة ما هو وحشي، تماماً كما هو ارتباطها بإسقاط المافوق واقعي الخالص على ما هو واقعي، وبالتالي فإن الغاية، في هذا المساق، لا تخرج عن إطار تحويل يتخذ صفة تجميل يتدبر شأنه بكيفية مغايرة.

إذا ما نحن استأنسنا بأوافق التقبل الفني العام، الموضب على مقاس



محمد الشرسبي

من المؤكد أن القراءة الشعرية للرسم التجريدي جائز إجراؤها على العناصر الثمانية المسطرة والموصوفة سالفاً، وما دام الأمر كذلك فإننا سنلجأ، في هذا المقام، إلى مباشرة ضرب من التحليل ستتخذ بمقتضاه هذه العناصر قوام أزواج

المغرب، وبتعبير مواز بمثابة ترتيبات مقاربة، تمثيلية، لمورفولوجيتها التخطيطية الشائكة ومقولها الجمالي المترابك، وهي على التوالي، القراءة الشكلية Lecture formelle والقراءة الشعرية Lecture poétique ثم القراءة الباطنية أو الجوانية Lecture ésotérique. وإذن " فمن خلال القراءة الشكلية سيتم التشديد على القانون الشكلي للعناصر الثمانية التي هي: اللون، الضوء، الظل، الحد، الخط، الانزياح، الحركة والإيقاع؛ وبفضل القراءة الشعرية سيتهأ لنا تعيين الوجه الجمالي البصري؛ بينما ستتكفل القراءة الباطنية أو الجوانية بالتسامي لا بهذا القانون ولا بوجهه الجمالي البصري (...) إن القراءة الشكلية سيكون متخذها الصعيد المقولاتي، أما القراءة الشعرية فسيكون موئلاً للصعيد البلاغي، في حين ستجري أطوار القراءة الباطنية أو الجوانية على صعيد تأويلي بحت، وذلك وفقاً للإيضاحات الواردة في مقدمة الكتاب دائماً.

وبغاية تقديم فكرة، وإن نسبية، عن محتوى الكتاب ومقصدية النقدية ارتأينا ترجمة القسم الثاني منه، المخصوص للقراءة الشعرية.

نص الترجمة

(1)

من المؤكد أن القراءة الشعرية

الحاجة، سيتبين لنا أن ما هو متحرك هو بمثابة شهادة على نوع من الارتجاع صوب الواقع الحميمي للأشكال، هذه العودة التي تدمغها آثار جذر لا يدين بخصوصيته التعبيرية سوى لوضعيته العنصرية المحرفة أصلاً، مثلما سندرك أن تشكيله، أي المتحرك، لا يفي بالمرام إلا عندما تفلح هذه الآثار المتبقية في الشهادة على حضور ما لما فوق واقعيّ تصطنعه مخلفات واقع مستتر، إنه يمثل علامة على نوع من الانخصاب المستديم تأخذ فيه النواة الأولية مجرى لا متناهيًا من النويات. هكذا يصير في مستطاع الواقع مماشاة ما فوق الواقع ومسايرته جنباً إلى جنب، بل ويصبح أحدهما مآلاً للآخر، رغماً من استئثار ما فوق الواقع بأفضلية نفوذية، واهنة ما في ذلك شك، وذلك بمسوغ كونه نواة أيما تجريد كان.

إن سيرورة التقدم الابتداعي تنهض على كاهل الوقف، الملمع إليه آنفاً، الموسوم بالحياد أو في درجته الصفر، ذلك أنه يسعى، وبطريقة عشوائية، إلى انتشال ما هو فطري أو جبلي من لجة المصطنع في العناصر الثمانية، فالصورة يلزمها، كيما تبرح أفق البكور أو الابتسار وتتملك نضوجها وإيناعها، أن تمر، آونة إثر أخرى، هذا حتى قبل أن يحدث تلقيها على نحو توافقي، ثبوتي، بسائر التحولات والتغايرات القمينة

بملاءمتها مع جوهرها الخالص، ولكي يتأتى له، أي الوقف، أن يرقى بتعبيريته ويضفي عليها شيئاً من الجزالة والمهابة فإنه لا محيد له عن اطراح حياده وحموله وإبدال توضع البدئي بآخر عضوي والسبب هو أن انفصال الفطري أو الجبلي عن المصطنع الناشئ ضمن التوضع البدئي سرعان ما يلقي هيئته الاعتيادية أو مألوفيته توسطاً بتوضع عضوي، بحيث يتوافر، في الوقف العضوي، متسع للوعي الذي يتولى، مستهدياً عنصر الذاتية المجنحة، تجميل الصورة ما دام يغدق عليها وجهاً ثنائياً.

على هذا المنوال إذن يركب الوقف العضوي، باعتباره إبداعاً ثانياً، متن الوقف المحايد أو الخامل ولو أنهما يسلكان مسارين متوازيين يتبديان من خلالهما مندمجين أو يكادان.

إن المرئي ليلتقط من الخارج، وإذا ما كان يجسد سيرورة فهو يتخذ صبغة صورة مكثفة، منضغطة، يتم التقاطها على حين غرة أو يقع اكتشافها بمحض المصادفة وتجري معاينتها ظاهرياً ليس إلا. فما من شيء يلتقط بوساطة تربط بين الخواء والامتلاء، بين القبلي والبعدي، إلا ويدخل في عداد السيرورة، ناهينا، بطبيعة الحال، عن كون الصورة المكثفة، المنضغطة، تحيل توا على

إن المرئي ليلتقط من
الخارج، وإذا ما كان يجسد
سيرورة فهو يتخذ صبغة
صورة مكثفة، منضغطة،
يتم التقاطها على حين
غرة أو يقع اكتشافها
بمحض المصادفة وتجري
معاينتها ظاهرياً ليس إلا.



YOUSSEF MOUNIR

مقابل هذا فإن ما
يخول للمخفي، من
جانبه، إمكانية الترادف
مع المحسوس فهو،
على ما يظهر، قابلية
كليهما للإيصال إلى ما
وراء قشرة الأشياء، زد
على هذا قابليته هو
بالذات، أي المخفي،
للتعدي إلى ما يندّ عن
نطاقه المحصور على
نحو ما تعكسه المتعة
والنشوة الغائرتان اللتان
يبثهما في جوارح
المرء الملتقطش

للمرئي، باعتبارهما لا يقويان على
افتراض قشرة الأشياء، فإنه ليتجاوزهما
بفضل ما يستثيره من استمتاع
وانتشاء في دخيلة المرء الملتقط، ولو
أن المسألة تهم متعة الوحشي ونشوته
سيان وهما تلبسان، هكذا بغتة، لبوسا
تلذذا أو عند اتصافهما بالتواتر
والمداومة، وذلك بصرف النظر عن
اندغامهما في الحالة الثانية، برؤية
اغتباطية، حبورية، ما في ذلك ريب.
مقابل هذا فإن ما يخول للمخفي، من
جانبه، إمكانية الترادف مع
المحسوس فهو، على ما يظهر، قابلية
كليهما للإيصال إلى ما وراء قشرة
الأشياء، زد على هذا قابليته هو
بالذات، أي المخفي، للتعدي إلى ما
يندّ عن نطاقه المحصور على نحو ما
تعكسه المتعة والنشوة الغائرتان اللتان
يبثهما في جوارح المرء الملتقط
فتستثيران، وهما تتغوران اللب من
كيان المرء الملتقط والشئ الملتقط، بل
باطن المرئي وتستميلان سريره، بل
وتسبغان عليه خاصيات الطواعية
والسلاسة واللين، لكن بطريقة يقع
فيها الذهاب من الذاتي إلى اللاذاتي،
وحتى عندما يحدث، بعض
الأحيان، أن يخرط المرء الملتقط في
الصميم من خلقة الشئ الملتقط لا
يتردد الظاهر في إخلاء موضعه
للمخفي ليغدو الشأن شأن رؤية
حدسية وليس أمر عضوية مادية.

على هذه الشاكلة إذن تشق القراءة

الشئ الملتقط وهو في حالة انسياب،
بل ولعل هذا الملمح يطول لا الحالة
التي تدرك معها هذه السيورة
فحسب، بل، وأيضا جماع الصور
المكثفة، المنضغطة، عند استحضار ما
يغلف هذه الحالة من تعالقات نسبية.
فالخواء والامتلاء، بحسبانهما
ماهيتين، لا يمتلكان مغزاهما الجاهز،
في نطاق الإبداع، إلا توسلا بعملية
تنسيب أقل اتصاحا لكن أوفى إبهاما
واستغلاقا، إذ لا يتوانى المرئي، هنا،
عن التسامي والانصعاد بحثا عن
محسوسيته، هذه الأخيرة التي
تجهد بدورها، لتخطي واقع ملتقط
وهو في حالة ابتذال، مادام قد خضع
لمعاودات إنتاج لا تحصى، وتعويضه،
نعني الواقع، بواقع آخر مغاير يسنح
بتمليه من الداخل.

يقينا إن المرئي، منفردا، لا اقتدار
له، البتة، على ترجمة الامتلاء الذي
يغلف الشئ، رهن الالتقاط، ويلحقه،
في آن واحد، بدائرة المحسوس، مما
يمنحهما طابع صدام وظيفي وناجع
على الرغم من تجانسهما المتواضع.
أما من زاوية نظر مخالفة فإن
محسوسية الجانب المرئي من الشئ
الملتقط، الذي لا يشغل ما عدا الجزء
المتموج من مساحة اللوحة الفنية،
قد تفضل متجذرة، دونما انقطاع،
في العمق من معيوشيته المكتملة.

فإذا ما كان الظاهر مرادفا

- المرحلة العفوية.

- المرحلة الذاتية.

- المرحلة الموضوعية.

ففي أثناء المرحلة العفوية يعنّ الإدراك مُضَبّاً بيد أنه لا يعدم مفعوله في غرضون المرحلة الذاتية، وبصدد المتعة التي تنبثق عنه في إبان المرحلة الموضوعية فهي تتلامح أشبه ما تكون بانفعال فطري أو جبليّ تستحكم فيه المواضع الجمالية وذلك بنفس القدر الذي تشرطه الوضعية الذاتية للمبدع هي الأخرى.

(2)

إن القراءة الشعرية لأثر تشكيلي تجريدي لا صلة لها، إطلاقاً، بتلك التي يمكن أن تشتغل على قصيدة شعرية، أما تحليل هذا فيكمن في أن الأمر يتعلق بشعريتين اثنتين، متميزتين، تسخران، سوية، جملة من التحديدات التقنية والعناصر المستدقة التي تمنحها، كل واحدة من ناحيتها، معنى يتجاوب وطريقتهما الخاصة، وبإدخالنا في الحساب التباينات الناجزة بين المكتوب - المتلفظ من جانب، والمرسوم - المنظور من جانب ثان، يتبين لنا مدى اختلاف هذه التحديدات والعناصر المستدقة بين قراءة وأخرى. ولربما سيكون من الفائدة

الشعرية، بعد القراءة الشكلية، سبيلها إلى رحاب العناصر الثمانية محفزة إياها، وهي في وضعية انسقاط على رباعية الأزواج التالية، على اختطاط نقطة بدء ونقطة انتهاء لمسارها، من الساكن إلى المتحرك، من الوقف المحايد أو الخامل إلى الوقف العضوي، من المرئي إلى المحسوس، وأخيراً من الظاهر إلى المخفي. ولعل في مكنة الخطاطة الموالية إبراز ما يخص هذا المسار من مواصفات :

الساكن : إدراك كنه النواة الخام.

المتحرك : إدراك كنه النواة المخصّبة.

الوقف المحايد أو الخامل : إدراك لا شعوري.

الوقف العضوي : إدراك مقرون بالوعي.

المرئي : إدراك ما هو برّاني.

المحسوس : إدراك ما هو باطني.

الظاهر : متعة مرجعها إلى إدراك ما هو برّاني.

المخفي : متعة مردّها إلى إدراك ما هو باطني.

وللعلم فلكي نمر من متعة هلامية، عمياء، إلى أخرى يلازمها نصيب من العقل يقتضينا هذا المرور أخذ تراتبية التمرحل الآتي بعين الاعتبار :

إن القراءة الشعرية
لأثر تشكيلي
تجريدي لا صلة لها،
إطلاقاً، بتلك التي
يمكن أن تشتغل على
قصيدة شعرية، أما
تحليل هذا فيكمن
في أن الأمر يتعلق
بشعريتين اثنتين،
متميزتين، تسخران،
سوية، جملة من
التحديدات التقنية
والعناصر المستدقة

الاستثناس بالخطاطة التالية لكونها.
فضلا عما نصصنا عليه من تمايز بين
القراءتين المذكورتين وانفرازهما عن
بعضهما، تسلط الضوء على ما يؤالف
بينهما من معطيات وحيثيات :

التحديدات التقنية :

/ الختم :

الشعر : اختتام قصيدة.

الرسم : آخر رشقة تلوينية في
عرض اللوحة الفنية.

/ المجانسة :

الشعر : الملاءمة التوليفية.

الرسم : تناغم العناصر الثمانية.

/ الاستعارة :

الشعر : مضمر المعنى الحرفي.

الرسم : شغوف الأشكال المرسومة
وانجلاؤها.

/ المجاز المرسل :

الشعر : إبدال معنى بآخر.

الرسم : إبدال عنصر بآخر.

/ المقطع اللفظي الأحادي :

الشعر : كلمة تقوم على مقطع
لفظي واحد.

الرسم : وحدة تكوينية معزولة.

/ الوقفة :

الشعر : توقف عروضي اختياري.

الرسم : انزياح يعزل بموجبه
شكلان اثنان.

/ الديباجة :

الشعر : مفتتح قصيدة.

الرسم : أول رشقة تلوينية في
عرض اللوحة الفنية.

/ الترادف :

الشعر : كلمات مختلفة تؤول إلى
معنى واحد.

الرسم : التماثل والانسجام.

قسمات أخرى مشتركة :

/ التخميني :

الشعر : الاستناد على الإلهام.

الرسم : الاعتماد على الحدس.

/ التأليف :

الشعر : انطلاقا من مفردات.

الرسم : على قاعدة العناصر
الثمانية.

/ الجدل :

الشعر : بين الشكل والمحتوى.

الرسم : بين المتخيل والمرسوم.

/ الإستثناس بالخطاطة

التالية لكونها، فضلا

عما نصصنا عليه من

تمايز بين القراءتين

المذكورتين

وانفرازهما عن

بعضهما، تسلط الضوء

على ما يؤالف بينهما

من معطيات وحيثيات

الرسم : مدة متخيلة انبثاقا من
الداخل.

/الرؤية :

الشعر : من الخيال إلى اللغة.

الرسم : من المتخيل إلى المرسوم.

وإن نحن أردنا الاختزال سنقول
إن كل قراءة شعرية موئلا نوع من
الموضعية، ومن خلال تساوقها قد لا
يتعذر علينا حصر الأصناف الدلالية
الثلاثة التي يسفر عنها هذا التساوق
وهي : الدلالة الطبيعية والدلالة
الاتفاقية، أما الدلالة الأخيرة فجائز
نعتها بالدلالة المتأصلة، فالدلالة
الأولى تهدف إلى فك سنن العلامات،
والدلالة الثانية يتوخى منها إكساب
عملية الفك هاته شرعية ما، في حين
تختص الدلالة الأخيرة ببلورة
مضمون مكتنز بشتى المعاني، ولا
شك في أن هذه الأصناف تعمل
ثلاثتها، متضافرة، على تحيين نجوع
القراءة الشعرية وتفعيلها. وعليه فإن
كان المقروء ينحل، من خلال الدلالة
الطبيعية، بغاية الائتلاف ثانية فإن
الشيء المنظور يستملك خصلة
الإناس والمألوفية، بله الانقياد
والمطاوعة. وذلك كيفما اتفق في
الفضاء المرسوم تعكزا على الدلالة
الاتفاقية، إذ أن مناولة المقروء تتم
على ضوء معايير مدققة، أما الشيء
المنظور فغالبا ما يكون معناه عرضة
لتبذير لا حصر له، هذا في الوقت
الذي ينضم فيه المقروء، ضمن الدلالة
المتأصلة، إلى مدار جدل ذهني
وينتقل معه الشيء المنظور من أفق
شفافية متحصلة إلى ضرب من
المحاورة البصرية.

/الفضاء :

الشعر : مساحة كتابية.

الرسم : مساحة مرسومة.

/المتخيل :

الشعر : قوامه الذاكرة الذهنية.

الرسم : مرتكزه الذاكرة البصرية.

/المنطق :

الشعر : تنبئي.

الرسم : حدسي.

/التقبل :

الشعر : من خلال العين القارئة.

الرسم : عبر العين المستكشفة
لصورة.

/الحلم :

الشعر : اللاوعي مقرونا بالكلمة.

الرسم : اللاوعي مردوفا إلى
المادة.

/العلامة :

الشعر : ذات طبيعة كتابية.

الرسم : ذات طبيعة تلوينية.

/الرمز :

الشعر : الانحراف بالمعاني عن
وجهتها.

الرسم : تناوب الأشكال.

/الزمن :

الشعر : مدة إيقاعية.

(3)

لعله من المستلزم التنويه إلى كون القراءة الشعرية للعناصر الثمانية تأخذ مجراها من خلال التحديدات التقنية المسطرة قبل حين.

/الختم/

يعد ختما :

1 - كل لون يتخذ مظهر النفحة التلوينية الاختتمية في اللوحة الفنية (الألوان).

2 - "وضاءة تلوح كآخر رشقة نور في اللوحة الفنية (الأضواء).

3 - "انعتام ينشق عنه الوجه الأخير لكتلة الظلال المؤممة لحيز من اللوحة الفنية (الظلال).

4 - "حد يلتف، لآخر مرة، حول مجموعة من الأشكال المتخاصرة أو المحبوك داخل اللوحة الفنية (الحدود).

5 - "نبذة تخطيطية تجهز على استطالة خط أو أكثر في اللوحة الفنية (الخطوط).

6 - "فراغ يجعل، ولمرة أخيرة، بعدا ما يند عن المقايضة داخل اللوحة الفنية (الأبعاد).

7 - "علامة تضع حدا لانسياب الحركة الأخيرة التي تخلفها ريشة الرسام في أرضية اللوحة الفنية (الحركات).

8 - "لمسة تمنح الإيقاع هيئته التامة من غير ما تشويش على حيويته في فضاء اللوحة الفنية (الإيقاعات).

/المجانسة/

يعتبر جناسا :

1 - أي لونين متباينين يسفر تداخلهما عن تناغم سمته الغرابة (الألوان).

2 - "بارقتا نور تدنوان من بعضهما البعض ثم تتباعدان بغاية بلورة، وإن مؤقتا، تناغم لاغبار عليه (الأضواء).

3 - "مظهران نافران يكون التماعهما مساوقا لاستمرارية انعتامهما (الظلال).

4 - "فضاءان متضائلان يجترحان، في تجاوب مع بياض اللوحة، حدهما المتنقل (الحدود).

5 - "خطان توأمان ينشئان تناغما ذا طعم تنابذي (الخطوط).

6 - "مساحتان تؤثثهما أشكال ذات انبساط حصري (الأبعاد).

7 - "تعاقبان ملولبان يرتبان، في آن معا، انطبعا عن تنام حثيث (الحركات).

8 - "لمستان منبنيان على نحو مفارق يراد بهما خلق ضرب من

لعله من المستلزم

التنويه إلى كون القراءة

الشعرية للعناصر

الثمانية تأخذ مجراها

من خلال التحديدات

التقنية المسطرة قبل

حين.

التماسك الناشئ عن أية قاعدة أو تقنين (الإيقاعات).

/ الاستعارة :

يحتسب استعارة :

1 - أيما لون لا يجسد، سواء تمتع بشفوف مفخم أم اكتفى بقدر متواضع من الانفصاح، سوى مضمر للون آخر (الألوان).

2 - " ألق يقوم بمقايضة نورانيته، في رحاب اللوحة الفنية، بعناصر مغايرة لكنها ملتزمة (الأضواء).

3 - ظل يدين بشفافيته لآثار المحو والتشطيبات التي تباشرها ريشة رسام موهوبة (الظلال).

4 - شكل يقوم بالتعريض على أشكال مجاورة ويعفي على نطاقاتها المخصوصة (الحدود).

5 - "خطية سميكة تستحدث جماعا من الخطوط الرشيقة التي تميز بالكاد (الخطوط).

6 - "امتداد يرجع الفضل في شفافيته إلى جملة من الانشجاعات المتكافئة (الأبعاد).

7 - "شيء ثابت يستقيم في هيئة مائجة، متخيلة بصريا (الحركات).

8 - كافة الوحدات المرسومة،

المنمقة، التي تكشف، بطريقة واحدة، عن نظام إيقاعي يسري داخل اللوحة الفنية (الإيقاعات).

/ المجاز المرسل :

يدخل في عداد المجاز المرسل :

1 - كل لون يستبدل بآخر كلما اقتضت ذلك حاجة الأسلوب إلى الدعم والتعصيد (الألوان).

2 - " نورانية شديدة يقع إبدالها بأخرى فاترة وذلك لاعتبارات جمالية (الأضواء).

3 - ظل يغير موضعه مستبدلا حالة بأخرى مستجدة (الظلال).

4 - علامة تحوط أشكالا وعناصر تحفيزية كما لو أنها تتوخى عزلها عن الباقي (الحدود).

5 - "خط لا يتوانى، على مدى مساره، عن صيانة هيئة أحادية لا أكثر (الخطوط).

6 - نقطة يلتقي عندها طرفا مساحة معتدل طولها (الأبعاد).

7 - التزحزحات التي يتم تغييرها بحالات متعينة، موازية، تتصف بالثبات (الحركات).

8 - " الوحدات الإيقاعية التي تنبجس من رحمها وحدات إيقاعية إضافية (الإيقاعات).

يدخل في عداد
المجاز المرسل :

1 - كل لون يستبدل
بآخر كلما اقتضت
ذلك حاجة الأسلوب
إلى الدعم والتعصيد
(الألوان).

/المقطع اللفظي الأحادي:

يندرج في نطاق المقطع اللفظي الأحادي:

1 - أي لون موزون، على شاكلة الشعر، يعمد إلى تقطيعه إلى عدة أشكال، صغيرة من حيث الحجم، قابلة للقراءة إن منفصلة أو ملتئمة (الألوان).

2 - سطوع تؤلفه نقاط صغيرة، منيرة بطبيعة الحال، الشيء الذي يجعل هذا الملمح يكتسي صبغة نظمية، كما الشعر، للشيء المرسوم (الأضواء).

3 - لطفة سوداء تتفتت إلى مجموعة من النقاط الأقل إعتاما التي تقرأ متضامة (الظلال).

4 - انسداد تنهض إثره سياجات أخرى اصغر تؤشر، عند عزلها، على نوع من الإحداق غير مسترسل (الحدود).

5 - خط ذو امتداد متقطع بسبب من المجسمات الخطية الصغيرة التي يتشكل منها (الخطوط).

6 - مساحة، مرسومة أو غير مرسومة، ناشئة عن جملة التفككات الصغيرة التي لا تؤثر، مع ذلك، على رحابتها (الأبعاد).

7 - عنصر يدين بحر كيته في مهاد اللوحة الفنية إلى ما يتبعه من عناصر صغرى رافدة (الحركة).

8 - قالب تأوي إليه مقاطع، مناظرة للمقاطع الشعرية، على درجة من التناهي وذات شكل موحد، ولكأنما يتعلق الشأن بتنغيم اللوحة الفنية وترخيم لسان حالها (الإيقاعات).

/الوقف:

ينضوي إلى دائرة

الوقف:

ينضوي إلى دائرة الوقف:

1 - أيما ضوء ينتصب بين لونين متراوحين بقصد تنحيتهما ولو بنسبة خفيفة (الألوان).

2 - التماع عوضا عن توسيعه لقطر نورانيته يعمد إلى فصل لونين من عيار متفاوت، عن بعضهما البعض (الأضواء).

3 - علامة تعكف، من أجل تخفيف وطأة ظل، وفيما يوحي بالإضمار، على تشدير كثافتها إلى نقاط من الضؤولة بمكان (الظلال).

4 - مساحة قيد الإحداق تشج لحمتها توقفات غير ذات بال ولا تترتب عنها تشويهاة محتملة لكثافتها النوعية (الحدود).

5 - مصفوفة خطوط ناتجة عن انقطاعات جد هينة لا تشوش، مهما كان الأمر، على إواليه تناسلها وتكاثرها (الخطوط).

6 - " مسار يدمغ، من خلال انحرافات جد متصاغرة، تمرحلات بعده الخاص (الأبعاد).

7 - " تقلقل تصنعه انزياحات صغيرة، هي الأخرى، يتهياً معه أن الأمر يتصل بتقطيع عروضي متتوي ومتقصد، مثلما هو الشأن في الشعر، وتفعيل هذا التقطيع (الحركات).

8 - " سائر اللمسات ذات الأشكال الموحدة لكن المفصولة عن بعضها البعض، على نحو سلس، وذلك لمقاصد إيقاعية (الإيقاعات).

/الديباجة:

ينصب في معنى الديباجة :

1 - كل لون يقوم مقام النفحة المدشنة لخصوبة تلوينية في نسيج اللوحة الفنية (الألوان).

2 - " بداية تنويرية تمثل أصل الالتماعات والاتلاقات الموالية (الأضواء).

3 - " جذر يأخذ بزمام إيغاله بكيفية لدنة ويعتبر أصل الظلال المنجبة من بعد (الظلال).

4 - " نقطة تنسل من جوفها نقاط داعمة لا محيد عنها في إرساء الحد (الحدود).

5 - " تعبير خطي يؤخذ مأخذ نواة للانبساط الخطي بما هو نسغ أي إبداع تشكيلي (الخطوط).

6 - " استهلال لحيوية لا يتبين مداها في اللوحة الفنية، بل ولا تصبح في المتناول إلا عندما نجوب أطرافها، أي الحيوية، ونمسحها بصريا (الأبعاد).

7 - " بذرة أولية منها يتخلق كامل ذلك التموج الدينامي الذي

تحفل به اللوحة الفنية (الحركات).

8 - " مفتتح، ذو خاصية تركيبية، تؤسسه أشكال موحدة تغني الحقل الإيقاعي للوحة الفنية (الإيقاعات).

/الترادف:

يؤول إلى دلالة الترادف :

1 - عامة الألوان المتضاربة الأشكال والتي تنتعم بدلالة تلوينية واحدة (الألوان).

2 - عموم الأشعة التي تقذف، بغض الطرف عن كفايتها المتفاوتة شكليا، بكتلة نور واحدة (الأضواء).

3 - جميع الظلال التي تؤول بينها، وظيفتها المشتركة المسطرة من غير أن يلغي هذا عامل تنوعها بسبب من تراوح مردودها التكتيفي في فضاء اللوحة الفنية (الظلال).

4 - جماع التفضيات المحكومة بعلامات لكن اللامحددة، علاميا، أيضا بفضل ما تغدقه عليها العين الرائية من حمولة (الحدود).

ينصب في معنى الديباجة :

1 - كل لون يقوم

مقام النفحة

المدشنة لخصوبة

تلوينية في نسيج

اللوحة الفنية

(الألوان).

5- كل مصفوفة خطوط تستفيد من تماثل شكلي يشي بنوع من المواردية المضمونية (الخطوط).

6 - أي امتداد ينتسج في مهاد اللوحة الفنية توسطاً بفرزة خاطفة ويتلامح مرناً بالنسبة للعين (الأبعاد).
7 - كافة التظاهرات الدينامية، المائجة بصرياً، رغماً مما تتسم به من ثبات في رحاب اللوحة الفنية (الحركات).

8 - مجموع السحنات الزخرفية التي ترتديها دلالة مفردة تحوز مظهرًا تعددياً (الإيقاعات).

(4)

بناء على ما تقدم يمكننا الخلوص إلى مايلي : إذا ما كانت القراءة الشكلية ثمرة لإدراك أولي، وذلك لكونها توفر المتعة البصرية التي لا تتأتى سوى بالانخراط في ما يليق تسميته بلعبة العلامات، إن كان الأمر، في هذه القراءة، على هذا المنوال، فإن القراءة الشعرية تقوم، باعتبارها نتاج فهم ثان، بتحويل مضمار هذا اللعب العلامي إلى متعة جمالية. والحقيقة أن مطلق بهاء هذه الأخيرة ينحصر في استكشاف نسق من الإبدالات يسكب على هذا الفهم قسطاً من العاطفة. فالعناصر الثمانية تستجلب،

في إطار هاتين القراءتين، لونين من الإمتاع :

متعة الوقوع في شرك العلامات التي تأخذ إهاب لعب محتل، ومتعة الإفلات من هذا الشرك وغنم إحساس على درجة من الإثارة مبعثه ما يقع تحصيله، في غضون ذلك، من معرفة، معيارية بالأساس، وبصيغة أخرى لنقل إن المتعة الأولى لهي متعة الولوج إلى حيث تكمن تفاصيل العناصر الثمانية، أما المتعة الثانية فليست أكثر من متعة التحاور مع أولوية هذه التفاصيل، أولويتها في البدء وعند الانتهاء دفعة واحدة.

إذا ما كانت القراءة الشكلية ثمرة لإدراك أولي، وذلك لكونها توفر المتعة البصرية التي لا تتأتى سوى بالانخراط في ما يليق تسميته بلعبة العلامات، إن كان الأمر، في هذه القراءة، على هذا

وبالفعل إن كانت هاتان القراءتان تتكاملان فيما بينهما فإن القراءة الثالثة، التي هي القراءة الباطنية أو الجوانبية، لا يمكنها، ولو أنها من طبيعة مخالفة، إلا أن تستفيد من إنجازهما المتحقق وتتوسل به سواء عند افتتاحها للشكل أم وهي تكسبه، انطلاقاً من محض المادة، خلقة جمالية متعينة. وذلك حتى يصير في مقدوره التعرية عما هو خفي، منحجب، في باطنها، ومن هنا، فيما ما نرى، مصدر القرابة التي تجمع بين هذه القراءة وبين القراءتين السابقتين.



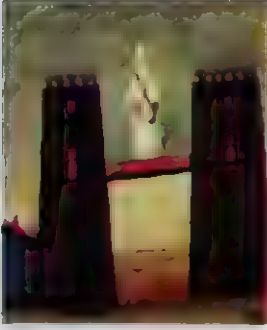
فريد الزاهي

التشكيل المغربي وأسئلته الجمالية

كما عرفت تلك العشرية اهتماما ثقافيا مطردا بالفنون التشكيلية سواء في الوسط الثقافي العام أم من قبل المؤسسات العمومية والخصوصية. ففي هذا الوقت بالضبط نشأت المجموعات الكبرى للبنوك والمؤسسات الخصوصية (المكتب الشريف للفوسفات، البنك التجاري المغربي، البنك الشعبي، البنك المغربي للتجارة الخارجية) أما مجموعة وزارة الثقافة والبرلمان فإنها لم تشكل إلا في الثمانينيات. وهو الأمر الذي كان يؤشر لحركة خاصة منحت أملا في وضع الإرهاصات الأولى لسوق فنية بالمغرب، والذي سوف يتبخر مع المشكلات التي عرفت الأروقة الفنية في ما بعد، والجمود الذي طال المجموعات الفنية الخاصة ومسألة توسعها. بالتوازي مع ذلك أنشأ محمد المليحي ومصطفى النيسابوري «أنتيكرال»، أول مجلة متخصصة في

ظلت الحركة التشكيلية بالمغرب تعيش في السبعينيات وضعية إشكالية من حالتين متعاكستين. تتعلق الحالة الأولى أساسا بوضعية الانتعاش والمأسسة التي بدأت تعرفها الساحة التشكيلية. فقد شهدت، كما هو معروف، افتتاح العديد من الأروقة الخاصة التي جاءت لتعزid أروقة وزارة الثقافة. ونحن نعني هنا بالأساس قاعة «نظر» و«المعمل» وغيرهما. وهي قاعات سعت بالإضافة إلى التعريف بالجيل الجديد من الفنانين، إلى خلق حوار فكري وبصري حول معارضها، وتمكنت من إنعاش تداول الأعمال الفنية. وتطعيم المجموعات الخاصة. وليس من قبيل المصادفة أن تكون قاعة نظر قد افتتحت نشاطها (سنة 1974) بمعرض الفن المغربي في المجموعات الخاصة، أتبعته بمعرض استعادي لمحمد شبة الذي كان معروفا بالأخص بمعارضه الجماعية ونشاطه النقدي.

ظلت الحركة التشكيلية بالمغرب تعيش في السبعينيات وضعية إشكالية من حالتين متعاكستين. تتعلق الحالة الأولى أساسا بوضعية الانتعاش والمأسسة التي بدأت تعرفها الساحة التشكيلية. فقد شهدت، كما هو معروف، افتتاح العديد من الأروقة الخاصة التي جاءت لتعزid أروقة وزارة الثقافة. ونحن نعني هنا بالأساس قاعة «نظر» و«المعمل» وغيرهما. وهي قاعات سعت بالإضافة إلى التعريف بالجيل الجديد من الفنانين، إلى خلق حوار فكري وبصري حول معارضها، وتمكنت من إنعاش تداول الأعمال الفنية. وتطعيم المجموعات الخاصة. وليس من قبيل المصادفة أن تكون قاعة نظر قد افتتحت نشاطها (سنة 1974) بمعرض الفن المغربي في المجموعات الخاصة، أتبعته بمعرض استعادي لمحمد شبة الذي كان معروفا بالأخص بمعارضه الجماعية ونشاطه النقدي.



مولاي أحمد الإدريسي

تعيشها عناصرها ومكوناتها. فإذا كانت مرحلة التأسيس الممتدة من بداية الخمسينيات إلى نهاية الستينيات قد عرفت نوعاً من الحرية الباحثة عن الجودة والتنوع والأصالة الإبداعية، خاصة مع أقطابها الجيلالي الغرباوي وأحمد الشرقاوي ومولاي أحمد الإدريسي وأحمد بن إدريس اليعقوبي، وحظيت من ثم بالاعتراف العالمي، فإن المرحلة اللاحقة ستعرف توسعاً هائلاً للفنون التشكيلية وتزايداً ملحوظاً في عدد الممارسين وتجارب متعددة جديدة ومحيرة في الآن نفسه. فإذا كان عدد الممارسين المعترف بهم في السابق لا يتجاوز العشرين، وهم في أغلبهم فنانون متمرسون وذوو تميز فني، فإن العالم التشكيلي سيغتنى في ما بعد بالعديد من الأسماء الجديدة التي لم تستوعبها طاقة المتابعين، ولم يتم تأطيرها من قبل النقاد.

إن وضعية من هذا القبيل ستطرح على مؤرخ الفن بالمغرب العديد من التساؤلات المتعلقة أساساً بما يلي :

- ظهور اعتماد الخط في العمل التشكيلي والحوار الذي دار حوله، بين معارض ومؤيد، وبين من اعتبره على غرار التجربة العراقية ضماناً للهوية، ومن اعتبره مجرد حذقة زخرفية.

- اعتماد العديد من الفنانين الشباب على استيحاء الذاكرة الشعبية

الفنون التشكيلية صادرة عن دار النشر «شوف» التي أصدرت حينها كتاباً قيماً عن أحمد الشرقاوي يمكن اعتباره أول مونوغرافيا في شكل أنيق عن فنان مغربي حديث. ومع أن هذه المجلة لم تعمّر إلا سنوات قليلة، إلا أنها شكلت فضاء للحوار حول الفن التشكيلي والتعريف به والمساهمة في عيانيته البصرية. بعدها سعى اتحاد كتاب المغرب إلى المساهمة في هذه الحركية فأصدر عدداً يتيماً من نشرة سماها «الإشارة» سنة 1976 خاصة بالميدان، غير أن اهتمام المثقفين الناطقين بالعربية بالتشكيل سوف يتبلور بشكل واضح خاصة في العدد الخاص من مجلة الثقافة الجديدة عن الفنون التشكيلية بالمغرب سنة 1978.

لقد أعلنت ولادة الجمعية المغربية للفنون التشكيلية سنة 1972 عن الدينامية الجديدة التي نمت عنها ذاتيات المثقفين، ورغبتهم التأطيرية والثقافية. وهو الأمر الذي تبدى واضحاً في مساهمة الجمعية في المعارض العربية (الواسطي سنة 1974) والبينالات والمعارض العالمية، ثم احتضانها للبينال العربي الثاني بالرباط (1977) الذي شكل حدثاً أبان عن قوة الحركة التشكيلية بالمغرب وقوة عطائها وإبداعية فنانها.

الحالة الثانية وتتعلق بالتذبذب الذي بدأ يصيبها والفوضى التي بدأت

لقد أعلنت ولادة الجمعية المغربية للفنون التشكيلية سنة 1972 عن الدينامية الجديدة التي نمت عنها ذاتيات المثقفين، ورغبتهم التأطيرية والثقافية. وهو الأمر الذي تبدى واضحاً في مساهمة الجمعية في المعارض العربية (الواسطي سنة 1974) والبينالات والمعارض العالمية، ثم احتضانها للبينال العربي الثاني بالرباط (1977)

ورموزها التي كان أول من انتبه لثرائها الراحل أحمد الشقراوي، وما يطرحة ذلك من خصوصيات جمالية وتطويرات تشكيلية، واعتبارات فنية.

- ظهور «جيل» كامل من التشخيصيين الشباب الذين انزاحوا عن المعطيات الكلاسيكية لمدرسة تطوان وربطوا التشخيص بالتراث الشعبي وحركيته أو بغنائية شخصية، ومزجوا بين التشخيص والتجريد (الزين، عزيز السيد، عبد القادر لعرج).

- استعمال بعض التشكيليين لمواد محلية من جلد وخشب وحناء وغيرها من الألوان الطبيعية (بلكاهية، حسن السلاوي). بحثا عن تجربة تشكيلية جديدة.

- بداية تعاظم الفنانين المغاربة للمنشأة installation والمنجزة performance خاصة في الثمانينيات، ولو بشكل جزئي وأولي.

- تعاظم بعض الفنانين لسنتي عبي الجعيد (بكاهية، حسن السلاوي)، والذي حازوا فيه على جوائز مهمة سواء في الدانمارك أم النرويج أم كندا أم الولايات المتحدة.

تشكل هذه المظاهر الجديدة عناصر تحول كبرى في التجربة التشكيلية المغربية. وهي تبين من ثم

تشكل هذه المظاهر الجديدة عناصر تحول كبرى في التجربة التشكيلية المغربية. وهي تبين من ثم عن الدينامية التي طبعت فنانيتها والتطورات التي عملوا على إدخالها على تجاربهم الفنية. غير أن التشكيل مع ذلك ظاهرة هامشية في الوسط الثقافي العام.

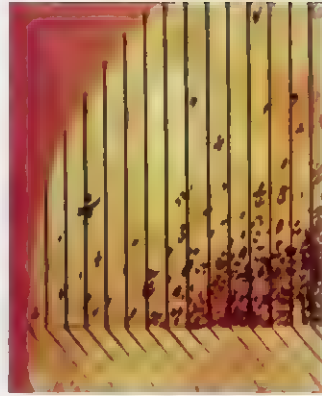
عن الدينامية التي طبعت فنانيتها والتطورات التي عملوا على إدخالها على تجاربهم الفنية. غير أن التشكيل مع ذلك ظاهرة هامشية في الوسط الثقافي العام. ففي غياب متاحف للفن المعاصر، وتقنين لسوق الفن، وللمجلات النقدية المتخصصة، ظلت الممارسة الفنية غفلا من الاعتراف الثقافي، في الوقت الذي أحس فيه المسؤولون عن ضرورة دعم المجال السينمائي (إنشاء صندوق الدعم سنة 1980). إن هذه التجزئية سوف يكون لها أبلغ الأثر، على الأقل في موقعة الظاهرة التشكيلية في قلب الممارسة الثقافية المغربية، التي يبدو أنها، لحد الآن، لا تزال لم تقتنع بأننا في عصر الصورة، وأن الفنون البصرية واجهة الثقافة اليوم. مثلها مثل الكلمة. وربما أبلغ منها.

تجربة الخط ومعمار اللوحة

قام بعض الفنانين المغاربة في بداية السبعينيات على غرار بعض الفنانين العراقيين باعتماد الخط والحرف العربيين في اللوحة التشكيلية. ونحن لا نزال نتذكر النص الكاشف للشاعر المرحوم بلند الحيدري في تمجيد هذه التجربة باعتبار أعادها الجمالية والحضارية والتومية كما لا نزال نتذكر ذلك الافتتان بالخط الذي لا يزال ساري المفعول في التشكيل لمعربي لدى

تشكيلية. فهي تتوالد وتتكتف وتنفجر وكأنها وحدات جمالية مستقلة، لتتصاع للفضاء الذي يحتضنها وللمساحات اللونية والشكلية الحركية التي تشكل خلفيتها وسياقها. وكأننا بالحريري يحول الحرف إلى مكون من ضمن المكونات الشكلية الأخرى. غير راغب في توظيف مباشر لإحالياته الرمزية. إنه يلده من جديد ضمن تصور غير لغوي إلا في أحيان قليلة يغدو فيها الحرف نصا لغويا وجماليا. وهو الأمر نفسه الذي نلاحظه في أعمال مصطفى السنوسي، الذي كثيرا ما يعيد تشكيل جسد الحرف ليحوّله إلى علامة غير دالة بذاتها. إنه يسعى إلى خلق علامة جديدة تتناظر وتكرر في أشكال دائرية أو ببيضاوية ذات حركة ذاتية. أما لدى حنين، وهو خطاط محترف أصلا، وموسيك وحسن مقداد وآخرين، فإن الحرف والخط يندمج في بعد غرافيكي زخرفي يفتن بمظهره المباشرة من غير أن يفصح عن تصور تأويلي شخصي.

لكن إذا كان الخط قد استهوى البعض، فإن آخرين اختاروا الخط والكتابة ذريعة للاشتغال التشكيلي. هكذا يقوم المهدي قطبي بخلق شواطئ للكتابة يتم من خلالها محاكاتها بشكل يعتمد التكرار والاسترسال. وليس من شك في أن هذه الطريقة تمكن الفنان من تجريد



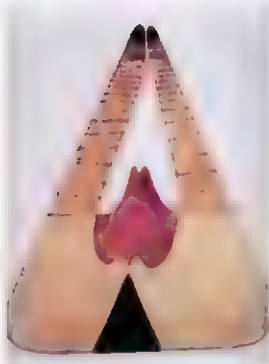
عبد الله الحريري

مع ذلك يظل تعامل عبد الله الحريري في غالبية أعماله ذا طابع حركي تتحول فيه الحروف إلى مكونات بصرية ذات طاقات إيحائية تشكيلية. فهي تتوالد وتتكتف وتنفجر وكأنها وحدات جمالية مستقلة، لتتصاع للفضاء الذي يحتضنها

عبد الله الحريري، وغيره من الفنانين. وإذا كان هذا الاستكشاف قد أدخل أبعاداً جديدة في التجربة المغربية، وسع من الجهد الذي قام به أحمد الشرقاوي في استكشاف العلامات والرموز التي تحبل بها الذاكرة البصرية الشعبية، فإن حدودها مع ذلك تظل واضحة. صحيح أن توظيف الحرف يمكن فنانين من قبيل الحريري ومصطفى السنوسي، ومحمد موسيك وإبراهيم حنين من صياغة تجارب فنية خصوصية تستوحي إضافة إلى ذلك المعمار الهندسي وتتواشج مع معالم مادية ولونية وتعبيرية أخرى، إلا أن الطابع الغالب هنا هو الطابع الزخرفي والتناول البصري الهش للظواهر البصرية الحضارية. فالحرف العربي كيان رمزي ومرجعي حضاري وقدسي تحول على يد الخطاط العربي إلى قيمة جمالية لا تنفصل أبداً عن معطياتها الخلفية. كما أن المتصوفة صاغوا من الحروف كيانات مفتاحية للتجربة الوجودية، من ثم فإن أي توظيف لا يتمثل هذه المعطيات في أبعادها المتعددة لا يمكن إلا أن ينزلق باتجاه تجريد الحرف من كل مدلولاته.

مع ذلك يظل تعامل عبد الله الحريري في غالبية أعماله ذا طابع حركي تتحول فيه الحروف إلى مكونات بصرية ذات طاقات إيحائية

مسارات الاستمرار والتحول



فريد بلكاهية

يمكن القول إن الفنون التشكيلية بالمغرب قد عرفت في هذه المرحلة (السبعينيات والثمانينيات) مرحلة غير متحدة المعالم بالرغم من أنها استوت بمثابة فن قائم بذاته. فإذا كانت السبعينيات مرحلة اعتراف عربي بالتجربة المغربية. فإن الثمانينيات وما بعدها دفعت بالبعد العالمي الذي ارتبطت به ولادة التشكيل المعاصر إلى مستوى أعلى، بحيث بدأ المغاربة يعرضون في أشهر الأروقة الغربية، ودخلت أعمالهم إلى متاحف الأوروبية والأمريكية، مما منح للكثير من الأسماء شهرة عالمية (بلكاهية، القاسمي، الشعبية، بلامين). هذا الامتداد منح روحاً جديدة للتشكيل المغربي تنامت معه الحركة وخلقت بعضاً من الاستمرارية التي كان يخشى عليها.

يمكن القول إن الفنون التشكيلية بالمغرب قد عرفت في هذه المرحلة (السبعينيات والثمانينيات) مرحلة غير متحدة المعالم بالرغم من أنها استوت بمثابة فن قائم بذاته. فإذا كانت السبعينيات مرحلة اعتراف عربي بالتجربة المغربية. فإن الثمانينيات وما بعدها دفعت بالبعد العالمي الذي ارتبطت به ولادة التشكيل المعاصر إلى مستوى أعلى، بحيث بدأ المغاربة يعرضون في أشهر الأروقة الغربية، ودخلت أعمالهم إلى متاحف الأوروبية والأمريكية، مما منح للكثير من الأسماء شهرة عالمية (بلكاهية، القاسمي، الشعبية، بلامين). هذا الامتداد منح روحاً جديدة للتشكيل المغربي تنامت معه الحركة وخلقت بعضاً من الاستمرارية التي كان يخشى عليها.

فإضافة إلى الاستمرارية والتجديد اللذين مارسهما الكثير من الفنانين الرواد (بلكاهية، شبعة والمليحي، وميلود الأبيض، ومغارة وغيرهم)، فإن الجمود والصمت ران على بعضهم الآخر، خاصة من الفنانين الذين بزغ نجمهم في الستينيات من أمثال محمد حفيظ وعبد الكبير ربيع وغيرهما. كما أن بعض الرواد التزموا بالتجربة التي صاغوها واستقروا في أسلوب فني

الحرف من مرجعيته اللغوية وتحويله إلى مجال بصري بحت، وإلى أثر سابق على كل كتابة دالة وتواصلية. غير أن تنويعات الفنان اللامتناهية على المعطى نفسه وعدم تجديده الشكلي والتقني يرمي بتجربته نحو طريق مسدود.

كما أن ثمة تعاملات أخرى وتناولات مغايرة، وأكثر بساطة وسياقية، نلاحظها هنا وهناك في التشكيل المغربي. فمحمد القاسمي يلجأ أحياناً إلى تخطيط شخصي لجمل ومقاطع في لوحاته، يبتغي من خلالها إضافة التعبيرية اللغوية إلى التعبيرية الشكلية. ومصطفى بوجمعاوي يخط في بعض لوحاته كلمات متكررة بشكل قصدي يهدف من خلالها إلى إضفاء طابع التعددية والشذرية على لوحاته. وهو الأمر الذي يعضد تقنيته التنقيطية والتكرارية.

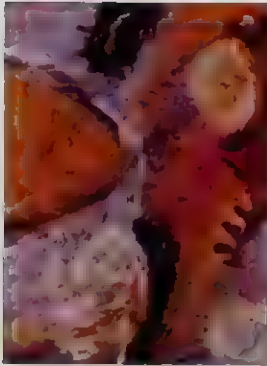
غير أن الأسئلة الراهنة التي تطرحها هذه التوظيفات للكتابة والخط تتعلق أساساً بالقصدية التشكيلية والعمق الوجودي والدلالي. إذ لا يخفى أن هذه التجربة إذا هي لم تتحلّ بالانفتاح والتطوير وإعادة النظر في الخط بوصفه علامة وأثراً حضارياً، فسوف لن تؤدي إلا إلى الانغلاق الزخرفي الذي نلاحظ ملامحه واضحة لدى الكثير من الشباب المتعاطي للتشكيل.



فؤاد بلامين

وميلود الأبيض لا يمكننا إلا أن نرى في أعمال بلامين والحياني وإلى حد ما عبد الرحمن الملياني تفجيراً جديداً للقوة التعبيرية المتمثلة في الحركية *gestualité* والاعتماد على سيولة التعبير الفني. إنها، بأشكال متفاوتة، تركيبات بصرية تبحث بنوع من العنف عن المعنى والنور (بلامين)، وعن روحانية المادة (الحياني) وعن هندسة الوجود (الملياني).

تتوجه أعمال بلامين منذ بداياتها نحو مغامرة الإمساك بالمتحرك، في سيولته وتلقائيته، باحثاً عن تشكيلات النور ومواطن الرغبة العميقة في بناء المعنى الوجودي. تتتابع الحركات اللونية الشكلية لتبعث من صميمها فيض النور. غير أن هذه المقاربة سوف تنحو تدريجياً نحو بناء أشكال رمزية محورية (التابوت، ثم القبة)، ليندفع الفنان نحو التفكير في فضاءات التجلي، من خلال استيحاء نورانية ابن عربي ومواطن الذاكرة. وعبر التعامل الدقيق مع المادة والألوان يصل إلى صياغة متجددة ومقلدة لرؤيته الخاصة. أما الحياني فإنه في تعامله بخشونة مع الشكل والألوان، وارتكاز لوحاته على أشكال رمزية (المثلث والدائرة بالأخص) يدعو إلى استكناه لاوعيه الشخصي، وحين يتجاوز ذلك لإدماج كائنات مشخصة فإنها غالباً ما تكون ذات مدلول



بوشتي الحياني

مفضلين عدم المغامرة في البحث عن مكونات وعناصر جديدة، مما وسع أعمالهم بالنمطية والتكرار بله الاجترار.

غير أن ظهور رجيل من الفنانين الذين بدأوا في التعبير الفني في السبعينات سوف يضيف على الحركة التشكيلية نوعاً من الدينامية والاستمرار. وتدخل في هذا الإطار أعمال كل من فؤاد بلامين (من مواليد 1950) وبوشتي الحياني والحسين الميلودي والتبيري كنتور و خليل الغريب وغيرهم. فإذا كان التوجه القوي في الستينات هو ذلك الذي تميزت به أعمال أحمد الشرقاوي، فإن التوجه السبعيني والثمانيني بلا منازع هو ما يمكن اعتباره امتداداً لأعمال الجيلالي الغرباوي (1930-1971). ذلك أن أصالة الشرقاوي إذا كانت تتمثل في الكشف عن غنى العلامات والرموز البصرية في المتخيل المغربي المادي منه والرمزي، فإن إبداعية الغرباوي تجد مصدرها في الحرية التعبيرية والغنائية لأعماله بحيث إنها تنفتح أصلاً على عالمية التعبير التشكيلي وكونية الحساسية الإنسانية.

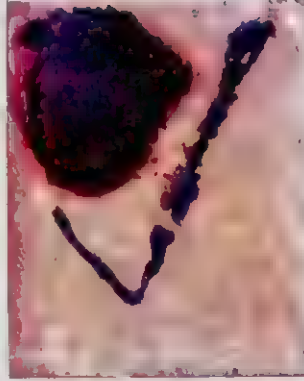
من ثم يمكن اعتبار الامتدادات استمراراً «نقدياً» وتطويراً لمرحلة التأسيس:

- إضافة إلى أعمال القاسمي

والتيباري كنتور. فاللوحة لدى الأول لا تفتعل هذه العلاقة وإنما تستوحىها عبر نظرة استبطانية تتحول فيها الأشكال إلى لغة تشكيلية. كما أن تجربة محمد حميدي قد انزاحت إلى حد ما عن طابعها الهندسي الحصري لتدمج علامات ورموزا في صلب هندسة اللوحة، مستخدما في ذلك ألوانا تمنح لها دلالات وانفتاحات للقراءة والتأويل. بيد أن التيباري كنتور يمنح المتابعين مشهدا جديدا. فهذا الحفري يصنع ورقه بنفسه ويلصقه على القماش، ليطبّع عليها تلاوين حبرية صافية تحول اللوحة إلى رق أو طرس، ويثبت عليها علاماته التجريدية. إنه عالم مطبوع بالدقة والحرية، يستنفر الذاكرة ويجعل منها فضاء للحضور والغياب.

مآزق ومخارج التشخيصية

بعد أن شكلت مدرسة الدار البيضاء ثورة على التشخيصية ذات الطابع الأكاديمي، كما تجلت في تلامذة برتولوتشي بمدرسة تطوان، وكما أعادت صياغتها أعمال محمد السرغيني ومريم مزيان وغيرهما، حظيت مختلف توجهات التجريدية التشكيلية بحظوة كاسحة. غير أن العودة إلى التشخيص في أوائل السبعينيات ما لبثت أن تمثلت في واقعية أحمد بنيسف، الممهورة بالرومنسية والرمزية. فقد أعاد هذا



خليل غريب

أما خليل الغريب فإنه يشتغل على روحانية النمادة من خلال

استعمال المواد الطبيعية كالجير، والنيلة، ومن خلال تركيب عناصر ومواد بائدة، تمارس دورة تحولاتها واندثارها داخل اللوحة. إنه يعيد تشكيل العالم مصغرا، منفتحاً بذلك على منطق الموت والولادة.

ملائكي. بيد أن الملياني يسعى إلى تكثيف المساحات اللونية الغبراء والترابية، لتنبثق منها أشباح بيضاء أحيانا. وبهذه الصيغ يتمثل أصوله الجنوبية معبرا عن كثافة تعبيرية تستبطن المدينة وجغرافياتها السرية. أما خليل الغريب فإنه يشتغل على روحانية النمادة من خلال استعمال المواد الطبيعية كالجير، والنيلة، ومن خلال تركيب عناصر ومواد بائدة، تمارس دورة تحولاتها واندثارها داخل اللوحة. إنه يعيد تشكيل العالم مصغرا، منفتحاً بذلك على منطق الموت والولادة.

إن هذا التوجه التعبيري التجريدي لا يزال يجد الكثير من الصدى، سواء باشتغاله المتجدد على الأشكال أو بصياغته الكلية للعمل الفني.

- في الحين الذي بدأ فيه استعمال الرموز والتوسل بالعلامات البصرية في التشكيل يصل إلى طريق مسدود، بل يتحول إلى تقليعة فولكلورية جديدة، ظهرت أسماء شابة في الثمانينيات لتمنحه نفسا جيدا ومشروعية جمالية مستمرة. وإذا كان فريد التريكي قد تخلى اليوم عن هذا التوجه نحو علامات الزربية ليعود إلى نوع من التشخيصية. فإن أفضل معبر عن هذا التفاعل المنهجي مع الرموز الأمازيغية والآثار التقليدية للذاكرة الشعبية هو محمد نبيلي

حساسية ذات عمق وجودي وحساسية وصفية ومرجعية.

بيد أن توجهات أخرى في هذا المضمار ما لبثت أن فرضت نفسها ومنحت للتشخيص قima جمالية جديدة، دافعة به إلى خلق معطيات بصرية، يغدو معها التعبير التشخيصي عرضة لاشتغال خصوصي على الموضوعات والشخوص والمادة واللون. فقد أفرزت الساحة الفنية توجهات جديدة تتعامل مع الواقع والواقعي بمنطق الحلم والذاتية، وتساؤل المرئي من خلال التأويل الخيالي والمتخيل.

فإذا كان عالم كمال بوطالب، في هذا الإطار، ذا طابع سوريالي واستيهامي، قريب إلى حد كبير من تجربة دالي، فإن عالم عباس صلا迪 يعتبر ممارسة جديدة للتعبير التشخيصي ذي المسحة الفانطاسية. فكائناته هجينة. نصفها بشري ونصفها الآخر طير أو نبات. وفضاءاته عدنية، مرسومة وملونة بدقة نكاد معها ننسى عصامية هذا الفنان المراكشي الذي غاب عنا في عز الشباب، من ناحية أخرى يقدم لنا محمد أبو الوقار كائنات مشوهة تارة ومجنحة أخرى، مازجا بين الواقعية الجديدة والبعد الفانطاسي. مستخدما بشكل كبير تقنية زاوية



أحمد بن يسف



عباس صلا迪

الفنان للواقعية بعضا من وهجها الضائع، بعيدا عن الأكاديمية والموضوعات الاستشراقية المتمثلة في اليومي التقليدي. ويعتبر بنيسف نفسه حليف الفقراء والمستضعفين، وداعية للسلم والأمان، من خلال تركيزه على الشخصيات المعدمة والفضاءات التقليدية. كما أن ثمة حماسة بيضاء في وضعيات متعددة تسهر على فضاءاته. محملة برسالة لها مدلولاتها المعروفة. ومنذ ذلك الحين، تعاطى الكثير من التشكيليين الشباب للتشخيص الواقعي بلمسات تعبيرية أو انطباعية أحيانا، وباشتغال عميق إلى هذا القدر أو ذاك على الألوان والمادة. بحيث يمكن القول الآن، بالرغم من الالتباسات التي تطرحها الواقعية على التلقي الجمالي، إن ثمة تيارا واقعيا له موقعه في الساحة التشكيلية المغربية، وله جمهوره وعشاقه. غير أن عودة بعض الرواد والفنانين الذين خبروا التجريدية إلى التصوير التشخيصي، كالمكي مغارة وسعد بن الشفاج، تمنح لأعمالهم قوة تتنصل بها من الطابع الفوتوغرافي، وتمكننا من الوقوف على الاشتغال الشخصي على الأشكال والنور وعلى القوة التعبيرية التي تنبض بها. وهو ما يؤكد مرة أخرى أن الاختيار الجمالي ليس بين التشخيص والتجريد، وإنما بين تعامل سطحي وتعامل عميق معهما، وبين

رهانات التجديد



أحمد الورددي

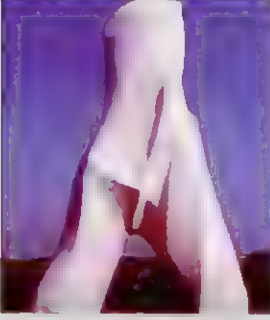
غالباً ما يسود القول، في أوساط المهتمين بالتشكيل المغربي، بالفوضى العارمة التي يعيشها هذا الفن، وبغياب المعايير الفنية القمينة بفرز الجودة الجمالية من الضحالة الفنية، واختلاط أوراق الفن، الخ. والحقيقة أن هذا الأمر يثار في الغالب الأعم بالنظر لإنتاجات الشباب، التي يرى فيها هؤلاء تكراراً لما سبق واجتراراً لتجارب الرواد. وبما أن غرضنا هنا ليس الرد على هذا الزعم، ولا التقليل من أهميته، فإننا نعتبره نتاجاً لغياب دينامية في التلقي والكتابة الصحفية والنقدية الفنية تكون في مستوى الدينامية التي تعرفها الحركة التشكيلية. فالتشكيل ربما أكثر الفنون حاجة إلى وسطاء للتحليل والتقويم والتأويل ومن ثم إلى فضاءات للتعريف والتقديم والعرض. وما تنتجه الساحة من كتابات ذات صبغة انطباعية أو أدبية أو شعرية، لا يأخذ بعين الاعتبار، إلا نادراً وعرضاً، أن العمل التشكيلي مادة محسوسة تتطلب معرفة بتكوينه واعتباراً لخصوصيته المادية والشكلية والجمالية.

كذلك هو عالم الورددي، ذلك البستاني الذي تعلم الرسم على يد ميلود الأبيض، عالم الورددي يعج بالنباتات والطيور محيلاً إلى تصور عدني للوجود. ولا يختلف عن هذا الطابع تصوير فاطمة حسن، ببناؤه الرسمي للشخصيات والمشاهد وكأنها ترسمها بالحناء على كف بكر.

منذ أواخر الثمانينيات عرفت الساحة التشكيلية ولادة الكثير من الأسماء الشابة في الساحة التشكيلية. ولكثرة المتعاطين لهذا الفن يصعب

النظر السينمائية. إن تشخيصية من مثل هذه تؤكد مرة أخرى التبادلات والتفاعلات بين التجريد والتشخيص وانعدام الحدود الفاصلة بينهما. فالتشخيص هنا ليس مرآوياً ولا انعكاسياً، إنما هو وسيلة لتكسير التتابع بين الصورة والمرجع، وخلق إمكانات جديدة للتصوير والتعبير، عبر تقنيات الهجانة واللعبة اللونية واللعب على المفارقات.

في السياق نفسه، يمكن اعتبار ما يطلق عليه عادة بالفن الساذج، أو الخالص، خاصة حين يتمثل في طاقات إبداعية خلّاقة، تشخيصاً تأويلياً للمرئي. فبتأمل أعمال الشعبية طلال، أو فاطمة حسن أو أحمد الورددي، لا يمكننا إلا أن نندشش للحساسية الخاصة التي تجعل من هؤلاء الفنانين العصامين بنائين جدداً للذاكرة والحاضر. فشخصيات الشعبية ووجوهها المرسومة بألوان أساسية خالصة، وبطريقة طفولية، تندرج في عالم أشبه بالحلم. كذلك هو عالم الورددي، ذلك البستاني الذي تعلم الرسم على يد ميلود الأبيض، عالم الورددي يعج بالنباتات والطيور محيلاً إلى تصور عدني للوجود. ولا يختلف عن هذا الطابع تصوير فاطمة حسن، ببناؤه الرسمي للشخصيات والمشاهد وكأنها ترسمها بالحناء على كف بكر.



إكرام القباچ

من المساحات اللونية التي تواريه تارة وتكشف عنه أخرى. أما طنانة، فقد بدأت أعمالها تأخذ قوة غنائية في السنوات الأخيرة من خلال تصور صريح للعلاقة بين الذكورة والأنوثة. ثم من خلال التعاطي لموضوعات تتعلق بالهجرة السرية وفلسطين. وخصوصيتها تكمن بالأساس من خلال معالجتها الرمزية واستعمال مواد خاصة تمنح لعالمها طابع العنف والقوة التعبيرية.

كما أن الساحة عرفت تجارب جديدة للشباب تتمثل بالأساس في هجران فضاء اللوحة "التقليدي" والاعتماد على حوامل جديدة أصبحت سائدة في الفن الغربي. كالمنجزة والمنشأة والفيديو الفني وغيرها. وربما كان منير الفاطمي أكثر هؤلاء الشباب اعتمادا على تداخل هذه العناصر الجديدة مع التشكيل. كما أن حسن الدرسي وحسن الشاعر يعتمدان على مواد جديدة كالزجاج وغيره لإقامة فضاء بصري يتم من خلاله بناء الدلالة التشكيلية والجمالية، فيما تتأسس أعمال منير الرحموني وصفاء الرواس وغيرهما على إعادة تشكيل المواد وصياغة عوالم تنسج المعنى من خلال الموقعة الفضائية.

لكن شبابا آخرين اختاروا الوفاء للوحة والاستمرار في البحث عن

جردهم أو حصر عددهم الذي يناهز المئات. بيد أن الأسماء التي أبانت عن قدراتها الفنية ظلت مع ذلك قليلة. وتلك التي طرقت مواضيع أو دخلت في تجارب جديدة مع الفضاء والمادة أقل. وفي هذه الفترة ظهرت الكثير من الأسماء النسوية التي ارتادت هذا المجال وحققت لنفسها بعضا من التميز. ففي مجال النحت، الذي ظل مضمارا هامشيا في الفضاء التشكيلي المغربي، يمكن اعتبار إكرام القباچ اسما ذا تجربة خصوصية. فقد طرقت موضوعات جديدة بحساسية أجد وبتمكن لا مرأى فيه. بدأت القباچ بالاشتغال على موضوعات أقرب إلى المنشأة، ثم ولجت بسرعة عالم المواد الصلبة كالحديد ثم البلاستيك، الذي منحها، كما في معرضها الأخير بقاعة باب الرواح منذ بضع سنوات، إمكانية الاشتغال على التسامي والعمودية واستشراف آفاق الرمزي. من جهة أخرى يمكن اعتبار أعمال أمينة بنبوشتي ومريم العليج وفي ما بعد خديجة طنانة ذات مكانة خاصة في المشهد التشكيلي. فإذا كانت الأولى تشتغل على موضوعات من اليومي لتزج بها في حركية صوفية باحثة عن النور والمعنى، تسعى مريم العليج إلى البحث عن إمكانات لقول موضوع أساسي هو الأضحية. يتم التعبير عن هذا الولع الموضوعاتي من خلال الزج بقطعة اللحم المعلقة في دوامة

بدأت القباچ
بالاشتغال على
موضوعات أقرب إلى
المنشأة، ثم ولجت
بسرعة عالم المواد
الصلبة كالحديد ثم
البلاستيك، الذي
منحها، كما في
معرضها الأخير
بقاعة باب الرواح
منذ بضع سنوات،
إمكانية الاشتغال على
التسامي والعمودية
واستشراف آفاق
الرمزي.

للعرض والتسوق. بالقدر نفسه الذي هو بحاجة لفضاءات للمتابعة والتقويم قصد خلق عيانية فعلية لمنتوجنا البصري.

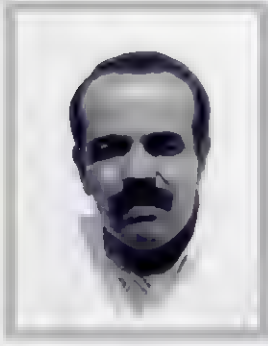
ومن غرائب الأمور أن فنانينا الشباب عادة ما يتم اكتشافهم من النقاد القلائل المتابعين للوضعية التشكيلية، وقبلهم أحيانا من المؤسسات العرضية والأروقة الغربية الفرنسية والإسبانية بالأساس. ولأن وضعية الالتباس التي تحدثنا عنها سابقا لا تزال سارية المفعول، فإن الكثير من "الأروقة" تحولت إلى متاجر لبيع الأثاث العتيق، محولة معارضها إلى مناسبة لاقتناء أثاث يزين الجدران الفارغة للبيوت الجديدة. كما أن الغياب القاتل لنشر المونوغرافيات عن الفنانين لتحقيق التواصل وتوفير المرجعيات للطلاب والباحثين، يحد من تلك العيانية. لنتصور أن فنانين من قبيل بلكاهية، والمكي مغارة، ومحمد المليحي، وفؤاد بلامين، وغيرهم لم يخصص لهم كتيب نقدي تحليلي عدا الكاتالوجات الخاصة بمعارضهم. بل إن الراغب في التعرف على الفنون التشكيلية بالمغرب، لن يجد أمامه إلا بعض الكتب القليلة التي لن تمنحه على كل حال إلا نظرة ضيقة وسريعة وغير متجددة عن التشكيل المغربي.

فالفن التشكيلي ممارسة بصرية بحاجة إلى فضاءات للعرض والتسوق، بالقدر نفسه الذي هو بحاجة لفضاءات للمتابعة والتقويم قصد خلق عيانية فعلية لمنتوجنا البصري.

ممكّنات تعبيرية جديدة من خلال جدلية اللون والشكل والمادة. وإذا كانوا قد اختاروا الاستمرار في هذا النهج، فذلك لإدراكهم أن "الفضاء التقليدي" للوحة قادر على الإمساك بالتحويلات الإدراكية والتعبيرية التي يرغبون في الإفصاح عنها. ففيما يلجأ عادل الربيع مثلا إلى استعمال مواد جديدة كالحبال يشد بها أطراف اللوحة ليضيف إلى الحامل عنصرا تكميليا وسيطا بين المنشأة واللوحة، يختار صلاح بنجكان تغيير مقارباته للموضوعات، والتوجه نحو الإدراك الذاتي للفضاء والموضوعات.

بمثابة خاتمة: من أجل تلق في مستوى الفن المغربي

مع الإعلان عن إنشاء المتحف الوطني للفن المعاصر، وما يحمله الإصلاح الجديد للتعليم العالي من عناصر أولية، وإن محتشمة، لإدماج البصري والتشكيلي في وحدات التكوين، نكون أمام خطوات لتعزيز دور الفنون التشكيلية في الساحة الثقافية، باعتبارها مكونا غير نخبوي، وقابلا للتعميم والتذوق والاقترناء والمتابعة والعشق. إلا أن هذه المبادرات تظل مع ذلك غير كافية لضمان حدود دنيا لتداول الأعمال الفنية وتلقيها. فالفن التشكيلي ممارسة بصرية بحاجة إلى فضاءات



شفيق الزكاري

من مظاهر الحركة التشكيلية

الطلائعية بالمغرب

حيث هي ميزة أولية وفرت للعمل التشكيلي فضاءه الخاص الذي يستحقه بوصفه مادة بصرية من خلال هذه المؤلفات، لكن الضرورة العلمية تستوجب عدم إهمال الجانب التحليلي المتعلق بالآليات النقدية للنص بوصفه خطوة على الأقل لرسم معالم أولية لبناء مدرسة نقدية، خاصة ونحن نعيش مرحلة ولادة لكتابة جنينية لم يتحدد بعد مسارها واتجاهها بل ومقاييسها. وفي غياب جل المعطيات الممكنة المتعلقة برصد الحركة التشكيلية المغربية ومتابعتها، تم الاعتماد في هذا البحث على مرجعية متفاوتة في أحكامها لاختلاف المناهج والرؤى، وانعدام تخصصاتها كنصوص يمكن تأطيرها ضمن محاولات أدبية استلهمت صورها من العمل التشكيلي لتصبح نصوصا إبداعية مستقلة، تفاعلت لتفرز اصطلاحات توازي وتثري الإبداع التشكيلي في نفس الوقت.

وفي غياب جل المعطيات الممكنة المتعلقة برصد الحركة التشكيلية المغربية ومتابعتها، تم الاعتماد في هذا البحث على مرجعية متفاوتة في أحكامها لاختلاف المناهج والرؤى، وانعدام تخصصاتها كنصوص يمكن تأطيرها ضمن محاولات أدبية استلهمت صورها من العمل التشكيلي

من الصعب أن نكتب حول التشكيل بكل فروعه استنادا لمرجعية مكتوبة، خاصة وأن عمر الحركة التشكيلية بالمغرب لا يتعدى ربع قرن، فغياب دراسات جادة ومعمقة في هذا الميدان جعلتنا نلاقي صعوبات في الوقوف على خاصيات هذه الحركة، سواء أتعلق الأمر بوجهات نظر مختلفة أم محددة، فمجموع الكتابات الكمية ليست سوى محاولات مرحلية لم تسجل لنا غير تجارب فردية بعيدة عن التحليل التقاربي الجماعي الذي يسعى لتأطير أو تصنيف هذه الجماعات، ضمن اتجاهات معينة، تلك الجماعات التي سخرت بصيغة أحادية ومتفرقة بمثابة تجميع على شكل معجم مختصر لحياة التجربة الإبداعية للفنانين التشكيليين ومسارها في معظم المؤلفات والمصادر التي كتبت أغلبها باللغة الفرنسية من الأجانب أو المغاربة، وقد لانكر مدى جمالية الطبع من

أما المصدر الثاني الذي اعتمد عليه هذا البحث، والذي اعتبرته أساسيا من وجهة نظري هو المرجعية المشهدية أو المرئية الشخصية بحكم طبيعة هذا المجال الذي يحتاج بالدرجة الأولى في تقييمه، للتنقل والمشاهدة والمتابعة والمقارنة لتفكيك رموز الأشكال والألوان، والأبعاد والتكوينات ... لكن قبل الخوض في غمار الحديث عن التجارب الفنية أو تصنيفها، لابد أن نستهل هذه الورقة بتساؤل، بمثابة مدخل حول مدى أهمية النصوص المكتوبة عن الإبداع التشكيلي؟ مادامت هذه الأخيرة خطوة إيجابية رغم تباعدها عن تأسيس المنهج التحليلي لكل ما هو مرئي، فرغم استقلالية هذه النصوص، فهذا لا ينفي وجود إرهاصات أولية متميزة لها صلة وثيقة بمكونات العمل التشكيلي، مما جعل منها عند بعض الفنانين مجالا للتفكير في صيغة ربط هذه العلاقة (أدب/تشكيل).

إن علاقة التشكيلي بالمتقن أو الأديب شكلت منذ البداية قطيعة جذرية على مستوى الحوار والتفاعل، مما أخرج شيئا ما زمنيا، الاهتمام المتبادل بين الجنسين، باستثناء بعض المحاولات التي سجلت حضورها واستمراريتها تأكيدا على ضرورة هذه المساهمة في اكتمال معالم المشروع التشكيلي المغربي وتوضيحه

بجميع اتجاهاته (ومدارسه)، لما لهذا الأدب من أهمية فيما يخص التدوين والتفكيك الذي يصبح أحيانا (وهذا من النادر) تنظيرا إذا ما تحرر من قيد اللغة الشعرية، لحساب لغة تحليلية تحكمها ضوابط علمية دقيقة بمصطلحاتها.

إن الاهتمام بالجانب الأدبي في النقد التشكيلي المغربي هو ظاهرة صحية، وضرورة علمية، استوجبت تراكما كليا في فترة سابقة لتغطية الفراغ الحاصل في الحركة النقدية، لكن ظهور بعض الكتابات المختصة حاليا ساهم بشكل إيجابي في تعايش اللغتين، لبناء منظور موحد ومتوازن بين كل ماهو شعوري وعقلاني، مما ساهم في إبراز طاقات إبداعية هامة، ورسم معالم حقيقية في تاريخ التشكيل على المستوى المحلي أو العربي أو العالمي، والأمثلة على ذلك متعددة؛ فاختلاف الأساليب الفنية جعل من اللغة النقدية مجالا قد يصعب تحديد مقاييس أحكامه، وفرصة سانحة لبعض أشباه الفنانين لاستغلال فرصة امتلاك مصداقية أعمالهم، مع العلم أن هذه الأعمال إذا ما صنفناها، فقد يمكن إدخالها ضمن خانة معينة لها خصوصياتها لا تتجاوز حدود الصورة التقريرية في تعاملها مع الواقع بفضاءاته وهمومه، ومع ذلك تبقى اللغة شاهدا، ومادة خصبة للبحث واستدراك الهفوات

إن الاهتمام بالجانب الأدبي في النقد التشكيلي المغربي هو ظاهرة صحية، وضرورة علمية، استوجبت تراكما كليا في فترة سابقة لتغطية الفراغ الحاصل في الحركة النقدية، لكن ظهور بعض الكتابات المختصة حاليا ساهم بشكل إيجابي في تعايش اللغتين، لبناء منظور موحد ومتوازن بين كل ماهو شعوري وعقلاني

والمغالطات، فاللغة التشكيلية الحقيقية هي لغة تستمد مكوناتها من الفعل الإبداعي الصادق بمرجعياته التاريخية والتراثية الأصلية، حيث لا يمكن أن تتجاوز حدود القراءة الفعلية للمنتوج الإبداعي، ولا يمكنها أن تلغي مواصفاته الحقيقية ما دام هو الآخر في حد ذاته نصا مرثيا ومشاهدا، ولذلك سوف يكون هذا التصنيف ضروريا حتى تتمكن من فهم مستويات الأحكام الخاصة بالجودة وحق متابعة السير الحقيقي للإبداع التشكيلي المغربي، وقبل هذا لا بد من استطراد بصدد بعض العناصر بفضاءاتها الفيزيائية والثقافية بوصفها محركا أساسيا للنشاط التشكيلي التي بدونها لن يتمكن المتلقي من متابعة ومشاهدة آخر إنتاجات الفنانين، وأقصد بذلك (الأروقة).

فهذه الأروقة لعبت دورا طلائعيا متميزا في بلورة الحركة التشكيلية بالمغرب وتطويرها، حيث عملت على اكتشاف طاقات إبداعية هامة وإبرازها، ووفرت للمشاهد فرصة استيعاب آخر الإنتاجات واحتكاكه بمبدعيها، لكن كثرة المصاريف وقلة الاهتمام والتشجيع، حالت دون استمرار البعض منها وإغلاقها مثل رواق أركان والمعمل بمدينة الرباط مثلا، كأحد الأمكنة الهامة التي أفرزت أسماء جادة ومتميزة بصدق

إبداعها، وكذلك رواق نظر والملثم وهمزة وصل بالدار البيضاء، ولولا عزاؤنا في وجود بعض القاعات التابعة لوزارة الثقافة وأخرى لمؤسسات بنكية، لتعمقت الأزمة أكثر. لأن التردد على مثل هذه القاعات كان وما زال بمثابة فرصة لتصحيح رؤية المشاهد وتوجهه، بل وتهذيب ذوقه.

فباستثناء هذه القاعات وبعض الأمكنة بالمراكز الثقافية الأجنبية، لا يمكن تسجيل أية أهمية للفضاءات الأخرى النائية عن المركز (الرباط - الدار البيضاء)، لأن أغلبها يفتقد لدعم استراتيجي ثقافي، ولا يتوفر على أدنى المقاييس الممكنة للعرض.

لكن رغبة الفنانين في إعادة النظر في تغيير هذه الفضاءات قلبت موازين مفهوم العرض وكيفيته بالخروج من مكان ضيق (القاعة) لمكان أكثر اتساعا (الشارع) في محاولة لتقريب الفن من الجمهور، وإعطاء نفس جديد للتجربة التشكيلية المغربية، ونذكر من بين هذه المحاولات (تجربة جامع الفنا بمراكش 1969/تجربة طنجة/تجربة بن مسيك بالدار البيضاء/تجربة برشيد/تجربة أصيلة المستمرة لحد الآن(1)).

إذن فهذه التجارب تعتبر نقلة نوعية في تاريخ الفن المغربي، ومبادرة سجلت حضورها ولو بشكل

فهذه الأروقة لعبت دورا طلائعيا متميزا في بلورة الحركة التشكيلية بالمغرب وتطويرها، حيث عملت على اكتشاف طاقات إبداعية هامة وإبرازها، ووفرت للمشاهد فرصة استيعاب آخر الإنتاجات واحتكاكه بمبدعيها

بمقاييس الأحكام الخاصة بتصنيف العمل، حتى يساهم بشكل سليم في توجيه الحركة الإبداعية، والوقوف في وجه أي مسخ أو تحريف أو تشويه لمسار هذه الحركة.

وهذا ما نفتقد إليه في غالب الأحيان خاصة عندما يتعلق الأمر بمسألة تافهة قد تحددها طبيعة المنافسة المجانية، سواء للتباهي بالاعتماد على أسماء فنانيين دون فهم محتوى العمل بحكم علاقات زبونية، أو للتزيين، أو البحث عن ما يلائم باقي المقتنيات من (سجاد، وكراسي، وأثاث ...) لإكمال الديكور، ونادرا ما نجد اهتماما فعليا لهؤلاء «الجماعين» بكل ما هو إبداع حقيقي، وإذا ما لم يتم ذلك فلن يكون سوى من مؤسسات بنكية على الخصوص، باعتبارها قوة استثمارية قادرة على المجازفة والرهان، مستندة في ذلك على دراسة دقيقة لكل المعطيات، ومحددة لأفق إمكانية نجاحها.

إذن بعدما حاولنا في هذا المدخل المختصر أن نحدد بعض العناصر الفاعلة بشكل مباشر في التشكيل المغربي، سوف نحاول مرة أخرى أن نخترل المسافة لنستحضر بعض العطاءات والمحاولات الفنية الجادة ضمن تقنيات محددة (الصباغة الزيتية/النحت/الكرافيك) لتشكيلين مغاربة أثبتوا حضورهم

مرحلي، كما استطاعت أن توفر للمشاهد ولو لفترة معينة عبء التنقل للأمكنة المخصصة للعرض، وحفاظه على بيئته ونظافتها بل والدفاع عنها وسيلة من الوسائل الجمالية للتزيين، لكن تحديد نسبة نجاح هذه التجارب ومردوديتها، لا يمكن الجزم فيه الآن، ما لم يتم بعد تدوينها وتأريخها، وإصدارها في كتاب أو مجلة، خاصة وأن عمر كل جدارية لاتتعدى في غالب الأحيان سنة واحدة بعد إنجازها، إذن يبقى نجاح هذه العملية ومردوديتها رهينين في آخر المطاف بالوسائل التثقيفية، وبالجهد المكثف للمهتمين والمتابعين وللقطاع المسؤول عن صيانة كل ما هو ثقافي ببلادنا، لأن أهمية هذا الاشتغال ونوعيته هما خطوة إيجابية يمكن تحسينها مستقبليا إذا ما توفرت على الشروط الأساسية للتكيف مع المحيط المخصص لها، وبصمة من المفروض الحفاظ عليها لتبقى مرجعا بصريا.

فإذا كانت هذه القاعات والفضاءات من بين مكونات المرجعية التشكيلية بصفة عامة، ومنفذا لتحديد هوية الاتجاهات والأساليب وتطويرها، فإن دور المقتني أو الجماع collectionneur له أهمية هو الآخر من حيث ضمان سيرورة الفن والفنانين، شريطة أن يتوفر على دراسة ومعرفة تامة

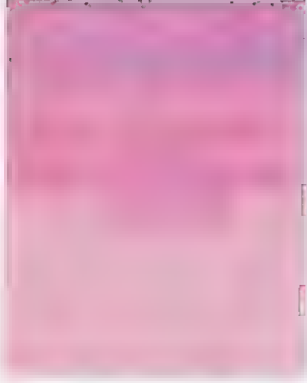
واستمراريتهم، وساهموا في إغناء هذه الثقافة البصرية ببحوثهم وإضافاتهم باعتبارهم عينة جديدة، تمثل حسب تقديرنا الحركة الطلائعية بالمغرب.

إن اختيارنا الشخصي للحديث عن هذه العينة وفرزها، اعتمد في مجمله بالأساس، على ما ترسخ في ذهننا، واحتفظت به ذاكرتنا من مشاهد جمالية تستحق المتابعة والتدوين من خلال المعارض الأخيرة لهؤلاء الفنانين.

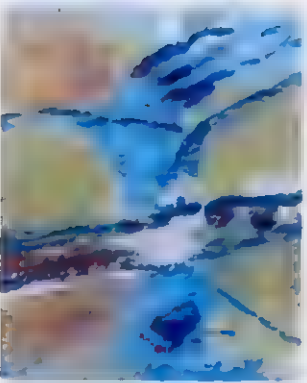
وقد قمنا بتصنيفهم على شكل ثنائيات حسب نوعية الاشتغال بدءا بالصباغة الزيتية ومرورا بالنحت، وانتهاء بفن الكرافيك. فمن آخر الإبداعات التي فرضت حضورها كيفيا داخل هذا الركام الكمي، نعر على تجربة متميزة للفنان مصطفى بوجمعاوي، كسرت بأصالتها وعمق تنظيرها نسق الابتذال والتكرار المتداول، فبعد أن أقام معرضه بفرنسا بدعوة من مدير متحف الفن الحديث (ببوردو) لتجهيز فضاء العرض هناك بعين عربية شرقية مع ثلثة من الفنانين المعاصرين في الغرب امثال (بيير راينو، إنزوكوتشي، نايم جون بايك، وولف كونك ليب، وجورج بازليت) يعود إلى المغرب ليكمل رحلته ضمن فضاء إبداعي، محملا برغبة جانحة في التعبير عن ما بداه فيما قبل تحت عنوان «القافلة

caravane» مشتغلا على سند الصحف أو الجرائد الذي استوحاه من ممارسته وواقعه اليومي لما لهما من دلالات مفاهيمية لها علاقة بالكتابة والصورة والخبر، ليحولها إلى فضاء مقروء بصيغة أخرى تتحكم فيها مقاييس تشكيلية بالدرجة الأولى مع الحفاظ على شكل اتجاه القراءة من اليمين إلى اليسار، واستبدالها برموز وعلامات تجريدية تتخللها صورة تشخيصية لقافلة من الجمال تكاد أن تصبح هي الأخرى كتابة، مع توظيف محكم للرمز (كأس الشاي) كعنصر تراثي له علاقة بالذاكرة العربية الجماعية بتقاليدها وعاداتها وكرم ضيافتها، فبتوظيفه كل هذه المكونات الفنية وخاصة من حيث الشكل بوصفه مادة بصرية، فإننا نستحضر مباشرة نفس العناصر المكونة لمنسمات الواسطي بهوامشها ورموزها، بل وأشكالها (الجمال) وتكسير فضاء إطارها، مما يؤكد مدى عمق اشتغال الفنان وإصراره على تحديد هويته وأصالته من خلال عمل انطلق من قاعدة تجسدية كادت أن تكون بداية لمغامرة تجريدية مازلنا ننتظر كيفية توظيفها وتطويرها.

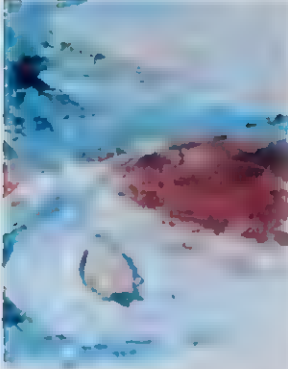
وقد عاينا عن كثب نوعية هذا الانتقال في أعمال الفنان بوشتي الحياياني بمثابة مرحلة عبور من التشخيص إلى التجريد بحثا عن



مصطفى بومعراوي



بوشتي الحياياني



بوشتي الحياتي

شغب الطفولة بكل تجلياتها، مع رصد جزئيات من هذه الذاكرة تتخللها ضبابية شفافة لصور البحر بقواربه وصياديه، لكن تجربته الأخيرة تعتبر منعطفًا جديدًا في مساره الفني وذلك بإضافة عناصر جديدة، واشتغاله على مواضيع لها دلالة تاريخية، وأهمية أدبية وإبداعية في قالب تشكيلي متميز ضمن عمل مشترك بينه وبين الشاعر (محمود درويش) من خلال ديوانه «أحد عشر كوكبا» مع تغييب للكلمة، واستحضار اللغة التشكيلية باستقلاليته الذاتية، لتعبر عن مضمون هذا الديوان ومحتواه، عبر صور ورموز وأشياء (كالجارة، والوثائق والمخطوطات، والساعات، والمفاتيح، والأقنعة، .. وغيرها)، وعرضها داخل صناديق توحى بفضاء مسرحي لأحداث تاريخية وسياسية وجغرافية واقتصادية عرفها العرب أثناء رحيلهم من الأندلس مجبرين بعد الطرد والهزيمة.

إن التفكير في استعمال هذه الصناديق لم يكن في الأصل عبثًا أو اعتباطيًا في عمل الفنان بعود بقدر ما كان صياغة جديدة للتعبير عن فكرة الرحيل وجمع الأمتعة وتخزينها داخل فضاء محكم، مع التأكيد على ثنائية وظيفية استلهمت صورها من «أحد عشر كوكبا» لتتجسد داخل أحد عشر صندوقًا.

حركية الشكل والمادة بتناقضاتهما ليبرز عملية الانتقال من مرحلة إلى أخرى وتسجيل سمفونية لونية بنغمة متوازنة، معتمدا في ذلك على المزج والتوليد في تكوين اللون الرمادي المتفرع عن الأسود والأبيض، بمثابة نقطة تواصل بين عنصرين (الضوء/الظل) لا يمكن تعدادهما علميا ضمن قائمة الألوان رغم أهمية أحدهما بوصفه أصلاً تفرع عنه كل الألوان الموجودة في الكون.

إن الحركية في عمل الفنان الحياتي هي حركية غنائية بأشكال راقصة (مثلثات، مربعات ...) على الطريقة الطوطيمية بألوانها النارية البدائية، من حيث هي منبع لحيوية اللوحة وديناميكيته، حيث اللون في خدمة المادة، وقد لخص الناقد الفرنسي «مارك كونطارد» هذه التجربة في كونها «وبكل تأكيد، تحفة تحكي لنا بإمكانياتها المتواضعة والمدهشة تاريخ الكائن وقدر».

إذا كانت تجربة الفنان الحياتي ممرا انتقاليا بألوانه وأشكاله وحمولته الحكائية والسردية، فإن عمل الفنان عبد الإله بوعود يعتبر توطئة مباشرة لعمل تشخيصي منذ البداية، عبر فيه عن ذاكرة طفولية جماعية لها صلة بالزمان والمكان، وفضاءهما الثقافي والفيزيائي، حيث

تلك الصناديق استعملت في سياق مغاير عند الفنانة إكرام القباج، وإن كان القاسم المشترك بينها وبين بوعود في بعض الجزئيات هو حماية الذاكرة من الإلتاف والتلاشي، والمتجلية في بعض الأشياء المتعلقة بالإحساس الشخصي.

فتقنية التجميع المختلفة بموادها المستعملة هي التي ساهمت في استقلالية المنظور الذاتي من حيث التوجه وطبيعة الاشتغال، فإكرام القباج من بين الفنانات المغربيات القلائل اللواتي حملن مفهوما تشكيليا متطورا بعيدا عن التزييف أو الترفيه، متبنية وبجدية مسؤولية فاعلة في الحركة التشكيلية المغربية، وقد تتبعا مراحل تجربتها منذ الثمانينات إلى آخر معرض لها بالدار البيضاء ثم الرباط، والذي يختلف كل الاختلاف عن مشروعها السابق، وذلك بتغيير التقنية والمادة، وطريقة العرض، فبعد أن كانت تعرض منحوتاتها بالفضاءات الخارجية مستعملة الريزين والحديد، تحول هذا الاهتمام بين مرحلتين فاصلتين إلى الخزف الذي يختلف في مقوماته عن هذا الأخير، فالخزف مادة يسهل تمطيها أو تشكيلها عوض الحديد، مع العلم أن هاتين المادتين تخضعان لعامل مشترك (النار).

إن تجربة إكرام القباج هي تجربة

فتقنية التجميع المختلفة بموادها المستعملة هي

التي ساهمت في استقلالية المنظور الذاتي من حيث التوجه وطبيعة الاشتغال، فإكرام القباج من بين الفنانات المغربيات القلائل اللواتي حملن مفهوما تشكيليا متطورا بعيدا عن التزييف أو الترفيه، متبنية وبجدية مسؤولية فاعلة في الحركة التشكيلية المغربية،

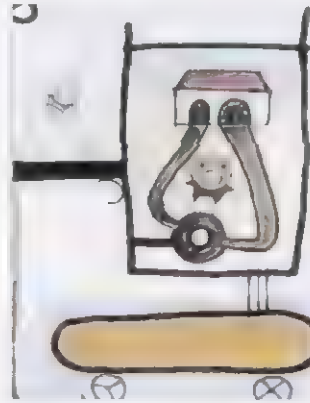
شبيهة بعمل مطبخي تنطلق من الجزء للكل، من خلال قطع خزفية صغيرة مختلفة في أحجامها، ولون ترابها وكيفية تصفيفها داخل الصناديق، خاضعة لتكوين دقيق مترابط ومتناسق في علاقتها مع فضاءها الداخلي الذي يحتويها (الصناديق)، وفضائها الخارجي (القاعة) لتكوّن من حيث هي قطع نحتية وحدة ونظرة شمولية، رغم انفصال أجزائها لتركيبات أفقية عمودية، ولن نستغرب لعناوين هذه المنحوتات إذا ما كانت جلقا أسماء نساء (المفضلة، للاختي، راضية، عوينتي ... وغيرها)، خاصة إذا ما ارتبطت هذه الأسماء بذاكرة طفولية عاشت تفاصيلها الفنانة إكرام القباج.

إذا كان الخزف وسيلة للتعبير عن ماهو شخصي في علاقته بنش الذاكرة وجماليتها عند إكرام، فإنه من وجهة نظر الفنان نبيلي سفر في عمق التاريخ ببعده الإنساني، ويمكن أن نصنف تجربته ضمن أهم التجارب الأخيرة التي قلبت موازين مفهوم العرض، وغيرت من نمطية المشاهدة الروتينية للأساليب المهيمنة والمتشابهة عند جل الفنانين المغاربة، خاصة إذا ما تعلق الأمر بتجربته الأخيرة، بإمكانياتها المادية الضخمة، وبخطيبتها الفني المحكم، باعتبارها محاولة للمزج بين مجموعة من العناصر (خزف، تراب، رمل ...)

في إطار تجهيز فضاء مفتوح (المعهد الثقافي الفرنسي) تعددت فيه الأشكال والرموز ببصماتها وحمولتها الثقافية، ومرجعيتها الإنسانية، بمثابة فعل شاهد على إنجاز جماعي ينتمي لحضارات متباعدة جغرافيا، ومتقاربة روحيا، في شعورها الجمعي (حضارة شمال إفريقيا وجنوب أمريكا خاصة الأنكا والأسطيك).

إن المتأمل في هذا التجهيز سوف يجد نفسه أمام حفريات تتطلب البحث، والتنقيب تحت ركام التراب، ليفسر لغز الرموز والوشم، وليحاول فك طلاسمها وفهم سر متعة المشاهدة والانجذاب، لذلك كان من الصعوبة بمكان، أن نصف مدى أهمية هذا المشروع ما دام الأمر متعلقا بإحساس وشعور داخلي، بوصفهما انعكاساً لصدق هذه التجربة وسلطانها الفنية على المشاهدين بجميع شرائحهم الاجتماعية. وفي إطار الحديث دائما عن مفهوم العرض والتجهيز installation وعلاقتهم بمخزون الذاكرة، لا يحق لنا أن نغفل تجربة الفنان عبد الكريم الوزاني، وهو تشكيلي ونحات مهتم بإشكالية الفضاء والمحيط بوصفها قضايا تطرح (الوزن، والتوازن، والحجم، والكتلة) على شكل معلمات متحركة، مع تغيير لأحجام الأشياء مستعملة ومشاهدة في الواقع (دراجة، شواية، صنبور ...) بتكبير حجمها أو تصغيره،

لا يحق لنا أن نغفل تجربة الفنان عبد الكريم الوزاني، وهو تشكيلي ونحات مهتم بإشكالية الفضاء والمحيط بوصفها قضايا تطرح (الوزن، والتوازن، والحجم، والكتلة) على شكل معلمات متحركة، مع تغيير لأحجام الأشياء مستعملة ومشاهدة في الواقع (دراجة، شواية، صنبور ...) بتكبير حجمها أو تصغيره، مع حضور لذاكرته الطفولية



عبد الكريم الوزاني

مع حضور لذاكرته الطفولية التي تختلف في توظيفها عن تجارب الفنانين الذين سبق ذكرهم، خاصة أنه في معالجته لهذا الموضوع ارتكز في تركيباته على تعامل مباشر مع أشكال تشبه لعب الأطفال بألوانها الزاهية، مع تجهيزها بفضاء الأزقة بمثابة قطع نحتية، تقمص فيها الفنان شخصية الطفل، ليصل لأقصى درجات الإبداع، متحررا من قيد التأثير الأكاديمي، وما شابه ذلك، ليعبر عن عفويته وصدق مشاعره بارتجالية فنية تنتهي في الأخير لعمل في غاية الإتقان.

وقد سبق أن أكد بعض النقاد على هذه الارتجالية المتقنة في عمل الفنان التيباري كنتور، لكن طبيعة عمل هذا الفنان تلغي هذه الخاصية، لكونه عملا تم فيه التفكير والتخطيط بطريقة عقلانية متأنية، لما يتطلبه من تهيئ وتجهيز مطبخي، خاصة عندما يتعلق الأمر بتقنية (الحفر).

إن الفنان التيباري كنتور لم يقتصر تفكيره على ابتكار الأشكال والألوان والمواد فقط، بل تجاوزه لصنع ورقه الخاص (من القطن) بمثابة سناد بمختلف أحجامه حتى يتحرر من قيد المواد المتداولة وسلطانها، ويتمكن من الإحاطة بجميع العناصر الإبداعية المكونة للعمل التشكيلي، انطلاقا من أبسط الأشياء التي قد

يعثر عليها بضيعته (طريق مدينة آزمو) التي يعيش بها في صمت، بعيدا عن صخب المدينة وضوضائها.

فالمتمأمل في عمل الفنان كنتور سوف يجد نفسه لامحالة، أمام شبه جدار متآكل بصدئه ونتوءاته وألوانه البنية، محملا بتخطيطات كرافيكية، وخربشات ورموز لها دلالات في الثقافة المغربية، مع إضفاء عنصر جديد (الورق المحترق) تعبيرا على حد قوله عن الأزمات التي يمر منها العالم العربي خاصة والإسلامي عامة.

إذن تبقى تجربة هذا الفنان تحولا متميزا في إطار الاشتغال بتقنية الحفر، وخطوة جريئة لاكتشاف إمكانيات أخرى لاستعمال آلة الضغط Lapresse.

أما الفنان عبد الكريم الأزهر باعتباره مختصا بدوره هو الآخر في تقنية الحفر، فهو لم يستعملها في غالب الأحيان بوصفها مادة تعبيرية في حد ذاتها إلا في الأيام الأخيرة، وذلك بقدر ما كان لها تأثير في مسيرته الإبداعية، وبقدر انعكاسها على شكل رسمه وطبيعته، إذا لم أقل صباغته، ما دام يستعمل في إنجازاته الريشة | ومادة المداد الملون.

إن مسرح الأحداث التي تدور في فلكها نماذج هذا الفنان هو عبارة عن مجموعة من الزنازن والحجر المرقمة

بنوافذها، حيث تحتضن أجسادا في أوضاع مختلفة حسب حالات معينة، تارة نابعة، وتارة أخرى منكسرة أو جالسة في حالة انتظار أو تأهب للمجهول، مع استحضار عامل زمني بأرقامه (الساعة).

وقد تم تكوين كل هذه النماذج داخل مربعات بإضاءتها الخافتة، وسوادها القاتم، محدثة بذلك تقابلا على مستوى الظل والضوء، استوحى تركيباتها بمثابة مرحلة عابرة، من واجهات البنايات بمدينة الدار البيضاء، بنوافذها وسكانها من موقعه باعتباره قاطنا بها هو الآخر، تعبيرا عن روتينية المشهد اليومي بعد الانتهاء من مشاق العمل طول النهار.

وقد بقي في الأخير أن نشير لتجربة تركت بصماتها في السنوات الأخيرة إلى جانب مثيلاتها التي أدرجناها ضمن هذا الموضوع، ويتعلق الأمر بتجربة الفنان بوشعيب هبولي، وهو أحد المغرمين بهوس البحث والاكتشاف، فبعد أن انتهى من مرحلة (مسحوق الجوز) لونا ومادة بأشكالها وأنماطها التجسدية (الطائر، الإنسان...) والتجريدية (البصمة)، انتقل لشكل آخر بوصفه نقطة تقاطع اجتمعت فيها كل الأشكال لتكون وحدة متناسقة ومتناغمة مع استعمال الألوان عوض اللون الأحادي، ليغني هذه التجربة ويبرهن على حداثة سياقها اعتمادا

أما الفنان عبد الكريم الأزهر باعتباره مختصا بدوره هو الآخر في تقنية الحفر، فهو لم يستعملها في غالب الأحيان بوصفها مادة تعبيرية في حد ذاتها إلا في الأيام الأخيرة، وذلك بقدر ما كان لها تأثير في مسيرته الإبداعية، وبقدر انعكاسها على شكل رسمه وطبيعته



نورالدين فاتحي

بينما عرفت تجربتي
اهتماما خاصا بكل
ما هو هامشي داخل
المجتمع أو بما سمي
بعالم الرصيف
بانكساراته وهمومه
ومعاناته

نوعية اختياراتنا الموضوعية، سواء
أتعلق الأمر بعلاقة الشعر بالتشكيل، أم
بتجاربنا الشخصية التي انطلقت
ثنائية وانتهت بخصوصيات فردانية
ذاتية مستقلة، حيث انصبت اهتمامات
الفنان فاتحي على ما هو أسطوري في
بعده الإنساني، بشخصه الخيالية
الفانطاستيكية وألوانه الترابية،
مؤسسا بذلك حوارا حضاريا كونيا،
بينما عرفت تجربتي اهتماما خاصا
بكل ما هو هامشي داخل المجتمع أو
بما سمي بعالم الرصيف بانكساراته
وهومومه ومعاناته التي اتخذت فيها
باختزال موقع المتسائل.

إذن هذه باختصار بعض مظاهر
الحركة التشكيلية الطلائعية بالمغرب،
اعتمادا على تقرير مشهدي ثقافي
للسنوات الأخيرة، مع اختيار مركز
لأهم المعارض التي عرفت الساحة
التشكيلية المغربية، مع احترامنا
وتقديرنا لكل الفنانين المغاربة الذين
لم ندرج أسماءهم ضمن هذا
الموضوع.

على أساليب وتقنيات معاصرة،
بالاشتغال على أعمال سيرغرافية
جهازه بتدخله في بعض جزئياتها.
وتغييرها عوض أن ينطلق من سند
أبيض، وقد أكسبت هذه المحاولة
عمله، إمكانية جديدة بتعدد ألوانها
واتساع آفاقها.

وعلى ذكر تقنية السيرغرافيا أو
الطباعة بالغربال، والتي يمكن
الحديث عنها باعتبارها وسيلة إبداعية
واستنساخية، تدخل ضمن التقنيات
الكرافيكية الأخرى كالحفر،
والليثوغراف، والمونوتيب، والكوبي
آرت .. فإن الساحة التشكيلية
المغربية تعززت مؤخرا، بتأسيس أول
جمعية كرافيكية في تاريخها تحت
إسم (ملتقى الفنانين الكرافيكين)
جمعت بعض الأسماء التي أدرجناها
في هذه الورقة سالفا، وساهمنا فيها
شخصيا صحبة الفنان نور الدين
فاتحي بحكم اشتغالنا المشترك بنفس
التقنية (السيرغرافيا) بمثابة وسيلة
خولت لنا إمكانيات متعددة، نتيجة



إبراهيم الحيسن

نظرة على التجريب التشكيلي المعاصر بالمغرب :

عشرة فنانين.. وعشرة أساليب تشكيلية .

أضف إلى ذلك التكوين الفني بالخارج (بولونيا، إيطاليا، فرنسا، بلجيكا، إسبانيا..) الذي منح مجموعة من التشكيليين المغاربة إمكانيات إبداعية مكنتهم - إلى حد ما - من إغناء تجاربهم وتطوير اختياراتهم الفنية..

وهكذا شهدت الساحة التشكيلية الوطنية نزوع الكثير من التشكيليين المغاربة - في إطار إثبات الذات وتأكيد الهوية الإبداعية - نحو الانفتاح على تيمات مستمدة من التراث الوطني والثقافة الشعبية المحلية من مثل محاوره العلامات والرموز (تجربة المرحوم أحمد الشراوي بمثابة نموذج)، وتوظيف الحرف والكتابة العربية، وإدماج البصمة والأثر، وتجريب المادة، والاشتغال على الجسد.. وغير ذلك من المفاهيم التي كانت تبرز فيها الأصالة بالمعاصرة وفق صيغ وأساليب معالجة متميزة..

يتميز التجريب التشكيلي والبحث الجمالي المعاصر بالمغرب بالثراء والتنوع، وذلك راجع بالأساس إلى تعدد المصادر المرجعية للفنانين وتغاير مناهج انشغالهم وطقوس إبداعهم. فضلا عن تفاوت تكوينهم الأكاديمي (أو العفوي) الذي لعب دورا رئيسيا في رسم المعالم العامة المحددة لفنهم..

ومن أبرز هذه المصادر مدرسة الفنون الجميلة بتطوان (المعهد العالي للفنون الجميلة راهنا) - المؤسسة عام 1945 من قبل الفنان الإسباني بيرطوشي - ومثيلتها بالدار البيضاء، وقد أسسها الفنان الفرنسي ماجوريل. فالأولى كانت تعتمد على التصوير التشخيصي/ Peinture figurative وإبراز المادة المجسمة، بينما تركزت الثانية (ذات التوجه الباريسي) حول التعبير التجريدي/ Expression abstraite المتسم بحرية الانتقال الخطي واللوني داخل مسطح اللوحة..

يتميز التجريب التشكيلي والبحث الجمالي المعاصر بالمغرب بالثراء والتنوع، وذلك راجع بالأساس إلى تعدد المصادر المرجعية للفنانين وتغاير مناهج انشغالهم وطقوس إبداعهم. فضلا عن تفاوت تكوينهم الأكاديمي (أو العفوي) الذي لعب دورا رئيسيا في رسم المعالم العامة المحددة لفنهم..

ومن أبرز هذه المصادر مدرسة الفنون الجميلة بتطوان (المعهد العالي للفنون الجميلة راهنا) - المؤسسة عام 1945 من قبل الفنان الإسباني بيرطوشي - ومثيلتها بالدار البيضاء، وقد أسسها الفنان الفرنسي ماجوريل. فالأولى كانت تعتمد على التصوير التشخيصي/ Peinture figurative وإبراز المادة المجسمة، بينما تركزت الثانية (ذات التوجه الباريسي) حول التعبير التجريدي/ Expression abstraite المتسم بحرية الانتقال الخطي واللوني داخل مسطح اللوحة..



محمد المليحي

يمكن تصنيف
التجربة الصباغية
عند الفنان محمد
المليحي بكونها
تندرج ضمن نمط
إبداعي جمالي
يتسم بإرسالياته
الإستيقية التي
تتألف وفق لون
صباغي مسطح
أحادي البعد، داخل
هذا السياق يبرز
أسلوب الفنان مكوّنًا
من مفردات جمالية
منسجمة

وقد يقول قائل بأن لوحات الفنان محمد المليحي يغيب فيها الموضوع، وإن ظهر فإنه يمثل تكرارا لمواضيع مماثلة. الموضوع - خلافا لذلك - كائن وموجود لكنه لا يظهر سوى في شكل تراكيب وتكاوين هندسية جمالية لازمت الفنان منذ مطلع الستينات (مشاهد طبيعية، بيئة بحرية، الموجه، الشعلة، اللهب..). تقرر لها لغة تشكيلية ولونية يستدعي فهمها البحث في دلالة الألوان والتفاعل بصريا مع الأسئلة (المرئية واللامرئية) التي تطرحها الطريقة المتبعة في تشكيل فضاء اللوحة.. موضوع اللوحة..

في هذا الصدد نجد الناقد التشكيلي اللبناني أسعد عرابي يقول: «تعكس هندسات المليحي طبائع نبضاته، خلجات شقيقه وزفيره وعروقه، حتى لتبدو وكأنها هندسات للروح رغم أنها أنجزت بالمسطرة والفرجار».

في أعمال الفنان محمد المليحي شعرية وشاعرية بصرية خاصة ناتجة عن توظيفات وتخليقات حسية أكثر منها مرئية.. ووجدانية متحركة وفق رhythms متدرجة محسوبة ظهرت أكثر خصوصا بعد عودة الفنان من نيويورك إلى المغرب (الانفتاح تجريديا على الطبيعة) حيث أصبحنا نرى في أعماله الفنية مشاهد طبيعية

وبما أن «التشكيل المغربي» لا زال يرتكز بصورة كبيرة على إنتاج اللوحة (في غياب شبه كلي لباقي الأجناس التشكيلية الأخرى) فقد تركز موضوع هذه الورقة، بوصفها مقاربة أولية، على عينة من التشكيليين المغاربة المعاصرين ممن أبدعوا جيدا في مجال التعبير الصباغي، والذين ينتمون إلى أجيال مختلفة (الرواد، المخضرمين، جيل الثمانينيات وجيل الشباب). وإن اختيار هذه المجموعة من الفنانين، دون سواهم، راجع بالأساس إلى ضرورات عملية وخاضع لطبيعة المصادر المرجعية (نصية/بصرية) التي تتوفر عليها. ولا يعني البتة الإقصاء أو الاستثناء.

1 - محمد المليحي: تموجات جمالية..

يمكن تصنيف التجربة الصباغية عند الفنان محمد المليحي بكونها تندرج ضمن نمط إبداعي جمالي يتسم بإرسالياته الإستيقية التي تتألف وفق لون صباغي مسطح أحادي البعد، داخل هذا السياق يبرز أسلوب الفنان مكونا من مفردات جمالية منسجمة (الخطوط والأشكال المتموجة، الألوان التزيينية المسطحة...) يتم وضعها داخل مساحات متجاورة، ومتماسكة تجمع بينها وحدة الفكرة والموضوع.

والعمارة وفي الأوشام، حيث أراد أن يستخرج منها لغة تشكيلية شعبية. كما حاول فك طلاسم هذه الرموز وفهمها من خلال نقلها بصدق وأمانة وإخلاص..

كما تكشف هذه اللوحات عن المعرفة الواسعة التي كان يتميز بها الفنان حيث كان على فهم ودراية واسعة وكبيرة بأمور الرسم الحديث وفاهما لبنيته وأسراره.. وقد سخر هذا «التفوق» لإبراز الطابع الوطني في لوحاته، متحديا بعض النوايا التي كانت ترمي إلى طمس كل المعالم المميزة لهويته الوطنية المغربية.. واستطاع أن يحقق (في ظروف صعبة) أمنية غالية ظل يحلم بها طويلا هي العودة إلى بلده المغرب الذي غاب عنه لفترة غير قصيرة من الوقت.. قال عنه أحد النقاد محلا إحدى مراحل الإبداعية: «لقد نجح الفنان أحمد الشرقاوي كثيرا في إدماج الأشكال والرموز وتصاوير الأوشام ورسوم الأواني الفخارية.. وغيرها داخل تراكيبه ساعيا إلى تكوين أبجدية أو لغة نوعية أصيلة وذات امتداد في آن واحد.. حيث أخذت لوحته تتبدل وأصبح اللون الأبيض مهيمن أكثر من قبل، وذلك لحصر الرموز وإحاطتها.. مع توظيف مهيمن للون الأزرق...»

ارتباطا بهذا القول، وعلى مستوى



أحمد الشرقاوي

تعكس اللوحات التي تركها الفنان الراحل

أحمد الشرقاوي

الاهتمام المتزايد الذي أولاه للرموز والعلامات الموجودة على الخزف وفي النسيج والعمارة وفي الأوشام، حيث أراد أن يستخرج منها لغة تشكيلية شعبية.

تجريدية فيها نفس رومانسي وتكونها مفردات تعبيرية جديدة كالللال والليل والنجوم..

ومن منظور كون اللوحة تمثل بشكل عام، مرآة عاكسة لشخصية الفنان تقول الناقدة والمؤرخة في الفن فاطن صفي الدين متحدثة عن زوجها محمد المليحي: «لوحات المليحي تحكي لناظرها شخصية هذا الفنان الذي تتجاذبه وتجذبه الأضداد على اختلافها: الحرية والانضباط. الواقعية والشاعرية. التثبث بالتراث والانفتاح على العصر، ويبقى المليحي في خضم هذا المدّ والجزر وفيا أبدا لذاته ولبحته الدائم عن سر الجمال والكمال..»

إجمالا يمكن القول إن أعمال الفنان محمد المليحي اتسمت باستعماله أشكالا (فورم) متموجة (وملتوية) بوصفها حركة جمالية في الفراغ.. أو بالأحرى تصميمات وتكاوين هندسية وإشارات لونية مستعارة من مرجعيات شعبية فولكلورية دينامية.

2 - أحمد الشرقاوي : علامات كتاباتية.. أم كتابات علاماتية؟

تعكس اللوحات التي تركها الفنان الراحل أحمد الشرقاوي الاهتمام المتزايد الذي أولاه للرموز والعلامات الموجودة على الخزف وفي النسيج

توصل إلى فنه التجريدي بعد إعداد
تصويري طويل، بينما وصل إليه
أحمد الشرقاوي بالرجوع إلى
الجدور. وقد نضيف إلى ذلك الفنان
ببسيير الذي كان يتردد كثيرا على
زيارة الفنان أحمد الشرقاوي بعد أن
أعجب بفنه ورسمه..

إن المتتبع لتجربة الفنان
الشرقاوي ستشده بصره تلك الكتابات
والرموز والأشكال الخطية التي تحمل
هوية شعبية.. بل ستدفعه إلى تفحص
بناءاتها وتراكيبها الغرافيكية المؤسسة
على تضاد شكلي ولوني مفعم
بالعديد من الدلالات والمعاني
الرمزية الكثيرة.. إنها لغة رمزية
ورامزة تستمد هويتها من عمق
الذاكرة الشعبية الجماعية استطاع
الراحل أحمد الشرقاوي أن يجعل
منها شكلا تواصليا ديناميا مشبعا
بروح صباغية في قالب
تشكيلي/غرافيكي حدائي متطور..

وبالطبع فإن فنانا مثل أحمد
الشرقاوي لا تكفي صفحة.. أو
صفحات معدودة للحديث عن تجربته
التشكيلية المتفردة.. وهي تجربة
منحته مكانة إبداعية راقية في وقت
كانت تعج فيه البلاد الأوروبية بمشاهير
ورواد الفن التشكيلي الحديث. والفنان
المغربي أحمد الشرقاوي لا يقل عنهم
فنا وإبداعا.

المعالجات اللونية، نسجل تركيز
الفنان أحمد الشرقاوي، خصوصا في
تجاربه الصباغية الأخيرة، على ألوان
خاصة يرتبط بعضها بالمرحلة
الصوفية التي عاشها (وهي مرحلة
تميزت باهتمامه بنصوص الحلاج)
مثل الأزرق والأبيض.. ويمكن أن
نضيف إليهما، في اهتمام لوني آخر،
الأحمر الكامد واللون الخبازي
(البنفسجي) والأزرق الكوبلتي
والأخضر الداكن والكستنائي الغامق
الضارب إلى البنفسجي وبعض الألوان
السمراء والمغرة المليئة بالقوة تعبيراً
عن حاجة نفسية لديه..

إن التصوير كما يبدو في لوحات
الفنان الشرقاوي يتسم بنوع من
المونوغرامية، بتعبير الأستاذ عبد
الكبير الخطيبي، بالمعنى الذي يظهر
أن الفنان يكتب لوحاته ورموزه أكثر
مما يرسمها وكأنها آتية من زمن بعيد
كما ظلت تردد الناقدة طوني
ماريني..

أليست الكتابة مرادفا للتصوير
كما يقول بول كلي؟ «أن نكتب أو
نصور.. هذا أمر واحد في نهاية
المطاف». فهذه التصويرية الكتاباتية
تعكس الانسجام الذي كان حاصلا بين
مبدعين كبيرين هما كلي والشرقاوي
والإعجاب الذي كان يوليه كلاهما
للآخر.. لكن الفرق بينهما يكمن - كما
يقول الخطيبي - في كون بول كلي

إن المتتبع لتجربة الفنان
الشرقاوي ستشده بصره
تلك الكتابات والرموز
والأشكال الخطية التي
تحمل هوية شعبية.. بل
ستدفعه إلى تفحص
بناءاتها وتراكيبها
الغرافيكية المؤسسة على
تضاد شكلي ولوني مفعم
بالعديد من الدلالات
والمعاني الرمزية
الكثيرة..



محمد القاسمي

فتداخل وتراكب هذه العناصر والأشياء وفق اختيار الفنان يوحى بوجود أجساد وكائنات تصطف.. وتتردد داخل فضاء اللوحة وكأنها تبحث عن شيء مفقود..

هكذا تبدأ علاقة الفنان القاسمي مع موضوعاته ومواده وأسندته (قماش، خشب، ورق..) حيث ينصهر داخلها باحثاً عن جسده.. جسد لوحاته.. وفجأة يبرز الجسد.. جسد الفنان وجسد اللوحة وكلاهما يعكس الآخر خارج إطار الزمن والفضاء والجنس..

إن الأجساد البادية في لوحات الفنان القاسمي هي أجساد ميثولوجية. بل آتية من زمان غير زماننا وتظهر في شكل «كائنات إنسية» ملائكية بكامل حفرياتها.. «ناتجة» عن تمكن الفنان من التلاعب بالمادة وتثبيتها فوق السند.. فهو يقوم بمراكمة مواد اشتغاله ومزجها بالصباغة (أو مزج الصباغة بها) لتصير هذه الأخيرة سمكة - تجمع بين مكوناتها الأحبال والأسلاك والخيوط وقطع الخشب والتغرية (الكولاج) بالورق والألياف الثوبية والخيش.. هكذا تبدو أوجه اللوحة عند الفنان - إنها دعوة للسفر عبر زمن اللوحة.. وعبر التاريخ.. وهذا ليس بغريب على الفنان محمد القاسمي المولع دائماً بالسفر حيث يعتبره

3 - محمد القاسمي : جسد اللوحة.. جسد الفنان..

ليس من السهل.. كما أنه ليس من الصعب الحديث عن تجربة الفنان التشكيلي المتألق دائماً محمد القاسمي اعتباراً لغزارة إنتاجه وخصوبة إبداعه، فضلاً عن حضوره القويم الدائم والمستمر في كل اللقاءات والمهرجانات العمومية العربية والدولية التي يستدعى للمشاركة فيها..

وبالطبع فإن القيام بقراءة.. أو مقاربة بصرية في إحدى لوحاته (الكثيرة) يعني النش في تجربة صباغية غنية ومحاولة استكناه خصوصية الخطاب التعبيري البصري لدى هذا الفنان الذي يتحوّل ويتطور بكيفية سريعة داخل الاستمرارية المميزة لمساره الصباغي..

فالسمة المميزة للوحات الفنان محمد القاسمي - خصوصاً الأخيرة منها - هو تميزها، على مستوى المعالجات اللونية والمادوية، بتداخل ألوان كثيرة كالأسود والأزرق بنوعيه الداكن والفاتح والأحمر القاني بمواد مختلفة ذات هوية كيميائية وأخرى طبيعية كالتراب والرماد ونشارة الخشب.. مشكلة بذلك امتداداً لليد الخاضعة لسلطة الدماغ.. أو لنقل بصيغة أفضل «خصوبة الخيال»..

إن الأجساد البادية في لوحات الفنان القاسمي هي أجساد ميثولوجية. بل آتية من زمان غير زماننا وتظهر في شكل «كائنات إنسية» ملائكية بكامل حفرياتها.. «ناتجة» عن تمكن الفنان من التلاعب بالمادة وتثبيتها فوق السند..

مرجعياته الأساسية في الخلق والإبداع والتواصل مع العلامات والرموز والألوان والمواد.. عبر أطراف العالم.

وهكذا يصح القول إن الفنان محمد القاسمي - داخل وخارج حدود تجربته - قد تألق في إعطاء القطعة الفنية بعداً أركيولوجياً متبدلاً حيث تأتي عنده في شكل أجساد رمزية وتعبيرية متنافرة ومتضاربة تعكس «جراً الإبداع» لديه. الجراً التي يتحدث عنها كثيراً ويؤمن بأساسياتها بصورة واسعة.. فهو بهذا يؤكد عدم البحث عن جمالية لا شكلية فحسب، وإنما الوصول إلى لغة تشكيلية واضحة (مقروءة) وأسلوب تعبيري يعتمد الأشكال والرموز المعروفة والمتوارثة أداة للتواصل ووسيلة لبلوغ تكوين تشكيلي حر ودينامي..

إن الحديث عن محمد القاسمي سواء مع حروفه التجريدية، أم مع أجساده المتلاشية، أم مع إيروتيكية بعض أعماله وتشكيلية شخوصه، أم مع أركيولوجية صباغته (كما هو الحال بالنسبة لتجربة أطلسيات) وبعض تنصيباته معناه الدخول في دهاليز قراءة هذه القطع الفنية، وهي قطع طريفة.. جريئة تنفرد بخصائص كثيرة منها :

- الحركة والسرعة التي تحدثها العلامات والتخطيطات العفوية (المدروسة) للخروج من السكونية

التي تطبع العديد من الأعمال التشكيلية المغربية والعربية..

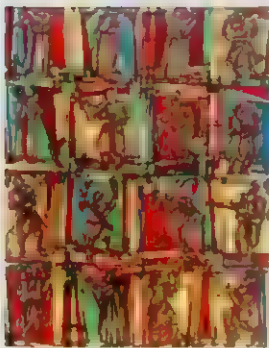
- المواد والأشياء المجتمعة على شكل تكاوين تشخيصية مستمدة من عمق خيال الفنان وتمنح العمل الفني حضوراً تشكيميا بالمعنى العميق للكلمة.

4 - حسين موهوب : من موسيقى الخطاب.. إلى خطاب الموسيقى..

الخطاب التشكيلي عند الفنان حسين موهوب عبارة عن موسيقى بصرية تكثر فيها الأشكال الحركية والراقصة.. وتتعدد لتصير المفردات التعبيرية الرئيسة التي أصبحت تلازم قماشاته وورقياته.. فهذا التوظيف المطلق لخطاب الموسيقى (أو الموسيقى من حيث هي خطاب) يجعل من لوحاته عالماً مفعماً باحتفالية الخطوط والألوان والتراكيب القائمة بينهما..

إنه أسلوب صباغي جديد من شأنه أن يؤسس لمشروع لوحة صريحة بخطوطها وألوانها.. ومنسجمة على المستوى الزماني.. لوحة ناطقة بأصوات متعددة تلتقي في نقطة بؤرية واحدة قوامها التجانس المطلق بين الخلفية والموضوع.. وبين الموضوع والخلفية..

الخطاب التشكيلي
عند الفنان حسين
موهوب عبارة عن
موسيقى بصرية
تكثر فيها الأشكال
الحركية والراقصة..
وتتعدد لتصير
المفردات التعبيرية
الرئيسة التي
أصبحت تلازم
قماشاته وورقياته..



حسين موهوب

فالفنان حسين موهوب يعرف جيدا كيف يمزج في أعماله التشكيلية بين تشخيصية هندسية/ Figuration géométrique قوامها التلاؤم القائم بين الخط والشكل واللون وجمالية الموضوع المستلهم (في أغلب الحالات) من التراث المغربي الأصيل الفني برموزه وطقوسه وعوائده الشعبية وفي مقدمتها مظاهر الأفراح وجلسات الشاي.. فهذا التوظيف المتشاكل للمفردات التعبيرية يجعل من أعمال الفنان حسين موهوب عالما صباغيا مفعما باحتفالية الخطوط والألوان، ويعبر عن تعلق الفنان بعادات وتقاليد بلاده.. بل يمثل طبيعة انتماه الحضاري والتراثي..

على مستوى التركيب يمكن الجزم بأن التأليف، التشبيك الخطي، التسطيح اللوني، هي أبرز الأوجه المتعددة التي تشكل اللوحة الواحدة عند الفنان، فترابك الخطوط الأفقية والمتعامدة والمنحنية.. يمثل عدم وجود الفارق بين القريب والبعيد.. وبين البعيد والقريب (إقصاء متعمد للمستويات) مما قد يعني تجاوز خصوصيات المنظور الأوقليدي في الرسم، وإتاحة الفرصة للمتلقي للدخول في علاقة بصريّة مع العمل الفني المحكوم بنسقية التسطيح ومزايا أسلوب البعد الواحد. العمق موجود لكنه لا يظهر سوى في الحالة التي نريد.. ويريد الفنان..

أما من حيث الألوان والمعالجات اللونية، فيتضح تركيز الفنان، في جل أعماله الصباغية على أحادية (مونوكرونية) اللون وبخاصة الأزرق في بعده التعبيري وليس الصوفي وفي أخرى تبرز بعض الألوان الدافئة. ومنها الأحمر والأصفر بأهم درجاتهما الطيفية..

وإجمالا يمكن القول، إن صيغة أعمال الفنان حسين موهوب «المجزأة» تكشف عن افتتانه بموضوع الموسيقى في جل تلاوينها وضروبها، فمن داخل هذه الأعمال (وخارجها) تبرز موسيقى إيقاعية تخترق العين قبل الأذن.. موسيقى ناطقة بأصوات بصرية تقوم على تأليف مزدوج.. وتكوين صباغي متآلف ومنسجم.. إنها أيضا نسيج خطي منفلت يتشكل من مفردات هندسية ومعمارية وأشكال بشرية متحركة راقصة هي في أصلها أجساد تتلاعب علي إيقاعات وترانيم موسيقية متنوعة.. هي بالتأكيد من عزف وتلحين الفنان..

5- عمر أفوس: تقاسيم نورانية..

تتميز التجربة التشكيلية الأخيرة للفنان عمر أفوس بولوجه في عالم يعج بالتصادم بين الضوء والظل.. بين النور والعتمة.. وبين الظاهر والخفي.. إنه اختيار صباغي يعكس انكباب الفنان على عالم الأشكال الحرة التامة

أما من حيث الألوان والمعالجات اللونية.

فيتضح تركيز الفنان،

في جل أعماله

الصباغية على أحادية

(مونوكرونية) اللون

وبخاصة الأزرق في

بعده التعبيري وليس

الصوفي وفي أخرى

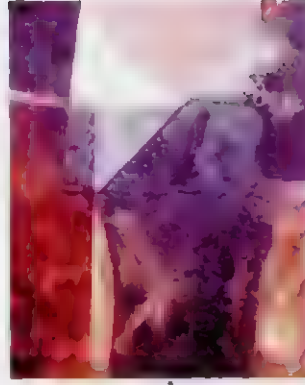
تبرز بعض الألوان

الدافئة، ومنها الأحمر

والأصفر بأهم

درجاتهما الطيفية..

مفهومي الضوء والظل، يكونهما يجعلان اللوحة ساطعة السطوح، وبذلك يغدو مفهوم اللون/الضوء العامل الأهم في تشكيل اللوحة وتأثيرها.. إزاء هذا التبرير يمكن اعتبار التقنية التشكيلية لديه (امتزاج التعبير الصباغي بنوع من القلق اللوني، استعمال ألوان ترابية بمختلف درجاتها الضوئية والظلية) هي مما يضيف على اللوحة طابعي الفرجة والتشويق على مستوى صراع الظل مع الضوء..



عمر أفوس

لوحات الفنان عمر أفوس فضاء تتصادم بداخله الألوان (الفاتحة والداكنة) لتفيض على مساحات صغيرة ومتوسطة غنية بتراكمات لونية صارخة.. تصادم ينتج عنه تفجر الضوء في الظل بما يشبه انتفاضة معلنة لنور متوهج.. وبياض نوراني متدفق خارج مدار الزمن.. زمن اللوحة..

إنها لوحات (أفوسية) تكاد تصرخ.. تستمد هويتها الصباغية من التمازجات الضوئية واللونية القائمة على الشفوف والكثافة وفق صورتين متضادتين، لكنهما مكتملتين بالضرورة، إنه حوار مزدوج الناطق فيه منطوق.. والمنطوق فيه ناطق.. تنبعث من داخله أصوات لونية متعارضة (كونتراست) تبوح بالضوء والعتمة.. وبالمادة المقدرة.. تنصهر

لوحات الفنان عمر أفوس فضاء تتصادم بداخله الألوان (الفاتحة والداكنة) لتفيض على مساحات صغيرة ومتوسطة غنية بتراكمات لونية صارخة.. تصادم ينتج عنه تفجر الضوء في الظل بما يشبه انتفاضة معلنة لنور متوهج..

المصطبغة بألوان اصطلاحية (داكنة أحياناً)، ويجسد رغبته الشديدة في خلق التوازن والتداخل الملائمين بين الضوء والظل.. بين الفاتح والقاتم باستعمال لمسات لونية خفيفة وسريعة بفرشاة غير مشبعة تمنح اللوحة شفافية لونية وبصرية سلسة..

في أعماله نقرأ بنيات مركبة تستند إلى مصادر وأسانيد أسلوبية وتعبيرية متضاربة تشكل حواراً معلناً بين المادة والسند من جهة.. وبين الفنان والقيم التشكيلية/ Valeurs Plastiques التي يوظفها (انزياح اللون، الشفافية اللونية، تقاسيم نورانية، صراع الظل والضوء..) من جهة أخرى..

ورغم أن الموضوع/التيمة (بالمفهوم الكلاسيكي للفظه) لا يدخل ضمن الاهتمامات الأولى لديه، فإن الفنان عمر أفوس، وبكثير من الجرأة التعبيرية - كما يحلو للقاسمي أن يستعمل - يتألق، على مستوى المفهوم، في إبراز التوليف الملائم بين الظل والضوء. فهو لا يتخذ الضوء (اللون)، أو اللون (الضوء) مادة للتشكيل الجمالي، بقدر ما يظهر عنده بمثابة مسحة شفافة تستجيب لإحساسات ورغبات ذاتية، يساعده في ذلك توظيفه التبريري لمواد صباغية يختارها وفق ذات الضرورة.

ويبرر الفنان عمر أفوس انشغاله، في غالبية لوحاته الأخيرة، بإبراز



ربيعة الشاهد

وبقعه وآثاره اللونية الشفافة. الداكنة أحيانا، بل يمكن اعتباره (أي فضاء اللوحة) محطة يلتقي فيها الظاهر بالخفي، الضوء بالظل، المحدود بالمطلق، أي أنه المكان الذي يلتحم فيه جسدان.. جسد الفنان.. وجسد اللوحة..

6 - ربيعة الشاهد : بحث دائم عن الحركة والضوء..

من يعرف الفنانة التشكيلية ربيعة الشاهد، سيعرف أنها فنانة ترفض السكون ودائمة البحث عن الحركة حتى داخل الحركة نفسها.. وهذا ما يتأكد من خلال الخصوصية المميزة لتجربتها الصباغية سواء في علاقتها مع الفرس - بوصفها تيمة ميزت إحدى أبرز محطاتها التشكيلية - أم مع المرأة من حيث هي موضوع محوري أصبح يشكل راها جانباً مهماً من انشغالاتها اليومية. إلا أن الثابت في هذا التنوع التيماتي هو الاشتغال على مفهومي الحركة والضوء مما يمنح اللوحة (أو الجدارية) عندها أوجها متعددة تظل مفتوحة على عدة قراءات وتأويلات (تشكيلية)..

فمن لمسات طويلة
وضربات فرشاة معلنة
وكميات لونية مقدرة
يبدأ التكوين التشكيلي
عند الفنانة ربيعة
الشاهد، مروراً بحركية
صباغية مضيئة تقررها
لغة لونية متعاقبة على
تضاد ضوئي مقروء

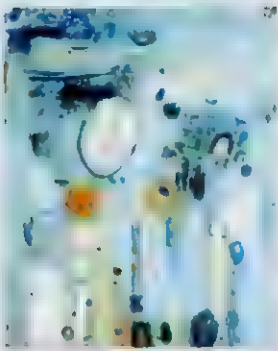
فمن لمسات طويلة وضربات
فرشاة معلنة وكميات لونية مقدرة
يبدأ التكوين التشكيلي عند الفنانة
ربيعة الشاهد، مروراً بحركية صباغية
مضيئة تقررها لغة لونية متعاقبة على
تضاد ضوئي مقروء ليتشكل

فيها- أي في الأصوات اللونية- حقائق متوارية تخفيها اللوحة أكثر مما يخفيها الفنان.

صيغة أعمال الفنان عمر أفوس الأخيرة تستدعي منا - بوصفنا قراء بصريين - تعميق الرؤية حول تلك التمازجات اللونية بين القتامة والشفافية الباعثة على وجود بياض نوراني يخترق ظلاماً بلون قاتم (تسوده الحمرة والألوان الترابية المعادلة لها).. إنه خطاب تشكيلي بلونين متمايزين ينفجر أحدهما على سديمية الثاني.. ويؤكد أثر الصباغة على السند بوصفه فضاء تتفاعل بداخله العلاقات اللونية وفقاً للرغبة الداخلية للفنان (من منظور كاندانسكي)..

إجمالاً يمكن القول إن أعمال الفنان عمر أفوس لا تنتمي - فكرياً - إلى تيار تشكيلي سابق، ولا تمثل تأثره بفنان معين.. بل تمثل استقلاليته الذاتية إزاء التعبير التشكيلي في صورة محدثة. هذا النمط الحدائي يشكل سنداً معنوياً لدى الفنان أفوس لترجمة إحساساته على مسطح اللوحة بتقنية خاصة ومتطورة لدرجة يمتزج فيها الشعور مع اللاشعور.. لدرجة التحرر..

خلاصة، يمثل فضاء اللوحة عند الفنان عمر أفوس إطاراً دينامياً متبدلاً بمادويته وتلاوينه وتشكيلاته



أحمد الأمين

على مستوى تركيب اللوحة / Composition يلاحظ التحرر الكبير الذي يسم فضاء التعبير عند الفنانة ربعة الشاهد التي لا تؤمن بالضيقة والحدودية الأمر الذي يساعدها كثيرا على حرية الانتشار الخطي واللوني (تجاوز المساحات اللونية) مهما صغرت مقاسات اللوحة وحدودها.

7 - أحمد الأمين : لوحات من ورق..

إن ما يميز التجربة الراهنة عند الفنان التشكيلي أحمد الأمين هو كون العمل الفني عنده يبدأ بتهيئ الخلفية - انطلاقا من (تفريش) الورق وقصاصات الجرائد بشكل تسوده بعض التواءات (الروليف) الناتجة عن تقنية الطي غير الخاضعة لمقاييس هندسية.. لكنها موجهة وفق رؤية فنية تشكل قاعدة للانطلاق. هكذا يبدأ التكوين التشكيلي بالشكل الذي يقرره الفنان داخل مساحة توالدية حرة غير مؤطرة.. أو محاطة بإطار معين.. وقد نستنتج من خلال هذا التحول على مستوى الشكل، خروج الفنان أحمد الأمين من دائرة (كان) يحس فيها بنوع من الضيق والحصار.. حصار الأتوبيس.. حصار الغلاء.. رتابة العيش.. باحثا عن فضاء واسع ورحب.. وولادة إبداعية جديدة ستميز لا محالة المسار الفني للفنان أحمد الأمين..

الموضوع (الفرس - المرأة) في صورة تتأرجح بين التشخيصية (أو الرسومية) المتضائلة وما يشبه التجريد.. في هذا السياق تغدو اللوحة أو (الجدارية) (أو الرسومية) عند الفنانة ربعة الشاهد فضاء تؤلف بداخله مفردات لونية نورانية وضاءة تتغاير بحسب اقتراحاتها البصرية المفعمة بالكثير من الدلالات والمعاني الطيفية حيث تسهم اللمسة (المدروسة) في تحديد المعالم العامة لموضوع اللوحة.. موضوع يتجاوز صورته التشبيهية (أو المشبهة) إلى حالته التشكيلية - شبه التجريدية - التي يستمد أسسها من العلائق اللونية والكروماتيكية التي تتفاعل في ضوئها..

في لوحات الفنانة ربعة الشاهد (خصوصا الأخيرة منها) أثر كبير لفعل اللون على السند (القماش - التوال تحديد) بمثابة مجال تتألسن بداخله السلايم والدرجات اللونية - المقترحة وفق حسابات تقنية متجانسة. إنها تعبيرية لونية حدائية ترغم الناصت إليها (بأذن العين) وتستدعي من الناظر لها (بعين الأذن) الانخراط المباشر مع ما تبعثه من إرساليات أيقونية تظهر في شكل مساحات صغيرة ومتوسطة غنية بتراكمات لونية صارخة ومتدفقة وإشارات خطية متحركة (بكل حميمية) داخل حدود الموضوع..

إن ما يميز التجربة الراهنة عند الفنان التشكيلي أحمد الأمين هو كون العمل الفني عنده يبدأ بتهيئ الخلفية - Fond انطلاقا من (تفريش) الورق وقصاصات الجرائد بشكل تسوده بعض التواءات (الروليف) الناتجة عن تقنية الطي غير الخاضعة لمقاييس هندسية..

على مستوى المعالجات اللونية
نقرأ تركيز الفنان أحمد الأمين على
عنصر التمازج اللوني (داخل
مساحات متجاورة تشكل الفضاء
الكلي للوحة) الباعث على الضوء
والشفافية بشكل قد يعي إلغاء
الحدود بين ألوانه.. ألوان لوحاته..
ويلجأ الفنان أحمد الأمين غالبا إلى
إكساء جوانب كثيرة من قطعه الفنية
ببعض التغليفات الكتاباتية والخطية
والحروفية، مما يمنحها هويات
متعددة تتداخل فيها المدارات
والمستويات

إن الكتابات التي تبرر على مسطح
اللوحة بالشكل الذي يؤلفها الفنان
أحمد الأمين تحيل القارئ (البصري)
على عالم الرموز بأبعادها الشعبية
والمعتقدية والخرافية والتعويذية
(قراءة الكف والطالع، الحروز،
الحجاب..).

ويمكن القول إن اختيار الفنان
أحمد الأمين لمادة الورق سندا
للاشتغال (وهو ما يقترن كثيرا بتقنية
ليؤكد التغيير الكلي
الذي أصبح يميز تجربته التشكيلية
الحالية) بعد الاشتغال سابقا على
أسندة معايرة كالكرتون والقماش
والخشب) وهي تجربة لا يمكنها أن
تنضج وتتطور خصوصا إذا علمنا أن
فضاء الاشتغال تمثله مدينة ازموور
منطقة
والإبداع..

إنها مغامرة إبداعية جديدة قرر
الفنان الأمين خوضها وكله تفاؤل
مادام يؤمن بقدراته ومؤهلاته الفنية
على تطوير أوراق لوحاته.. ولوحات
أوراقه.. وتحويلها إلى مادة للتشكيل
الفني والجمالي التعبيري..
اللوحة/الورق.. أو الورق/اللوحة. في
هذا السياق، عبارة عن معالجات لونية
تتفاعل فيما بينها طبقا لاقتراحاتها
البصرية الغنية بالإرساليات
والخطابات الأيقونية.. معالجات
تتجاوز دورها الوصفي والتشبيهي
لتصل إلى حالتها التشكيلية التي
تستمد هويتها من العلائق اللونية التي
تتألف وتتآلف على ضوئها..

سيف سوب للفنان أحمد الأمين
في هذه التجربة (المثقلة بخاصية
سحب متحسنة تسندني مد
بوصفنا قراء بصريين تعميق التأمل
في «جنيالوجياها اللونية».. بل
لمساءلة بناءاتها وانتشارها.. أو لنقل
محاورتها.. وفي ذلك محاورة غير
مستقيمة

8 - عبد الكريم الأزهر: بين عين الفنان.. وعين المتلقي..

تتميز التجربة الصباغية عند
الفنان عبد الكريم الأزهر بتعدد
المحطات والوقفات الإبداعية. والتي
بدأت ملامحها الرئيسية تتضح
خصوصا بعد مرحلة البيضاء 1987
المتسمة بالاشتغال على الإنسان بأهم
ملاحمه وحركاته وانتظاراته بمثابة

ومنها الخدوش والتعرجات اللونية والصبغات التلوينية المتوارثة (ضوءاً) بكثير من الأحمر القاني والأصفر الساجي والأزرق الكوبلتي (الهادئ) ببعض درجاته الضوئية..

فمحاورة الفنان لأعين لوحاته لدليل على انشغاله بقضايا إنسانية تهمة (وتهمنا).. وتكبر بداخله دون أن تنفصل عن كينونته.. ولهذا تبرر العين وتظهر في أعماله بمثابة شاهد عيان ومراقب خصوصي بتعبير الكاريكاتوريست الراحل ناجي العلي.. بل وتعكس ترصداته لإيقاعات لعيش اليومي..

العين في لوحات الفنان عبد الكريم الأزهر سفر افتراضي للتأمل في كنه الأشياء المنسية.. هي سلسلة نظرات متتالية بانتقالها وتحديقها.. وكأنها تسجيل لرؤى داخلية ساكنة.. تمثل عناصر مستمدة من الواقع.. واقع الفنان.. وثبوت هذه العناصر يضمن لها الحد الأدنى من الاستمرارية داخل المسافة الفاصلة بين العين الدارسة/القارئ والعين المدروسة/اللوحة، مع عدم وجود عين ثالثة منتجة ومتفرجة في هذه الحالة (على ذاتها)، هي عين الفنان..

9 - محمد الحميدي : بساطة اللون.. بساطة الشكل..

تنطوي التجربة الصباغية عند



عبد الكريم الأزهر

العين في لوحات الفنان عبد الكريم الأزهر سفر افتراضي للتأمل في كنه الأشياء المنسية.. هي سلسلة نظرات متتالية بانتقالها وتحديقها.. وكأنها تسجيل لرؤى داخلية ساكنة.. تمثل عناصر مستمدة من الواقع.. واقع الفنان..

تيمة محورية ميزت لوحات الفنان.. بعد ذلك تحوّل هذا الإنسان إلى عناصر ومفردات رمزية بدأت بالأرقام والأحرف مروراً بالأشهر ورفوف الخزائن قبل أن تستقر في شكل أعين متراصة، وأخرى- فيما بعد - مبعثرة ومتراكمة..

إن حضور العين - تشكيل في لوحات الفنان الأزهر، هي بداية تكسير المساحات الرباعية المتقايسة والمتراصة التي لازمت الفنان طويلاً.. إنها أيضاً لغة مشهدية مكتوبة بحروف ناظرة.. ترسم حضوراً مقروءاً (بالعين) في الزمان والمكان.. مادامت علاقة العين بالمكان هي التي تحدد فاعلية العين زمانياً..

اختزالاً لهذه المرحلة/التجربة تبرز الأعمال الصباغية الراهنة للفنان الأزهر في منحها التعبير الإيحائي المشبع بحضور إنساني شفيف.. يومض خلف الأشكال والمساحات اللونية المؤطرة والخطوط المتطائرة..

فاستخدام خطوط رخوة ضاربة نحو كل الاتجاهات - بمثابة شكل من أشكال الربط بين المساحات الجغرافية المقترحة داخل وحدة الموضوع - تجعل الشكل واللون ينسابان في لدونة صافية، مما يمنح الفنان القدرة على استشفاف البنية الداخلية لعناصر التكوين والتكوين.

اللوحة على المسطحات وفسحات اللون ومطلقاته..

إن اللوحة وفق الشكل الذي تتألف به عند الفنان الحميدي لدليل على حرفية هذا الأخير وقدرته على تحويل الرسم التشكيلي (أشكال حرة، كائنات شكلية) إلى تصوير مسطح يعج بالحركة والنبض الحي الناتجين عن تفاعل الأشكال المترابطة وصرامة السطوح وتعايق الكتل اللونية..

محمد الحميدي ذاكرة بصرية وطنية يستدعي منا التفكير الجدي والجاد في استثمار تجربته الإبداعية وبحثه الجمالي الراقي والمتميز بكل تأكيد..

10 - صلاح بنجكان : تشطبيات لونية تنطفئ فيها ملامح الأشياء..

بعد مرحلة الاشتغال على العلامات والرموز المستعارة من مرجعيات طفولية.. ومرحلة السفونيات الزرقاء المتسمة باستعمال الفنان الكثير من الألوان المجبولة من توجهات لونية ذاتية تسودها الزرقة، بأهم مستوياتها الطيفية، بمثابة رمز للأفق واللامتناهي مرورا بمرحلة

الرماديات الملونة / Les gris colorés التي تعد مغامرة إبداعية جديدة قرر الفنان خوضها وكله عفوية وتلقائية موجهة.. نجد الفنان التشكيلي صلاح بنجكان - في مرحلة صباغية موالية



محمد الحميدي



صلاح بنجكان

الفنان محمد الحميدي على قيم جمالية خاصة تتمثل في اعتماده الأشكال الهندسية والكتل اللونية الاصطلاحية المنتشرة بكيفية «متوازنة» داخل فضاء اللوحة.. بل تظهر في شكل أساليب تعميمية بنائية مستمدة من عمق التجريدية الهندسية المحكومة بنسقية تعبيرية وجمالية في آن..

في هذا الإطار تغدو لوحات الفنان الحميدي فضاءات مبسطة لا تتضمن عمقا.. لكنها تضم مفردات تعبيرية تدل على العمق.. ومنها الأشكال العضوية المحورة، الرموز الكونية، الكتل المترابطة، فضلا عن بعض التخطيطات الهندسية الموحية الغارقة في التجريد والترميز.. والمشبعة بتكثيف لوني وتعزيد صباغي بنائي يغطي كل المساحات..

بهذا المعنى يتضح نزوع الفنان الحميدي نحو اختزال العالم المرئي، وإعادة صياغته وفق صورة منمنمة يتوازن فيها الحسي والمادي والروحي.. إنه خطاب تشكيلي جديد يتطلب فهمه التأمل جيدا في تلك البناءات والإنشاءات اللونية التشكيلية (الرمزية) التي تكونه.. خطاب يستعير مفرداته الرئيسة من داخل «الفن التقليدي» الذي بات يميز أوروبا وأمريكا خلال الستينات.. لكن الفنان الحميدي يعيد (شكلته) وفق رؤية حدائية تنهض على فكرة انفتاح

يكثُر فيها التشطيب اللوني - يقتحم السند دون اتفاق مسبق.. وفي غياب أية طقوس جاهزة.. فالاندفاع يولد الإبداع.. هكذا تنطق لوحاته.. فمن الشارع والمرسم والطبيعة (فضاءاته الإبداعية المفضلة) يستدعي الفنان بنجكان اللوحة قبل أن تستدعيه.. يخلقها ويؤلفها دونما تخطيط قبلي (كروكي).. فخلال العمل «يكلم» اللوحة بفنية خاصة ثم يهجم على السند بدون توقف.. مادام لا يؤمن باللوحة التي تصنع على دفعات (اللوحة المفبركة).. في عمق لوحاته الأخيرة المتسمة بتوظيفه التبريري للعائلة اللونية الرمادية توجد تكوينات لونية متعددة هي في الأصل عبارة عن تشطيبات تنطفئ فيها ملامح الأشياء.. تكوينات تكسوها تخطيطات بصماتية تضمن الحد الأدنى من الملامح الأساسية دون تأثير أو تشويش.. تساهم في إحداثها ضربات فرشاة معلنة وغير معلنة.. طويلة وعريضة. وتمنح اللوحة صفة التشخيصية الإيحائية /

Figuration connotative الأقرب إلى الترميز بدل الإفصاح.. هكذا تبدو لوحات الفنان صلاح بنجكان وتظهر راسمة غياب الأشياء بدل حضورها.. وداعية القارئ إلى تذكر ملامحها وصاحب الفضل في ظهورها ألا وهو الفنان..

إن هذا المنحى الصباغي الجديد

إن هذا المنحى الصباغي الجديد سيدفع الفنان بنجكان إلى الغوص في تجربة أخرى تظهر في ضوئها تشكيلاته الصباغية.. وصباغاته التشكيلية التي تعج بشهوانية لونية دافئة تذوب بخفة على السند (ورق- قماش) ومحتفظة بآثار ضربات الفرشاة ونزواتها اللونية وكأنها كدمات، أو رضوض لونية متجمعة..

ورق- قماش) ومحتفظة بآثار ضربات الفرشاة ونزواتها اللونية وكأنها كدمات، أو رضوض لونية متجمعة..

سيدفع الفنان بنجكان إلى الغوص في تجربة أخرى تظهر في ضوئها تشكيلاته الصباغية.. وصباغاته التشكيلية التي تعج بشهوانية لونية دافئة تذوب بخفة على السند (ورق- قماش) ومحتفظة بآثار ضربات الفرشاة ونزواتها اللونية وكأنها كدمات، أو رضوض لونية متجمعة..

بهذا يصح لنا الحديث على أن الفنان بنجكان ينتج لوحات ذات كثافة لونية (داكنة/شفافة) تستوعب تناقضات الألوان في انصهار موحد.. وتنطفئ فيها ملامح الأشياء المرسومة..

وخلاصة القول إن هذه الورقة كانت تروم بالأساس، الحديث عن طبيعة التجريب التشكيلي بالمغرب من خلال مقارنة بعض الأعمال التشكيلية لأجيال من الفنانين ينتمون إلى حقب إبداعية متفاوتة. كما لاحظنا من خلال هذه المرحلة الجمالية، أن التشكيل بالمغرب قد أخذ أدواته الفنية من تراث ممارسيه وواقعهم المعيش، وظل في الآن ذاته منفتحا على الإبداع الإنساني بمختلف تجلياته، وبذلك يصح القول، إن التشكيل بالمغرب - من خلال تعميق الخبرات وتطوير التجارب - يمكن له أن ينخرط، بوعي، في حركية تتطلع بنضج إلى آفاق جمالية جديدة ومتميزة بالمعنى الإبداعي للكلمة.

نورالدين فاتحي



التشكيل الحداثي ومسألة التواصل

اختراق الحدود

نحو مستقبل ممكن، يفترض مصاحبة اللوحة التشكيلية، والاستئناس بها، ومحاورتها بصريا، حتى يتم التآلف.. تآلف تتواضع أمامه المفاهيم وما تفضي إليه القراءة وتنبهر أمامه العين، ويتسرب النظر إلى عمق المادة صلبة اللون - النور والعتمة.

هكذا تتم العلاقة بين المشاهد والمشاهد، عبر ممرات العشق والاستكشاف، لا عبر مسالك المعنى الوثوقي الذي يحد من حرية العمل التشكيلي وطموحه، المعنى هنا يتحول إلى مسخ للوحة، تحويل لغوي مشوه للشكل واللون والتكوين والمادة.

تأمل العمل التشكيلي، ومصاحبه في أفق نظري يقترب عبره المشاهد والمكتوب، تتحطم فيه الجدران القائمة بينه وبين سواه من أجناس التعبير الفني والثقافي، إذ يبرز اتجاهات الإبداع، ويتم الوعي بانشغال

ليس التشكيل كوكبا مجهولا يستحيل السفر إليه، بل هو فضاء لقاء ومعاينة. خط أو شكل، الواحد منهما يفتح أبواب التاريخ ويلج بياض المجهول.. لون يفصح عن مآل شعب وآلامه ومعتقداته.

اللوحة التشكيلية تنتمي للحياة، هي سؤال حول حركات الإنسان في الكون، وفي ملازمة السؤال تتجلى مقومات التجربة وتبرز ركائزها وتتجدد مفاهيمها، فأن يصبح السؤال ملازمة معناه تغيير مستمر للرؤية ومصاحبة صادقة، نقدية. صريحة للإبداع، وبالتالي للحياة.

التشكيل، بهذا المعنى، حامل لأفكار وصور وأسئلة وطقوس وآثار حضارة - حضارات تخطو فينا. هكذا نصبح حاملين بدورنا لتجارب سابقة نجتاز بها عتبة المستقبل في رحيل لا ينتهي.

اجتياز العتبة ذاك، خطوة أولى

التشكيل، بهذا المعنى،
حامل لأفكار وصور
وأسئلة وطقوس وآثار
حضارة - حضارات
تخطو فينا. هكذا نصبح
حاملين بدورنا لتجارب
سابقة نجتاز بها عتبة
المستقبل في رحيل لا
ينتهي.



محمد القاسمي
سيرغرافيا

هكذا تنتمي تجربة
القاسمي للحياة في
حركتها وتمظهرها،
أي تحولها. وتتمحور
حول الذات المبدعة
بوصفها أداة
وطاقة، وليس
مشروع «مديح
الخيال، أو «الهرم
الأزرق»، (الذي لم ير
النور)، إلا سفرًا في
الزمن عبر الزمن
والمادة اللونية،
يتحول فيه الهرم
المركزي إلى عتبة
اجتياز..

متاهات الخطوط السوداء ذات الإيقاع
الموسيقي التراجيدي.

يؤسس العمل الفني على واقع
معين، حسب مفاهيم تشكيلية تؤرخ
لرؤية خاصة، وذاكرة جماعية تكون
مفتاح خريطة الكون. والقاسمي حين
يصور لنا فضاءات الأطلس، فهو لا
ينقل لنا مشهدًا بعينه، وإنما يجسد
علاقة ميثولوجية خاصة - ذاتية بينه
وبين المنطقة، ينصهر مع فضاءها
وترابها وذاكرتها وزمنها الممتد. إنه
سفر ذهني وجسدي في أحضان
المنطقة يثبت آثاره على اللوحة عبر
تسرب المادة إلى عمق السند، وعبر
بروزها على السطح محدثة نتوءات
ومسالك، تتمثل حركة التاريخ
والأسطورة. من ثم، تتحول الحياة
بكل انفعالاتها إلى ألوان ومواد
وحركات في تكوين فضائي معين.
يستمد أبعاده من خصوصية تشكيلية
عربية - إسلامية قائمة على النظرة
الفوقية - الربانية - ، وعلى تفجير
الأشكال، وتفتيت الأحجام والتراكيب
خارج إطار اللوحة أحيانًا.

هكذا تنتمي تجربة القاسمي
للحياة في حركتها وتمظهرها، أي
تحولها. وتتمحور حول الذات
المبدعة بوصفها أداة وطاقة، وليس
مشروع «مديح الخيال» أو «الهرم
الأزرق»، (الذي لم ير النور)، إلا سفرًا
في الزمن عبر الزمن والمادة اللونية،
يتحول فيه الهرم المركزي إلى عتبة
اجتياز..

الذات المبدعة بقضايا الوقت، هنا قد
تتكون التجربة بمعنى المعرفة
والاختيار والتحدي.

سفر في الزمن:

ضمن هذا السفر التأملي يمكننا
تناول مسألة التشكيل الحديث
والتواصل، حيث يكون الوقوف على
قاعدة تراثية، نسعى من خلالها إلى
حدائثنا الممكنة، فالتراث يسكن
الحديث ويعيش فيه، والحديث وإن
تنكر للقديم يحمله في ثناياه ويجتاز
به العتبات.

في سفرنا هذا، لا نصف الأمكنة
ولا نحدد الأزمنة ولا نتفرج على
الأحداث والأشخاص بتعال، بل نعيش
تلك الأحداث، ونصافح الأشخاص،
ونتسكع بين أحضان المنطقة،
نستحضر أزمنتها، وأساطيرها،
وحركات تضاريسها.

هنا قد يتحول الجسد إلى مكان،
تتصل أعضاؤه - تضاريسه بتضاريس
المنطقة، فلا يمكن للعين العادية
رؤية ما يفصل الجسد عن مكانه -
محيطه - فضائه، كما هو الحال في
لوحة محمد القاسمي، حيث يتلاشى
الجسد في المكان ويذوب فيه،
فالأرض المعلن عنها بالمساحيق
البنية والرمادية والصفراء الرملية
والحمراء النارية، تحمل الجسد في
أحضانها وتخطو به نحو مستقبل ما،
يثبت آثاره الفنان ويجسد أزمنته عبر

الأزل.. تنسجم في نشيد لمقام الإياب
ولتقييد الريح.

هنا يتحول الإبداع إلى حركة إلى
طاقة نجتاز بها مسالك الأزمنة
الآتية..

رموز النور:

يخترق الفضاء الفزيائي حدوده
ويمتد إلى فضاء الذهن، حيث لا
حدود للاتساع، وحيث النور عماء،
والحقيقة مصاحبة السؤال واستئناس
القلق.

العين لا ترى في اللوحة، لوحة
الأزهر، غير جسد واحد في وضعيات
متعددة داخل مربع يكرر ذاته بدون
انقطاع، يؤطر حركة الجسد، ويحوّله
إلى أرقام، وإلى اتجاهات تختزل
مناهات الأزمنة المفقودة، وربما
الآتية أيضا.

يتحول الجسد في لوحة الأزهر
إلى رقم أو زمن أو اتجاه أو معادلة
ضياح غير مرتقب. هو تحول أفرزته
الحياة المعاصرة، يختزل الإنسان في
أرقام محددة، رقم ولادة، رقم بطاقة،
رقم جواز سفر، رقم ملف عمل، رقم
تأجير، رقم هاتف، رقم منزل.. رقم
قبر.

ومن رقم إلى آخر تتراص
المربعات وتتراكم. تزدهم ويتقلص
حجم الإنسان، تنزع منه فردانيته، ثم
ملاحمه، حتى لا يتبقى منه غير شبح.



عبد الكريم الأزهر

العين لا ترى في
اللوحة، لوحة الأزهر،
غير جسد واحد في
وضعيات متعددة داخل
مربع يكرر ذاته بدون
انقطاع، يؤطر حركة
الجسد، ويحوّله إلى
أرقام، وإلى اتجاهات
تختزل مناهات الأزمنة
المفقودة، وربما الآتية
أيضا.

طقوس المكان:

تسكن الأزمنة المكان، توشم
رموزها على الجدران، تؤرخ الأساطير
والبطولات، وتكشف عن مواطن السر
والسحر والمجهول.

للمكان ذاكرة. تسكن مراه
وسقفه الممتد على رؤوس المارين عبر
التاريخ، مسترشدين بتيه العلامات
الموشومة على صدر الجدران. أسلك
مع المارة بهوالمكان بين الحجرات،
هذه حجرة للعاشقين، وهذه حجرة
لرابط العقود ومقرري المصير، وهذه
حجرة للخانات العظمى..

هنا بين عمق الصمت، أصفي
لتموجات الصور الآتية من أحشاء
المكان وهوامشه، حيث تؤخذ
القرارات الخطيرة، وتمتلك قلوب
الأحبة.. تبدو لي الأقمار أقرب إلي
من جسدي، أما جسدي فقد أبعدته
النسيم إلى أعالي الأفكار، حيث السفر
لا يكون إلا عبر سفن الزمن البطيء،
فالذهن إن لم تغمره زرقاء ماء وهواء،
تسطع منه حمرة نور مقرون برحيل
الماء وحريق المكان. بمصاحبة
الإبداع يترمم الخراب - يترمم
المكان، يجتاز عتبة المستقبل بولوج
المحال، ويتخذ من المادة التشكيلية
صورته الأبدية. على اللوحة تنسجم
حركات أجساد الشعراء والفلاسفة
والبخلاء والشحاذين وأبطال الليل.
بحركات توريق السقوف وكتابات
الجدران، وبأقمار الضجر وبأفلاك

ظل تعكسه أشعة نور ضعيفة آتية من نافذة مرتبطة بوضعية الجسد داخل فضاء المربع.

النور بهذا المعنى، يصبح حاملاً لرموز ومفاهيم تشكيلية وحياتية تعكس انشغال الفنان بقضايا زمنه.

الحبر على هواه :

في العصور الأولى من تاريخ الإنسان، حيث كان الكهف يمثل فضاء للاحتماء والتناسل والتأمل، شعر الإنسان بحاجة قوية إلى اكتشاف الكون والسيطرة عليه، لم يكن يومها يميز بين نشاطاته، فحركاته كانت متجهة كلها نحو حياته، وليست الرسومات والرموز والآثار المثبتة على فضاءات الكهوف إلا محاولة تأمل وكشف وسيطرة.

من هنا كانت الرموز والعلامات وسيلة معرفة واتصال، من خلالها يكتسب الكون لغته ومدلولاته في ذهن الإنسان. للرمز استمرارية في التشكيل المعاصر، وكأن الإنسان مهما تقدم وتعصرن ما زال هناك ما يشده إلى بدايته، إلى زمنه الأول، المنفلة.

يؤسس مصطفى بميش مشروعه الفني على أنقاض هذا الماضي.. مسألة التراث واردة في تجربته كقاعدة استناد، وكمجال بحث وتطور.. فالماضي لا يعني مقبرة التراث، وإنما ذاكرة نخطو بها عتبة المستقبل في رحيل أبدي.



مصطفى بميش

تتكون الرموز في لوحة بميش الحفرية وفي القطعة الطينية، على إيقاع فوضى الحرية، وتتشابك الخطوط وكأنها سيلان الحبر على هواه وتمتزج الألوان في اصطدام، وكأنها موج حبر هائج.. لست أدري كيف اختار الفنان مواده وأدواته، ولا كيف جعل من الحفر والطين لغته الخاصة. هل الأمر يتعلق بحنين إلى عصر الأجداد الأولين؟ أم هل هو عشق لصخب الطين وبهاء الرمز المحفور على صدره؟ كيفما كان الحال فالتكامل وارد والانسجام لغة يوحد من خلالها بميش مجالات تجربته ومفاهيمها المتعددة.

هكذا في مواجهتنا لغة بوصفها وجهاً آخر للشكل واللون والمادة التشكيلية نخترق مجالا آخر للتأمل، للتواصل، للحوار.

فعل الاختراق صاحب فعل الإبداع منذ الأزل، منذ أول رسم تخطيطي للحيوان المستهدف، الطريدة.. هكذا يصبح الاختراق فعلاً طقوسياً، واختياراً للإبداع والحرية.. لطخة صباغة على ورقة بيضاء تحملنا إلى الأزمنة المفقودة، تعبر بأجسادنا مسالك الأزمنة الآتية نحاور بها الكون وتحاورنا.

تتكون الرموز في لوحة

بميش الحفرية وفي

القطعة الطينية، على

إيقاع فوضى الحرية،

وتتشابك الخطوط، وكأنها

سيلان الحبر على هواه

وتمتزج الألوان في

اصطدام، وكأنها موج حبر

هائج..



بوجمعة العوفي

التشكيل المغربي : أسئلة الأفق والتجريب

1 - الأفق والتجريب :

كثيرا ما تلوح أو تتردد في الممارسة الجمالية وفي الخطاب النظري حول التشكيل المغربي بشكل عام. مسألتا الأفق والتجريب، باعتبارهما إمكانييتين متاحيتين دائما لاختبار العديد من الرؤى وصياغات البحث الجمالي. الكفيلة بتطوير التجربة الفنية ونقلها إلى مستوى التحقق والاكتمال، أو باعتبارهما أيضا، مؤشرين لمقدمة قد تكون ضرورية لتأسيس واختبار كل اتجاه أو تيار أو أسلوب فني له خصوصيته وملامحه الواضحة، وبالتالي : هويته.

ولا يكاد توصيف نظري ما، سواء في الممارسة الإبداعية التشكيلية أم في النقد، يخلو من أسئلة وترقيات الأفق والتجريب شرطا أو ممارسة تتجه بالتعبير التشكيلي إلى المستقبل، هذا المستقبل الذي يظل كذلك مفتوحا على أسئلة أخرى، غير

جمالية أحيانا، تحددها أو تفرضها الشروط العامة لإنتاج الفن واستهلاكه وتذوقه.

أسئلة الأفق والتجريب في التشكيل المغربي، هي ما سيحاول هذا الاقتراب مناوشته. توصيفه. ضمن الغاية السؤالية، الاستشرافية لعنوان هذا الاقتراب : «التشكيل المغربي» أسئلة الأفق والتجريب، من جهة، ثم دفعه، ربما، إلى مستويات أخرى من الاستقرار والاشتغال من جهة ثانية. عل ذلك يشير أو يساهم، على الأقل، في الدعوة إلى تأسيس مشروع قراءة أخرى، مغايرة للتجربة التشكيلية بالمغرب، في النقد كما في الإبداع، بالاستحضار العام كذلك لكل الأسئلة الظاهرة والمضمرة، الواعية وغير الواعية في الخطابات والتجارب التشكيلية المغربية الحاضرة والمرتبقة، هذه الممارسة الجمالية الباذخة، المتعددة، القلقة، الواعدة، والحديثة نسبيا في العين وفي التاريخ.

كثيرا ما تلوح أو تتردد في الممارسة الجمالية وفي الخطاب النظري حول التشكيل المغربي بشكل عام، مسألتا الأفق والتجريب، باعتبارهما إمكانييتين متاحيتين دائما لاختبار العديد من الرؤى وصياغات البحث الجمالي، الكفيلة بتطوير التجربة الفنية



حسين موهوب

إن النص الجمالي
بحث في الرؤية
والأسلوب وتوصيف
للاشتغال الفني، وهو
الأفق الذي طالما
أدركته أو اقتربت
منه، على الأقل،
بعض التجارب
التشكيلية والقرائية
في المغرب

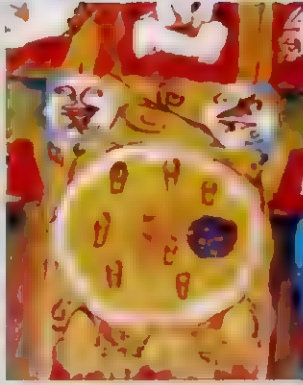
هنا لا يعني بالضرورة تفسير التجربة الفنية تفسيراً تاريخياً أو نفسياً أو اجتماعياً بالأساس، رغم أن عوامل النفس والاجتماع والتاريخ، سواء كان هذا التاريخ عاماً، جماعياً أم شخصياً، هي ما يحرك دوافع الإبداع الإنساني ويحرض عليه في الزمان وفي المكان، ويمنحه بالتالي تحقيقه أو عدمه في الأفق الذي ينتسب إليه. إن المشروع هنا هو حاجة هذه التجربة الفنية إلى القراءة أو التأويل أو التفسير الجمالي كذلك، القراءة التي لا يكون رهانها متمثلاً في المساعدة على فهم التجربة الفنية فقط، بل في إمداد هذه التجربة وتزويدها، وخصوصاً في نماذجها الواعية، بالرؤية والنص الجماليين، فهما اللذان يخصبان الممارسة ويفتحانها على المزيد من الأسئلة والحركة والبحث. إن النص الجمالي الذي تنتجه المشاريع القرائية والتأويلية والتدوينية القائمة على معرفة جمالية واسعة وأساسية، هو بمثابة رافعة كبرى للتجربة الجمالية ولمشروعها الحضاري، تدعمه وتقويه، وتضعه بالتالي على عتبة الإبداع المضيء. إن النص الجمالي بحث في الرؤية والأسلوب وتوصيف للاشتغال الفني، وهو الأفق الذي طالما أدركته أو اقتربت منه، على الأقل، بعض التجارب التشكيلية والقرائية في المغرب، إذ تمكنت من خلق الممارسة والبحث الجماليين، من خلق

ما المطلوب راهنا من الخطاب النظري حول التشكيل المغربي والجماليات بشكل عام، في ظل الأفق والتجريب وأسئلتهما الملحة والمتعلقة؟ التحسيس أم التأسيس؟ القراءة المستلهمة والمتضمنة لكل مكونات الإنجازات الفنية وتمظهراتها وتمثلاتها وحتى الإرهاصات التي تلوح في قلب التجربة الإبداعية الراهنة ورحمها أو عينها المخصصة بفعل التلاحقات وشتى أنواع القطائع؟ أم تأويل التجارب بما لا تحمله أيضاً في منجزها الحاضر والممكن من بناءات وأسئلة وبياضات؟ هذه أسئلة المنطلقات كما يبدو، أسئلة التجربة تحديداً، النقد التشكيلي بالمغرب، والمقصود هنا شقه المحترف، لم يقرأ بعد ولم يؤول بما فيه الكفاية التجربة التشكيلية المغربية، كما لم تقل أو لم تدون بعد هذه التجربة مخزونها الثقافي ومدخرها الحضاري والجمالي، ولم تحاور هذه التجربة بعضها بالقدر الضروري من التباعد والاقتراب كذلك. ما معنى هذا الكلام؟ وما المقصود أساساً بمشروع قرائي-تأويلي خاص بالتجربة التشكيلية المغربية؟ يقرأها ويؤولها ضمن معرفة تاريخية وجمالية غير بعيدة عن السياق الذي أنتجت فيه؟ إنها أسئلة الأفق من دون شك، أفق التجربة التشكيلية المغربية بسنديها الإبداعي والنظري، ومشروع القراءة أو التأويل

نصها الجمالي الخاص أو، بالأحرى، أفقها التعبيري والتأويلي الشخصي بالكثير من الجهد والتأمل والقلق.

هل آن الأوان كذلك، بالنظر إلى التراكم الكمي والنوعي الذي حققته التجربة التشكيلية المغربية، رغم حداثتها في الزمن، للحديث عن إمكانية، بل ضرورة تأسيس أفق نظري - معرفي للقراءة التشكيلية والجمالية بالمغرب بصفة عامة، ليتحقق بالتالي لهذا المنجز الفني وتجاربه المتعددة نوع من التقعيد المعرفي والقرائي، بالإضافة إلى نوع من التكامل ما بين الشق النظري في المعرفة الجمالية والشق التجريبي أساسا في هذه التجربة؟

كيف يكون الجمال معرفة بهذا المعنى؟ ذلك أمر صعب المناوشة، في اقتراب بسيط من هذا النوع، على الأقل، ويحتاج إلى الكثير من الوقت والتأمل والاشتغال، وهو متروك حتما للمشروع الفكري والنقدي والجمالي برمته في المغرب وغير المغرب، كي يصوغ ملامحه وعناصره وبناءه بالأسئلة والمعرفة والتجربة الضرورية لذلك. نحتاج فقط إلى مفكرين عاشقين للجمال وقريبين من لغته، أو بالأحرى، شديدي الاتصال بأحلام مبدعي الجمال والأشكال «الصامتة» للعمل الفني. وربما يضطلع الشعراء بهذه المهمة أيضا،



محمد قنييو

باعتبارهم السلالة الأقرب، رمزيا، إلى دم المادة واللون والقماش، أو لحساسيتهم الشديدة تجاه الجمال، وربما تظل - فيما أعلم - الكتابات المضيئة للأعمال التشكيلية، في أية جغرافية فنية كانت، هي التي كتبها الشعراء ضمن الأفق الرمزي لشعرية الجمالي. وحتى الأصوات النقدية الأساسية في حقل التشكيل المغربي أو الجماليات بشكل عام، كانت دائما أصواتا شاعرة، أو لها علاقة مباشرة ووطيدة بالشعر⁽¹⁾.

وفي انتظار تحقق هذا الأفق الممكن، نعود إلى أسئلة الأفق نفسه وتشوفاتها الممكنة كذلك، بالرؤية والمسافة اللتين تفصلان التجربة التشكيلية المغربية عن هذا الأفق وتصلانه به في نفس الوقت، هو النقطة التي قد تكون أفق انتظار حقيقي لهذه التجربة أو محطة متباعدة في المستقبل، تطمح التجربة إلى إدراكها بالتجريب والتراكم الضروريين، أو هو (الأفق) بكل بساطة ليس سوى ذلك الشرط الطموح في الترويج الواسع للأعمال الفنية التي أرهقها الكساد الطويل وعدم الانتشار، طبعا دون بعض الأسماء والتجارب التشكيلية القليلة التي تدعمها وتروجها بعض المؤسسات و«سوق فن»⁽²⁾ بغير ضوابط ومواصفات فنية حقيقية، بوكلائها ووسطائها médiums

الكتابات المضيئة
للأعمال التشكيلية، في
أية جغرافية فنية
كانت، هي التي كتبها
الشعراء ضمن الأفق
الرمزي لشعرية
الجمالي. وحتى
الأصوات النقدية
الأساسية في حقل
التشكيل المغربي أو
الجماليات بشكل عام،
كانت دائما أصواتا
شاعرة، أو لها علاقة
مباشرة ووطيدة بالشعر

ومعلقة في الهواء، والتي من دونها قد لن تصل هذه الأحلام الملونة، المعجونة بأرق المبدعين إلى الناس.

إن الحديث عن التجريب في التشكيل المغربي، بمعناه المتحول وغير الناجز دائما في التصور والممارسة، التجريب المتجه نحو تحقيق الصيغ النهائية للأعمال الفنية وأشكال البحث الجمالي، يستدعي الحديث عن الأفق الخاص لهذا التجريب، بصيغة المفرد أو بصيغة الجمع، وحتى بالأسئلة العامة التي تمهد لهذا الأفق وتشير إليه: ما الذي يشكل هذا الأفق/الآفاق، ويجعلها ممكنة. قائمة. ويؤسس لها في القراءة والتحقيق والإبداع؟ التجربة- الممارسة في حد ذاتها؟ أم تحولات المجتمع بصفة عامة، وبروز دور ما للفن داخل هذا المجتمع؟ من أين؟ وكيف يمكن أيضا تحديد سمات هذا الأفق ورهاناته البعيدة في تخصيب الذاكرة الجمعية الخاصة والبلوغ إلى ذاكرة الآخر وثقافته؟ من ماض ما، قريب ومشوش لهذه التجربة أم من المنجز في تراكمه الحاضر وما يأتي ويتأسس أيضا في مستقبل التجربة التشكيلية المغربية من مشاريع فنية، ورؤى، وأفكار، وحتى من «أحلام فنية» يصنعها المبدعون بفراغات اليد خارج المادة والقماش، وصيغ البحث الشخصي والجماعي في أفق تطوير وترسيخ تجربة فنية خصبة ومميزة؟

المتخصصين. وربما تكون التجربة، أيضا، خارج وعدّها الإبداعي، من غير أفق ترويجي حقيقي ومن دون انتشار، إلا ما تقدمه للعرض بالمجان بعض المعارض التي تقام هنا وهناك؟ أو ما تحفظه العين العاشقة وذاكرة كتابات قليلة (الأدب بالخصوص)، من توصيف وانطباعات عابرة أحيانا، أو ما يتسرب خلصة وبعد جهد جهيد إلى معارض العالم ومتاحفه المخصصة للذاكرة الذاتية أو «الغائبة» فقط !

2- أسئلة الأفق:

نريد أن نكون متفائلين، وبما يفوق التباس الأفق وغموضه وحيرته كذلك، ونتقصى أولا صيغة هذا الأفق ومكوناته وأسئلته، كي يتسنى لعين المشاهدة والقراءة أن تستوعب ما لهذه التجربة وما ليس لها من جهة، ثم ما يمكن أن يهيئ حقيقة للقبض على هذا الأفق المحلوم به لهذه التجربة من جهة ثانية. ثم لكي يتم وضع التجربة برمتها على عتبة السؤال المستقبلي ومِحْته، والذي بقدر ما هو سؤال جمالي صرف ومتعدد الأبعاد، هو سؤال وظيفي ونفعي كذلك، يقود مباشرة إلى مسألة انتشار العمل الفني ورواجه، وحاجة المجتمع إلى الفن بشكل عام، هي الحاجة التي بوسعها أن تشكل الأفق الحقيقي لهذه التجربة الجمالية التي ما زالت بعيدة عن النظر

هذه الأسئلة كلها، في نظري، وغيرها من الاستقرارات النظرية والجمالية التي تحبل بها التجربة التشكيلية المغربية، هي جزء من أفق التجربة نفسها ومدخل محتمل للمشروع المعرفي - القرائي والجمالي الكبير، الذي تنتظره التجربة. وما تقوم به بعض التجارب القرائية والتدوينية المعاصرة القلقة في التشكيل المغربي هو حصر الأسئلة الأساسية لهذا الأفق - المشروع، كي يتسنى لها أولا، قبل خلق الأفق، تهيئ الذوق لفهم التجربة وتأسيس ثقافة الجمال وانتشاره، وبالتالي خلق الحاجة الحقيقية إلى الجمال، هذا السؤال الكبير الذي تنشغل به التجربة التشكيلية المغربية كذلك بتفاوتات واشتغالات وأسئلة متباينة، هو الانشغال القلق الذي يحرك أيضا ويوجه جل صيغ التجريب في التشكيل المغربي.

3 - أسئلة التجريب :

نظريا، يمكن حصر مسألة التجريب في التشكيل المغربي ضمن سؤالين رئيسيين : ماذا يعني التجريب؟ وكيف؟ وبينهما تنهض أسئلة محورية أخرى، تلقي بضوئها وظلالها على كل خرائط التجربة وبؤرها السرية والمعلنة : من أين يبتدئ التجريب في التشكيل المغربي؟ وهل كل ممارسة فنية راهنة، قائمة في التداول

والعرض، لم تلج بعد تاريخ الفن ومتاحفه، ولم تخلف لنفسها أو لم تنتظم بعد ضمن تيار أو اتجاه فني واضح المعالم، مؤطر ومعترف به نقديا، هي تجريب بهذا المعنى؟ أو بالمعنى الذي يجعل هذه الممارسة غير قادرة على مجاوزة الأساليب والاتجاهات الفنية السائدة عالميا ومحليا؟ ما هي حدود هذا التجريب وصيغه؟ ومن أو ما الذي يجعل، بالتالي، هذه الممارسة الفنية الغامضة في التشكيل المغربي تجريبيا؟ وما الذي يسميها؟ يوصفها؟ يؤطرها؟ ويحدد لها الإجراء أو الشرط المعرفي والجمالي الضروري، كي تعبر مرحلة التجريب إلى التحقق والاكتمال، وتواصل بالتالي استشرافها الخاص للروى وأساليب التعبير الفني التي تصبح بدورها، بعد مرحلة التحقق، تاريخا، وأفقا يؤثر في ما حوله وما بعده من صيغ التعبير الجمالي وأشكال التعبير الفني؟

نظريا، يمكن حصر مسألة التجريب في التشكيل المغربي ضمن سؤالين رئيسيين : ماذا يعني التجريب؟ وكيف؟ وبينهما تنهض أسئلة محورية أخرى، تلقي بضوئها وظلالها على كل خرائط التجربة وبؤرها السرية والمعلنة

هل يساوي التجريب البحث La recherche بالضرورة؟ وما هي منطلقات هذا البحث وأرضيته؟ صيغته؟ أدواته؟ مستويات انشغاله واشتغاله؟ دعائمه المعرفية وشروطه الجمالية الضامنة لعناصر أصالته وحدائمه وانتسابه الثقافي للعين الشخصية وثقافة الكون بشكل عام؟ أين يمكن موضعة التجارب التشكيلية المغربية الفطرية Naïves ، أو حتى



امحمد الشريف

وربما تكون التجربة
التشكيلية المغربية
بكل أجيالها قد
جربت كل شيء،
وحاولت كل شيء،
من الأفكار إلى
الاتجاهات الفنية
العالمية إلى أنماط
التعبير التشكيلي إلى
آخر تقليعات
"الحداثة"، باستثناء
مسألة التجريب
الجماعي وحوار
التجارب، هذه
الإمكانية الكفيلة
أيضا بتحقيق
التشاقف المطلوب،
والتلاقح المطلوب،
والتمايز المطلوب

التشكيلية المغربية، مما يصعب معه
تعميم حتى مسألة التجريب، بالمفهوم
المعرفي - الإجرائي السابق، على كل
الاشتغالات القائمة في التشكيل
المغربي. ما العمل إذا، لخلق هذا
التجريب الواعي، المستوعب لشروطه
وغاياته المعرفية والجمالية،
والتحريض عليه؟ بالمعنى الذي يجعل
العين قادرة على فهم ما تراه واليد
التي تبدع يكون بمقدورها أن توصف
وتتحدث أيضا عما تبدعه؟ وربما
تكون التجربة التشكيلية المغربية بكل
أجيالها قد جربت كل شيء، وحاولت
كل شيء، من الأفكار إلى الاتجاهات
الفنية العالمية إلى أنماط التعبير
التشكيلي إلى آخر تقليعات "الحداثة"،
باستثناء مسألة التجريب الجماعي
وحوار التجارب، هذه الإمكانية
الكفيلة أيضا بتحقيق التشاقف
المطلوب، والتلاقح المطلوب،
والتمايز المطلوب كذلك خارج
تجريب منفرد، منعزل في هذا
المرسم أو ذاك، على هاته القماشة أو
تلك. لماذا لم تمارس التجربة
التشكيلية المغربية، عبر أجيالها،
وبشكل متواصل ومفتوح، مسألة
التجريب الجماعي أو المختبرات
الجمالية الجماعية التي ساهمت، ضمن
تجارب عالمية أو عربية أخرى، في
تطوير البحث الجمالي والدفع بأسئلته
وصيغته إلى حدودها القصوى، وربما
إلى شكل من أشكال تحقيقه الممكنة؟

تلك التي تشغل بـ"الموهبة" فقط،
ودون قلق ووعي معرفي وجمالي، من
هاته الشروط المعرفية والجمالية التي
يقوم عليها مسار التجريب والبحث في
التشكيل المغربي؟

الأسئلة كثيرة ومتناسلة، والأجوبة
قليلة ومتباعدة أيضا في الزمن وفي
التجربة، في العين وفي اليد التي
تصنع هذا الجمال وتراه، والتجريب
الراهن في التشكيل المغربي لا يقوم
كله على إجراءات أساسيين في كل
تطور جمالي، الإجراءات المعرفي الذي
يقضي بامتلاك الفنان لقدر معين من
الأسئلة الخاصة بالحقل التشكيلي
وغير الخاصة به، ولا تعني المعرفة هنا
الاقتصار فقط على تكوين نظري
معين أو الاطلاع على تاريخ الفن
وحده، كي ينخرط الفنان كليا في
أسئلة التجريب وآفاقه، بل تعني
المعرفة هنا الإحساس القوي، المرهف،
الواعي بالجمال وشكله وطاقته
التعبيرية بالأساس، والمعرفة هنا تعني
الخبرة الأكيدة بالجمال والمجال
كذلك، بما في ذلك ثقافة العين
والحواس. ثم هناك الإجراءات الجمالي
الصرف الذي يحيل إلى المعرفة
التقنية والرؤية الفنية وتركيب
العناصر في العمل الفني وامتلاك
الأدوات. كل ذلك يمكن اختزاله في
سؤالين اثنين بسيطين ظاهريا فقط،
بماذا نبدع؟ وكيف؟ وكل ذلك غير
متوفر بما فيه الكفاية في التجربة

لقد حدث ذلك ويحدث بالفعل داخل التجربة المغربية، على مستوى بعض الجماعات أو المجموعات أو المحترفات الفنية القليلة ببعض المدن المغربية الكبرى (الدار البيضاء) وببعض الجامعات، لكن هذه المحترفات الفنية تظل قليلة بالنظر إلى حجم خريطة الإبداع التشكيلي المغربي واتساعها، ولا تفي بالحاجيات الأساسية لعملية التجريب الفني، الواعي بشروط المعرفة الجمالية والتجريب الجمالي، ثم إن هذه المحترفات غالبا ما تظل اشتغالاتها ونتائج بحثها حبيسة أسوار هذه المحترفات نفسها، ولا تتجاوز فضاءها الداخلي إلى باقي التجارب الصامتة أو الهائمة على وجهها في حقل لا تؤطره، في الغالب، لا ضوابط نقدية ومعرفية جمالية واضحة، ولا إجراءات خاصة تميز الجيد من المتواضع والضحل كذلك في الأعمال الفنية، وبالتالي لا تؤثر هذه المحترفات الفنية في ما حولها من تجارب، بل حتى الكثير ممن يمارسون الإبداع التشكيلي لا يعلمون بوجود هذه المحترفات.

ثمة أيضا بياضات كثيرة في التجريب التشكيلي المغربي وفي تجربته، بياضات يضاعفها هذا الصمت المتفاقم بين التجارب الفنية، من جهة، وبين المبدعين، من جهة ثانية، فهي تجارب لا تحاور بعضها إلا

قليلا، وينوع من اللغة الخفيفة أو المجاملة غالبا، ومن ثم، يحرم هذا التجريب المفترض في التشكيل المغربي من طاقته الأساسية في تقييم التجارب والاشتغالات وتقويمها بالعين الخبيرة أساسا. ذلك أمر ضروري لكل تجربة فنية تريد أن تؤسس لمعرفتها وتلاقحها من الداخل، برؤى وعناصر ولغة غير بعيدة عن الحقل الذي تنتسب إليه، حتى لا تنتصر التبريرات المتكررة بغياب النقد أو قصوره في فهم التجربة ومحاورتها أو قراءتها باللغة والمعرفة الضروريتين. إن حوار التجارب طاقة هائلة من التعالق والتخاصب، يكون بوسعها دائما أن تنهض بالعديد من التمايزات والأسئلة الأساسية في التجربة وتجريبها الجمالي، وتصل بالتالي هذه الممارسة بأفقها المنشود.

على ماذا يجرب التشكيل المغربي تحديدا؟ على المادة والتقنية؟ أم على الرؤية والأدوات؟ أم على هاته العناصر كلها؟ وفي أي أفق؟ هذه الأسئلة وصياغاتها، هي أيضا خلفية التجريب الحاصل في التشكيل المغربي وتطبيقه الجمالي الراهن، وذلك ما تقوم به كل تجربة، إما بشكل منفرد أو بصيغة التجريب الجماعي المحدود، لكن باشتغال مركز، في الغالب، إما على العلامة Le signe وتمظهراتها أو على الجسد وأوضاعه داخل العمل

إن حوار التجارب
طاقة هائلة من التعالق
والتخاصب، يكون
بوسعها دائما أن تنهض
بالعديد من التمايزات
والأسئلة الأساسية في
التجربة وتجريبها
الجمالي، وتصل بالتالي
هذه الممارسة بأفقها
المنشود.

الفني، وليس لأن هذين الصقعين الدلالين الهائلين (العلامة والجسد) غير جديرين باشتغال متكرر وكثيف من لدن التعبيرات التشكيلية المغربية، بل لأنهما أدركا، ربما، مرحلة التمنيظ أو استهلكا بما يزيد عن اللزوم، ضمن تدوين جمالي غير مبتكر في الغالب لاختلافه وتعددده العلاماتي والإشاري، مما أوصل، أيضا، الجزء الأكبر من هاته التجربة الفنية إلى الأفق المسدود، التطابق والمعنى المكرس الثابت للرمز والجسد.

لم ينشغل التجريب كثيرا، كذلك، في التشكيل المغربي

بمسألة اللون ومركبات الضوء والظل والخصائص الكيميائية للمادة في أفق تطوير البعد الوظيفي لهذه العناصر داخل العمل الفني، باعتبارها عناصر متحولة وقابلة أيضا لإعادة الصياغة والتركيب

ثمة أيضا إنجاز أو تجريب كالغرافي خاص على الخط العربي وتنويعاته، حققت من خلاله التجربة المغربية اجتهادات محترمة وبرزت ضمن تنويعاته توقيعات أصبح لها موقعها المتميز على مستوى الجمالية العربية، على الأقل، بالإضافة إلى التماظهر أو التأثير العنيف أحيانا،

والذي يمارسه التجريد L'abstraction بشكل ملحوظ على جل «التجريبات» التشكيلية في المغرب، إذ تشعر العين المتتبعة للمشهد التشكيلي المغربي أن التجريب الأهم تم، ويتم أساسا في التجريد وعلى خارطته، أو ضمن التجربة الراهنة لفن التنسيبات L'art des installations التي انخرطت فيها مجموعة من التشكيليين الشباب بالدار البيضاء⁽³⁾، في الوقت الذي ظل

فيه التشخيص Figuratif مشدودا أكثر إلى بعده الواقعي، السطحي أحيانا، وليست هناك سوى محاولات قليلة لترميز هذا الواقعي وتطويره وجعله، ربما، تشخيصا برمزية واقعي، باعتبار أن الفن، مهما كانت درجة دقته في نقل الواقع وتصويره بالأبعاد الملموسة والتفاصيل، يظل دائما - كي يسمو قليلا على الواقع - في حاجة إلى لمسة من الانزياح أو الخيال على الأقل.

لم ينشغل التجريب كثيرا، كذلك، في التشكيل المغربي بمسألة اللون ومركبات الضوء والظل والخصائص الكيميائية للمادة في أفق تطوير البعد الوظيفي لهذه العناصر داخل العمل الفني، باعتبارها عناصر متحولة وقابلة أيضا لإعادة الصياغة والتركيب من أجل إخضاعها لحاجة الفن وتعبيريته، إذ يبدو اللون والضوء مثلا في هذا التجريب سؤالين هائلين وطاقة خلاقة لم تستثمر بعد ولم تخبرها بعد بما فيه الكفاية، يد الرسام والنحات والمصور الفوتوغرافي، تبدو هذه العناصر، في المغرب بالخصوص، أفقا خاصا، قائما بذاته، لهذه التجربة وملحمها الجمالي، لكن تحتاج في الإجراء والاشتغال التشكيليين إلى المزيد من البحث وتجريب الماهيات.

4- التجريب إلى أين؟

ربما يكون هذا السؤال، هو أهم الأسئلة القلقة والمنتظرة في أفق التجربة التشكيلية المغربية، أو هو أفق التجربة بعينه؟ وربما هو السؤال الوحيد الذي تردده التجربة باستمرار وتعود إليه، وهو ما ينبغي أن يحكم أيضا غايتها وطبيعتها التجريبيتين. منذ أن دفعت التجربة بأول لوحة لون إلى القماش، أو منذ أن شرع في تسمية هذه التجربة فنا بالتحديد؟ ذلك أن المآل هنا، مآل التجربة التشكيلية المغربية، هو ما يبدو مطروحا للتداول والمساءلة، خارج تطمينات التجارب الفردية المستكنة إلى وضعها المريح، والمطمئنة إلى يقينها، أو عماها الداخلي، دون الالتفات إلى هذا القلق الذي يعلو وجه اللوحة ويستبد ب فراغ اليدين، بالشكل وبالجدع الغامض لهذه المنحوتة أو تلك. بهذا الرسم أوذاك، أو حتى بالأيدي التي أرهقها الجمال المغربي الحبيس وأخذت تتدبر لحاجتها تذكرة عبور ملونة إلى ما وراء القلق والحاجة وسؤال المآل.

أين يقيم. أو أين يكمن الأفق الحقيقي لصيغ التجريب التشكيلي المغربي؟ في الجواب على هاته الأسئلة المتباعدة أيضا في زمن المغرب وألوانه؟ أم في ارتهانات التجريب نفسها واشتراطاتها النقدية والأوضاع الخاصة للأفراد والجماعات؟ من يملك صيغة هذا الأفق ومفاتيحه «السبعة»، وألوانه القادرة على تفضية هذا الأفق وتجميله، تشفيفه، توسيعه،

وجعله يتسع لكل الممكنات وللأيدي التي نضجت أو ينتظر أن تنضج أكثر في ظل البهاء والهباء؟ ربما يكمن الأفق الحقيقي لهذه التجربة الجمالية خارج مختبرات التجريب نفسه، وعند العتبات التي لم تنتبه إليها أو بالأحرى لم تصلها الأدوات والخطوات بعد؟ أو هو بكل بساطة يتراءى بين الأيدي الحاملة، أيدي المبدعين الجسورين، القلقين، الواعين بشرط الانتساب إلى أفق المغرب الآخر، الملون بعناصره فقط، والذي لم تطل ألوانه بعد نغرات السبق وصيغ التجريب السطحي والسياحي، وصدأ الأزمنة⁽⁴⁾. وفي ذلك إشارة لونية غامضة لتجارب واعدة تلوح في الشفق الآتي وفي العمل الآتي L'oeuvre à Venir لهذا الأفق.

إشارات:

- 1- كتابات محمد القاسمي وموليم العروسي ومحمد بنيس ومحمد السرغيني وحسن المنيعي.. - على سبيل المثال لا الحصر.
- 2 - من حوار للفنان التشكيلي المغربي : حسين موهوب.

- 3 - محترف فني بكلية سيدي عثمان بن مسيك بمدينة الدار البيضاء يضم مجموعة من الفنانين الشباب، ويساهم في تأطيره بعض الفنانين والنقاد المتميزين، منهم باحث الجماليات المغربي المعروف : موليم العروسي.

- 4 - عنوان معرض تشكيلي للفنان المغربي : امحمد الشريفي.

مآل التجربة التشكيلية المغربية، هو ما يبدو مطروحا للتداول والمساءلة، خارج تطمينات التجارب الفردية المستكنة إلى وضعها المريح،

والمطمئنة إلى يقينها، أو عماها الداخلي، دون الالتفات إلى هذا القلق الذي يعلو وجه اللوحة ويستبد ب فراغ اليدين، بالشكل



حسني أبو المعالي

المكي مغارة: حوار العتمة والنور

عليه، تطوان كانت محطته الفنية الأولى وهي مسقط رأسه ومدينته الحاملة التي نهل منها فناننا عصارة الفن والأمل، تابع مشواره الفني في المدرسة العليا للفنون الجميلة بإشبيلية الأندلس، كان المعتمد بن عباد يلهمه بقصائد الحب والجمال، وبين تطوان وإشبيلية أقام جسور تجربته الفنية وصولاً إلى لوحة تربط بين شمس المغرب ودفئها وبين تراث التاريخ العربي وسحره، ثم واصل زحفه الفني إلى مدريد حيث أكمل دراسته الفنية العليا من أجل إغناء تجربته بحثاً عن عالم أكثر حلماً وأكثر خيالا.

فالحلم عند المكي مغارة كان ولا يزال أحد أهم المميزات التي طبعت فضاء أعماله الفنية. إن المتتبع لمسيرة الفنان يمكنه أن يتلمس بوضوح طريق الحلم الذي جسده موضوعاته ذات الملمح السوربالي أحيانا والتعبيري أحيانا أخرى وكذا

فالحلم عند المكي مغارة كان ولا يزال أحد أهم المميزات التي طبعت فضاء أعماله الفنية. إن المتتبع لمسيرة الفنان يمكنه أن يتلمس بوضوح طريق الحلم الذي جسده موضوعاته ذات الملمح السوربالي أحيانا والتعبيري أحيانا أخرى

تحتل المدن والحارات (الملاحات) المغربية العتيقة قلب الاهتمامات الفنية للمكي مغارة، يسافر بألوانه بين أزقتها الضيقة وبيوتها الواسعة، يدق بفرشاته أبوابها المنقوشة بمختلف الزخارف ذات الطابع المغربي الأصيل، أنجز تكويناته الفنية وعالج موضوعاتها بروح المعاصرة، دون أن يسقط في شرك الحداثة المستوردة، تنقل بين العديد من المدارس الفنية، وجرب مختلف الخامات والأساليب، لكن صدق أحاسيسه وإيمانه بتراثه وحدت تلك المدارس والخامات في إطار شخصية فنية متميزة امتدت على مساحة الوطن، ذلك هو الفنان المكي مغارة أحد رواد الحركة التشكيلية المعاصرة بالمغرب.

ألوانه الساحرة تتوزع بمقادير على قماش لوحته، تبعاً لنظام جمالي فائق، و حركة فرشاته تشكل مفاتيح الأسرار لولوج عالمه الفني والتعرف



المكي مغارة

مغارة معترك المدرسة التجريدية، ليس فضولا منه لاكتشاف الجديد من غث التقلبات الفنية الأوربية ولا اضطرارا منه بسبب تواجده في عصر اللوحة التجريدية، وإنما ثقة منه بأن قيم الجمال تكمن في صدق التعامل مع أية مدرسة فنية شريطة أن تكون مقرونة بكفاءات الفنان المهنية، فكلمة التجريد في اللغة تعني فيما تعني تجريد الأشياء من أشكالها أو الموجودات من محتوياتها، لكن الأمر يختلف بالنسبة لفن التشكيل عند المكي مغارة، لأن الأمر يستدعي هنا إضافة، لا تجريداً، أي توظيف كثافة كبيرة من عناصر الجمال والتقنيات الفنية داخل فضاء اللوحة لتقريب المتلقي من الإحساس بالعمل الفني. إن لم نقل فهمه بالرغم من غياب وساطة الشكل الخارجي، وهذا ما جسده حقا الفنان المكي مغارة في جديده من الأعمال التجريدية، التي عالج موضوعاتها على أسس من الخبرة ذات الجذور الواقعية السليمة؛ ولهذا فهو لم يستغن عن توظيف الظل والضوء كما في تجاربه السابقة، بل ظللاً بالأحرى هما الأرضية الفنية التي يقف عليها الفنان، وينطلق منها إلى عالمه الخاص المفعم بالأحلام، أحلام يمثل دور البطولة فيها ضدان متجانسان مختلفان، يتبادلان معاً حوار العتمة والنور.

طريقة تنفيذه لها وتوزيعه لعناصر رؤاه بشكل لافت للتأمل والنظر.

يتمتع المكي مغارة بقدر فائقة وسيطرة كبيرة على أدواته كي يجعل المتلقي يعيش معه ويخلق في سماء ألوانه وظلالها، والجميل في ذلك أننا لا نجد في أعماله مستويات متفاوتة في النوعية على صعيد إنجازاته بمختلف مراحلها، فكافة الأعمال لديه تحظى بقدر كبير من المهارة الفنية والقيمة الجمالية وهو دليل على حجم المسؤولية التي يحملها الفنان ويتحملها تجاه الفن باعتباره رسالة وتجاه المتلقي باعتباره صاحب المصلحة الحقيقية في كل ما ينتجه الفنان.

وتأتي الزخرفة بمثابة عنصر مهم يعتمد عليه الفنان (مغارة) في بيواته وأشكاله الفنية لتستريح في فضاء تكويناته الجميلة متجانسة، سواء تم توظيفها في إطار الأبواب والشبابيك أم جاءت مستقلة عنها، فإنه في كلا الحالتين ينتصر في تجربته لصالح عناصر الجمال التي تفيض بها أعماله.

ومع تمسكه الشديد بالتراث وتأكيد على حضور عناصر رموزه المتمثلة بأنواع الزخرفة والجلباب وغيرها في معظم لوحاته باعتباره فناً منحاذا إلى التشخيصية أكثر منه إلى التجريد، إلا أنه لم يقف عند حدود التشخيص فقد خاض المكي

وتأتي الزخرفة
بمثابة عنصر مهم
يعتمده الفنان
(مغارة) في بيواته
وأشكاله الفنية
لتستريح في فضاء
تكويناته الجميلة
متجانسة، سواء تم
توظيفها في إطار
الأبواب والشبابيك
أم جاءت مستقلة
عنها، فإنه في كلا
الحالتين ينتصر في
تجربته لصالح
عناصر الجمال التي
تفيض بها أعماله.



بنیونس عمیروش

الكتابة والنقد الفني

حصيلة 1999 - 2001

بين المواكبة النقدية والنظرية والتراكم الموصول بالمنجز، حيث نسجل تقلص المكتوب في مقابل امتداد وتيرة الإنتاج الفني على عكس المسرح مثلا. فبالرغم من اجتهادات وإشراقات العديد من الأقلام التي تمارس الكتابة حول الفن بشكل عام، يبقى الخطاب التشكيلي عندنا محتاجا باستمرار إلى المزيد من الحيوية والتطعيم والنهل من حقول أخرى. كالفكر والفلسفة والسيمولوجيا والسيكولوجيا وغيرها من العلوم والمعارف التي تساهم في دراسة الفعل التشكيلي من جوانبه المختلفة.

بخصوص المجال الفكري الذي عرف نهضة لا يستهان بها في المغرب، فإن الفكر الفلسفي، من داخله، عرف تقدما ملحوظا على مستوى ولوج مباحث جديدة ترتبط بمباحث المنطق والإبستمولوجيا والفلسفتين الاقتصادية والسياسية،

من نافلة الحديث أن العمل الفني، أكان لوحة أم نحتا أم تنصييبا Installation؛ يحتاج أكثر من غيره إلى قناة تواصلية تعمل على تقريبه إلى المتلقي، خاصة عندما يتعلق الأمر بالأعمال التي تمتع من التجديد والتحديث. هذه القناة تتجسد أساسا في الفعل النقدي باعتباره «فكرا» يروم تكليم المرئي، ويعمل على مواكبة تلاوينه وانزياحاته وفتوحاته.

النقد الفني في المغرب، وفي فترات معينة، يعرف فراغات مَهولة تؤثر بشكل سلبي على سيرورة الإنتاج التشكيلي، إذ هناك العديد من التجارب التشكيلية المعاصرة التي لم تأخذ نصيبها من الخطاب النقدي، أو لم يستطع الفعل النقدي النفاذ إلى مكان قوتها وإبراز مظهراتها جمالياتها.

من ثمة تتم ملامسة الشرخ القائم

بيد أن الفكر الفلسفي المعاصر الذي تمكن من إلحاق مفاهيمه بالنقد الأدبي والأنثروبولوجيا وحقول تاريخ العلوم وتاريخ الأفكار إلى غير ذلك من المجالات، لم يلتفت بعد إلى مباحث الفن المعاصر عندنا بالشكل المطلوب.

في ضوء هذا النقص الذي تعرفه الكتابة حول الفن، تعودنا إلصاق هذا النقص بضعف النقد الفني، غير أن النقد يمثل، فقط، حلقة واحدة من الحلقات التي تدرس العمل الفني، فبين تاريخ الفن (المتعلق بمؤرخ الفن) ونقد الفن، تتموقع فلسفة الفن (أي علم الجمال)، إذ لا يتخذ النقد خطه الحقيقي إلا إذا استند إلى عمل الفيلسوف. فإذا كانت مهمة مؤرخ الفن تقوم على التحقيق والتعقب، التحقيق في طبيعة العمل الفني وموقعه التاريخي داخل حضارة معينة مع دراسة تداخل الأساليب وتجاوزها، بناء على التحليل الذي يحدد مراحلها التاريخية المتعاقبة داخل التيارات الفنية، ويحدد تنقلاتها وفروقاتها، فإن عمل الفيلسوف (عالم الجمال) يتوزع بين دراسة المفاهيم الجمالية والمسائل النظرية المرتبطة بها، والعمل على دراسة التجربة الجمالية من مختلف نواحيها (البعدين الذهني والشعوري وكل العناصر الفاعلة في آليات التلقي). ثم دراسة الموضوع الجميل من منظور فلسفي

لتبيان خصائصه الفنية وصفة الجمال فيه، واعتمادا على القاعدة النظرية لفيلسوف الفن، ينطلق عمل الناقد ليقوم بتطبيق هذا الكم الفكري بشكل إجرائي بناء على التحليل والتفسير والتوضيح، ليقوم بعد ذلك بتقويم العمل الفني وإمداده بأحكام القيمة وفقا لمعايير جمالية محددة، مع وضعه داخل سياق ثقافي واجتماعي معينين، من ثمة يفسح الناقد الطريق أمامه لطرح تصوره الخاص الذي لا يخلو من الذاتية القائمة على البناء الموضوعي. لذلك كان لنقاد الفن المعاصرين السلطة في صناعة الذوق الفني.

مع كل ذلك، فإن النقد الفني في المغرب، على قلته، ظل موجهًا ومؤثرًا في الحقل التشكيلي، بدليل التأثير الذي مارسه على قاعات العرض التي تميل إلى إخضاع برامجها موازاة مع توجهات الإنتاج النقدي، لأنها لا تجد نفسها تتعامل مع سوق حقيقية للإبداع الفني، على عكس ما يقع بعواصم الفن الأوروبية مثلا حيث تتنافس القاعات اعتمادا على التراكم الإبداعي المتنوع، فتتخذ كل قاعة توجهها الخاص وفلسفتها الخاصة، ولعل من سلبيات تبعية القاعات للنقد - بحسب تقديري - يتجسد في كون النقد الفني ظل يمجّد الأعمال المرتبطة بالعلامة le signe والجسد على امتداد أكثر من

مع كل ذلك، فإن
النقد الفني في
المغرب، على قلته،
ظل موجهًا ومؤثرًا
في الحقل
التشكيلي، بدليل
التأثير الذي مارسه
على قاعات العرض
التي تميل إلى
إخضاع برامجها
موازاة مع توجهات
الإنتاج النقدي، لأنها
لا تجد نفسها
تتعامل مع سوق
حقيقية للإبداع
الفني

من القطع النحتية الكبيرة الحجم، والعديد من التماثيل التي تجسد أهم رجالاتها ورموزها، الشيء الذي نفتقده في المغرب، وهذه المسألة مرتبطة، فيما يبدو، بتبني المذهب المالكي، باعتبار رأي فقهاء في الموضوع.

على العموم، ومنذ بداية تأسيس ملامح التشكيل المغربي، ظل النحت مرتبطا بعدد قليل جدا من المبدعين مثل عبد الحق السجلماسي وعبد الله الملياني وأحمد الزبير. كما ظل خارج طبيعة الحضور المسترسل. بيد أن هذه الهوة القائمة على الحضور العابر والغياب المتجذر، لم تمنع آخرين محدودين من إعادة إشعال فتيل الإبداع الجمعي، وفي هذا السياق نشير إلى الحضور المتألق لأعمال الفنانة إكرام القباج، وحضور أعمال كل من عبد الكريم الوزاني ومحمد العادي، وأعمال عبد الرحمان رحول التي لم تنفلت من قلبها المسكوك باستمرار.

حصيلة الإصدارات (1999 - 2001)

في نهاية المطاف، إذا نحن حاولنا رصد وتيرة النشر من حيث الكم خاصة، فإننا سنلامس تصاعدا ملحوظا على مستوى عدد نشر الكتب المتعلقة بالإبداع التشكيلي خلال

عقدين (السابع والثامن) مما دفع الكثير من الفنانين لتغيير أسلوبهم، وانخراطهم - دون رغبة حقيقية منهم - في الاشتغال حول العلامة والجسد - كي تلج أعمالهم بوابة الخطاب النقدي، وهذا سبب نوعا من التكرار والتراجع في سير الإنتاج الإبداعي.

أيضا، ومن زاوية معينة، يمكن ربط النقد الفني بالضعف الذي يعرفه مجال النحت المعاصر، إذ لم يستطع أن يحرك ويتابع العديد من المحاولات، بالرغم من اقتناعنا بكون النحت يستدعي المزيد من الجهد على مستوى تطوير المادة، والفضاء الشاسع الكفيل بالممارسة المنطلقة، كما يستدعي الطاقة المعرفية التي تجعل من النحات ذلك الباحث المقتنع برسائله الجمالية التي يكابد ويناضل من أجلها. بالإضافة إلى أن النحت قلما يجد مقتنيه. وهذه مسألة مرتبطة بالتربية والذوق في المقام الأول. فالاستئناس بتدوَّق النحت والتعبير الجمعي باختلاف ألوانه، ينطلق أساسا من العمران، من الفضاء الخارجي. فالهندسة المدنية المعاصرة تأخذ النحت بعين الاعتبار في تصميم المدن، إذ يتم زرع القطع النحتية من تماثيل وتماثيل نصفية ومختلف التركيبات الحجمية في مواقع مدروسة بعلاقتها مع النسيج المدني بوصفه كلاً منسجما. ففي الكثير من البلاد العربية تنصَّب العديد

على العموم، ومنذ بداية تأسيس ملامح التشكيل المغربي، ظل النحت مرتبطا بعدد قليل جدا من المبدعين مثل عبد الحق السجلماسي وعبد الله الملياني وأحمد الزبير. كما ظل خارج طبيعة الحضور المسترسل.

من جهة أخرى، كما يمثلان صورة لاكتمال النضج الإبداعي داخل مسار التجربة التشكيلية المعاصرة في المغرب.

- «الوعي البصري بالمغرب»
لمحمد شعبة، صدر عن منشورات اتحاد كتاب المغرب في حلة فاخرة تستجيب لمقاييس الكتب الفنية (125 صفحة، قطع 28 x 24 سم، طبع بمنشورات عكاظ، الرباط، يوليو 2001، بدعم من منشورات عكاظ ومؤسسة الوفاء للرعاية ووزارة الثقافة والاتصال). هذا الإصدار يجمع أهم الكتابات المنشورة والمتفرقة عبر العديد من الكاتالوجات والدوريات الثقافية والمجلات الفنية والصحف العربية منها والوطنية. تلتحم النصوص في بُعديها الفكري والتنظيري، وترتبط عامة بمدخلات وتقديرات وأحداث فنية مختلفة ومحطات تاريخية معينة. كما يضم المؤلف أهم حوارات شعبة التي تناول فيها مختلف القضايا ومختلف التصورات والمواقف المتعلقة بالتشكيل المغربي والعربي، وهي الحوارات التي تبرز نباهته وقوته في المجادلة، بوصفه فنانا مجادلاً بامتياز. كما أن هذه الكتابات والحوارات تقرّنا بشكل ملموس من اهتماماته وتدخلاته الفعالة في مجال الصناعة التقليدية وارتباطها بالمعمار، ومجال التعليم الفني بحكم



هذا الإصدار يجمع أهم
الكتابات المنشورة
والمتفرقة عبر العديد من
الكاتالوجات والدوريات
الثقافية والمجلات الفنية
والصحف العربية منها
والوطنية. تلتحم
النصوص في بُعديها
الفكري والتنظيري

الثلاث سنوات الأخيرة (1999 - 2001)، مقارنة مع إيقاع النشر من قبل، إذ نسجل صدور ستة كتب تُنصّب أساساً على التشكيل، وصدور كتب أخرى تتوزع بين الكتب التي يتخذ فيها الحديث عن فن التشكيل حيزاً مهماً، وبين التي تنهل من المفاهيم الجمالية الحديثة التي تمس جوهر الإبداع الفني بمنظور شامل. بالإضافة إلى صدور عدد من دوريتين فرنسيتين، حيث خُصص كل عدد منهما للفن المغربي، هذا التراكم من الكتب، مع اختلاف توجهات أقلامها، يؤكد بوضوح تزايد إقبال الكتاب من مختلف المشارب على الاهتمام بالفعل التشكيلي والفعل الفني بشكل عام. للاقتراب من طبيعة كتابات هذه المؤلفات، سأحاول فيما يلي القيام بعرضها بشكل مقتضب.

الفن والتجربة

داخل التنوع الذي يميز هذه المجموعة من الكتب المتعلقة بالتشكيل، نسجل لأول مرة مؤلفين مهمين لفنانين مقتدرين، إذ تقوم الكتابة والجدل فيهما على الممارسة والمعاشية والتجربة المباشرة. يتعلق الأمر بمؤلفي محمد شعبة ومحمد القاسمي، وهما نموذجان - من بين آخرين - يمثلان صورة للمبدع الذي يجمع بين الكتابة والنظرية والتدخل الفكري من جهة، والممارسة الفنية

تجاربه البيداغوجية المثمرة بكل من مدرسة الفنون الجميلة بالبيضاء والمعهد الوطني للهندسة المعمارية بالرباط ومعهد تطوان للفنون الجميلة الذي أشرف على إدارته وهيكلته.

إلى جانب النص المكتوب، تتوزع مختلف صور أعماله عبر الصفحات بإخراج جيد (لوحات، جداريات، أعمال حجمية)، إضافة إلى العديد من الوثائق المصورة التي تجعل التنزه في الكتاب ممتعا.

تضم الصفحات الأخيرة من الكتاب نصوصا وشهادات لكل من آلان فلامون Alain Flamant (بالعربية) وعبد اللطيف اللعبي وزكية داوود وعبد الله زريقة وفريد الزاهي، فيما تضم الصفحات الأولى نص التقديم لحسن نجمي، وتليه كلمة لمصطفى الحداد.

- Parole nomade (كلام رحّال) لمحمد القاسمي عن منشورات المنار (190 صفحة من القطع المتوسط، المنار، نويلي - البيضاء، أكتوبر 1999)، كتاب يجسد تجربة الفنان من عدة أوجه، من خلال المقاربات والتصورات، وفي تناسل النصوص بتوجهات متنوعة. يتلاحم فعل الكتابة في طبيعة التأمل، ويتوحد في سؤال القن وما يحيط به. تتوزع محاور الكتاب الثلاثة بين «مسير

فنان» و «ابتكار المُحتَمَل» و«أماكن، آثار»، حيث تتخذ الكتابة نسقها عبر ترتيب النصوص التي تم نشرها في العديد من الصحف والدوريات والمجلات الدولية والعربية والمحلية، وهي مرتبطة بمدخلات ولقاءات فنية وثقافية مختلفة. كما يضم المؤلف النصوص المنشورة في الكاتالوجات، وخاصة منها، النصوص التي يقدم بها القاسمي أعماله الإبداعية، بالإضافة إلى عدة رسائل ونصوص ذات طبيعة شعرية.

يوضح القاسمي في الكلمة الافتتاحية، أن هذه النصوص، إنما هي شذرة مادية لسير ممتد عبر عدة سنوات، مسكونة بتساؤلات واستفهامات، وهي تفكير في معنى الحركة الخاصة المتعلقة بفعل التصوير. مضيفا إلى أن هذه التساؤلات مرتبطة بكل الموضوعات التي تتموقع في مركز الجدل منذ سنوات العقد السادس: الهوية، المعاصرة، الفن والمجتمع، الفن والسياسي، العالمية، ماهو شكل الفن الخاص بقطرنا أمام التقليد أو معه؟ سؤال القطيعة، سؤال حرية التعبير، حقوق الشخص، العلاقة بثقافات أخرى، مؤكدا من خلال ذلك انبثاق أسئلة أخرى، هل يستطيع الفن أن يجيب على هذا التدفق من المسائل المركبة المتولدة بهذه الحقبة بكل التحولات، وبأنواع العنف؟ هل يمكن

يوضح القاسمي في الكلمة الافتتاحية، أن هذه النصوص، إنما هي شذرة مادية لسير ممتد عبر عدة سنوات، مسكونة بتساؤلات واستفهامات، وهي تفكير في معنى الحركة الخاصة المتعلقة بفعل التصوير.

أن يخرج الفن سليماً من الاضطرابات التي تفعل في مشهنا البصري، المادي، الخيالي، في عالم يفقد طقوسه؟.

قراءات في الفن المغربي

Esoterisme et peinture abstraite -
au Maroc

(الباطنية والتصوير التجريدي في المغرب) لمحمد السريغيني (86) صفحة من القطع المتوسط، مطبعة البلابل، فاس، (1999)، كتاب يقترح ثلاثة أنواع من القراءات المتعلقة باللوحة التشكيلية: القراءة التشكيلية والقراءة الشعرية والقراءة الباطنية Esotérique، حيث تتماسك هذه القراءات لتجعل قراءة العمل الفني فعلاً يجمع بين الفكري والشعري والروحي، بناء على تسطير منهج يتداخل فيه العلمي والفلسفي والجمالي والذاتي. من ثمة يضعنا الباحث أمام الإمكانيات التي نستطيع بلوغها في تطوير اللغة، وإمكانيات استغلال المصطلحات الخاصة بالشعر بعد إفراغها من دلالاتها اللغوية، وإعطائها دلالاتها التشكيلية، متداركاً بذلك جميع الزوايا والقضايا الدقيقة الخاصة بالسؤال المتعلق بكيفية دراسة ما هو غير لغوي بما هو لغوي، وعبر هذه المفارقة يلامس السؤال المتعلق بتواشج الفنون على اختلاف أنماطها.

في نص التوطئة، يؤكد المؤلف

أن تأملات هذا العمل تهدف إلى النظر في إمكانية صياغة قراءة باطنية للتصوير التجريدي بالمغرب. إذ لا تتناول العلامات وتعالجها باعتبارها رموزاً، بل بإعطاء هذه الرموز نفساً لتعريف مفهومها. من ثم يتساءل: ما هي إذن الإجراءات المتعلقة بمثل هذه القراءة؟ مع التذكير أن هذه القراءة تتم عبر ثلاث مراحل: شكلية وشعرية وباطنية. بوساطة الشكلية يؤكد القانون الشكلي للعناصر الثمانية، اللون، الظل، الضوء، الإحاطة Contour الخط، البعد، الحركة، الإيقاع. بالشعرية يتصف المظهر الإستطقي المرئي. بالباطني إذن يلتزم التأويل باستعلاء هذا القانون مثلما هو الشأن بالنسبة لمظهره الإستطقي المرئي. وهل يمكن أن نتحدث عن قراءة شكلية متبوعة بأخرى شعرية لتنتهي بقراءة باطنية، بيد أنه في الحين الذي تتوافق فيه القواعد مع إحدى القراءات، لا تتوافق بالضرورة مع القراءتين الأخريين؟ إذ من البدهي أن القراءات الثلاث تقتسم مهمة إرجاع العمل التشكيلي شفافاً، ومن منظور مفاهيمي، يؤكد أن الحقيقة المرئية في بعدها القياسي تستأثر بوصفها معرفة يتم إنتاجها، غير أن مقدمات (Premises) القراءة الشعرية تبدأ هنا حيث كل صورة مرئية واقعية، تتحول إلى مصادفة خيالية. ونفس المصادفة الخيالية هي التي تستهل المهمة لقراءة

في نص التوطئة، يؤكد المؤلف أن تأملات هذا العمل تهدف إلى النظر في إمكانية صياغة قراءة باطنية للتصوير التجريدي بالمغرب، إذ لا تتناول العلامات وتعالجها باعتبارها رموزاً، بل بإعطاء هذه الرموز نفساً لتعريف مفهومها.

ESOTERISME ET PEINTURE
ABSTRAITE AU MAROC



من وضعه داخل سيرورة وتطور الاتجاهات التصويرية التي عُرف بها التشكيل العربي المعاصر.

في المقدمة، تطرق الباحث إلى كيفية اكتشاف أوروبا تدريجياً، التقليد المتعلق بالفن العربي الإسلامي الكلاسيكي. ابتداءً من المعرض الدولي بفيينا عام 1873 باعتباره كشفاً لحضارة، حيث تولدت بعده سلسلة من سفريات الفنانين نحو الشرق (إميل غراسي نحو مصر في 1869، رونوار نحو الجزائر في 1879، كاندانسكي نحو تونس في 1904 - 1905، ومصر وسوريا وتركيا في 1931، ألبير ماركسي نحو المغرب والجزائر بين 1919 و 1945، ماتيس نحو المغرب منذ 1912، بول كلي وديرك ووتر نحو المغرب في 1913، راوول دوفي نحو المغرب في 1925)، مما يجعل الفن العربي الكلاسيكي في صلب معاصرنا باستمرار، بقيم فن ذات أشكال مثبتة، منتعشة برغبة الأزلية. من ثمة فإن المعاصرة تكون في حد ذاتها مفترقا للعديد من الهويات.

من هذا التداخل يأتي فصل «من الاستشراق إلى الاستغراب» ليبين كيف تم التقاطع بين الفن الغربي والفن الشرقي، انطلاقاً من تجارب الفنانين الغربيين الذين اكتشفوا سحر الشرق ونوره (دولاكروا، كلي، ماتيس)،

باطنية، موضحاً أن القراءة الشكلية تصبح مادة مأخوذة على المستوى النوعي، والشعرية على المستوى البلاغي، والباطنية على المستوى التأويلي، مع الأولى نكتشف المنطق الملموس للمرئي، ومع الثانية نبتهج لتماسك هذا المنطق الملموس، غير أننا مع الثالثة نفتتن عندما نكتشف أن من وراء هذا المنطق الملموس توجد مماثلة لما وراء المرئي.

تناولت القراءات أعمال العديد من الفنانين: أحمد الشرقاوي، المكي مغارة، جيلالي غرباوي، محمد مليحي، محمد شبعة، محمد القاسمي، عبد الكبير ربيع، مصطفى أنس، كريم بناني، بوشة الحياي.

- "L'art contemporain arabe" (الفن العربي المعاصر) لعبد الكبير الخطيبي عن منشورات المنار ومعهد العالم العربي (130 صفحة من القطع المتوسط، المنار، نوبلي - البيضاء، 2001)، كتاب يدرس التجربة التشكيلية العربية المعاصرة، ويبرز منطق وطبيعة التأثيرات والتمظهرات التاريخية والاجتماعية التي ساهمت في ظهور هذا الأسلوب أوداك وتطوره. ومن خلال الترابط الذي يحكم إيقاع التحليل والتفسير، نقرب من ملامسة المساحة والموقع اللذين يحتلها التصوير المغربي المعاصر على خريطة الفن العربية، كما نقرب

كتاب يدرس التجربة التشكيلية العربية المعاصرة، ويبرز منطق وطبيعة التأثيرات والتمظهرات التاريخية والاجتماعية التي ساهمت في ظهور هذا الأسلوب أوداك وتطوره. ومن خلال الترابط الذي يحكم إيقاع التحليل والتفسير، نقرب من ملامسة المساحة والموقع اللذين يحتلها التصوير المغربي المعاصر



تتناول النصوص في شقها الأول
جل المسائل والقضايا المحيطة
بواقع الإبداع التشكيلي وشروطه
(البعد البصري في الثقافة المغربية،
قاعات العرض، الوعي النظري،
التشخيص والتجريد، التصوير
والمعمار)، فيما تنصب النصوص
على قراءة العديد من التجارب الفنية
في شقها الثاني، حيث تتداخل أشكال
الإبداع عبر تنوع الاتجاهات
والحساسيات والأجيال (أبو الوقار،
بوجمعاوي، عزيز السيد، أوبلحاج،
صلادي، إكرام القباج).

في تسلسل النصوص وتناسلها،
تستقي الكتابة نفسها النقدي الشفاف
من الممارسة الأدبية والحنكة
الصحفية، ومن داخل هذا النفس
المزدوج تتخذ قيمتها المرجعية بناء
على البعد الزمني الممتد عبر أربعة
عقود، وبناء على المعاشية والمعاينة
والمتابعة المسترسلة، حيث تمسي
اللغة انعكاساً لمساءلة وقائع وأحداث
وحقائق. من ثمة يمكن القول إن هذا
المؤلف يقربنا بطريقة جلية
وملموسة من جس نبض سيرونة
التشكيل المغربي المعاصر منذ
انطلاقاته الأولى، إذ يجسد رسماً
تشخيصياً لتمفصلات الجسد
التشكيلي، ويحيلنا على توثيق مفتوح
لتاريخ المشاهدة، تاريخ المشاهدة
الخاص بعين الكاتب، حيث لا تتخذ
المعرفة فيه ثقلها من الدرس

المنتعش في التوليف بين التصوير
والفوتوغرافيا، الديزاين Design
والفوتوغرافيا، البرفرمانس Performance
والفوتوغرافيا والسينما، التصوير
والنحت، النحت والعمارة، أمسى يتجه
نحو ثقافة لعبية Ludique، وبذوق
محكوم بالسينوغرافيا. في هذا الصدد
تحدث عن بعض التجارب العربية
مشيراً إلى نموذجين مغربيين،
الجبلائي والفوتوغرافي التهامي
النادر.

يضم الكتاب صور أعمال كل من
شفيق عبود، ضياء العزاوي، فاتح
المدرس، شفيق حسن آل سعيد، باية،
فريد بلكاية، فؤاد بلامين، محمد
بن مفتاح، عبد الله بننتير، كمال
بولاطة، أحمد الشرقاوي، رفيق
الكامل، جيلالي غرباوي، منى حتوم،
آدم حنين، محمد القاسمي، محمد
خدة، رشيد قرشي، مروان، محمد
مليحي، عباس صلاوي، منى السعودي،
إلياس الزيات.

- «كأس حياتي» لإدريس الخوري
عن منشورات اتحاد كتاب المغرب
(150 صفحة من القطع المتوسط،
مطبعة المعارف الجديدة، الرباط،
2000). كتاب يضم مجموعة من
الكتابات حول التجارب التشكيلية
المحلية خاصة، مع مقارنة وضعها
وفاعليتها داخل النسيج الثقافي
المغربي العام.



بنجلون، أمل مستقيم). كما نقرأ في سياق المعارض الجماعية نص «حراس الضوء» المخصص لتقديم معرض جماعي ساهم فيه أكثر من عشرين فناناً من مختلف الأجيال (البيضاء، 1994). وعن التدوين الفوتوغرافي المغربي، يقربنا المؤلف من ألبوم «سورية، ألوان وتقاليد» للفوتوغرافي الطاهر جميعي. لا يقف شق التشكيل عند هذا الحد، بل تتشكل النصوص لتقارب العلاقة بين «الشعري والتشكيلي»، لتجربنا بعد ذلك إلى الإطلالة على تحفة «كتاب الحب» باعتباره ثمرة تجربة بين الشاعر والفنان (محمد بنيس وضياء العزاوي).

في كلمة التقديم نقرأ: «لعل مصائر هذه النصوص التي تلاقت في مصير هذا الكتاب كفيلة بأن تشي بأبعاد هذا الانتقاء والتصنيف، حيث تلتقي تجربة القراءة بتجربة الكتابة؛ ويألف الشعري بالتشكيلي، وتلتفت العين إلى صمت الفضاءات والأمكنة. ثمة شعراء، وتشكيليون ومسرحيون وكتاب، وجوه وأسماء وتجارب وأصوات، مدن وأروقة ولوحات ومساحات وألوان. في هذا العمل المفتوح، في هذه التجربة التي تتحدث عن الذات فيما هي تتحدث عن آخرين».

- «نشأة الفن المعاصر المغربي»
عن مؤسسة منتدى أصيلة، المطبوع

الخاص، بل من قيمة المعلومة المنبثقة من المعاشية والاحتكاك المباشر بالفنان وإنتاجه، والملاحظة التي ترصد الوقائع داخل إيقاع المتن التشكيلي عبر الزمان والمكان معا.

- «الشاعر والتجربة» لحسن نجمي (270 صفحة من القطع المتوسط، دار الثقافة، البيضاء، 1999) كتاب يحتفل بالمجال التشكيلي عبر حيز مهم، حيث تجتمع «التخاطبات» حول التجربة الفنية في موقع يجعل من فعل التجاور أمراً مستطاباً، موقع بين باب الاحتفاء بالشعر («شعراء في العالم») وباب «الإحساس بالأمكنة» في أفق رمزي يجعل المكان موضوعاً لإثارة البعدين الإيحائي والبصري - المعماري.

باب «التخاطبات» يضم العديد من النصوص التي تحيلنا على مختلف الإبداعات الفنية المغربية مع ارتباطها بحدثها وزمانها. وإلى جانب الكتابات التي تشغل حول تجارب الفنانين المعروفين كالقاسمي والحريري وجاريد، نجد الكتابة المخصصة للتجارب الجديدة من خلال النص المرسوم بـ«شعرية التجريد»، الذي كان قد أنجزه لتقديم المصورين المشاركين في «اللقاء الرابع للرسامين الشباب بالبيضاء، 1995» (ليلي الملياني، عمر مجاهد، سهيل بنعزوز، صلاح بنجكان، كنزة

في كلمة التقديم
نقرأ: «لعل مصائر
هذه النصوص التي
تلاقت في مصير
هذا الكتاب كفيلة
بأن تشي بأبعاد هذا
الانتقاء والتصنيف،
حيث تلتقي تجربة
القراءة بتجربة
الكتابة، ويألف
الشعري بالتشكيلي،
وتلتفت العين إلى
صمت الفضاءات
والأمكنة».

جانب الحركات الفنية الدولية (.) لقد اخترنا كخط توجيهي للإبحار عبر هذه الحقبة التأسيسية المعارض الفردية والجماعية الوطنية والدولية للفنانين المغاربة، كذلك التصريحات، والمستندات وتواريخ اتخاذ المواقف الموجهة إلى الجمهور المغربي، أو المنشورة في إصدارات تلك الفترة». يضم المطبوع نصوصا لمؤلفين واكبوا هذه المرحلة عن قرب : طوني ماريني ومحمد السريغيني وجان بيير فان تيغم J.P. Van Tieghem (مؤرخ وناقد فني)، مع الإشارة إلى أن النصوص منشورة باللغتين العربية والفرنسية.

- "Le Maroc (المغرب)، العنوان الذي سُميت به «المجلة السوداء» "Revue Noire" أحد أعدادها المزدوجة الهائلة، وهي المجلة الدولية المتخصصة في الفن الأفريقي المعاصر (عدد 33 - 34، باريس - فرنسا، 1999). وقد تم إنجاز هذا العدد الذي تناول مختلف أوجه الفن المغربي المعاصر وبصورة شاملة ودقيقة، بمناسبة إقامة تظاهرة زمن المغرب بفرنسا.

نقرأ في البداية نصاً لطوني ماريني تحت عنوان «ميلاد تاريخ» توضح من خلاله الوضعية التي اتسم بها التصوير قبل منتصف القرن الماضي من دون وجود تصوير

سيكتسي النشاط الفني أهمية بارزة حيث سيصبح موضوعاً حقيقياً للنقاش. على هذا النحو سيتجاوز التشكيل في المغرب الحدود الوطنية لينتزع مكانته في المحافل الكبرى كصالونات المعارض الدورية (Biennales) إلى جانب الحركات الفنية الدولية

NOÏRE



(الكتاب - الكاتالوغ) الذي أنجز موازاة مع المعرض الذي أقيم ضمن فعاليات موسم أصيلا الثقافي الدولي الثالث والعشرين (رواق مركز الحسن الثاني، أصيلا، من 3 إلى 17 غشت 2001). وقد خُصص للتجارب الفنية المغربية الحديثة في بداياتها، وهي الأعمال التي تُنسب إلى فنانين «يمثلون المجموعة الرائدة التي شاركت في المغامرة الفنية المرجعية» وهم على التوالي : المحجوبي أحرضان، فريد بلكاهية، محمد بن علال، كريم بناني، محمد شبعة، أحمد الشرقاوي، مولاي أحمد الإدريسي، حسن الكلاوي، جيلالي الغرباوي، محمد الحمري، المكي مغارة، محمد المليحي، مريم مزيان، محمد السريغيني، أحمد اليعقوبي. ويوضح محمد المليحي في كلمة التقديم أن المشرفين اختاروا «العقد الممتد بين سنة 1955 إلى سنة 1965 لأنه الفترة التي رصدت تاريخيا الخطوات الأولى للفن المعاصر في المغرب، مع العلم بأن استقلال البلاد شكّل عنصراً أساسياً في انطلاق العمل الثقافي بصفة عامة، إلا أنه في هذا العقد بالخصوص، سيكتسي النشاط الفني أهمية بارزة حيث سيصبح موضوعاً حقيقياً للنقاش. على هذا النحو سيتجاوز التشكيل في المغرب الحدود الوطنية لينتزع مكانته في المحافل الكبرى كصالونات المعارض الدورية (Biennales) إلى

حقيقي، إذ تحدّد ميلاد الفن المغربي المعاصر بين 1955 و1979. حيث ترجح الدور المحفز إلى الحيوية التي خلقتها مجموعة الفنانين العاملين بمدرسة الفنون الجميلة بالبيضاء (1964 - 69)، مما نتج عن ذلك انتشار فكر عمومي حول الفن، وحركة نقدية في علاقة وطيدة مع الثقافة الوطنية، بناء على التعاون القائم على تعدد الإبداعات (شعر، عمارة، فن الحفر، فوتوغرافيا، حرف الفن). وتم الاشتراك الفني بين فناني الرباط وتطوان (أحرسان، كريم بناني، مكي مغارة، سعد السفاج، إضافة إلى أحمد الشرقاوي وجيلالي الغرباوي). وتؤكد مارايني على أن هذه الوضعية ساهمت في خلق حركة متشعبة بين الأجيال والميولات، خاصة بعد إنشاء جمعية وطنية للتشكيليين المغربية، إلى أن التحقت الأجيال الموالية لتسطّر طريقها (القاسمي، فؤاد بلامين، حسن سلاوي، مصطفى بوجمعاوي). منذ بداية 1970. وترافق هذا النص صور أعمال كل من جيلالي الغرباوي، أحمد الشرقاوي، محمد المليحي، فريد بلكاهية، محمد القاسمي. محمد أبو الوقار، ماحي بنّين.

«أمكنة وعلامات أزمنة» لمحمد جبريل الذي تناول أوضاع الأروقة والعراquil التي تؤثر على فاعليتها، مشيرا في البداية إلى الأهمية التي اتخذتها قاعة «المعمل» L'Atelier

وأحاط بالأجواء التي ساهمت في إحداث مختلف الأروقة التي اتخذت من «المعمل» النموذج الأصح لمفهوم قاعة العرض، مع التأكيد على مراحلها النشيطة التي لها تأثير في تقدم الفن المغربي. ثم وقف عند أهم الأحداث الفنية التي طبعت التاريخ الفني، خارج جدران القاعة (تجربة جامع الفنا في 1969، جداريات أصيلة، تجربة مستشفى برشيد)، حيث أظهرت هذه التجارب سؤال التصوير الحديث وأهميته. في الأمكنة والفضاءات التي تسريعها. كما تحدث عن أهمية تدخل عدة منظمات فعالة لخلق مؤسسات لرعاية الفنون التشكيلية، مع وضع كل ما سبق في علاقة بالسياسة الثقافية. وترافق هذا النص صور أعمال من حسين ميلودي، تيباري كنتور، أحمد المرابط، مريم العليج، عبد الرحيم يمو.

يضم هذا العدد من «المجلة السوداء» نصا آخر لمحمد جبريل يتحدث فيه عن التصوير الشاب في المغرب، وترافقه أعمال كل من مصطفى بوجمعاوي، إكرام القباج، نجية مهدجي، هشام بنحود، محمد الباز، منير الفاطمي.

«على آثار الرائدات» نص لزكية داوود، تتناول فيه المثبطات التي عانت منها المبدعات الرائدات في

يضم هذا العدد من

«المجلة السوداء» نصا

آخر لمحمد جبريل

يتحدث فيه عن

التصوير الشاب في

المغرب، وترافقه أعمال

كل من مصطفى

بوجمعاوي، إكرام

القباج، نجية مهدجي،

هشام بنحود، محمد

الباز، منير الفاطمي.

مجالات المسرح والسينما والكتابة. فيما تنوّه فيه بحضور المبدعات المنتميات إلى حقل الفنون التشكيلية والفوتوغرافيا (إكرام القباج، دنيا الوالي، نجية مهدجي، مريم العليج، لمياء الناجي، سعاد كنون، ياسمين كتاني الشامي، رجاء بنشمسي). وتخلص إلى أنه بعد أزمة الهوية الطويلة التي رافقت الأجيال السابقة، تدخل المبدعات اليوم إلى انتقال صعب نحو هذه الاستقلالية المحتلّة من لدن الجماعة، إلى حين التفوق. وترافق النص صور أعمال خديجة طنانة.

«المغرب ومبدعوه»، نص لإبراهيم علوي، تناول فيه الوجه السيء في قطاع الفنون التشكيلية الكامن في انعدام البنيات، وعدم وضع سياسة للتكوين والنشر، مشيرا إلى أنه في مقابل وجودنا اليوم أمام مشهد فني شديد الغنى، هناك فقدان رسملة الموروث الثقافي، مؤكدا على هوة الفراغ الكبير الذي يتسم به الإبداع الفني الذي له سمك وواقع، منبها إلى هشاشة التعليم بشكل عام في مجتمع يتطور باستمرار، مما يدعو إلى إعادة النظر في هيكلية مدارس الفنون الجميلة لبلوغ التكوين المتوافق، مع التفكير في إحداث المكتبات التي يستفيد منها الطلبة والفنانون والمثقفون معا، إذ بهذه القاعدة الأساس نضمن العنصر الوحيد الذي

يستطيع تحقيق الرسملة وتنقيط المعرفة.. ويخلص إلى أن المغرب، ينبغي أن يأخذ في الحسبان الثقافة باعتبارها شرطا للتوازن في تطور متجانس، واعتبار الثقافة والإبداع معقلا ضدّ التعصب، ويضيف: كل القوى موجودة في هذا البلد، والمغرب له الطاقة لطمر الفراغ.

خصصت المجلة حيزا

خصصت المجلة حيزا للمدارس والمجموعات (عين السبع، زفير، راس الحانوت، مدرسة الحانوت، مرفوقا بصور أعمال فوزي لعثيريس وصفاء الرواس ويونس رحمون والباتول السحيمي. كما خصصت حيزا آخر للفنون الشعبية، يضم صور أعمال أحمد الإدريسي، عباس صلاوي رحمة لعروسي، زهور سلاوي السجلماسي، محمد لغزولي، علي ميمون، شعبية طلال، سعيد واعزيز. مع الإشارة إلى أن النصوص منشورة باللغتين الفرنسية والإنجليزية.

Jeune Peinture Marocaine -
(التصوير المغربي الشاب)، عنوان الملف الذي خصت به مجلة «سيمس»

«Cimaise» أحد أعدادها (عدد 262، باريس-فرنسا، نونبر-دجنبر 1999)، وهي المجلة الدولية المتخصصة في الفن المعاصر. يتعلق الملف بالدورة الخامسة للتصوير المغربي الشاب الذي نظّمته مؤسسة «الوفاء» للرعاية بالبيضاء في 1999، ويضم نصين

خصصت حيزا آخر
للفنون الشعبية، يضم
صور أعمال أحمد
الإدريسي، عباس
صلاوي،



التعليم، أو المكوّنون بمدارس الفنون الجميلة أوفياء لأساتذتهم. ويتابع تحليله ومقارنته استنادا إلى بعض ما جاء في نصوص النقاد الذين قدموا لهذه الدورات (ادمون عمران المليح، خليل مرابط، كريس دركون (Chris Dercon).

النص الثاني، يمثل قراءة للأعمال المشاركة في الدورة الخامسة، وقد أنجزها طلال معلا (فنان وباحث جمالي سوري) تحت عنوان «العين الفيزيائية. العين الروحانية»، حيث يؤكد خضوع أعمال هذه الدورة إلى إطار عام يتجسد في المتخيل العربي، الموسوم بالمغامرات التجريبية الموجهة، خاصة، نحو المواد التقليدية من دون الاهتمام بالوسائل التعبيرية الحديثة. ويشير إلى أن مجموعة من الأعمال تسجل مشاركتها بناء على ضرورة جمالية، تمر من الممكن إلى الأقصى دون أن تكثرث بالماضي. بعد إتمام المقاربة العامة للمعرض، يقف عند عمل كل فنان ليقدم قراءته ويحدد مواصفاته التقنية والجمالية. مع الإشارة إلى أن النصوص منشورة باللغتين الفرنسية والإنجليزية.

تنتسب الأعمال المشاركة لكل من رشيد المودن (الجائزة الأولى)، مراد الخودي (الجائزة الثانية)، طه بندادة (الجائزة الثالثة)، غيثة العلوي، زهرة

وصور أعمال المشاركين بإخراج بديع.

النص الأول من توقيع موليم العروسي الذي يحيط فيه بتجربة مؤسسة «الوفاء» ابتداء من إقدامها على تنظيم المعرض الاستعادي للتصوير المغربي، وإقدام المسؤولين مباشرة بعد ذلك على خلق الدينامية في المشهد الفني بهدف إثارة المنافسة وإخضاع الفنانين الشباب إلى لجنة دولية، وبهدف مساهمة الاطلاع على الإنتاج التشكيلي بالمغرب. وقد ركز بعد ذلك على قراءة مجموع المتن الإبداعي المتعلق بالأربع دورات السابقة (ملتقيات التصوير المغربي الشاب، 1989، 1991، 1993، 1995)، موضحا كونها شملت أعمال مصورين تّكونوا ببلجيكا وفرنسا وإيطاليا، وأعمال آخرين تّكونوا بالمراكز التربوية الخاصة بالتعليم الفني وأعمال العصاميين أيضا.

في حين لم يتم اختيار إلا مصور واحد خلال الدورة الأولى، بيد أن الإصلاح الذي لحق المدرستين (تطوان والبيضاء) انعكس بقوة في الدورات اللاحقة. مؤكدا في هذا السياق، على الحدث المرتبط بإنشاء شعبة للتعليم الفني بكلية آداب البيضاء. وبناء على مصادر التكوين وفروعه يخلص إلى أن العصاميين يستطيعون إثارة الدهشة، فيما يبقى

وبناء على مصادر التكوين وفروعه يخلص إلى أن العصاميين يستطيعون إثارة الدهشة، فيما يبقى المصورون المكونون من أجل التعليم، أو المكوّنون بمدارس الفنون الجميلة أوفياء لأساتذتهم. ويتابع تحليله ومقارنته استنادا إلى بعض ما جاء في نصوص النقاد الذين قدموا لهذه الدورات (ادمون عمران المليح، خليل مرابط، كريس

ليوفسكي، جوزيف كوزوت، هنس
آرب، غيوم أبو لينير، أجين دولاكروا،
م.س. بارون، بيكاسو، هنري فوسيون،
لايوس كساك)

في الفقرة الأخيرة من كلمة
التقديم نقرأ: «إن هذا العمل ليس إلا
مجرد تعريف سريع ببعض قضايا
الفن التشكيلي وبمدارسه. وهذا ما
جعلني أحرص على إظهار جوانب
منها دون أخرى، وذلك في شكل
نصوص مقتتفة من كتابات مطولة.
وبما أن الغاية هي المساهمة، وملء
الفراغ، فإني أتمس العذر من قرائي
الأغزاء على كل ما سيبدو من قصور
في الإعداد واختيار النصوص، لأنه
من الصعب الإحاطة كلياً بتاريخ الفن
على أساس أنه بدأ قبل التاريخ، ثم
انفلت من قبضته ليؤثر فيه وعليه».

- «تمجيد الذوق والوجدان»
للميلودي شغوم (75 صفحة من
القطع المتوسط، دار الثقافة، البيضاء،
1999) كتاب يتناول الجمال في
مختلف تجلياته، بناء على مناقشة
العديد من الأسئلة المتفرعة
والمتمحورة حول مسألة الفن عموماً،
حيث ينهل التفكير من توجهات علم
الجمال المواقبة لحركية الفن
ومفاهيمه. بيد أن المفاهيم تتخذ
صفة البساطة في الكتاب، لتقوم بدور
التنوير والتوضيح والتكوين، من ثمة
جاءت الأجوبة شافية عن الأسئلة التي
يثيرها الكاتب :

عن الفن التشكيلي



عواج، عبد العزيز عروف، مصطفى
بالياسمين، عزيز بنجة، أنس بوعناني،
محمد بوشكار، محمد بويزگران،
أحمد الأمين، هشام العربي، خالد
البكاي، سعيد فتیان، خالد نضيف، عبد
الله النحاس، سعيد قديد، عبد العزيز
صحابية.

ألوان من الفكر في الفن

- «عن الفن التشكيلي» لحسن
المنيعة (إعداد وترجمة) (100 صفحة
من القطع المتوسط، مطبعة سندي،
مكناس، 1998 - تم توزيعه في بداية
1999)، كتاب يقدم مادة غنية عن
خطاب الفن وثقافته، خاصة في
بعديهما الفكري والتاريخي، إذ تتوزع
هذه المادة بين النصوص النقدية
والنصوص النظرية التي تعكس أفكار
الفنانين أنفسهم وتأملاتهم، وهي
نصوص مركزة تستمد شفافيتها من
تقنيات الترجمة وحنكة التلخيص.
وإذا كانت هذه النصوص موجهة -
على حد قول المؤلف - إلى طلاب
البكالوريا والمراكز التربوية، فهي -
أيضاً - مادة مهمة بالنسبة للكتاب
والمبدعين والقراء على اختلاف
مشاربهم، بوصفها نصوصاً تثير نوعاً
من أنواع الخطاب الجمالي المتعدد،
وتحرك التفكير بالنسبة للدارس،
حيث تنتسب إلى أسماء عالمية تمتلك
مصادقيتها على المستويين الإبداعي
والنقدي (أندري مالرو، جيل

- ما هو الذوق؟ ما هو الوجدان؟

- هل هناك علاقة، أو علاقات، بينهما؟

- ما هي الصلات التي تربطهما بالفن؟ بالجمال؟

- كيف يمكن أن تطور هذا الدور وعلى أي أساس، ولأية غاية؟

تستقيم الأجوبة عبر استرسالية الأفكار والتحليل. فبالإضافة إلى الرباط القويم الذي يلحم صفحات الكتاب (الذوق، الوجدان، الجمال، الفن)، يتدخل فعل التنسيق الذي جعل من الموضوعات حلقات متماسكة ومنسجمة: الفكر الفني، الفن الماضي، غربال الفن، التحريض على الحياة، استعجال الجمال، تأجيل الفن، سحر العام، وظيفة الذوق، المجتمع الجمالي، الفن نافع جدا، اللغة والوجدان.

الكتاب، إذن، عبارة عن عمل فكري يقربنا من أسئلة جوهرية حول الفن والجمال مع إخضاعها للراهنين الاجتماعي والسياسي، والراهن المرتبط بالحياة عامة. من ثمة فإن "تمجيد الذوق والوجدان" تصور وطني إجرائي يقدمه لنا الكاتب من أجل مغرب جميل يصنعه الذوق: «الديموقراطية نفسها فن، إنها فن إدارة الحرية والمساواة بشكل عادل،

خير، متمدّن، أي جميل ! (.)
الديموقراطية كالفن، تحريض على الحياة ! يزدهر الفن مع الديموقراطية، يزدهر الجمال !».

- «اختلاف وتكامل، لعبد الإله بوعود (80 صفحة من القطع المتوسط، مطبعة دار القرويين، البيضاء، 1999)، كتاب يتناول علاقات الفنون التشكيلية والمسرح، انطلاقا من عرض مختلف التطورات التاريخية والجمالية والمفاهيمية التي عملت على تقريب الصّلات بين الإبداعين التشكيلي والمسرحي باعتبارهما فنّين قائمين على البعد البصري.

في الباب المخصص لـالفنان التشكيلي والمسرح» يوضح الكاتب مسألة التقاء اللوحة والعرض المسرحي في طريقة تقديمهما للمتفرج، إذ يتم تقديمهما على شكل «جبهى»، وكيف تم تحوّل مفهوم الديكور إلى مفهوم السينوغرافيا بوصفها ممارسة شاملة تأخذ على عاتقها تأثيث الركح، حيث تدخل الفنان التشكيلي في الفعل المسرحي دون أن يفقد صفة التشكيلي، لذلك تميزت مساهمته بالجدة والأصالة، مؤكدا على أن العرض المسرحي عرض بصري بامتياز، في الآن الذي ينتقل فيه من المكتوب إلى الركح. ومن مجموع الفنانين الذين عشقوا



المسرح وساهموا فيه، وقف عند بيكاسو الذي ساهم كثيرا في إغناء البالي الروسي بقواعده التكعيبية، وأشار إلى نموذج بوبوفا بوصفه من أبرز الفنانين المعروفين بتعاطيهم إلى مختلف المجالات الفنية داخل حركة البنيوية. ثم وقف عند «الفن الشامل» الذي ظهر بين الحربين ودعا إلى تبني العمل الجماعي بين المبدعين. كما تحدث عن «مسرح الجسد» و«المسرح الفقير» لغروطوفسكي الذي يقابل «الفن الفقير» (أو آرت بوفيرا) الذي كسر الحدود الفاصلة بين مكونات الفنون، مشيرا بعد ذلك إلى ما يدعى بالبيرفورمانس Performance أو الأداءات المشهدية الزائلة التي تعتمد الارتجال بأدوات مختلفة لتقترب من الهابننغ، حيث يتم اللجوء إلى مختلف الوسائل التعبيرية، مشيرا - في هذا السياق - إلى تجربتي الأمريكي جاكسون بولوك والفرنسي إيف كلاين الذي اعتمد رقص الجسد الأنثوي الفيزيقي والموسيقي.

في اتجاه المقاربة الشاملة، تقودنا النصوص إلى مختلف الزوايا التي تمس علاقة التشكيل والمسرح :

ضرورة الفن، الفنون التشكيلية والحدثة، عندما تتكلم الجدران، الباوهاوس، والمسرح، الشيء في الفن، تاداوش كانتور، السينوغرافيا فن أو تحصيل حاصل؟

يوضح الكاتب في المقدمة أن «دراسة وتحليل علاقات الفنون التشكيلية والمسرح، ستمكننا من تجاوز النظرة الضيقة - لكنها المسيطرة - التي تقول بأن المسرح هو النص. وعلى العناصر المسرحية الأخرى أن توصله إلى الجمهور (.) ما أسعى إليه هنا، هو تسليط الضوء على أهمية السينوغرافيا كعنصر من العناصر المكونة لأي ممارسة مسرحية متكاملة. كما أسعى إلى وضع هذا العنصر في إطاره الطبيعي حيث تأسس وتطور. فمن جهة هناك المسرح بتاريخه وتطوراته، ومن جهة أخرى هناك مسار الفنون التشكيلية. هذا السعي جعلني أحرص على إظهار جوانب معينة من التجارب المسرحية دون الأخرى، وأركز على التشكيل. إن ما أحاول تبينه هنا هو الشهادة على التواصل بين مختلف الأشكال التعبيرية في إطار التعامل التكاملي..».

في اتجاه المقاربة الشاملة، تقودنا النصوص إلى مختلف الزوايا التي تمس علاقة التشكيل والمسرح ، ضرورة الفن، الفنون التشكيلية والحدثة، عندما تتكلم الجدران، الباوهاوس، والمسرح، الشيء في الفن، تاداوش كانتور، السينوغرافيا فن أو تحصيل حاصل؟



عبد الكبير الخطيبي

عبد الكبير الخطيبي

التجريدية العربية وأسئلة الحداثة

ترجمة فريد الزاهي

لفنان (حين يكون جديرا بهذا الاسم) وفراسته المنتمية تاريخيا إلى هذه الحضارة أو تلك، أو إلى تقاطع لتجارب ثقافية مختلفة. لهذا تفصح العبارة الشائعة «الفن العالمي» عن لبس بين. فهي تحيل في الظاهر إلى الهوية، وإلى تعريف مجموعة من الفنانين الذين يتجاوزون الحدود القطرية. بيد أننا إذا تمعنا في هذه المجموعة من الفنانين فإننا سنجد أنها تتوزع ضرورة إلى فرديات تتقارب في ما بينها، غير أنها تظل غير قابلة للجمع في مفهوم واحد. ففي كل عمل فني يفرض نفسه، يتعلق الرهان بالأصالة المحددة والحصرية للفنان، وبأسلوبه وموقعه الاجتماعي. ففي الوحدة التي تسم تلك التجربة، يستمر العمل الفني في الانتماء إلى فضاء حضاري معين. وهو لا يصبح عالميا إلا في هذه الشروط، وبما يفرضه السوق.

ففي كل عمل فني يفرض نفسه، يتعلق الرهان بالأصالة المحددة والحصرية للفنان، وبأسلوبه وموقعه الاجتماعي. ففي الوحدة التي تسم تلك التجربة، يستمر العمل الفني في الانتماء إلى فضاء حضاري معين. وهو لا يصبح عالميا إلا في هذه الشروط، وبما يفرضه السوق.

هذا النص مقتطف من مؤلف عبد الكبير الخطيبي عن الفن العربي المعاصر الصادر سنة 2001 عن معهد العالم العربي بباريس. وهو من ثم استمرار لتفكير الكاتب في الفنون البصرية من خط وزربية ووشم... إنه هنا مسائل مختلف علاقت الفن العربي بذاته وبذاكرته الثقافية وبأسئلة الوجود والآخر. لذا فهذا الفصل يؤسس مع القارئ رؤية جديدة للتجريدية العربية بعيدا عن ثنائية التشخيص والتجريد، وقريبا من العمل الإبداعي وشكله المحسوس والبصري (المترجم).

النقد الفني سنن تكون تدريجيا تبعا للتطورات التي عرفها تاريخ الفن والجماليات الفلسفية والأدبية كما لدى هيجل وبودلير. وتعتبر ألفاظ من قبيل «التمثيل» و«التشخيص» و«التجريد» ألفاظها الأساسية. مثلها مثل تصنيف الفن إلى عصور ومراحل. وخلف هذا السنن ثمة عمل

لقد اخترنا مسارا موحها ونحن



ثمة إذن مدخل
مزدوج لعالم هذه
الحضارة. المدخل
المفضي إلى تراثها
وحضارتها
ومنظومات فنها،
من جهة، والمدخل
الذي من خلاله
ظهر فيه الفن غير
التشخيصي في
العالم العربي بعد أن
تبلور سابقا في
الغرب

العصور وفي كل مكان من المعمور،
بحيث هبت على العالم الفني الغربي
موجة عاتية من الصور أغرقته في
لجتها.

تعود فكرة «المتحف» وتاريخ
إنشائه إلى القرن التاسع عشر. ويعود
ذلك إلى ما توارثته العائلات
الأرستقراطية والبورجوازية من تحف
وأشياء جميلة. أما في العالم الإسلامي
فإن الورثة يحوزون أيضا على الحلي
والمجوهرات والكتب، وتظل
المنقولات لذلك غير معروفة عند غير
مالكيها. وعن هذا «الكتمان» نجم
تبذير موروث ذي قيمة نادرة، وتشتته
بين متاحف أوروبا وأمريكا الشمالية
وبلدان غنية أخرى. وهكذا تم تصنيف
الأشياء الجميلة المنقولة من الحضارة
الإسلامية في أقسام «الفنون الجميلة»
أو المتاحف الإثنوغرافية ومتاحف
الحضارات العجائبية. فهذه القسمة
التي تسم مواطن الفن جاءت على
الصورة التي اقتسم بها العالم.

ثمة إذن مدخل مزدوج لعالم هذه
الحضارة. المدخل المفضي إلى تراثها
وحضارتها ومنظومات فنها، من
جهة، والمدخل الذي من خلاله ظهر
فيه الفن غير التشخيصي في العالم
العربي بعد أن تبلور سابقا في الغرب،
من غير أن يتلاشى الاستشراق
التصويري الأوروبي ومنزعه
الأكاديمي وحب العجائبي.

نتناول مسألة «التجريد» تبعا
للمنظومات المرجعية paradigmes
لفن العربي الإسلامي، وذلك قصد أن
نقدم للقارئ تحليلا ملائما لرهانات
«الفن العربي المعاصر». وقد ذكرنا أن
هذا الفن يفترض مرجعا يتمثل في
حضارة العلامة التي تملك قيمة
سامية وموروثا رفيعا. لهذا فقد
تركت بصمات واضحة في التشكيليين
الغربيين المشهورين، الذين يعتبرون
المؤسسين الفعليين للحدث. وقد أبنا
عن خصائص الفن العربي الإسلامي
ونسق أشكاله. المتمثلة في قوة
الجوانب الزخرفية، واستقلال اللون،
وتصويرية المنمنمات المبنية من غير
اعتماد على تقنية المنظور، والهندسية
المطلقة، هذا فيما أن «التجريدية»
في الغرب كانت منتهى لتحول
حضاري مغاير: «لقد نشأ العمل
الفني والصورة غير التشخيصية بعد
سلسلة مدهشة من التفكيك، والتخلي
المتتالي عن المرجعيات التي نهض
عليها الفن الأوروبي منذ قرون، أو
على الأقل التيار المهيمن داخله. فقد
تم التخلي أولا عن الجمال، الذي لا
يمكن تصويره إلا داخل فلسفة شاملة
أوديانة معينة، ثم عن مفهمة الفضاء
عبر نظام المنظور الذي لم يعد
يمارس أي جاذبية على الفنانين، وعن
تنظيم إدراك الألوان، وعن المحيط
الضوئي، والضوء الطبيعي والضوء
الاصطناعي (الكهربائي)، وأخيرا
انفتاح المتحف على كل الأساليب وكل

وسوف تتغير الوضعية حين تم إنشاء مجموعة «الفن والحرية» سنة 1938 من قبل الكاتب المصري جورج حنين (1914- 1973) برفقة الفنانين التشكيليين رمسيس يونان (1913 - 1966) وفؤاد كمال (1919 - 1973) وكامل التلمساني (1910 - 1962)؛ لكن أيضا برفقة كتاب آخرين كالبير كوسيري وهنري كورييل وإدمون جابيس. وقد نفتت هذه المجموعة دينامية خاصة في الحياة الثقافية والفنية، من خلال المقالات والمجلات والكتب المصورة والمعارض والمحاضرات والبيانات المعادية للامتثالية. كما غدت المجموعة ميولا خاصة للاستفزاز وتقاليد الفوضوية، ولتسييس قومي ويساري في الآن نفسه. فقد امتزج الفن بالسياسة، وهو ما جعل من هذه المجموعة مؤشرا للثورة.

وحين ظهر التوجه السوريالي، الأصيل والهامشي في الآن ذاته، في الحياة العامة المصرية، كان الفن الأوروبي قد تطور حثيثا نحو أسلوب غير تشخيصي منهجي ونحو تفكيك نشيط. كان هذا التفكيك، الذي فك أوصال نظام التمثيل عبر هزات عنيفة، يقترح على المتفرج في ذلك الوقت عالما جديدا من العلامات والتقنيات التجريبية التي لا يلزم أن ننسى أنها كانت تصاحب التاريخ الممزق لأوروبا وشرعيتها. هل كان الأمر يتعلق بسوء تفاهم؟ ألم تقم مجموعة «الفن

وحين ظهر التوجه السوريالي، الأصيل والهامشي في الآن ذاته، في الحياة العامة المصرية، كان الفن الأوروبي قد تطور حثيثا نحو أسلوب غير تشخيصي منهجي ونحو تفكيك نشيط. كان هذا التفكيك، الذي فك أوصال نظام التمثيل عبر هزات عنيفة

والحرية» فقط، عبر المحاكاة، بإعادة إنتاج التداعي الحر بين الكلمات والصور الذي كان عزيزا على السوريالية في سنواتها الأولى؟ نعم، من دون شك، فقد استمر رمسيس يونان، وهو أحد أعضاء المجموعة المؤسسين، في طريقه ذلك. فإذا كانت أعماله قد تطورت، بين 1938 و1966 من التشخيصية المتمردة على طريقة فريدي، نحو عفوية غير تشخيصية، فإن الانطباعية التي تبدو مهمة لأول وهلة على لوحاته في السنوات العشر الأولى لا يلزمها أن تموه على المتفرج. فقد ظل نفس تيار الرفض والحرية مستمرا خلف المظهر. فسواء لديه أم لدى جورج حنين «لا يوجد إلا ما ليس له من اسم».

وسوف تعمل إنجي أفلاطون (1924-1989)، وهي تلميذة للتلمساني، على تحقيق هذا الاتحاد المعلوم به بين الفن والتمرد السياسي، وقد مكنها الاعتقال، حسب زعمها (وعلينا تصديقها)، من الاشتغال أفضل على لعبة الأنوار. إن جعل الاعتقال رافعا لتحويل العمل الفني وتطويره يعتبر درسا من الدروس الكبرى للحياة، والتزاما مطلقا في الفن تجسده تقاليد الانشقاق التي يمكننا أن نذكر الأمثلة المشهورة منها كساد وجان جوني. تنتظم مناظر إنجي أفلاطون برشاقة وميل نحو

المنمنمة، وتشبيك الرسم واللون على خلفية موحدة. هذه الأعمال ذات المنزع النسوي واليساري والمسلحة بثقافة كونية تعتبر في الآن نفسه راهنة ولازمنية في بلد مثل مصر يتهدد الاندثار أعمدة حضارته العتيقة.

في الخمسينيات والستينيات، كان تكوين الفنانين يتم إما في القلة قليلة من المدارس الوطنية للفنون الجميلة أو في الخارج، ولاسيما في أوروبا الغربية والشرقية. وعن الفنانين الذين تلقوا تكوينهم بالخارج والذين يعتبر بعضهم من أهم الفنانين العرب، يمكننا القول إن الفن، في جميع الأحوال، ظل وطنًا لهم. بل إن استقرارهم النهائي في البلدان المستقبلية لهم، أو رجوع بعضهم الآخر إلى البلد، أو أيضا الترحال بين الوطن والخارج، هي عبارة وتعبير للأعمال الفنية عن تنقلاتها من الرسم إلى الأروقة، إلى المجموعات الخاصة، ثم المتاحف. فالعمل الفني يرحل في الزمن والمكان مصحوبا بذاكرته المحمولة. وأنا الذي أكتب هذا النص، أقتفي أثر بعض تحولات الفن التجريدي تبعا لطريق يخضع لمسير مضلع. لنتابع.

يقال إن شفيق عبود (المولود سنة 1926)، الذي ارتاد مرسم الفنان الفرنسي فرنان ليجي، وأندري الحوت

وآخرين، ينتمي لمدرسة باريس. لكنه، فيما وراء هذا الانتماء، يمتلك أسلوبه الخاص الذي يجد مرجعيته في ما بعد الحرب وابتكاراتها. فالتجريد الذي نتحدث عنه موقف ذهني وفعل يعيد هيكلة العلاقة بين المرئي واللامرئي.

يلور هذا الفن نظرة معزولة عن الواقع، تجعل الروح في موقع المترجم والواهب للأشكال والعلامات على المساحة المتموجة للعالم الحي. إنه خط للهروب في اندفاع التاريخ. وفي هذه الحالة علينا التذكير أن ذلك كان بعد الحرب العالمية الثانية.

كثيرة هي الحركات التي وجدت أصلها في ابتكارات كاندانسكي وبول كلي وموندريان ومالفيتش وماتيس ودولوني، فيما كان الأمريكيون يكتشفون في بلادهم، بحماسة وحتى الدّوار، الحرية الحركية أو حرية الفن اللامتحدد informal، ومنحى تجريديا يدين بالكثير لفن الخط الصيني والياباني.

هكذا سوف يتم حوار مزدوج مع حضارات أخرى وأنظمة أشكالها. ففي جانب، كان هناك في أوروبا منحى تجريدي يمكن اعتباره منظورا ذهنيا في خدمة إنتاج المصطنع، ذو طابع لهُوي ومفكك لعالم التمثيل القديم، ومن جانب آخر ثمة الحرية الممنوحة للتجريبيين ومستكشفي

يلور هذا الفن نظرة معزولة عن الواقع، تجعل الروح في موقع المترجم والواهب للأشكال والعلامات على المساحة المتموجة للعالم الحي. إنه خط للهروب في اندفاع التاريخ، وفي هذه الحالة علينا التذكير أن ذلك كان بعد الحرب العالمية الثانية.

الحدود القصوى بين الشكل واللاشكل، والشيء وحطامه، والعمل الفني وانمحائه، والمواد وأبدالها السحرية، والفن الحركي وانفلاتاته. لكن بين عنصري هذا المشهد الفائر، يوجد فن تجريدي يسير في اتجاهات غامضة كثيرة، إلى درجة سمعنا معها من أفواه مفكرين كبار بأن الفن حرفة آيلة للموت.

ولد شفيق عبود، بشكل ما، في ملتقى الطرق هذا. ففي لعبة الطفل (1961) مثلا، فإن لمسة النظر، الذي يملك رؤية لمسية، تبدو محمولة على توازن بين النبرات والتناغمات، مائنة لهذه اللوحة إشراقا يظل اللون محتفظا بمقياسه. وهو الإشراق الذي يبدو بديها في أعماله الأخيرة.

ولأن أعمال الفنان الجزائري عبد الله بنعنتر (المولود سنة 1931) مرتبطة أصلا بالتجريد الحركي السائد في الستينيات، قبل أن تتطور باتجاه أسلوب مستقبلي وتجريبي، فإنها تمتاز باستمرارية رائعة. فقد امتلك هذا الفنان بعض مكتسبات التجريدية الغربية بسعادة غامرة، باعتباره حفارا ورساما ومصورا الأكثر من سبعين كتابا فاحرا مهداة لشعراء مرموقين. إن طقس الكتاب والتنويرية هذا موروث عن حضارته. وقد ظل واقعا تحت فتنته مثله في ذلك مثل الكثير من الفنانين التشكيليين العرب.

بيد أن بنعنتر يتحدث أيضا عن نور من نوع آخر، أي عن نور محلي تستضيء به جهة معينة ومواقع ومناظر معينة. إنها لفكرة رائعة أن يقوم بشخصنة الضوء الطبيعي والإقامة فيه باعتباره شعاعا متحولا. وبالرغم من أن بنعنتر ولد بالجزائر فإنه يعشق منطقة بروتانيا الفرنسية. وهو ما تجسده اللوحة المتعددة المسماة الفصول الأربعة. ثمة مناظر طبيعية ونباتات وحيوانات وشخصيات محجة جامدة، وكل شيء يتم في تلوين تتحكم في جموحه وتسلسله في الآن ذاته قوة منظمة ونيرة تسكن جسد الفنان وموحياته الحسية.

حين يقوم فنان مقيم من وطنه بإعادة بنائه في منطقة نور تنسجها ممارسة اللون، فإن الطبيعة تكشف خلف كل مظهر جذاب من مشهدها قيم الرموز السرية والهوية التعليمية. ومن حينها يبدأ النظر المتأمل لهذه اللوحة أو تلك في السعي إلى الترحال خارج الزمن، انطلاقا من انطباعاته الأولية. ونحن نعتقد أن اللون الأكثر تمزقا والأكثر اجترحا يحافظ على تأليف أخير يزرع في غرائزنا أو يخاطب عليها. وثمة يكمن لغز الفن الذي يصطدم باستعصائه «التجريد» و«التشخيص» معا؛ إلى أي حد تملك الطبيعة والفن، انطلاقا من ألفتهما، نفس الإنتاج للأشكال؟ ولقد

ولأن أعمال الفنان

الجزائري عبد الله

بنعنتر (المولود سنة

1931) مرتبطة أصلا

بالتجريد الحركي

السائد في الستينيات،

قبل أن تتطور باتجاه

أسلوب مستقبلي

وتجريبي، فإنها تمتاز

باستمرارية رائعة.

اعتقد الفنانون والمفكرون لزمن طويل في هذه المماهة، لكن نظام الطبيعة وفوضاها منذوران بالمقابل لقوى الصمت. وربما كان تشكيل الصمت، فيما تحت الصمت، الحقيقة الهوجاء للفن.

وعلى كل حال، فإن كل فنان يبدأ من جديد كما لو كان ملاكا منفيا في هالة النور. وبهذا الصدد تدعونا مونيكا بوشي، بعمقها الشعري، إلى تأمل سلسلة الزائرات لبنعتر، «أحيانا، وبالرغم من عتمة الليل، تصل الزائرة الملهمة إلى مرتبة جمال لا يضاهي، وأحيانا أخرى تبدو الكتلة المقشرة كما لو أنها تتماوج، فيصبح التشكيل خفيفا وهوائيا، بمنحدرات مفضضة بنعومة العسل. كل شيء مشع، واللمسة الحركية تمسك بالنور عبر عصابات راتنجية نباتية حمراء قانية، فتنمو الأشكال بجلالة رائعة ورشاقة كبرى يحيط بها الغموض كما لو كانت أشخاصا عزيزة علينا نجهل في العمق حياتهم. وهذا ما يبدو بجلاء في الزائرات السوابع. حيث تتدخل الثنائية بقوة بين رقة الشخصيات المجتمعة في نصف دائرة تحيل إلى صخور منطقة «بيل إيل» بفرنسا، وكأن الأمر يتعلق باجتماع سري، والالتواء والتمطط المرضي للشكلين اللذين يتحركان فوقها».

فمنذ أكثر من نصف قرن والفنان

العربي الحديث لا يكف عن تملك تراثه ونظام أشكاله ومعه بعض مكتسبات الفن التجريدي العالمي. وهو أحيانا يستدرج نفسه نحو تجريدية ذات طابع غربي، حيث لا أولية للعلامة ولا عودة للأقانيم التقليدية. لقد عنون الفنان التونسي رفيق الكامل (المولود سنة 1944) أعماله لسنة 1987: تحويلات. التحويل انطلاقا من تقنية التغطية، وبما أن الخلفية ذات لون واحد فإنها تصعد إلى السطح، هنا وهناك، في تأليف دينامي، يترجم الألوان والأشكال إلى عوارض قاطعة.

إن عبود وبنعتر وآخرين من الذين سنعود إليهم، عشاق للاستقلالية المحسوسة للون. وقد كانت هذه الاستقلالية في الغرب عبارة عن فتح تدريجي، وذلك عبر أعمال غوغان وفان غوخ و«سيزان» والانطباعيين. أما في المجال الحضاري العربي الإسلامي فإن تلك الاستقلالية تندرج في نسق من الأشكال وتعادل التنويع في المظاهر التي تتلاعب بها قوى الزخرفية من خلال الهندسية المطلقة وأشكالها التوريقية ذات المنحى المتاهي.

لم ينم هذا النسق أبدا، فهو يعود إلينا في أعمال الفنانين العرب المعاصرين، متحولا ومجاورا لأنساق أخرى من الأشكال.

إن عبود وبنعتر
وآخرين من الذين
سنعود إليهم، عشاق
للاستقلالية
المحسوسة للون.
وقد كانت هذه
الاستقلالية في
الغرب عبارة عن فتح
تدريجي، أما في
المجال الحضاري
العربي الإسلامي
فإن تلك الاستقلالية
تندرج في نسق من
الأشكال وتعادل
التنويع في المظاهر

الناس، ولنصف أيضا الممكنات التي يقترح قصد زرع جوهر فن الخط العربي التقليدي في إطار مبنيين وملون يبتغي هنا أيضا كما في أبحاثه الأخرى، الانفتاح على العالمية.

لكن التشكيل المتعرج للمغربي محمد المليحي (المولود سنة 1936) من طبيعة أخرى. ثمة المويجة والمويجة على الدوام، بالرغم من أنه قد استدعى، في الستينيات، سلسلة من المربعات الصغيرة باعتبارها تمارين في الإيقاع بين الهندسية واللون، ملتحمة في الحركة نفسها. ربما كان علينا أن نذكر بأن هذه الهندسية التي يتحدث عنها الفنان بعبارات تنتمي للتصوف الياباني (زين) مسكونة بقوة الزخرفية النابعة من الفن العربي الإسلامي، سواء منه الأرستقراطي أم الشعبي. فهو وريث لها بالشكل نفسه الذي كان به تلميذا للحركة البصرية (بريدج رايلي) في الستينيات، فالهندسية، باعتبارها بناء ذهنيًا، تشكل بقوتها الخاصة موطنًا روحيا (كما نظر لذلك فاسيلي كاندانسكي*)، هناك حيث يبصر العقل برسم الروح.

إن هذه الهندسية الحسية هي منحى من مناحي النزعة البنائية constructivisme التي يمكنها أن تراهن على أحد عناصر هذا التشكيل كاللون أو العلامة أو الشكل المتوالي



محمد المليحي

إن هذه الهندسية الحسية هي منحى من مناحي النزعة البنائية constructivisme التي يمكنها أن تراهن على أحد عناصر هذا التشكيل كاللون أو العلامة أو الشكل المتوالي

لنتوقف عند التجربة الهندسية التي يتم التعبير عنها بعناصر متعددة، كالمويجة والمربع السحري، والمضلع النجمي، وأشكال أخرى مستقاة من الفسيفساء والمعمار وفن الخط والفنون والحرف. لكن في ما وراء هذه العودة إلى التراث المتسمة بهذا القدر أو ذاك من المرح، قام فنانون معينون ببناء نظامهم المرجعي الخاص. وربما كان الفنان اللبناني صليبا الدويهي (المولود سنة 1912)، الأول الذي فتح الطريق نحو فن هندسي صارم، مغتن بمؤثرات جديدة. إن ممارسته للفن الجداري وللزجاجيات، التي تحتفظ كما نعلم ببعض أسرار اللاهوت والتصوف، وعشقه للوحات الكبرى التي يمتد على مساحتها لون طائر لا يكف عن صياغة عصابات رقيقة في جوانبها، كل هذا التمازج الصميم بين اللون والهندسية، وبين التناوبات النبرية والمفارقات اللونية جعلت غاستون ديبل يصرح، هو العارف بفنون الحضارات الأخرى، "يكفي أن نستعيد باختصار جوهر أبحاثه المستمرة المتمثلة في تقطيعاته الطموحة، التي لا يمكن لمظهرها الشامخ إلا أن يقنعنا، وضروب ألوانه الفخمة وذات الطابع الشخصي العميق، المستعملة بوجاهة كي تشد البصر من أول نظرة، وتحويلاته الرمزية المتدرجة الهادفة إلى بلوغ جوهر إدراكي مؤثر في كل

puzzle أو متوالية من الصور، حيث يكون اللاعب (أي الفنان) في الآن نفسه جزءا من اللعبة. أما شخصيته البانية للصور الرمزية فهي التي تقوم بمشاهدة نفسها وقد تحولت إلى بدأ بفعل كثرة أقنعتها. إنه يرمي أيضا بنفسه في مهاوي الخطر، عبر تطويع صلابة المادة وتكييفها بشكل منهجي مع طاقته الخاصة، ومع الأشكال التي تتألف وتتفكك أمامكم. كل شيء هنا معطى للنظر من غير تحفظ. واللون (بتنوعاته المغراء والحمراء والصفراء والصهباء والسوداء والزرقاء أيضا) محاكاة لألعايب جسد الفنان وحبه المنصاغ في تحولات المادة.



فريد بلكاية

وعلينا أن نذكر هنا أعمال الفنانة الفرنسية المغربية نجية المحاجي (المولودة سنة 1950). إنها تتابع بحثها عبر تجريدية هندسية مؤسلة حتى يغدو الرسم البياني خالصا برموزه العتيقة، المصرية والإغريقية والمتوسطة. إنه تشكيل بالغ التقنية، فهي تأمل في الصمت الذي تجسده تنويعات الصور الهندسية باعتبارها مظاهر للنظام والكمال والمعمارية الحسية ذات الأبعاد الرفيعة. وبين الراقصة التي كانتها، والفنانة التشكيلية المرموقة التي أصبحت، ثمة سر هيروغليفي ينطبع على أثر خطوة راقصة حركية. إنها هندسة متحركة. صمتا، ولنعاود الكرة.

لنأخذ مثلا بنائية الفنان المغربي فريد بلكاية (المولود سنة 1934). إنها أعمال رائعة لفنان بحثة، مرتبط بالاستقلال الخيميائي للمادة، مستكشف الفنون الاستعمالية ومعها الفضاء اللامحدد بين التشكيل والنحت. يواجه بلكاية النحاس، ثم الجلد المبسوط على ألواح خشبية، بطاقة كبرى، بحيث إن شفافيتها القليلة المعالجة تقنيا تلطف بعض الشيء من حدتها وتوترها. وهو يزخرها بالعلامات والرموز والشعاريات الرمزية والأشكال الواضحة وعناصر منسية من الكتابة التصويرية والتخاطيط الجنسية أو الكوكبية. إنها مذكرة يستخدمها الفنان بمثابة تصاوير وأحلام يقظة على آثار لها طابع النماذج المتخيلة العتيقة. فيصنع منها صورا مفككة

خصائص المادة. وتكون البنائية هادئة أو محايدة حين تبرز تأليفا حصريا وواضحا، إما ذا صبغة هندسية أو سيميائية. وعادة ما يصنف هذا التوجه ضمن الزخرفية وفي إطار الفن الزخرفي التزويقي. وهو ينصاع لهذا التصنيف، كما أنه أمر معتاد في السريغرافيا. إن نمط تأليفه ذو طابع مواجهة، بحيث يكشف الناظر عن شكله ومضمونه في التناظم نفسه للعناصر التي تكونه. وسوف نسمي بنائية دينامية الوضعية التي يبين فيها التأليف عن نفسه تارة، وتارة أخرى يتوارى عن النظر. لنأخذ مثلا بنائية الفنان المغربي فريد بلكاية (المولود سنة 1934). إنها أعمال رائعة لفنان بحثة، مرتبط بالاستقلال الخيميائي للمادة، مستكشف الفنون الاستعمالية ومعها الفضاء اللامحدد بين التشكيل والنحت. يواجه بلكاية النحاس، ثم الجلد المبسوط على ألواح خشبية، بطاقة كبرى، بحيث إن شفافيتها القليلة المعالجة تقنيا تلطف بعض الشيء من حدتها وتوترها. وهو يزخرها بالعلامات والرموز والشعاريات الرمزية والأشكال الواضحة وعناصر منسية من الكتابة التصويرية والتخاطيط الجنسية أو الكوكبية. إنها مذكرة يستخدمها الفنان بمثابة تصاوير وأحلام يقظة على آثار لها طابع النماذج المتخيلة العتيقة. فيصنع منها صورا مفككة

أما التحويلات التي تحدثنا عنها بصدد بلكاية، فيحققها بشكل دقيق الفنان المصري آدم حنين (المولود سنة 1929) بين ورق البردي والتمثال، من خلال الحجر والبرونز والجبس. ربما لم نكن على وعي كامل بأننا فقدنا السر القديم لصناعة ورق البردي. والآن تتم صناعته بطرق حديثة. من ثم نجد في أعمال حنين ذلك النسيج ذا الألياف المتشابكة، والمظهر المحبب، الذي وهو يمتص اللون المائي (من كستنائي وأزرق نيلي، وأخضر وأحمر خائر وأصفر كبريتي). يزج بنا في تناغم متجانس بين النبرات الدافئة. وبهذا الصدد يصرح الشاعر الفرنسي ألان بوسكي: "ثمة إحساس بالهشاشة المدغومة وذات المدى الطويل، كما لو أن كل ورقة قد تأكدت بفعل توالي القرون. إنه فن مكتمل ومتكامل".

إن بنائية آدم حنين تنظم اللون المبلل بهذه الطريقة مع أطياف شمسية تتراصف بشكل مائل أو بشكل متواز. فينبثق إحساس بالتوازن والاستقرار والصمت والأبدية الهاربة من تراصف المساحات هذه، حيث تتسلل خفية هذه العلامة أو تلك النابعة من ذاكرة تليدة. إن هذا التحويل يكون فاعلا أيضا في التماثيل الصغيرة للفنان التي تستوحي التراث الفرعوني، والتي تأخذ تارة طابعا تجريديا وأخرى

تشخيصيا، لكن من غير أن تتخلى عن بساطتها وصفائها. تبعا لأسلوب إقلالي minimaliste في الشكل والبنية المرتكزة على قواعد ومكعبات وأسطوانات. فبفضل تلك التماثيل الصغيرة نتمكن من استعادة زمن الفراعنة. من سيقول لنا يوما من الذي يسكن الآخر، هل هو الكائن الحي أم شبح الميت الصامت المنبثق من قلب الصحراء الكبرى؟

إن بنائية آدم حنين

تنظم اللون المبلل

بهذه الطريقة مع

أطياف شمسية تتراصف

بشكل مائل أو بشكل

متواز. فينبثق إحساس

بالتوازن والاستقرار

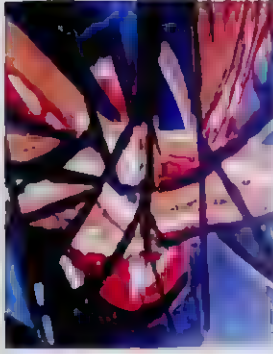
والصمت والأبدية

الهاربة من تراصف

المساحات هذه

فشبح الميت هو ضيف ذاكرتنا، وهو يأتي ليسكن علاقتنا بالماضي وبالتراث، هناك حيث يوجد ذلك الإحساس بالفراغ الذي يعيد فيه الفنان، في عزله، إقامة الحوار غير المكتمل أبدا مع الأجداد.

وما حققه آدم حنين في النحت، مقارنة مع التشكيل، تقوم به الفنانة الأردنية منى السعود (المولودة سنة 1945) في النحت مقارنة مع فن العمارة (في المدينة العربية). من حيث هو نحت عتيق وشامل. إن اعتماد هذه النحاتة المتميزة على مواد متنوعة، من الحجر الجيري الوردي لإربيد حتى رخام كارار كي ينهض تمثالها على قاعدة من الأشكال والأساطير، يظهر كيف تضع امرأة مسلمة موهبتها في خدمة خيال مادي فعلي وحدائث ابتكارية، متماشية مع التحولات العميقة التي تخترق المجتمعات العربية. ونحن



الجيلالي الغرباوي

يقال عن الفنان
المغربي الجيلالي
الغرباوي
(1930 - 1971) إنه
فنان حركي، أي فنان
مشدود إلى الرؤية
المباشرة والدوار
والعاصفة، والدخول
السريع في اندفاعية
الألوان. هكذا هو
يحول ألمه (الذي كان
عميقا وكبيرا) إلى
صور و"تجريد غنائي"

والدوار والعاصفة، والدخول السريع
في اندفاعية الألوان. هكذا هو يحول
ألمه (الذي كان عميقا وكبيرا) إلى صور
وتجريد غنائي، إلى درجة غدا معها
المكروه الذي صاحبه واضحا أمام
أعيننا. إنه تحول يتحقق بفضل
ملاءمة فورية بين الرؤية والحركة
واللون. وفي لوحاته الغواشية علي
الورق، نظل معجبين بالقوة الجامحة
والصمت المخملي، والطقوس السحرية
للمصادفة والتخلص من وطأة الفتنة،
والعافية التشكيلية المنفصلة عن
الماضي. وبهذا الصدد قال الغرباوي:
«لقد شكل التراث بالنسبة لي رافدا
بصريا أكيدا. فلا يمكننا أن ننفلت من
بيئتنا. لكننا لا يمكننا دائما وصف ما
نحمله في داخلنا. لقد ظل عملي
الشخصي دائما مجهودا باتجاه
المجازة. وبإمكان تجربتي أن تخدم
أيضا الصانع والفنان الحديث».

هذه الخطوة نحو الحداثة، خارج
التعارض الهلامي بين التراث
والحداثة التطورية، يعبر عنها الفنان
المغربي محمد القاسمي (المولود سنة
1942) بقوة. «أنا أفك وأكتب
بالمقلوب التوريقات والزخارف
النباتية والعقدة التجريدية
للإسلامي». إنها مطالب فنان ذي
موهبة كبرى ومثقف بالمعنى الكامل،
انطلاقا من موطنه، لتدويل الفن.
للتصوروا إنسانا يرسم ويمارس

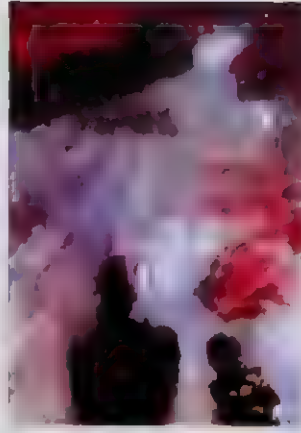
الذين نمارس الكتابة بالحديث عن
النحت، علينا أن نحس بأن كل كلمة
مطالبة بالتلاؤم مع الشكل
الأندروجيني الذي تنظمه منى
السعودي بطريقتها الخاصة باتجاه
الملمس اللين للحجر.

لنتابع عرضنا للفن التجريدي
مغيرين منظورنا، لا بالعلاقة هذه
المرة مع البنائية والنسجية، وإنما
بالعلاقة مع الإيقاع، حيث يتم تعليق
البناء بالحركة وارتجالاتها البينة. وما
اكتشفه فن الخط العربي، تبعا لسننه
الخاضع لقيم القياس والتوازن، لم يكن
سوى تجريد محسوب الأبعاد ومتحرر
من التمثيل على فضاء افتراضي،
تقترحه هذه الجملة الشهيرة لفكتور
هوغو: «الشكل هو المضمون الذي
يصعد إلى السطح».

في الحركة كما في التجريدية
الحركية يجرب التأليف حظه بين
اللاشكلى والشكل. ويتمثل الرهان في
التحكم اللحظي في سيادة الاعتبار
الذي يتهدد العمل الفني باستمرار،
لمعانقة قوة الحركة التي تترجم
نفسها بين الانطباعات الأساسية
(الإحساسات) والتحويلات الهندسية
والأشكال المتحركة. يقال عن الفنان
المغربي الجيلالي الغرباوي
(1930 - 1971) إنه فنان حركي، أي
فنان مشدود إلى الرؤية المباشرة

بصر. فكل شيء فيها أثر: الذاكرة والموروث البصري والكتابة، ووسم الحركة وإيقاعها القاطع المترابك فرشاة على الأخرى، وذلك حتى نهاية اللوحة. أي بدئها من جديد في مكان آخر صامت: «يتمثل عمل الفنان من دون شك عبر أفعاله المتتالية، في تحويل كل لوحة إلى فضاء تنوسم فيه الآثار وتمحي، حيث تستمر في الوجود متحجرات الأصول، وحيث تتحرك الألوان والدلالات والفرشات اللونية (مثل كثنان رملية). وقد تأتي أحيانا (من حيث لا ندري) رياح لكنس الفضاء التصويري، (جلبير لاسكو).

أما أعمال الفنان المغربي فؤاد بلامين (المولود سنة 1950) فهي أكثر تركيزا على المادة ولعبة الذاكرة التي تفرزها في حياة الفنان. وبعد أن كانت ذات منحنى تصوري وإقلالي، بدأت تلح على التوافق الذي يربط بين الحركة وتحولات المادة وبين خلق الأشكال يمكنه أن ينبثق من التوتر الفضائي ومأساته. إنها مأساة اللون الذي تنتشر عليه عناصر الرمادي والأسمر والأسود، عبر التراكم والجمع بين الفرشات اللونية، في ضرب من «الجيولوجيا ذات الطابع العمودي»، كما يفسر لنا ذلك الفنان. وهو يوضح لنا أيضا بأن بحثه المحيط بمختلف التيارات العالمية يستهدف العلامة والمكان والذاكرة: فما موقع الأثر



محمد القاسمي

بيد أن القاسمي يظل مهووسا بمساعه الخاص، باعتباره بحثا عن الحد والآخر، وهما مفهومان أساسيان لديه.

أما أعمال الفنان المغربي فؤاد بلامين (المولود سنة 1950) فهي أكثر تركيزا على المادة ولعبة الذاكرة التي تفرزها في حياة الفنان.

التشكيل والكتابة ويستكشف، انطلاقا من تعدديته الفنية تلك، الممكنات الجديدة للوحة والجدار أيضا والمنشآت والأعلام على شاطئ المحيط الأطلسي، إلى درجة لا يمكننا إلا أن نفكر معها هنا بصورة الأطلانط، وهي صورة أسطورية قد ننساها حين يجد هذا الفنان نفسه يواجه بانتظام مفاهيم لوصف هذا النشاط القوي، الذي رأى البعض أنه يقترب من تيار الفعل التشكيلي (Action painting) الأمريكية وكاهنها الأكبر جاكسون بولوك. بيد أن القاسمي يظل مهووسا بمساعه الخاص، باعتباره بحثا عن الحد والآخر، وهما مفهومان أساسيان لديه.

وعن الحد، نستطيع القول إنه يشغل داخل هذا الفضاء التشكيلي وخارجه. وحين يجمع بين المحلولات الكيميائية وضروب الخضاب كي يخلق خيالا ماديا نشيطا. فما يجمع بينها بهذا الشكل هي بالتأكيد الآثار المدهشة لمادة محترقة يتحرك وسطها الجسد، لكن أيضا الأمكنة التي يتجذر فيها الإيروس من جديد ويستعيد فيها مرتكزاته واستقراره المتحرك. وقدراته الروحية المفكرة. الحد هو ما يشد الفنان إلى هويته وقد تحولت إلى صورة وعلامة ومفهوم. وعلينا متابعة انكسار هذه الطاقة بلمحة

المفاهيم الرائجة في النقد الفني
قصد بلورة، إن لم نقل تأكيد العلائق
اللامفكر فيها بين التمثيل والتجريد
والتشخيص والعلامة والشكل
واللاشكل. وبهذا لا نعمل سوى على
بلورة مدخل للفن العربي المعاصر.

التجريدي من مدينة فاس، مسقط
رأسه؟ إن هذه الثلاثية يوظفها بمثابة
تراكم لاستكشاف ابتكارات ما نسميه
«ما بعد الحداثة».

لقد وضعنا بين قوسين الكثير من



فؤاد بلامين



عبد الرحيم العلام

«كأس حياتي: كتابات في التشكيل» لإدريس الخوري

والمقالات الأخرى التي لم يكتب لها بعد أن تجمع بين دفتي كتاب. وأكثر، وهي مقالات تدور أساسا حول قضايا السينما والمسرح، وحول أجناس وقضايا وظواهر تعبيرية أخرى.

يعتبر إدريس الخوري، إذن، واحدا من أهم الكتاب المغاربة الذين ما فتئوا يتتبعون، بالتزام وبتفان وكثافة، سيرونة الحركة التشكيلية وتحولاتها بالمغرب، وفي بعض الأقطار الأخرى، عربية وغربية، فكتب عنها الخوري انطلاقا من علاقات بصرية ووجدانية وفنية مباشرة، حيث تجد الخوري دوما في حالة استجابة لهذه الدعوة أو تلك أو لزيارة هذا المعرض أو ذاك، مجسدا بذلك حضورا رمزيا وفعليا في المشهد التشكيلي المغربي، إلى جانب أسماء أخرى لها بصماتها الخاصة على مستوى الحركة التشكيلية بالمغرب، بحثا وتحليلا ومتابعة، من مثل إدمون عمران المليح ومحمد السريغيني وعبد الكبير

يعتبر إدريس الخوري، إذن، واحدا من أهم الكتاب المغاربة الذين ما فتئوا يتتبعون، بالتزام وبتفان وكثافة، سيرونة الحركة التشكيلية وتحولاتها بالمغرب، وفي بعض الأقطار الأخرى، عربية وغربية، فكتب عنها الخوري انطلاقا من علاقات بصرية ووجدانية وفنية مباشرة

إذا كان الكاتب إدريس الخوري يعرف، في الوسط الأدبي بالمغرب، باعتباره كاتب قصة قصيرة متميز، فهو، إلى جانب ذلك أيضا، مشهور باعتباره كاتب مقالة من الطراز الرفيع، هذا الجنس التعبيري الذي خبره الخوري منذ زمان، وما يزال، فقدم فيه العديد من الكتابات والإشارات والمواقف والمعاني ووجهات النظر والانتقادات أيضا. فإلى جانب الإنتاج القصصي للخوري الذي تم جمعه، مؤخرا، في مجلدين اثنين بهيين ضمن سلسلة الأعمال الكاملة التي تصدر عن منشورات وزارة الثقافة والاتصال، فقد صدرت للكاتب بعض الكتب الأخرى الموازية لكتاباته التخيلية: كتاب «فضاءات: انطباعات في المكان»، وكتاب «من شرفة العين»، وكتاب «بعيدا عن النص، قريبا منه»، وكتاب «كأس حياتي: كتابات في التشكيل»، فكتابه «التتيك السياسي»، عدا مجموعة من الكتابات



بتلويناتها العديدة، كما تحتفي بالتقاط كثرة التفاصيل والجزئيات والخصوصيات، الصعبة أحيانا، على الالتقاط والاصطياد، سواء في اللوحة أوفي الشاشة أو في الركح، أو في الواقع العيني..

لقد قام الخوري، في هذا الكتاب الممتع («كأس حياتي..»)، بجمع عدد من المقالات والكتابات التي سبق له أن كتبها خلال فترات سابقة ومتقطعة، منها تسع مقالات، كتبها الخوري عن قضايا مختلفة، تخص، في جانب منها، الحركة التشكيلية بالمغرب، وست وثلاثون مقالة كتبها الخوري عن معارض تشكيلية أقيمت هنا أو هناك، والخوري بذلك، إنما يمد الخزانة الأدبية والتشكيلية والبصرية في المغرب بكتاب قيّم عن التشكيل المغربي، في بعض جوانبه التاريخية والبنوية، وأيضا في صوغه لمجموعة من الأسئلة الأساس، بما يكتنفها من صعوبات تخص ممارسة الرسم في المغرب، وتلقي اللوحة، وتفسير مفهوم اللوحة التقليدية، ومفهوم قاعات العرض، وشروط العرض، وترويج اللوحة، وغياب الوعي النظري، والنقاش الفني الدائر في بعض الأوساط الفنية، والتشكيل بين التشخيص والتجريد، وطبيعة الحدود بين ما هو معماري وما هو تصويري..

أما الفصل الثاني، فخصه الخوري

الخطيبي وحسن المنيعي وموليم العروسي وحسن نجمي وخليل المرباط وعزام مذكور وآلان فلامون وياسمينة الفيلاي.. وغيرهم.

وقد فعل الخوري خيرا بلجوثه إلى جمع بعض ما كتبه من مقالات وانطباعات في التشكيل، بين دفتي هذا الكتاب («كأس حياتي» كتابات في التشكيل)، الصادر عن منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط1، الرباط (2000)، حفاظا عليها من الضياع، من ناحية، وإحياء لها، أي بوضعها من جديد رهن إشارة فضاء التداول والتلقي والمرجعية، من ناحية ثانية، بما هي كتابات ومقالات طافحة بوجهات النظر والقراءات النافذة، وغنية بالصور والرموز والتأويل والدلالات.

وإدريس الخوري، في وفائه الدائم للكتابة عن هذه المجالات البصرية الثلاثة (التشكيل والسينما والمسرح)، إنما يكتب، من خلال ذلك كله، للعين سيرتها وحدوسها، انطلاقا من قوة إحساس لدى كاتبنا بالمجال البصري والرؤيوي عموما، بما يعرف به الخوري، في هذا الإطار، من دقة الإدراك واختيار زوايا الرؤية وتشغيل الوصف والتقاط التفاصيل. وهو أسلوب، في الكتابة والتعبير، يطبع، كذلك، مجموع الكتابات القصصية للخوري، كما يميزها، بما هي كتابات مفتونة، هي أيضا، بتشغيل "العين"

منها تسع مقالات،
كتبها الخوري عن
قضايا مختلفة،
تخص، في جانب
منها، الحركة
التشكيلية بالمغرب،
وست وثلاثون مقالة
كتبها الخوري عن
معارض تشكيلية
أقيمت هنا أو هناك

الرسامين العراقيين الأربعة، فمعرض
الرسام العراقي خالد الجادر ومعرض
ماتيس بباريس.

وما بين الفصل الأول والفصل
الثاني، تتزاحم أمامنا اللوحات
والمعارض والفضاءات والأسماء
والأسئلة والمفاهيم، والخوري بذلك
إنما يقدم لنا حيوات تشكيلية جمالية
طافحة بالمتعة ولوعة الألوان، ولو
عبر وساطة اللغة والوصف. كما يعيد
الكاتب تصوير افتناننا بعوالم جمالية،
من هنا وهناك، بما هي عوالم للمتعة
البصرية وللاكتشاف أيضا، وبما هي،
أيضا، فضاءات مفتوحة أمامنا على
عوالم التشكيل والرسم والنحت
والحرف والخط والزخرفة،
ومفتوحة، كذلك، على مجموعة من
الاتجاهات والأساليب والمدارس،
كالواقعية والتعبيرية والانطباعية
والتشخيصية والتجريدية..

والخوري، في هذا الكتاب أيضا، لا
يتوقف عند حدود الوصف والانطباع
فقط، بل يتجاوز ذلك إلى التحليل
وتعميق الأسئلة والنش في ذاكرة
الحركة التشكيلية بالمغرب، في بعض
مراحلها ومنعطقاتها وتحولاتها،
وبمثل ذلك يرصد التحول الذي طال
الحركة التشكيلية بالمغرب، من
ناحية، وكذا قاعات العرض، من
ناحية ثانية.

كما أن الخوري، في هذه المقالات،

للحديث عن بعض المعارض التي
زارها أو تفاعل معها، هنا أو هناك،
وقد تحولت هذه الظاهرة (أي مقرات
العرض) من الرباط إلى الدار البيضاء.
كما يحكي الكاتب عن بعض الأسماء
والتجارب المعروفة، كما هو الشأن
بالنسبة للأسماء والتجارب الفطرية
والجديدة في عالم التشكيل والرسم
والنحت، والعرض أيضا.

هكذا يستعيد الخوري في هذا
الكتاب أسماء كبيرة في المشهد
التشكيلي المغربي، إلى جانب أسماء
أخرى استطاعت أن تنحت لنفسها
مكانها الخاص وسط عالم فني أصبح
ينغل بالأسماء والعطاءات والعروض.
فإلى جانب الغرباوي يستحضر هذا
الكتاب، كذلك، تجارب كل من
الشرقاوي وابن علل والملياني
والهبولي والслаوي ورحول
والصويري، إلى جانب ستة فنانين من
الصويرة والركراكية والأخوان حمزة
عاشور ومحمد عاشور وعباس صلاحي
والصديقي وحنين ورحول وكريم
بناني وإكرام القباچ وأوبلحاج وعزيز
السيد وخالد الأشعري والديوري
ومعرض الثمانية رسامين وأبو الوقار
الصوفي ومحمد جنات وأحمد
المرباط ومعرض العشرين رساما
(قاعة المعمل، بالرباط)، وبغداد نعاس
وبلامين والبوجمعاوي ومعرض
التشكيليين الأمريكيين الخمسة،
وديميتريوس غوغيديس ومعرض

فإلى جانب الغرباوي
يستحضر هذا الكتاب،
كذلك، تجارب كل من
الشرقاوي وابن علل
والملياني والهبولي
والسلامي ورحول
والصويري، إلى جانب
ستة فنانين من الصويرة،
والركراكية والأخوان
حمزة عاشور ومحمد
عاشور وعباس صلاحي
والصديقي وحنين
ورحول وكريم بناني
وإكرام القباچ وأوبلحاج
وعزيز السيد وخالد
الأشعري والديوري

يكتب خارج التعصب أو الافتتان
بالأسماء الكبيرة، كما يفعل البعض.
ففي كتابه هذا نجد مكانا للفنان
المحترف، وللفنان الهاوي وللفنان
الفطري وللفنان غير المستهلك.
يتعايش الكل داخل فتنة التشكيل
وبهجة الألوان. ويتم التعبير عن ذلك
كله بلغة بليغة وغاية في الشاعرية
والجمال، وكأننا ببعض هذه المقالات
نخالها قصصا قصيرة جدا (مقالاته :
«ملائكة الليل» «الحالمون» «وفي يوم
ما، في صباح ما»، على سبيل المثال
فقط لا الحصر...).

وكما تحضر الرباط بقاعاتها
ومعارضها، في هذا الكتاب، تحضر
الدار البيضاء، وقد احتفت بمركزيتها
التشكيلية الجديدة، على مستوى
مقرات العرض وعدد المعارض. فكما
يؤرخ الخوري لتطور الحركة
التشكيلية في هاتين المدينتين، منذ

الستينيات، وهي المرحلة التي «أعطت
للمثقفين شكلا آخر من أشكال التعبير
الفني تجاور، ولا يزال، مع الكتابة
الأدبية التي تجد نفسها اليوم مضطرة
إلى المشاهدة والتأمل في حقول
تعبيرية ورمزية تسابق الزمن، وبحكم
أهميتها الفنية، بدأ المثقف المغربي ذو
اللسان العربي الواحد يرتاد القاعات
والمسارح بحثا عن شيئه المفقود في
حياته التقليدية، وهذا ما يفسر اليوم
اهتمامه بالمجال البصري» (ص 13).
إلى جانب ذلك، تحضر مدن أخرى
من المغرب (الصويرة ومراكش)
وخارجه (باريس.. من خلال قراءة
الخوري لمعرض أقيم للوحات هنري
ماتيس)، وهو ما يعني أن كتاب الخوري
هذا يكاد يغطي مراحل وفضاءات
أساسية من تطور الحركة التشكيلية
في المغرب، في مراكزها وهوامشها،
وأیضا في أسمائها الكبرى والهاوية..

وهو ما يعني أن كتاب
الخوري هذا يكاد يغطي
مراحل وفضاءات أساسية
من تطور الحركة
التشكيلية في المغرب،
في مراكزها وهوامشها،
وأیضا في أسمائها الكبرى
والهاوية..



زهرة زيراوي

الرياح البنية أو قطعوني من حقول القصب*

أساساً لأي «موديل» مع ما أشيع أنه السيدة «موناليزا» التي تنتمي إلى الطبقة الحاكمة، فالذي كان يحافظ على الوحدة الداخلية للعمل هو الاعتماد على فرقة موسيقية فلورنسية يصغي إليها «ليورانندو دفنشي» وهو ينجز العمل حيث إن الفرقة كانت تعزف قطعة معينة أثناء اشتغاله. اللوحة إذن هي غير «الموديل»، غير السيدة «الموناليزا» إنها الوحدة بين الموسيقى وتوضيع الطبقات الشفيفة للصباغة على «الأتوال».

إلى هذا نتذكر توليفات أخرى نجدها واضحة في المسرح إذ يسهم كل من التمويج الضوئي، والديكور المسرحي، والأزياء، وحركات الممثل في كتابة أخرى هي غير النص المكتوب، بل هو النص تضيفه بنصوص فنية أخرى تناسلت من النص، نصوص أخرى اندغمت جميعها في نص آخر هو غير الأول.

إلى أين تقودنا التساؤلات التالية؟

- هل بالإمكان فتح نافذة بين الفنون البصرية والنص الأدبي؟..

- وهل ما بينهما لا يعدو أن يكون مجاورة؟..

إلى هذا نتذكر توليفات أخرى نجدها واضحة في المسرح إذ يسهم كل من التمويج الضوئي، والديكور المسرحي، والأزياء، وحركات

الممثل في كتابة أخرى هي غير النص المكتوب، بل هو النص

- هل يمكن المجازفة بالقول إن بإمكان أحدهما أن يترجم الآخر، وإلى أي حد يمكن هذه الترجمة؟..

- أولاً يمكن أن يكون الأمر في الأخير مجرد افتعال؟..

قد تقودنا هذه التساؤلات إلى أقدم مثال في التصوير الأوربي تحفظه الذاكرة وذلك عن تماهي الموسيقى بالتصوير عند ليوناردو دفنشي (1519/1452) فيما يتعلق بلوحته الشهيرة «الجيوكندة» حيث إن هذا العمل الذي تم إنجازه عبر ما يزيد عن خمس سنوات والذي لم يستند

الرياح البنية



وجاءت «الرياح
البنية» مع نهاية
نفس القرن في
ظرف يكاد إلى
حين يكون مماثلاً
فتسوقنا باتجاه
الخلف، ومن خلال
الرسالتين
المتبادلتين بين
الشاعر حسن نجمي،
والفنان الشاعر
محمد القاسمي
ستتعرف جيداً على
ظروف الاشتغال

هذه المقدمة الصغيرة عدا محاولة
للتذكير بحركة تَنَسَّغَتْ مع مطلع
القرن الماضي، وجاءت «الرياح
البنية» مع نهاية نفس القرن في ظرف
يكاد إلى حين يكون مماثلاً فتسوقنا
باتجاه الخلف، ومن خلال الرسالتين
المتبادلتين بين الشاعر حسن نجمي،
والفنان الشاعر محمد القاسمي
ستتعرف جيداً على ظروف الاشتغال،
نقرأ من رسالة الشاعر حسن نجمي ما
يلي :

«بينما كنت أرى كيف أنقذت
الصباغة المغربية من «حيادها» في
وضع عربي لم يكن فيه أحد محايداً،
كنت - أنا - أيضاً مسكوناً بهذا النص
الشعري الطويل المتشدر والمحتفي
بألمه الشخصي، والذي يحفر أخدوده
في أعماقي من جراء انشغالنا بفضاء
الحرب. ويصفعني بالصور البعيدة
والقريبة (أنا أيضاً) صور الوجوه،
والملامح، والأمكنة التي هناك، في
الضفة الأخرى لجسدي». ص 6.

وسنقرأ في نص الفنان الشاعر
محمد القاسمي ما يشير إلى أن هذا
العمل الثنائي «الصباغي الشعري»
ارتبط توليفه بنشوء الأحداث التي
توالت على الخليج حيث كان لهذه
الحرب تأثير مباشر قوي ورئيسي على
كثير مما اشتغل عليه فنياً وأدبياً في
تلك الآونة :

وتسوقنا «الرياح البنية» باتجاه
الأنشطة الدادائية التي صاغت الحرب
العالمية الأولى. نستعيد يوم 23 يناير
من عام 1920 إذ يصل الشاعر تزارا
إلى باريس قادماً من زيوريخ ويقيم
عند بيكابيا، ونتذكر الصباح
الاحتفالي الذي نظمته مجلة «أدب»
وشارك فيه كل الفنانين الذين
قدمتهم المجلة، «كوكتو» نفسه قرأ
بعضاً من أشعاره، أما الشاعر بروتون
فقد قدم لوحات وشرحها، وفي
حركة رمزية للحركة محا تاليفا
ليكابيا مرسوماً بالطبشور على لوح
أسود، وكان قد أعلن في القسم الثاني
من الحفل أن تزارا سيقراً قصيدة إلا
أنه قرأ مقالا لليون دوديه، فيما كان
كل من بريتون وأراغون يثيران ضجة
أجراس كهربائية ترن بلا انقطاع،
عرضت أيضاً في هذا الحفل رسوم
جري Gris وليجيه Leger ونحت
ليشتز Lipchitz، هذا بالإضافة إلى
ممثلين للجيل القديم من الشعراء :
ماكس جاكوب «Max Jacob» أندريه
سالمون «Andr'a salmon» وبليزسا
ندرار «Lez sandrar». حضر أيضاً
واحد من الشعراء الشباب الذين
سيكون لهم دور هام في المستقبل
هو : بول إيلوار، هذا اللقاء المتعدد
العناصر الفنية والأدبية سيصوغ علاقة
قوية بين بول إيلوار وبروتون ثم
هكذا توالت أنشطة الدادائية في هذا
التصنيف لعناصر الفن بالأدب، لم تكن

« . كيف يمكن أن نصوغ كلاماً
مرآتياً لحبال ضوئية تمتد من السماء
للأرض تخترق الحجر، والذاكرة.
والجسد. في الليلة الأولى تعذر علي
ترتيب الأخبار، والأصوات المتدافعة
من أجهزة الإعلام، كما تعذر علي في
البداية أن أعبر رسماً وصباغة. وها أنت
تكاد تطلب مني أن أصوغ هذا التراكم
المحرق هندسة كلامية. عملية صعبة
ومع ذلك سأحاول ترتيب بعض منها
كإشارات تخطيطية. مع ما تخلفه من
طعم يترك في فمك مذاق الرماد
الساخن.»

ولنشدد على مقطعين من
الرسالتين المقطع الأول للشاعر حسن
نجمي : « . كيف أنقذت الصباغة
المغربية من "حيادها" في وضع عربي
لم يكن فيه أحد محايداً. كنت أنا أيضاً
مسكوناً بهذا النص الشعري.»

ثم المقطع الثاني للفنان الشاعر
محمد القاسمي :

« . غريب أن يتحول جسدك إلى
حالة يقظة دائمة.

جسمك بكامله يتحول إلى آذان
حساسة تصلها أصوات الكون الغابرة،
والرعب، والحب بحدة قاتلة.

موضوع الحرب، والدمار، يفتح
أمامك أبواب سراديب المجهول.»

ألا يدفع بنا كل من المقطع الأول

والثاني إلى الجزم بأننا عندما نُصغي
إلى التجارب الفنية، أو الإبداعية في
الكون عامة، نجدها في الأخير ذات
اتصال لآوac بالإيقاع الوجودي العام،
إذ هو الذي يملئ جملة من الإيقاعات
التي سيعرفها كل من النص الأدبي
وعناصر التصوير والموسيقى وكل
عناصر المعرفة البشرية على الأرض.

وهاهو ذا القاسمي يضعنا وجهاً
لوجه - نحن والإيقاع الوجودي العام
«لم يعد لك اختيار ثالث بين اثنين

1/ أن يملكك الخوف التاريخي
الذي يسكنك، إلى أبعد نقطته في
مخك الفطري. يملئ عليك. وعيونك
تمسح الأرض.

2/ يقف هذا الجسم عارياً منهوكاً
متعباً مرتبكاً، مجرداً، مريضاً،
يمسح عجزه.»

أولاً وعيك بما يجري، بما يحدث
في العالم ثم ردة الفعل التي تنجم على
ذلك ولحظة الوعي هاته هي التي
صاغها الشاعر حسن نجمي في
سؤاله :

«كيف أستجيب إبداعياً لقوة
الحدث؟»

ثم هو لا يتركنا نبهر في سحابة
غائمة، بل يحدد شكل هذه الاستجابة
عبر حدي معادلة : الحد الأول محكوم
بالتراث، بالتراكم التاريخي للأمة :

ولنشدد على مقطعين

من الرسالتين المقطع

الأول للشاعر حسن

نجمي : « . كيف أنقذت

الصباغة المغربية من

"حيادها" في وضع عربي

لم يكن فيه أحد محايداً.

كنت أنا أيضاً مسكوناً

بهذا النص الشعري.»

بنا إلى الحركة السورية، بل
وحتى الدادائية قبلها،

Ah, ils vont encore venir... !

بروتون !..

لماذا تستغيث يا أحمق القصيدة؟

إن لهذا السلاح شِعراً بكل ألوان
القارات

ولي ما يكفي من دم..

إذن سنفهم :

ليس عبثاً أن يأتي الشاعر
«بروتون» فالمقصود هنا هو التذكير
بالحركة السورية، برموزها
وعناصرها، بتعدد اشتغالاتها. التذكير
أيضاً بالظروف التي أسهمت في
تشكلها، بالشظايا، وبالشمس الغاربة،
بالحرب المدمرة، أليست حرب الخليج
وعاصفة الصحراء هي استعادة بشكل
من الأشكال لدمار الحرب العالمية مع
فارق «ماء»؟! ربما الفارق هنا أنها في
بلاد العرب، وضداً على وضع
تكنولوجيا سيكون يوماً «ماء» عليه أن
يقبر وليداً خشية أن يتناول.

اشتغال ثنائي أنتج تحت سماء
تمطر ناراً نصّاً مشتركاً، أو متماهياً،
أو يلبس أعضائه المشتركة، وما أدري
هل يسمح لي أن أسميه صباغة الشّعْر،
أو شِعْر الصباغة، أو الشعر يتماهى عبر
اللون، أو اللون يرتدي شعراً.

« من واجبنا أيها العزيز أن ننش
في إضاءات ذاكرتنا، فيما يمنح
ذاكرتنا الفردية والجماعية قوة
الاستشراف، وأرى أنك أنجزت
بعودتك إلى بعض الجذور المضيئة
شكلاً آخر للانتماء إلى التاريخ، إلى
بوصلة الحكاية. ولأننا ننتمي إلى أمة
مرهقة بتراث الألم يكون من الواضح
لنا «وأحب» الانتماء إلى نقاء وعذاب
هذا الإرث الثقيل، بما أنه ذكرى
متواصلة فينا، وحاضر نجهل
امتداداته في السديم الآتي.»

وإذا كان الحد الأول مغموساً في
التراث فإن الحد الثاني لهذه الاستجابة
الإبداعية يقودنا نحو الثروات
الثقافية المختلفة التي يمتلكها
الإنسان، ذلك أن الحضارات الجزئية
جميعها ما هي في الحقيقة سوى
ضروب من الإسهام في الحضارة التي
هي تجسيد في الزمان للعبقريّة
الإنسانية في تمام تنوعها، وغناها
والتي لا تفضي بنا إلى باب مغلق
وواحد.

فالمثقف أو الفنان ليس مجرد
انتماء لتراكم تاريخي معين، ولا هما
أيضاً مستودعاً لحضارة، بل هما
نتاجهما معاً، نتاج التراكم التاريخي
أو التراث الذي لا يزعم أنه ممسك
بمنظومة من القيم المطلقة والتي
تتجسد فيه وحده. انطلاقاً من الوعي
بهذين الحدين صاغ الشاعر نجمي
الحد الثاني من المعادلة والذي يعود

ذكرتني الرياح البنية بمولانا
جلال الدين الرومي ينشد :

«أسمع القصب

عندما يروي النامي قصته

ويشكو الفراق!.

أسمعه يقول :

قطعوني من حقول القصب!.

القصب الشكل، ومنافذ الرياح
المحدثه في جسد القصب، أو الجراح
التي حولته إلى ناي يغرف عليه
القصب قصة أصل بالقوة وحكاية
اجتثائه عن جذوره :

قطعوني من حقول القصب

ها نحن في الرياح البنية أمام
تنافذ حيث يفضي بنا حد إلى حد

مفعم بجسد الآخر، مشدود إلى
جذعه، فتمتد عروق في جسم الآخر،
أو عروق الآخر في جذع الأول.

وكما عزف الناي لوعة وجوده

وحنينه بالتحقق، نقف على عتبة نص

تصويري يتحقق فيه الإنصات بالعين

وهو يجاسر صرخة لغرفة محجوزة

للقصف، غرفة فنان وصرخة شاعر.

كُنَّا قَدْ أَطْفَأْنَا ضَوْءَ الْغُرْفَةِ.

وَفَتَحْنَا الشَّفَاهَ لِنَتَفَرَّغَ لِكَاسِ

الْقِبْلَاتِ.

فَجَاءَتِ الطَّائِرَاتُ الْمُغِيرَةُ -

ولم أجد فما قرب فمي.

اسْتَشْهَدَتِ الْقِبْلَاتُ وَخَجَزَتِ

السَّمَاءَ لِلْقَصْفِ.

(نجمي)



إكرام عبي

حول التجربة التشكيلية لمحمد شبعة*

بكل جدية إلى مد جسور التواصل بين الفنانين التشكيليين والكتاب، فكانت مجلة «الإشارة» ثمرة ذلك التلاقح الإيجابي والهادف. كما أن الاتحاد لم يأل جهدا في بلورة الوعي الفكري لدى الفنانين المغاربة بطرحه لجدالات ونقاشات حول قضايا فنية وفكرية، «مناظرة اتحاد الكتاب بمراكش»، ناهيك عن تخصيصه لملفات حول التشكيل المغربي في مجلة «آفاق».

وأمام قلة وجود فضاءات ثقافية تمنح الفنان المغربي فرصة التلاقي بالجمهور، عمل الاتحاد على ترميم هذا الفراغ الذي يورق أغلب الفنانين المغاربة، بإقامته لمجموعة من المعارض الفنية. لعدد من الفنانين المغاربة المبدعين.

كما عمل الاتحاد على خوض تجربة إصدار بعض من الكتب حول التشكيل، ككتاب «كأس حياتي»

لم يكن إصدار كتاب «الوعي البصري بالمغرب» للفنان المغربي الكبير محمد شبعة، وعنه، مفاجأة لنا، لأن اتحاد كتاب المغرب الذي كان وراء مبادرة

إصدار هذا الكتاب البهي في طباعته، عودنا دائما ومنذ تأسيسه على انفتاحه على الفنانين التشكيليين المغاربة

لم يكن إصدار كتاب «الوعي البصري بالمغرب» للفنان المغربي الكبير محمد شبعة، وعنه، مفاجأة لنا بل كان أمرا عاديا، ليس استهانة بهذا العمل الكبير والمتميز، أو تقليلا من شأنه وإنما لأن اتحاد كتاب المغرب الذي كان وراء مبادرة إصدار هذا الكتاب البهي في طباعته، عودنا دائما ومنذ تأسيسه على انفتاحه على الفنانين التشكيليين المغاربة بل وكل المبدعين بدون تحيز أو تعصب لفن دون آخر.

فمنذ تأسيسه سنة 1959 عمل اتحاد كتاب المغرب على اقتسام بيته البسيط مع مجموعة من الفنانين المغاربة (القاسمي، الغرباوي). شاركوه الاهتمام وتضافر الجهود، تماما مثلما استجاب لنداء «الجمعية المغربية للفنون التشكيلية» التي كانت تسعى

* قراءة في كتاب «شبعة» الوعي البصري بالمغرب، كتابات، حوارات، شهادات، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، 2001، ص 128 مرفقة بالصور واللوحات.



يتوزع هذا الكتاب،
الذي ينتمي إلى
سلسلة «الكتب
الجميلة»
(Les Beaux Livres)
على ثماني كتابات
ومقالات، حررت
في مناسبات
مختلفة، ونشر
أغلبها في بعض
المنابر الوطنية
والأجنبية

مغربية وعربية (الثقافة الجديدة،
مجلة الأساس، مجلة الطليعة العربية،
مجلة دفاتر الشمال)، إلى جانب ست
شهادات حول الفنان محمد شبعة لكل
من (عبد اللطيف اللعبي، زكية داوود،
عبد الله زريقة، فريد الزاهي،
مصطفى حداد)، عدا كونه كتابا
تتخلله العديد من اللوحات
والجداريات لذات الفنان، هاته التي
تختصر، في جانب منها، تجربته
التشكيلية التي تمتد على أزيد من
أربعين سنة من المسار الفني المتسم
بـ«التمرد» و«التغيير» و«المراجعة
النقدية» و«التفاؤل».

ولا يمكن تناول كتابات محمد
شبعة التنظيرية والفكرية حول الفن
التشكيلي بمعزل عن الحوارات التي
أجريت معه، وكان آخرها الحوار
الطويل (ما يربو عن أربعين صفحة)
والغني بالأفكار، الذي أجراه معه
حسن نجمي ونشر في العدد الأخير
من مجلة «عالم التربية»، أو عن
الشهادات التي قيلت في حقه، وهي
شهادات مثل ألوانه، قد تتصادم لكنها،
في الأخير، تتوحد عند لحظات
الطفولة والعبقرية والبهاء، طفولة
الفنان وعبقريته، وخفة الروح وبهاء
الألوان وعنفها الدلالي. فكل هذه
المجالات تنصهر فيما بينها لتكون
رؤية واضحة عن تجربة محمد شبعة
التشكيلية، ومن خلالها يتم كذلك
التأريخ للحركة التشكيلية الفنية

لإدريس الخوري وكتاب «الوعي
البصري بالمغرب» للفنان محمد
شبعة، هذا الكتاب الذي يعتبر محاولة
جادة للقبض على التجربة الإبداعية
التشكيلية لمحمد شبعة والتقاط أهم
ملامحها - وإن كان الأمر يبدو صعبا
لأن تجربة محمد شبعة أغنى من أن
تجمع في كتاب واحد فقط والاطلاع
بالتالي على مسار الحركة التشكيلية
بالمغرب.. ذلك، «أنه يصعب اليوم
بالنسبة لمؤرخ للفن المغربي الباحث
في تطورنا الثقافي والفني أن يقرأ
التجربة المغربية بدون أن يقرأها من
خلال أسمائها ورموزها الأساسية،
وضمنها، بل وفي مقدمتها الفنان
محمد شبعة»، على حد تعبير رئيس
اتحاد كتاب المغرب الشاعر حسن
نجمي في كلمة افتتاحية مركزة
للكتاب عن جدلية الفني والثقافي عند
محمد شبعة. وهي بادرة لافتة من
اتحاد كتاب المغرب، نتمنى أن تستمر
مع تجارب وأسماء ورموز أخرى من
مشهدنا التشكيلي، المغربي، والبصري
عموما.

يتوزع هذا الكتاب، الذي ينتمي
إلى سلسلة «الكتب الجميلة»
(Les Beaux Livres) على ثماني كتابات
ومقالات، حررت في مناسبات
مختلفة، ونشر أغلبها في بعض
المنابر الوطنية والأجنبية: «العلم
الثقافي»، وفي مجلة «فن»، بالإضافة
إلى سبع حوارات نشرت في مجلات

يمكن أن تعوق تطوره أو تسد آفاق استمراريته أو نضجه.

كما لا يتوانى الفنان في كل مناسبة تتاح له سواء في كتاباته أم في حواراته عن إبداء وجهة نظره حول الفطرية معتبرا إياها غير كافية لخلق الفنان، بل هي حركة فنية شجعتها السياسة الاستعمارية وروجتها خارجيا، وهي التي تتوخى مسح الإبداعات التقليدية والفن الشعبي وتشويههما، ويؤكد محمد شعبة، في المقابل، على ضرورة العودة للفن الشعبي القروي والفن التراثي المغربي العربي الإسلامي وفن الهندسة المعمارية. فمحمد شعبة، إضافة إلى كونه فنانا، فهو أيضا أستاذ للهندسة المعمارية، وتأثير الهندسة المعمارية يبدو جليا في كتابته «من أجل خطاب جديد عن المدينة»، حيث المدينة تحتضر أمام الملاء ولا حراك في حالة استلاب وفي غياب أية هوية أو خصوصية ثقافية، مما يستوجب ضرورة التدخل لإعادة الاعتبار لـ «ثقافة المدينة»، وضخ دم جديد في علاقة المديني بمدينته فلا تكون علاقة سكن فقط بل علاقة عشق وسعادة.

والفنان محمد شعبة كغيره من الفنانين المغاربة يجد نفسه محاصرا بصعوبات جمة تؤرقه وتقض مضجعه والتي يمكن إجمالها في

كما نستشف من خلال هذا الكتاب عمق الوعي النظري لدى الفنان، إلى جانب الوعي البصري. فمحمد شعبة يعتبر من بين الفنانين المغاربة القلائل، مثله في ذلك مثل القاسمي والمرابط، عكسوا كلهم بعمق تلك الجدلية بين الثقافي والفني

المغربية. وكذا التأريخ للإطار العام الذي كانت تتحرك فيه تجربة هذا الفنان، بما هي تجربة كانت، ولا زالت، تراهن على ثقافة وطنية تتوخى الحذر من ثقافة غربية تشبع بها هو وغيره من الفنانين (القاسمي، بلكاهية، المليحي)، لكنهم كانوا كلهم واعين بضرورة تذويبها ومزجها بالتراث التشكيلي الوطني الحضري والقروي لصنع تجربة تشكيلية تحمل كل مقومات الفن المغربي الأصيل، مقاومين كل أشكال التهجين والاستلاب التي يمكن أن تطول الإبداعات التقليدية والفن الشعبي.

كما نستشف من خلال هذا الكتاب عمق الوعي النظري لدى الفنان، إلى جانب الوعي البصري. فمحمد شعبة يعتبر من بين الفنانين المغاربة القلائل، مثله في ذلك مثل القاسمي والمرابط، عكسوا كلهم بعمق تلك الجدلية بين الثقافي والفني، فكان لا بد للفنان أن يمهّد لفنه ويضع لذلك أساسا عقلانيا، ولكن ليس بالشكل الذي يكون فيه أسيرا لهذا التمهيد العقلاني، بل بالشكل الذي يظل فيه حرا في إبداعه. أما جدية عمله وموضوعيته فسيتم استكشافهما فيما بعد، حين سيلج عمله زمن القراءة التاريخية. كما أن الفن التشكيلي المغربي سيظل معطوبا أجوف ما لم يصاحبه جدال ونقاش فكري يسلط الضوء على كل الهفوات والثغرات التي

«الفقر الفني» على حد تعبيره وضعف البنية التحتية (المتاحف، وسائل الإعلام، قاعات العرض، المعاهد الفنية) التي ظل يدافع عنها في أغلب حواراته هذا بالإضافة إلى غياب التربية الفنية والثقافة الفنية. فالفنان لا يمكنه أن يبدع إلا بوجود شروط اجتماعية ملائمة وسوق وطنية واسعة تقف ضد كل أنواع الاحتكار والاستحواذ البورجوازي للنخبة الفنية الجادة والشابة، وهذا القلق يبدو واضحا في أغلب حواراته التي تتأرجح بين الرضى على منجز فني متحقق

يبقى كتاب «الوعي البصري بالمغرب» إشراقة تضيء محطات مهمة من تاريخ الفن التشكيلي المغربي من خلال أحد رواده الفنان محمد شعبة، و«ذاكرة بصرية» ما أحوجنا إليها

وبين القلق على أفق فني سيتلاشى ما لم تتوفر الشروط التاريخية الكفيلة باستمراريته.

يبقى كتاب «الوعي البصري بالمغرب» إشراقة تضيء محطات مهمة من تاريخ الفن التشكيلي المغربي من خلال أحد رواده الفنان محمد شعبة، و«ذاكرة بصرية» ما أحوجنا إليها في غياب مثل هذه المبادرات التي تبرز الوجه الآخر الحقيقي للمشروع التشكيلي المتطور في بلادنا.



علي تيزلكاد

جان جونييه

محترف البيرتو جياكوميتي

ترجمة علي تيزلكاد

تقديم

يعتبر جان جونييه بحق ظاهرة أدبية وفنية متميزة من أبرز الظواهر الفنية، ليس فقط على مستوى الأدب الفرنسي ولكن أيضا في مصاف الإنتاج الفني العالمي.

وباعتبار كثافة الإضافات التي قدمها للتراث الإنساني وعمقها فإنه سيبقى لا محالة موضع تساؤلات وتحليلات ودراسات، في كل بقاع العالم ولعقود طويلة، لا نزال اليوم، بعد أقل من عشرين سنة على وفاة الكاتب، لا نرى منها إلا الإرهاصات الأولى وبعض المقاربات التي تغلب عليها الصبغة التاريخية والحكاية، على حساب النظرة الجمالية والتساؤل العويص حول بلاغيات كتابة جونييه التي تشكل البؤرة والجوهر المثير للاستفهامات وسر الأسرار الذي يستحق التمحيص وجهد القراءات.

ولعل النص الذي نقترح

له ترجمة فيما يلي

إشارة إلى وجه من

الوجوه الأكثر دلالة على

نمط الكتابة لدى جونييه

وإضاءة لجزء من أهم

الانشغالات الإبداعية

لديه.

كتابات جان جونييه أصبحت أسماؤها وعناوينها متداولة في أوساط المطلعين، حتى وإن كانت تطفئ على هذه «المعرفة» إشاعات سطحية حول أخلاق وميولات الكاتب، ثم بعض ما شاع عنه من التزامات سياسية أو من انزياحات بالنسبة للسلوكيات المتداولة حسب المعايير العمومية.

ولعل النص الذي نقترح له ترجمة فيما يلي إشارة إلى وجه من الوجوه الأكثر دلالة على نمط الكتابة لدى جونييه وإضاءة لجزء من أهم الانشغالات الإبداعية لديه.

و«محترف ألبيرتو جياكوميتي» كتيب نشر للمرة الأولى عام 1958 عن دار نشر الأربليت L'ARBALÈTE. في تلك الفترة كان كل من جونييه وجياكوميتي معروفين على الساحة الإبداعية الباريسية، ولكنهما اتخذتا كلاهما آنذاك موقف تحفظ بالنسبة للتيارات و السلوكيات المهيمنة على



على قراءة جونية ؛ أحرصُ باستمرار على اقتفاء هذا النبض ومحاولة عدم التشويش عليه قدر الإمكان، بالرغم مما تثيره عملية ترحيل الدلالات والمعاني والإيحاءات من ارتجال وقيود.

المترجم

نص الترجمة

لعل كل شخص قد عانى، لا محالة، من هذا الحزن، بل الرعب، لرؤية كيف أن العالم وتاريخه يبدو أن وكأنهما مستدرجان في سياق حركية حتمية، لا تتوانى أبداً عن الاتساع؛ والتي لا تبدو قادرة على تغيير إلا الظواهر المرئية للعالم، لغايات لا محدودة التفاهة. هذا العالم المرئي هو كما هو، وفعلنا تجاهه لا يمكنه حتماً تحويله إلى غيره. وهكذا نجد أنفسنا نفكر بحنين في كون يكون فيه الإنسان، عوض التكالب على التأثير على الوجه المرئي للأمور، يسعى جاهداً إلى التخلص من هذا المظهر؛ ليس فقط من خلال الامتناع عن كل فعل يستهدف هذا المظهر، وإنما من خلال التعرية الكافية للذات قصد البلوغ إلى اكتشاف ذلك الموقع الدفين والسري بداخلنا والذي كان من الممكن أن يشكل نقطة انطلاق مغامرة إنسانية تختلف تماماً عما حصل. ووجه الاختلاف كان سينصب على الجانب الأخلاقي بالتحديد. ومن

الحياة الفكرية الفرنسية بزعامة بعض الأسماء - النجوم أمثال سارتر وبروتون، زيممي الوجودية والسريالية المستقطبين لأغلب أسماء المفكرين والمبدعين في ذلك العهد.

في ظروف هذا الانزواء النسبي للكاتب والنحات واللذين جمعتهم صداقة حميمة خلال عدة سنوات سيكتب جونية هذا النص الذي يعتبر في طريقة تركيبه محاكاة مضمّنية لحركات الفنان - النحات وهو يركب من المادة مكونات الدلالة والبلاغة والجمالية ويضفي عليها الشكل الخارجي الذي ستستعرض من خلاله ذواتها على العالم الخارجي. ربما يمثل هذا النص، بالرغم مما قد يوهّم به من تردد وتوتر في التعبير أحد مفاتيح الكتابة والجمال الجونيتية حيث يتعرض فيه لأهم التساؤلات التي يطرحها في باقي إنتاجاته والمتعلقة بمواضيع اللغة والموت والفن والجمالية.

كلمة أخيرة وعابرة عن الترجمة : هناك عند جونية من وراء الكلمات والتراكيب وفنية السرد من الناحية البلاغية. بعد لصيق بعملية "تنفس" النص، ووتيرة النبض الذي يسقطه الكاتب ما بين الكلمات المرسومة - المنطوقة. هذا البعد اللامرئي محسوس جداً مع ذلك. وخلال هذه الترجمة، كما خلال الإدمان الطويل

في ظروف هذا الانزواء النسبي للكاتب والنحات واللذين جمعتهم صداقة حميمة خلال عدة سنوات سيكتب جونية هذا النص الذي يعتبر في طريقة تركيبه محاكاة مضمّنية لحركات الفنان - النحات وهو يركب من المادة مكونات الدلالة والبلاغة والجمالية ويضفي عليها الشكل الخارجي

وهكذا نرى أننا في هذا الصدد بعيدون كل البعد عما يسمى بالفن البؤسوي. ففن جياكوميتي يبدو لي وكأنه يسعى إلى اكتشاف ذاك الجرح الدفين بداخل كل كائن، بل وفي كل شيء، حتى ينبعث منه إشعاع يغير الكائن أو الشيء.

xxxx

عندما ظهر فجأة - لأن تقاطيع المشكاة حادة عند منحدر الجدار - تحت النور الأخضر، أوزيريس، انتابني الخوف. عيناى، بالطبع، كانتا أول من أخبر؟ أبدا. إنهما كتفاي أولا، وقفاي التي ضغطت عليها يد أو كتلة ما، أرغمتني على النفاذ إلى الألفيات المصرية وذهنيا، إلى الانحاء، بل أكثر من هذا، إلى التقلص أمام ذلك التمثال ذي النظرة والبسمة القاسيتين. كان الأمر يتعلق حقا بآله. إله القسوة الحتمية. (إنني أتحدث - كما قد يغال - عن تمثال أوزيريس، المنتصب وسط القبو الطقوسي بمتحف اللوفر). كنت خائفا لأن الأمر كان يتعلق، بدون أدنى شك ممكن، بآله. بعض تماثيل جياكوميتي تحدث في انفعالا قريبا جدا من هذا الرعب، وانبهارا يكاد يكون مماثلا.

إنها توحى لي أيضا بهذا الشعور الغريب: إنها أليفة وتمشي في الشارع. في حين أنها في أعماق التاريخ، في مصدر كل شيء، لا تكف



جياكوميتي يشتغل

ليس للجمال مصدر غير الجرح، في صورته الفريدة والمختلفة بالنسبة لكل واحد، الجرح المخفي أو المرئي، والذي يحتفظ به كل إنسان بداخله، يرعاه ويلجأ إليه كلما أراد الانسحاب من العالم للارتقاء في وحدة مؤقتة ولكنها عميقة.

يدري؟ لعل هذا المصير الإنساني، وهذه المنظومة المحتومة، هما الداعيان إلى الحنين لحضارة تبحث عن مسالك لها خارج ما هو قابل للقياس. إنها أعمال جياكوميتي هي التي تجعل عالمنا لا يطاق بالنسبة إلي ويزيد في قوة هذا الشعور في نفسي، لفرط ما يبدو لي لدى هذا الفنان من قدرة على تنحية كل ما من شأنه أن يشوش على نظرته كي يكتشف ما يتبقى من الإنسان عندما تزاح جميع الزوائف. ولكن لعل جياكوميتي نفسه كان في حاجة إلى هذا المصير الإنساني المفروض علينا، كي يكبر حنينه إلى أن يعطيه القوة على النجاح في بحثه. على كل، فإن أعمال هذا الفنان تبدو لي وكأنها تنصب جميعها في المسعى الذي ذكرت، والذي لا ينطبق فقط على الإنسان وإنما هو أيضا منطبق على أدنى وأبخص الأشياء. وعندما يتوصل إلى تخليص الشيء أو الكائن المختار من زوائفه النفعية، فإن الصورة التي يقدمها عن هذا الشيء أو الكائن رائعة. مكافأة مستحقة، ولكنها متوقعة.

ليس للجمال مصدر غير الجرح. في صورته الفريدة والمختلفة بالنسبة لكل واحد، الجرح المخفي أو المرئي، والذي يحتفظ به كل إنسان بداخله، يرعاه ويلجأ إليه كلما أراد الانسحاب من العالم للارتقاء في وحدة مؤقتة ولكنها عميقة.

للتعرف على ذواتها في هذا العمل الفني .

لا، أبدا، فإن الأعمال الفنية ليست موجهة لأجيال الأطفال. إنها مهداة لشعب الأموات الذي لا يحصى. وهذا الشعب يوافق عليها أو يرفضها. لكن هؤلاء الأموات الذين كنت أتحدث عنهم لم يكونوا أبدا أحياء. أو بالتالي فأنا أنسى ذلك. إنهم كانوا كذلك بقدر يجعلنا ننساها، وكانت وظيفة حياتهم أن تعبر بهم ذلك الشاطئ الآمن حيث ينتظرون إشارة - تصدر من هنا - ويتعرفون عليها.

حتى وإن كانت حاضرة هنا، أين هي إذن وجوه جياكوميتي التي كنت أتحدث عنها، إن لم تستقر في الموت؟ من حيث تفلت عند كل نداء من نظرنا لتقترب منا.

xxxx

قلت لجياكوميتي

أنا - لا بد للإنسان أن يكون شديد رباطة الجأش ليحتفظ بأحد تماثيلك في منزله.

هو - لماذا؟

أتردد في الجواب. فالجملة التي أستعد للنطق بها ستجعله يسخر مني.

أنا - يكفي أن نضع أحد تماثيلك

عن الاقتراب والتراجع إلى الوراء، في لا حراك شامخ. ما أن يحاول بصري تأنيسها والاقتراب منها حتى يراها تبتعد إلى ما لا نهاية. ولكن بدون هيجان ولا غضب ولا صاعقة. فقط بسبب مسافة بينها وبينني لم ألاحظها لفرط ما كانت مكبوسة ومختصرة لدرجة تجعلني أخالها شديدة القرب مني. وهاهي الآن تبتعد إلى ما وراء مرمى النظر: فالمسافة بيني وبينها تسرح انطواءها فجأة. أين هي ذاهبة؟ مع العلم أن صورتها لا تزال ماثلة للنظر. أين هي؟ (إني أخص بالحديث التماثيل الثمانية الكبيرة التي عرضت صيف هذا العام بفينيسيا).

xxxx

إني لا أفهم جيدا ما يطلق عليه في مجال الفن نعت التجديد. هل لا بد للعمل الفني أن يفهم من قبل الأجيال القادمة؟ ولكن لماذا؟ وهذا سيعني ماذا؟ أنها ستستطيع استعماله؟ لأي غرض؟ لا أرى المقصود. ولكني أرى أفضل من كل هذا، حتى وإن كانت رؤيتي هذه لا تزال غامضة إلى حد بعيد. أرى أن كل عمل فني، إذا أراد أن يبلغ أسمى الدرجات، ينبغي له، ومنذ لحظة ولادته، أن يعمل، بصبر ومثابرة لا ينتهيان، على الانحدار عبر الألفيات حتى يبلغ، إن استطاع، ذلك الليل الضارب في غياهب الذاكرة والذي تسكنه الأموات المرشحة

في غرفة لكي تتحول هذه
الأخيرة إلى معبد.

بدا عليه نوع من الاندهاش.

هو - وتعتقد أن الأمر إيجابي؟

أنا - لا أدري. وأنت، هل تعتقد أن
الأمر إيجابي؟

الاكتاف على الخصوص وصدر
اثنين من هذه التماثيل توشي بهشاشة
هيكل عظمي يهدد بالتفتت إذا
لمسناها. انحناء الكتف - ربط الذراع -
رائعة. (عفوا. ولكن) رائحة روعة
القوة. ألمس الكتف وأغمض العينين.
مستحيل علي وصف سعادة أصابعي.
أولا، هي تلمس البرونز للمرة الأولى.
ثم هناك طرف ما قوي يقودها
ويطمئنها.

xxxx

يتحدث بصوت أجش. يبدو وكأنه
يختار عمدا النبرات والألفاظ القريبة
من الدردشات اليومية مثل صانع
براميل.

هو - إنك رأيته من الجص. هل
تذكرها من الجص؟

أنا - أجل.

هو - هل تعتقد أنها تفقد شيئا أن
تكون من البرونز؟

أنا - لا، أبدا.

هو - هل تعتقد أنها تكسب شيئا؟



جونيه بريشة جياكوميتي

مرة أخرى أتردد هنا في النطق
بالجملة التي من شأنها التعبير
الأفضل عن شعوري.

أنا - ستهزأ مرة أخرى مني، لكنني
أشعر بإحساس غريب. لا أقول إنها
تكسب شيئا، بل إن البرونز هو الذي
اكتسب قيمة إضافية من خلالها.
نساؤك عبارة عن انتصار للبرونز. على
نفسه، ربما.

هو - لا بد للأمر أن يكون كذلك.

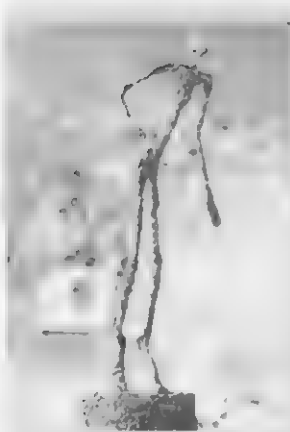
xxxx

يبتسم. وكل الجلد المتمكش
لوجهه ينطلق بالضحك. بشكل
غريب. فالعيون تضحك، بالطبع، لكن
الجبين أيضا. شخصه كله يعلوه اللون
الرمادي نظير لون محترقه. ربما
لتحقيق التآنس ارتدى لون الغبار.
أسنانه تضحك - متباعدة ورمادية
أيضا - يتسلل الريح ما بينها.

ينظر إلى أحد تماثيله :

هو - إنه مشوه، أليس كذلك؟

هذا اللفظ، كثيرا ما يستعمله.
يحك رأسه الرمادي، الأشعث. آنيث (1)
هي التي قصت شعره. يعيد تعديل
سرواله الرمادي الذي كان قد انحدر



الرجل الذي يمشي
(جياكوميتي)

أنا - بالنسبة لي امرأة عارية هي امرأة عارية. إن هذا ليس من شأنه أن يمارس علي أي تأثير. ليس في استطاعتي أبدا رؤية إلهة. لكن تماثيلك أراها كما ترى أنت الصبيات عاريات.

هو - هل تعتقد أنني أتوفق في إظهارها كما أراها؟

xxxx

زوال اليوم نحن في المحترف. لاحظ لوحيتين - رأسان - بحدة منقطعة النظر. إنها تبدو تسير، تقبل باتجاهي، لا تكف عن السير نحوي، ولست أدري ما الذي يوحى في عمق اللوحة بعدم توقف انبثاق هذا الوجه الحاد.

هو - لقد بدأ الشكل يظهر، أليس كذلك؟

يسائل وجهي. ثم يضيف مطمئنا.

هو - أنجزتها الية السابقة. من الذاكرة. أنجزت أيضا رسوما (يتردد). لكنها ليست جيدة، تريد رؤيتها؟

لعلي أجبت بطريقة غريبة، لفرط ما أدهشني السؤال. خلال السنوات الأربع التي أراه فيها باستمرار، هذه هي المرة الأولى التي يقترح علي أن يوريني أحد أعماله. في باقي الأحيان كان يقتصر على

إلى ما فوق حذائه. كان يضحك قبل ست دقائق، لكنه الآن يلمس تمثالا قد بدأ في تشكيله، خلال نصف دقيقة، سيندمج برمته في عملية تمرير أصابعه على كتلة التراب. لم أعد أعنيه في أي شيء.

عن البرونز، خلال مأدبة عشاء، خاطبه أحد أصدقائه، لمشاكسته لا محالة - من هو؟ قائلا: - بصراحة، هل يمكن لدماغ طبيعي الخلق أن يعيش في رأس مسطح هكذا؟

كان جياكوميتي يعلم أن دماغا لا يمكنه أن يعيش داخل جمجمة برونزية حتى ولو كانت مقاساتها مستنسخة بدقة عن مقاسات رأس روني كوتي⁽²⁾. وبما أن الرأس سيكون من البرونز، وكى يمكنها أن تحيا، ويحيا البرونز، لابد إذن... واضح، أليس كذلك؟

xxxx

جياكوميتي يلح أكثر: نموذج الأمثل هو التمثال التيمي المطاطي الصنع والذي يباع للأمريكيين الجنوبيين في بهو «ليفولي» - بيرجير⁽³⁾.

هو - عندما أتجول في الشارع وأرى صبية عن بعد ترتدي كل ثيابها، أرى صبية. عندما تكون داخل الغرفة وعارية تماما أمامي، فيأني أرى إلهة.

ملاحظة - بنوع من الاستغراب -
كوني أرى وأعجب.

يفتح صندوقا من الكارطون
ويخرج منه عشرة رسوم من بينها
أربعة على الخصوص رائعة. واحد
من تلك التي كان تأثيرها علي أقل
وقعا من الآخرين، كان يمثل شخصا
قصير القامة للغاية. يوجد في منتهى
أسفل ورقة بيضاء شاسعة.

هو - لست براصٍ تماما عنها
ولكنها المرة الأولى التي تجرأت فيها
على هذا.

ربما قصد أن يقول: «إبراز قيمة
مساحة بيضاء بهذا الحجم من خلال
شخصية في مثل هذا الصغر؟ أو،
إظهار كيف أن أبعاد شخصية ما تقاوم
محاولة سحقها من طرف مساحة
ضخمة؟ أو...».

مهما كانت محاولته، كان لعبارته
تأثير قوي علي، إذ هي صادرة عن
رجل لم تنقطع أبدا جرأته على
الإبداع. هذه الشخصية المتناهية
الصغر، هي أحد انتصاراته. ماذا يا
تري كان عليه هو، جياكوميتي، أن
يقهر، والذي كان يهدده بالخطر لهذا
الحد؟

عندما قلت في سياق سابق: «
من أجل الأموات». فذلك أيضا من
أجل تمكين هذه الحشود الكبيرة من

أن ترى أخيرا ما لم يكن في
مستطاعها رؤيته عندما كانت حية،
واقفة على عظامها. إذن لا بد من فن
- ليس سائلا، على العكس، شديد الصلب
- لكنه يمتلك تلك القدرة الغريبة التي
تسمح له بالنفاذ إلى مجال الموت
هذا، ولربما العبور عبر مسام جدران
مملكة الأشباح. فالظلم - وألمنا -
سيكونان كبيرين إلى حد لا يطاق إذا
حرم واحد من هذه الأشباح من
التعرف على أي منا. وسيكون انتصارنا
هزيلا جدا إذا لم يكن في وسعه أن
يضمن لنا غير مجد مستقبلي.

إن الأعمال الفنية لجياكوميتي
تمد عالم الأموات بمعرفة وحدانية
كل كائن وكل شيء، وتخبرهم بأن
وحدانيتنا هذه هي مجدنا الأوكد.

× × × ×

العمل الفني لا يمكن تناوله - من
يشك في هذا؟ - مثل شخص ما، أو
كائن حي أو مثل أي ظاهرة طبيعية
أخرى. فالقصيدة، واللوحة، والتمثال،
تتطلب فحفا يقتضي عددا من
الاستعدادات. لكن دعونا نقصر على
اللوحة.

فالوجه الحي في حد ذاته لا
يكشف أسرارَه بسهولة، ومع ذلك لا
يقتضي الأمر جهدا كبيرا لاكتشاف
دلالاته. أعتقد - حتى وإن كنت مجازفا
- أن الأمر يتطلب عزل هذا الوجه.

إذن لا بد من فن،

يمتلك تلك القدرة

الغريبة التي تسمح له

بالنفاذ إلى مجال

الموت هذا.

إن الأعمال الفنية

لجياكوميتي تمد عالم

الأموات بمعرفة

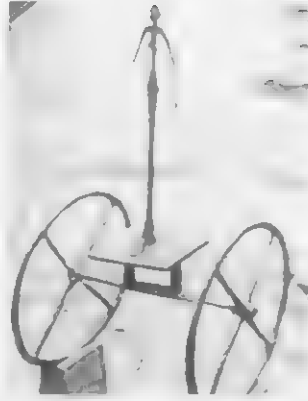
وحدانية كل كائن وكل

شيء، وتخبرهم بأن

وحدانيتنا هذه هي

مجدنا الأوكد.

المطلقة بمثابة شيء مثل اللوحة. لكن ليس من شأن هذا أن يشغلني. إن ما يهمني هو ما ينبغي للوحة أن تمثل. وبالأحرى فإن ما أريد تمثله هو في نفس الوقت تلك الصورة التي على اللوحة والشيء الحقيقي الذي تمثله. علي أولاً أن أحاول عزل اللوحة من حيث دلالتها كشيء (قماشة، إطار الخ). بحيث تكف عن الانتماء إلى الأسرة الكبيرة لفنون الرسم (حتى إذا اقتضى الأمر أن أعيدها إليها لاحقاً)، فتصبح الصورة التي في اللوحة قادرة على الانضمام لتجربتي مع الفضاء، لمعرفتي عن وحدانية الأشياء، الكائنات والأحداث كما وصفت ذلك أعلاه.



جياكوميتي، المرأة الواقفة

كل من لم ينبهر أبداً أمام هذه الوحدانية، فإنه لن يذوق أبداً جمال الفن التشكيلي. إذا ادعى ذلك فهو كاذب.

كل تمثال يتفرد باختلافه بشكل شديد الوضوح. لا أعرف إلا التماثيل التي توضع لها (آنيث)، أو التماثيل النصفية ل(دييجو). كل إلهة وهذا الإله؛ هنا أتردد؛ إذا كنت، أمام هؤلاء النساء، أشعر بنفسي أمام إلهات - أقول إلهات وليس تماثيل إلهة - فإن التماثيل النصفية ل(دييجو) لا يبلغ أبداً مثل هذه الأعالي. فهو، لحد الآن، لم يحدث له أن تراجع إلى الوراء - والعودة منه بسرعة خارقة - ليلبلغ تلك المسافة التي تحدثت عنها. إنه بالأحرى يظهر

فإذا استطاع نظري أن يجعله يتخلص من كل ما يحيط به، إذا توصل نظري (واهتمامي) إلى الحيلولة دون اختلاط هذا الوجه مع باقي العالم، وهروبه إلى نهائية الدلالات المتزايدة الغموض، خارج موضوع الاهتمام، والتوصل، بالعكس، إلى تلك الوحدانية التي تجعل نظري يعزل الوجه عن العالم، فإن ما سينصب على هذا الوجه - أو هذا الشخص، أو هذا الكائن، أو هذه الظاهرة - ويتجمع فيه هو دلالاته الوحيدة، ليس إلا.

أقصد أن معرفة وجه ما إذا كانت تسعى لتكون جمالية، عليها أن ترفض أن تكون تاريخية.

أما عملية فحص لوحة ما، فهي تقتضي جهداً أكبر وتنطوي على إجراءات أكثر تعقيداً. ذلك أن الفنان التشكيلي - رساما كان أو نحاساً - هو الذي قام عوضاً بالعملية الموصوفة أعلاه. وبالتالي فإن ما يعرض على أنظارنا هو إذن وحدة الشخص أو الشيء؛ ونحن الذين نشاهد، كي ندرك هذه الوحدة ونحس بوجودها، لابد أن تتوفر لنا تجربة عن الفضاء، ليس في استمراريته ولكن في تقطعاته.

كل شيء يخلق فضاءه اللامتناهي.

فعندما أتطلع إلى اللوحة، كما قلت، فإنها تبدو لي في وحدتها

نادرة مجبوكة الترصيع. وهو البياض
- الصفحة البيضاء الذي قد رصعه
جياكوميتي.

xxxx

عن الرسوم الأربعة الكبرى التي
تمثل طاولة في بعض اللوحات
(موني، بونار⁽⁶⁾). يتحرك الهواء. في
الرسوم التي أتحدث عنها، كيف أقول؟.
الفضاء يتحرك. الضوء أيضا. فبدون
أي من المواضع المعروفة -
ظل/ضوء - الضوء يشع وبضعة
خطوط تنجته.

xxxx

معاناة جياكوميتي مع وجه
ياباني. اضطر الأستاذ الياباني
يانيهارا الذي كان جياكوميتي ينجز له
تصويرا رسميا إلى تأخير عودته إلى
بلاده بشهرين. لم يكن جياكوميتي
راضيا أبدا عن اللوحة التي كان يعيد
تشكيلها كل يوم. وفي نهاية الأمر عاد
الأستاذ إلى اليابان بدون لوحته. ذلك
الوجه بدون أدنى تضرس، رغم أنه
جدي ورقيق، ربما كان مغريا بالنسبة
لعبقرية الفنان. فاللوحات التي بقيت
من هذه التجربة هائلة من حيث
كثافة محتواها، بضعة خطوط
رمادية، تكاد تكون بيضاء، على
مساحة رمادية، تكاد تكون سوداء.
ونفس تراكم الحياة الذي ذكرته سابقا.
لا مجال لإدماج أي شيء آخر، ولو

رسومه. هو لا يرسم إلا بالريشة
أو قلم الرصاص الصلب، - الورق غالبا
ما يكون مثقوبا، ممزقا. المنحنيات
قاسية حادة، بدون ليونة، ولا رقة.
يبدو لي أنه يعتبر كل خط رجلا، فهو
يعامله معاملة الند للنند. الخطوط
المكسورة حادة وتضفي على الرسم -
مرة أخرى بفضل قساوة القلم، حتى
وإن كانت كمدا، مع ما في الأمر من
مفارقة - مظهرا متألثا. قطع ماس.
ماس أكثر بسبب طريقته في استعمال
أشكال اللون الأبيض. في المشاهد
الطبيعية مثلا، فالصفحة كلها هي
التي من شأنها تمثل الماس. يمكن
رؤية جانب منه بفضل الخطوط
المتكسرة والرهيفة، في حين أن
الجانب حيث يسقط الضوء - أو
بالأحرى من حيث سينعكس الضوء -
لم يسمح لنا برؤية شيء آخر غير
الأبيض. وهذا يعطي تحفا عجيبة -
نتذكر الرسوم المائية لسيزان⁽⁵⁾ -
بفضل أنواع الأبيض هذه، حيث
الرسم اللامرئي يتواجد بصفة
ضمنية، وإدراك الفضاء يتم بدرجة
قوية تخال منها إمكانية السير فوق
هذا الفضاء. (كنت أفكر على
الخصوص في المجالات الداخلية
المعبأة بوسائل التعليق، وفي
النخلات، لكنه منذ فترة أنجز سلسلة
من أربعة رسوم تمثل طاولة وسط
قاعة مقببة، تتجاوز بكثير ما أوحيت
به في الرسوم السابقة). قطع حلي

حبة حياة إضافية، فاللوحات بلغت نقطة منتهاها بحيث أصبحت الحياة عبارة عن مادة لا متحركة. وجوه ممتصة.

أتوضح، وهو يرسم بدقة - بدون أن يكون قد أعدها بابتكار - المدفأة وأنبوبها الموضوعين من ورائي. فهو يعي أن عليه أن يكون دقيقا. أمينا لحقيقة الأشياء.

هو - ينبغي على المرء أن ينجز تماما ما هو موجود أمامه.

قلت نعم. ثم، بعد برهة صمت.

هو - وبالإضافة إلى هذا ينبغي أيضا إنجاز لوحة.

xxxxx

يأسف على المواخير التي انقرضت. أعتقد أنها لعبت - وذكرها لا تزال تلعب - دورا كبيرا، بحيث لا يمكن السكوت عنه. أعتقد أنه كان يدخلها مثل عابد تقريبا. كان يأتي إليها ليرى نفسه راكعا أمام ألوهية قاسية وخارج المنال. ما بين كل بغية عارية وبينه هو، ربما كانت هناك نفس المسافة التي لا تنفك تربط ما بيننا وبين تماثيله. كل تماثيل يبدو تراجعاً نحو ليل - أو عودة منه - ليل بعيد وسميك لدرجة أنه يختلط بالموت؛ وهكذا فإن على كل بغية أن ترجع إلى ذلك الليل الخفي حيث كانت سائدة. وهو

الذي بقي مهملا على إحدى الضفاف من حيث يراها تصغر وتكبر في نفس الآن.

أجازف مرة أخرى بما يلي؛ ألا يكون الماخور هو المكان الذي يمكن فيه للمرأة أن تفتخر بجرح لا يمكنه أبدا تخليصها من الوحداية؟ ثم، ألا يكون الماخور هو الذي من شأنه تخليصها من كل طبيعة نفعية. ويجعلها هكذا تكتسي نوعا من الصفاء.

كثيرة هي تماثيله التي أضفى عليها لونا ذهبيا.

xxxxx

خلال كل الفترة التي كان يصارع فيها وجه يانيتها (يمكننا أن نتصور هذا الوجه يعرض نفسه ويتمنع في السماح لشبهه بالانتقال إلى اللوحة كما لو أنه يدافع عن هوية فريدة)، كنت شاهدا على المنظر المؤثر لرجل لا يخطئ أبدا ولكنه يضيع في كل وقت. كان يغوص كل مرة في ردهات بعيدة، مستحيلة، بدون منفذ. في الأيام الأخيرة منها. فنه لا يزال يحتفظ من هذه المرحلة بمسحة ظلامية ولكنها في نفس الوقت منبهة. (اللوحات المرسومة الكبيرة الأربع والتي تمثل طاولة، أنجزها بعد هذه المرحلة مباشرة). قال لي سارتر:

فألوحات التي بقيت من هذه التجربة هائلة من حيث كثافة محتواها، بضعة خطوط رمادية، تكاد تكون بيضاء، على مساحة رمادية، تكاد تكون سوداء. ونفس تراكم الحياة الذي ذكرته سابقا. لا مجال لإدماج أي شيء آخر، ولو حبة حياة إضافية. فاللوحات بلغت نقطة منتهاها بحيث أصبحت الحياة عبارة عن مادة لا متحركة. وجوه ممتصة.

سارتر - رأيت في فترة الياباني،
لم يكن على ما يرام.

أنا - هو يقول دائما هكذا. ليس
راضيا أبدا.

سارتر - في تلك الفترة كان فعلا
يائسا.

xxxx

عن الرسوم كنت قد كتبت «أشياء
نفيسة للغاية». كنت أود أن أقول أيضا
إن البياضات تضي على الصفحة
قيمة شرقية - أو نارية، فالخطوط
مستعملة ليس كي تتخذ قيمة دلالية،
ولكن فقط بهدف إعطاء كامل دلالتها
للبياضات. الخطوط لا دور لها غير
إعطاء شكل ومتانة للبياضات.

على المشاهد أن يمعن نظره،
فليس الخط هو الرشيق، وإنما الفضاء
الذي يحده هذا الخط. فليس الخط هو
المليء، إنه البياض الذي هو كذلك.

xxxx

ولماذا إذن؟

ربما لأنه، بالإضافة إلى النخلة
وأدوات التعليق - والفضاء الخاص جدا
الذي تندرج فيه - التي يريد عرضها
علينا، يسعى جياكوميتي إلى إعطاء
حقيقة واقعية وملموسة لما لم يكن
إلا غيابا - أو، إن شئنا، رتابة غير

محددة الهوية - أي الأبيض، بل، أعمق
من هذا، صفحة الورق، يبدو، مرة
أخرى، أنه سخر نفسه لمهمة إضفاء
مسحة نبل على صفحة ورق بيضاء لم
يكن لها أي وجود لولا خطوطه.

ربما أنا مخطئ؟ جائز.

ومع ذلك، عندما ثبت الورقة
البيضاء أمامه بالمسامير، تبادر إلى
ذهني اقتناع بأنه يكن للغزها نفس
الاحترام والتقدير الذي يكنه
للموضوع الذي سيرسمه.

(كنت قد سبق لي أن لاحظت أن
رسومه توحى بما يسمى في علم
الطباعة ب «ضربة نرد»).

جميع الأعمال الفنية لهذا النحات
والرسم، يمكن عنونها كالتالي:
«الشيء اللامرئي».

xxxx

التمثيل لا تكتفي فقط
بمداهمتك كما لو أنها بعيدة، من
غياهب أفق شديد البعد، ولكنها، مهما
كان الموقع الذي تتواجد أنت فيه،
تتصرف بحيث تجعلك أنت الذي تنظر
إليها، تقف على مستوى أدنى من
مستوى وقوفها هي. إنها تقف في
عمق أفق بعيد، على مكان سام، في
حين أنك أنت تقف في أسفل الهضبة.

يسعى جياكوميتي إلى

إعطاء حقيقة واقعية

وملموسة لما لم يكن إلا

غيابا - أو، إن شئنا، رتابة

غير محددة الهوية - أي

الأبيض، بل، أعمق من

هذا، صفحة الورق.

يبدو، مرة أخرى، أنه

سخر نفسه لمهمة

إضفاء مسحة نبل على

صفحة ورق بيضاء لم

يكن لها أي وجود لولا

خطوطه.

إنها تقبل باتجاهك، مستعجلة في لقائك، وتجاوزك.

××××

ولكني أعود مرة أخرى إلى هؤلاء النساء المشكلة بالبرونز حاليا (ذهبي اللون في أغلب الأحيان ومزنجز) : الفضاء من حولها يهتز. لاشيء ينعم بالراحة.

ربما لأن أي زاوية (أنجزها جياكوميتي بإبهامه عندما كان يشكل الطينة)، أو منحني، أو حدة، أو ذروة، أو سنان معدني ممزق لا تنعم أي منها بالراحة. كل منها لا يزال يصدر الحساسية التي أبدعتها. فالموت لا ينال من أي سنان، أو حد يقطع، يمزق الفضاء.

××××

ومع ذلك فإن ظهر هؤلاء النساء يبدو أكثر إنسانية من وجههن. فالرقبة، والأكتاف، وأسفل الظهر، والردف، تبدو كأنها شكلت بقدر من «الحب» أكبر من الذي ألهم تشكيل الجهة الأمامية. منظرها من زاوية ثلاثة أرباع تجعل الرواح والغدو ما بين المرأة والإلهة في منتهى الإثارة. درجة الانفعال أحيانا لا تطاق.

لأنني لا أستطيع الإحجام عن العودة إلى شَعْبِ الحَرَسِ المُنْهَبِ اللَّونِ

- والمرسوم أحيانا - هذا الذي يصطف، بلا حراك. حذق العين.

بجانبيها كم تبدو تماثيل رودان (7) أو مايول (8) كأنها مقبلة على أن تتجشأ، ثم تنام. تماثيل (هذه النساء) جياكوميتي تسهر إلى جانب ميت. الرجل الذي يمشي، نحيف القامة. رجله المثنية. لن يتوقف أبدا. وهو يمشي حقا فوق الأرض، أي فوق دائرة.

××××

عندما شاع الخبر بأن جياكوميتي يقوم بتشكيل لي (سيكون وجهي مدورا وسميكا إلى حد ما) قيل لي : «سيصور لك رأسا مثل شفرة سكين». التشكيل النصفي لأعلى الجسم من الطين لم يتم بعد، لكنني أظن أنني أعرف لماذا استعمل، في مختلف اللوحات، خطوطا تبدو كأنها هاربة، انطلاقا من الخط الوسطي للوجه - أنف، فم، ذقن - باتجاه الأذنين، وإذا أمكن حتى الرقبة. ذلك، على ما يبدو، لأن الوجه يقدم كل قوة دلالاته عندما يكون وجهها لوجه، وكل شيء عليه أن ينطلق من هذا المركز ليغدو منه نحو ما هو في الورا، مستترا، كي يغذيه ويقويه. آسف أن تكون عبارة هجينة هكذا، ولكنه يبدو لي أن الفنان - مثل ما يحدث بالشعر عندما

نجذبه مما وراء الجبهة والأصداء -
يجذب إلى الورا (من وراء اللوحة)
دلالة الوجه.

تماثيل ديجو النصفية يمكن
مشاهدتها من أي زاوية : ثلاثة أرباع،
جنب، ظهر.. ولكنها ينبغي أن ترى من
أمام. دلالة الوجه - تشابه العميق -
عوض التراكم على الصفحة الأمامية،
تهرب وتتوغل إلى ما لا نهاية، إلى
مكان لم تتح أبدا فرصة بلوغه،
ما وراء التمثال.

(من البديهي أنني أحاول فقط
تدقيق مظاهر انفعالي، ووصفها،
وليس تفسير تقنيات المبدع).

xxxx

عبارة كثيرا ما يرددها
جياكوميتي :

- لا بد من تثمين الأمور.

لا أعتقد أنه ألقى مرة، ولو مرة
واحدة في حياته، على كائن أو شيء
ما، نظرة تحقير. لعله يرى في كل
واحد أرقى درجات الوجدانية.

هو - لا يمكنني أبدا أن أضع في
لوحة من لوحاتي تلك القوة الكامنة
في رأس ما. مجرد كونها حية، فهذا
يتطلب إرادة وطاقة كبيرتين إلى حد
بعيد.

xxxx

أمام تماثيله، شعور آخر : إنها
جميعا شخوص جميلة : ومع ذلك
يبدو لي أن حزنها ووجدانيتها تشبه
حزن ووجدانية رجل معتوه، يجد
نفسه فجأة عاريا، مضطرا إلى الكشف
عن عاهته : وفي نفس الوقت يعرضها
على العالم كي يشير إلى وحدانيته
ومجده. لا سبيل كي يتسرب الفساد
إلى هذا.

بعض شخوص جوهاندو(9)
تتمتع بمثل هذه الأبهة العارية :
برودونس هوتشوم(10).

xxxx

فرحة معتادة للغاية ولكنها
تتجدد كل مرة، عندما أمرر أصابعي -
وعيني مغمضتين - على تمثال.

- بدون شك، قلت في نفسي، كل
التماثيل تعطي للأصابع نفس النشوة.
عند أصدقاء يملكون تماثيلين
صغيرين : نسختان طبق الأصل من
أعمال دوناتيلو(11) : أردت إعادة
التجربة عليها : البرونز لم يعد
يستجيب : أصبح أبكم، ميتا.

جياكوميتي أو النحات من أجل
المكوفين.

ولكني قبل عشر سنوات، كنت قد

أمام تماثيله، شعور
آخر : إنها جميعا
شخوص جميلة : ومع

ذلك يبدو لي أن حزنها
ووجدانيتها تشبه حزن
ووجدانية رجل معتوه،
يجد نفسه فجأة عاريا،
مضطرا إلى الكشف عن

عاهته : وفي نفس
الوقت يعرضها على
العالم كي يشير إلى
وحدانيته ومجده. لا

سبيل كي يتسرب
الفساد إلى هذا.



عرفت نفس النشوة عندما كانت يدي،
أصابعي وكفي، تلامس مصابيح. إنها
يدا جياكوميتي، وليس عيناه، هي التي
تصنع الأشياء والتماثيل. إنه لا يحلم
بها وإنما هو يحسها. وهو يعشق
نماذجه. لقد أحب الياباني.

اهتمامه بالتركيب المطبعي يبدو
مطابقا للشعر الذي عبرت عنه سابقا :
إضفاء قيمة عالية على صفحة الورق
أو اللوحة.

× × × ×

في المقهى. بينما كان
جياكوميتي يقرأ، إذ برجل عربي،
بأس، تقريبا أعمى، يحدث بعض
الصخب عندما نعت أحد الزبناء
باللوطي سلبا، زبونا آخر. غضب
الزبون المشتوم غضبة شديدة، شرع
في التحديق إلى الأعمى مثيرا نظرتة
فيه، يحرك فكاه كما لو أنه يمضغ
حنقه. العربي هزيل، أبله نوعا ما.
يرتطم بجدار قوي وإن كان غير
مرئي. لم يكن يفهم شيئا من العالم
الذي كان تائها فيه، كفيفا أحرق أبله.
يشتمه كما تبادر إلى ذهنه.

- لو لم تكن عندك عصاك البيضاء!
يصرخ الفرنسي الذي نعته العربي
باللوطي سلبا. في قرارة نفسي أعجب

لكون عصي بيضاء تجعل هذا الأعمى
أكثر قدسية من ملك، وأكثر قوة من
أفتل مصارع للثيران.

أقدم للعربي سيجارة. أصابعه
تبحث عنها، تتلقفها مصادفة تقريبا.
إنه قصير القامة، هزيل، وسخ، سكران
بعض الشيء، يتمم وكثير اللعاب.
لحيته متناثرة وسيئة الحلاقة. في
سرواله لا يمكن تصور سيقان. يكاد لا
يقوى على الوقوف. بأصبعه خاتم
قران، أتلظ ببضع كلمات بلغته،

- هل أنت متزوج؟

جياكوميتي مستمر في قراءته
ولا أتجراً على مضايقته. تصرفني مع
العربي ربما ضايقه.

- لا. ليست لي امرأة.

وهو يقول لي هذا، صاحب
العربي كلامه بحركة من يده، صعودا
ونزولا، لإفهامي أنه يمارس العادة.

- لا. لا امرأة. عندي يدي. ثم مع
يدي. لا، لا شيء، لا شيء غير نشاقتي.
أو الجوخات.

عيناه البيضاءوين، فاقدتي اللون،
والبصر، لا تكفان عن الحركة.

- .. وسأعاقب . الله سبحانه

ولكنني قبل عشر
سنوات، كنت قد
عرفت نفس النشوة
عندما كانت يدي،
أصابعي وكفي،
تلامس مصابيح.
إنها يدا

جياكوميتي، وليس
عيناه، هي التي
تصنع الأشياء
والتماثيل. إنه لا
يحلم بها وإنما هو
يحسها. وهو يعشق
نماذجه. لقد أحب
الياباني.

سيعاقبني . إنك لا تعلم كل ما فعلت .

انتهى جياكوميتي من قراءته .
أزال نظارتيه المكسرتين ، أعادهما إلى
جيبه . خرجنا . وددت التعليق على
الحدث ، ولكن ماذا عساه أن يجيبني ،
وماذا عساي أن أقول ؟

أعرف أنه يعلم مثلي أن ذلك
البانس يحافظ في نفسه ، يصون -
بمختلف أشكال الغضب والفوران - تلك
البؤرة التي تجعله مماثلاً للجميع
وأنفس من باقي العالم ، ذلك الشيء
يبقى عندما يتراجع إلى عمق ذاته ،
إلى أبعد نقطة ممكنة ، مثلما يتراجع
البحر ويترك الشاطئ .

رويت هذه الحكاية لأنني أخال أن
تماثيل جياكوميتي تراجعت - تاركة
الضفاف - إلى ذلك المكان السري
الذي لا يمكنني وصفه ولا تحديد
ماهيته ، ولكنه هو الذي يجعل كل
إنسان ، عندما يأوي إليه ، أنفس من
باقي العالم .

قبل هذا بفترة طويلة ، كان
جياكوميتي قد حكى لي غرامياته مع
عجوز متسولة ، لطيفة ورثة الأسمال ،
وسخة لا محالة ، والتي كان بإمكانه أن
يرى ، عندما كانت تلاهيه ، دما مل
رأسها الذي يكاد يصلع تماماً .

رويت هذه الحكاية
لأنني أخال أن تماثيل
جياكوميتي تراجعت -
تاركة الضفاف - إلى
ذلك المكان السري
الذي لا يمكنني وصفه
ولا تحديد ماهيته ،
ولكنه هو الذي يجعل
كل إنسان ، عندما يأوي
إليه ، أنفس من باقي
العالم .

هو - كنت أحبها كثيراً ، إيه ، عندما
كانت تغيب يومين أو ثلاثة ، كنت أخرج
إلى الشارع لأرغب مجيئها . كانت
تساوي أجمل النساء جميعها ، أليس
كذلك ؟

أنا كان عليك أن تتزوجها
وتقدمها على أنها السيدة
جياكوميتي .

نظر إلي ، مبتسماً قليلاً :

هو - هل تعتقد هذا بالفعل ؟ لو
فعلت هذا لكنت غريب الأطوار ، أليس
كذلك ؟

أنا - أجل .

xxxx

لا بد من وجود علاقة بين
الوجوه القاسية والوحيدة وبين
ميولات جياكوميتي نحو المومسات .
الحمد لله ليست كل الأمور قابلة
للتفسير ، ولست أرى هذه العلاقة
بوضوح ، ولكنني أتحمسها . قال لي
ذات يوم :

هو - ما يعجبني في المومسات
هو كونها لا تفيد في شيء . إنها هنا ،
فقط .

لا أعتقد - ربما أكون خاطئاً - أنه

صور في يوم ما إحداهن. لو ساورته
نية مثل هذه لكان قد وجد نفسه أمام
كائن بوحدانيته تنضاف إليها
وحدانية أخرى تنتمي لعالم اليأس أو
الخواء.

××××

غريبة تلك الأقدام، أو القواعد
التي تقوم عليها التماثيل! أعود إليها
من جديد. على الأقل لأول وهلة،
يبدو لي وكأن جياكوميتي - أرجو أن
يسامحني - يستجيب لمتطلبات فن
التشكيل والنحت، فيراعي طقوسا
باطنية تجعله يعطي للتمثال قاعدة
سلطوية، أرضية، إقطاعية. أثر هذه
القاعدة علينا ساحري. (قد يقال إن
الصورة بكاملها ساحرة. أجل ولكن
القلق والافتتان اللذين يشملاننا
انطلاقا من هذه القدم المشوهة
الأسطورية لا يشبهان ما نشعر به
تجاه باقي التمثال. بصراحة، أعتقد
أننا هنا بصدد قطعة في عمل
جياكوميتي بين أسلوبين، رائعين
كليهما ولكنهما متعارضان. فهو، من
خلال الرأس، والأكتاف، والأذرع،
والخصر، يضيئنا. أما من خلال
الأقدام، فهو يسحرنا).

××××

لو استطاع ذلك، لكان
جياكوميتي قد حول نفسه إلى
مسحوق أو غبار ولكان بهذا في أوج
السعادة!

- ولكن "البغيات"؟

الغبار لا يمكنه بسهولة غزو
قلوب البغيات. ربما كان بإمكانه فقط
أن يتسلل إلى طيات جلدها كي
يعطيها بعض الوسخ.

بما أن جياكوميتي عرض علي أن
أختار - بعد تردد لا يمكنه أن ينتهي
إلا بموتي أو موته - قررت اختيار
صورة رأس صغير لي. (هنا أفتح
قوسا: كان ذلك الرأس بالفعل شديد
الصغر. وحده على اللوحة، هو لا
يتعدى سبعة سنتيمترات علوا وثلاثة
سنتيمترات ونصف أو أربعة عرضا.
ومع ذلك فإنه يوحي بنفس القوة
والوزن والمقاسات التي تميز رأسي
الحقيقي). عندما أخرجت اللوحة من
المحترف كي أنظر إليها، ألم بي الحرج
لأنني كنت أعلم أنني وسط اللوحة
وأمامها، أطلع إليها. - إذن قررت
اختيار ذلك الرأس الصغير (المليء
بالحياة والثقيل لدرجة أنه كان يبدو
وكأنه رصاصة في مسار قذفها).

هو - حسنا، إنها لك. (ينظر إلي)

بلا مزاج. إنها لك. (ينظر إلى اللوحة ثم يقول بقوة أكبر، كما لو أنه يقتلع أحد أظافره): إنها لك، يمكنك أن تأخذها معك. لكن فيما بعد ينبغي أن أضيف قطعة قماش في أعلاها.

والآن إذ يريني هذا، بالفعل لابد من إدخال هذا التعديل. أولاً للاستجابة لمتطلبات اللوحة نفسها التي يقلص منها حجم رأسي الصغير، وثانياً من أجل أن يكتسب رأسي وزنه الحقيقي.

xxxx

كنت جالسا، مستقيماً، بلا حراك، متصلباً، (حتى لو تحركت كان يدعوني بسرعة إلى استعادة الهيئة والتزام الصمت والراحة) على كرسي خشبي غير مريح.

هو - (متطلعاً إلي بنظرة منبهرة): «كم أنت جميل!».

ينجز ضربتي فرشاة أو ثلاث ضربات على اللوحة بدون، على ما يبدو، أن يكف عن تثبيت نظره في. ثم كما لو كان يتحدث إلى نفسه: «كم أنت جميل». ويضيف هذه الملاحظة التي تزيد أكثر في انبهاره: «مثل جميع الناس، أليس كذلك؟ لا أقل، ولا أكثر».

هو - عندما أتجول، لا أفكر أبداً في عملي.

لربما كان هذا صحيحاً ولكنه ما أن يدخل إلى محترفه حتى يبدأ في العمل. بشكل غريب. فهو في نفس الوقت متوتر ومشدود إلى غاية إنجاز التمثال - وبالتالي فهو خارج هذا المكان، وخارج كل مقارنة - وهو حاضر في نفس الآن، لأنه لا يكف عن التشكيل.

وبما أن التماثيل، هذه الأيام،

شديدة العلو، فإنه كثيراً ما يكون واقفاً أمامها - وهي من طينة بنية - لا يكف عن تمرير أصابعه، صعوداً وهبوطاً، عليها، مثل حركات بستاني يقص أو يطعم أغصان شجرة ورد متطاولة. الأصابع تعث على طول التمثال. وإذا بالمحترف بكامله يهتز ويعيش. ينتابني إحساس غريب يجعلني أخمن أن التماثيل القديمة المكتملة، وهي تراه هنا لا يلمسها، ستفتت وتتغير لأنه يشتغل على إحدى أخواتها الأخرى. حتى هذا المحترف نفسه الواقع في الطابق السفلي سينهار من حين لآخر. فهو من الخشب اللين، من الغبار الرمادي، والتماثيل من جص، تتراعى منها أطراف، حبل، خيوط قنب، أو أطراف

أسلاك حديدية. اللوحات بدورها مرسومة بالرماد، وفقدت منذ زمن ذلك الهدوء الذي كانت تنعم به عند بائع الألوان. كل شيء ملطخ ومهمل، كل شيء يبدو مؤقتا مقبلا على الزوال. كل شيء يسير نحو الذوبان، معلق الوجود، على أن كل هذا مندرج في حالة وجود مطلقة. عندما غادرت المحترف، وخرجت إلى الشارع، حينذاك تراءى لي أن لا شيء مما يحيط بي حقيقي. هل أجروء على قول ما يلي؟ في هذا المحترف يموت الإنسان شيئا فشيئا، يحترق، وأمام أعيننا يتحول إلى إلهات.

× × × ×

جياكوميتي لا يشتغل من أجل من يشاركونه نفس الحقبة الزمنية ولا من أجل الأجيال القادمة : إنه يصنع تماثيل تروق أخيرا الأموات.

هل سبق لي أن قلت هذا؟ كل شيء رسمه أو صوره جياكوميتي؟ يوجه لنا مشاعره الأكثر صفاء وعطفا. فهو لا يبدو أبدا في صورة مهولة، ولا يسعى أبدا أن يكون وحشا مخيفا. بالعكس، من بعيد يجلب معه نوعا من الصداقة والسلام اللذين يحملان معهما الطمأنينة. وحتى إذا شابها قلق ما فلأنها طاهرة ونادرة إلى حد كبير.

فالتألف مع مثل هذه الأشياء (تفاحة، قنينة، معالق، طاولة، نخلة) يتطلب التخلص من كل أشكال التلوث.

× × × ×

كتبت أن نوعا من الصداقة يشع عن الأشياء، وأن هذه الأخيرة توجه لنا مشاعر ودية. هذا تعبير جزافي إلى حد كبير. ربما يصدق إلى حد ما عند الحديث عن فيرمير⁽¹²⁾. ولكن جياكوميتي أمر آخر مختلف : فالشيء المصور من قبل جياكوميتي لا يؤثر فينا ويطمئننا لأنه يبدو بصورة «أكثر إنسانية» - لأنه قابل للاستعمال ولا ينفك يستعمل من طرف الإنسان -، وليس لأنه يكتسي الأفضل والأنعم والأرهم من الحضور الإنساني، ولكن على العكس لأنه «هذا الشيء» في كامل صفائه كشيء. هو ولا شيء آخر معه. هو في وحدانيته التامة.

لم أحسن التعبير عن هذا، أليس كذلك؟ لنجرب عبارة أخرى : يبدو لي أنه بهدف تناول الأشياء، تعمد عين، ثم قلم جياكوميتي إلى التخلص من كل سابق إصرار طيع. بتبرير الرفع من قيمة الشيء - أو تحقيقه، حسب الموضحة الحالية - يرفض جياكوميتي أن يكسوه بأدنى مسحة - سواء أكانت رقيقة، قاسية أم متوترة - إنسانية -.

هل أجروء على قول ما يلي؟ في هذا المحترف يموت الإنسان شيئا فشيئا، يحترق، وأمام أعيننا يتحول إلى إلهات.

جياكوميتي لا يشتغل من أجل من يشاركونه نفس الحقبة الزمنية ولا من أجل الأجيال القادمة : إنه يصنع تماثيل تروق أخيرا الأموات.

أمام علاقة، يقول :

«هي علاقة؛ إنها هي»، ولا شيء
أكثر من هذا.

وهذه الملاحظة المفاجئة تضيء
الفنان. العلاقة. على صفحة الورق
ستتجلى في عريها الساذج إلى أقصى
الحدود.

منتهى الاحترام للأشياء. كل منها
يتباهى بجماله لأنه "الوحيد" الثابت
في الكينونة؛ إن فيه ما لا يمكن
تعويضه.

فن جياكوميتي ليس
إذن فنا اجتماعيا إنه
بالأحرى فن متسكعين
سامين، صافين إلى
درجة أن ما يمكن
الجمع فيما بينهم هو لا
محالة الاعتراف
بوحداية كل كائن
وكل شيء.

فن جياكوميتي ليس إذن فنا
اجتماعيا من حيث إقامة علاقة
اجتماعية ما بين الأشياء - ما بين
الإنسان وإفرازاته - إنه بالأحرى فن
متسكعين سامين، صافين إلى درجة
أن ما يمكن الجمع فيما بينهم هو لا
محالة الاعتراف بوحداية كل كائن
وكل شيء. يبدو الشيء وكأنه يقول :
«أنا وحيد وبالتالي فأني مندرج في
ضرورة لا تستطيعون شيئا ضدها. إذا
لم أكن إلا ما أنا عليه، فأني إذن غير
قابل للهدم. وبما أنني ما أنا عليه،
وبدون أي تحفظ، فإن وحدانيتي
تعرف مثيلتها فيكم».

هوامش

- 1 - آنيت : رفيقة جياكوميتي خلال فترة طويلة من حياته الباريسية.
- 2 - رئيس فرنسي سابق.
- 3 - ملهى ليلي باريسي.
- 4 - فنان هولندي (1606 - 1669).
- 5 - بول سيزان (1839 - 1906) ، فنان فرنسي.
- 6 - كلود موني (1840 - 1926)، بيار بونار (1867 - 1947) فنانان فرنسيان.
- 7 و 8 - أريستيد مايول (1861 - 1944) - أوجيست رودان (1840 - 1917) : نحاتان فرنسيان.
- 9 - مارسيل جوهاندو (1888 - 1979) كاتب فرنسي.
- 10 - إحدى شخصيات الكاتب أعطى اسمها عنواناً لرواية كتبها عام 1927.
- 11 - دوناتيلو (1386 - 1466) نحات ورسام إيطالي.
- 12 - جوهانس فيرمير (1639 - 1675) رسام هولندي.



عبد الحي أزرقان

أسلمة السياسة لمواجهة تسييس الإسلام*

المعاصر مع جعل مسألة التحرر
والحرية أساس هذا البعد وغايته.

ما الدافع إلى تأليف الكتاب؟

هناك أولا عامل فكري. لاحظ
الجابري، باعتباره مؤرخا للفكر
العربي، أن الكتابات الخاصة
بالتأريخ للأخلاق داخل التراث
العربي تعاني من قلة المادة من
جهة، ومن التحريف والتغليط من
جهة ثانية. قليلون هم من كتبوا
في الأخلاق عند العرب، وبعيدة
عن الكشف عن غنى الفكر
الأخلاقي العربي الدراسات التي
تعاطى أصحابها لتحليل أسس
القيم عبر تاريخ المجتمعات
العربية. ولقد لعب المنطلق
الفكري دورا أساسيا في طغيان
السلبية على الدراسات المخصصة
لفكر الأخلاقي العربي. إن الفكرة
الموجهة للدارسين في هذا
المجال لم تتجاوز نقطتين

يشكل هذا الكتاب الجزء
الرابع من المؤلف الذي
افتتح الجابري نشره في
بداية الثمانينات تحت
عنوان نقد العقل العربي.
وإذا كان الحجم واحدا
تقريبا فإن طريقة
الكتابة واحدة أيضا،
حيث يلجأ المؤلف إلى
النصوص الأصلية
باستمرار خاصة
النصوص القديمة، وإلى
التذكير بالأطروحة
المدافع عنها

يشكل هذا الكتاب الجزء الرابع من
المؤلف الذي افتتح الجابري نشره في
بداية الثمانينات تحت عنوان نقد
العقل العربي. ويتكون من ست مائة
وأربعين صفحة، مما يجعل حجمه
يساوي تقريبا حجم الأجزاء الصادرة
من قبل في إطار نقد العقل العربي.
وإذا كان الحجم واحدا تقريبا فإن
طريقة الكتابة واحدة أيضا، حيث
يلجأ المؤلف إلى النصوص الأصلية
باستمرار خاصة النصوص القديمة،
وإلى التذكير بالأطروحة المدافع
عنها، والإفصاح عن الاقتناعات
الفكرية الموجهة للبحث، وذكر
المفاهيم المعتمدة في التحليل،
وكذلك محاولة فتح آفاق في المجال
المعني على المستويين الفكري
والعملي معا، أي المساهمة في إغناء
البعد السياسي داخل الفكر العربي

* قراءة في كتاب : محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي
العربي : دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة
العربية. دار النشر المغربية. الدار البيضاء. 2001.

أساسيتين. هناك من اتخذ من الفلسفة اليونانية منطلقه في تناول موضوعه فكان مجبرا بذلك على تطبيق مقولات فلسفية يونانية على الأخلاق العربية. مهتما أساسا بمدى ملاءمتها للفضيلة والسعادة، مما أضفى الاختزال على الإرث المدروس وعلى النتائج المستخلصة.

وهناك من اتخذ من الدين الإسلامي السند الأول في قراءة الفكر الأخلاقي العربي وذلك قصد تبيان وجود فكر أخلاقي إسلامي يعتمد أصالته من القرآن ويحتوي بدوره على مختلف القيم التي يقوم عليها الفكر العربي.

لم يسلم أصحاب المنطلق الثاني، حسب الجابري، من الاختزال الذي سقط فيه أصحاب المنطلق الأول لأن الهدف عندهم كان هو البرهنة على دفاع الإسلام عن القيم التي يدافع عنها الفكر الفلسفي الغربي وعلى تفوق الإسلام في هذا المجال عن الغرب وسبقه له في صياغة تلك القيم بل وحتى في تجسيمها. وهو موقف اختزالي أيضا لأنه يعبر عن رد فعل أكثر مما يقوم على التأمل والفحص والتنقيب، مما جعل مرجعيته تتوقف عند القرآن الكريم دون بذل أدنى مجهود للاطلاع على غنى التراث العربي الإسلامي في الكتابات الأخلاقية.

هكذا يستدعي موضوع الأخلاق في الفكر العربي، حسب محمد عابد الجابري، بذل مجهود جبار يتوجه أولا نحو التنقيب عن المادة، وثانيا نحو فحصها وضبطها وتحليلها وتصنيفها. مجهود ينعته الجابري في بداية الكتاب ونهايته بالمغامرة. أضف إلى هذين الشرطين شرطا ثالثا أساسيا بدوره لربح المغامرة وهو التحلي بالاستقلالية في الفكر والتسلح بالنقد وتبني موقف المثقف، أي ربط المعرفة بخدمة قضية المجتمع والأمة، أي بـ «المصلحة العامة».

يبدأ الجابري بتعريف المجال الذي يخوض فيه الجزء الرابع من سلسلة نقد العقل العربي وتمييزه عن الجزء الثالث لكي لا يقع خلط بينهما نتيجة وحدة طبيعة موضوعهما. لقد تناول الجزء الثالث «السياسة كما وقعت وتقع بالفعل»، أما الجزء الرابع فإنه يتناول «السياسة كما ينبغي أن تكون». ولهذا اعتبرت السياسة في آخر السلسلة «فرعا من علم الأخلاق أو تتويجا له، وموضوعها «هو كيف كان العرب (وبالأخص المفكرون) يرون أن تمارس السياسة لتحقيق الهدف الأخلاقي الإنساني المطلوب منها وهو السعادة والخير للجميع» (ص. 20).

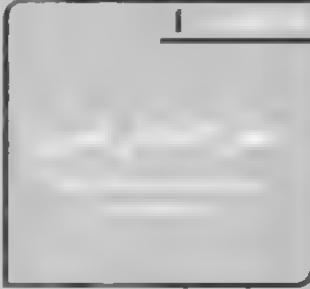
يكمُن منطلق الجابري في إلحاق السياسة، في مستوى من مستوياتها النظرية والعملية، بالمجال الأخلاقي

يبدأ الجابري
بتعريف المجال الذي
يخوض فيه الجزء
الرابع من سلسلة
نقد العقل العربي
وتمييزه عن الجزء
الثالث لكي لا يقع
خلط بينهما نتيجة
وحدة طبيعة
موضوعهما. لقد
تناول الجزء الثالث
«السياسة كما وقعت
وتقع بالفعل»، أما
الجزء الرابع فإنه
يتناول «السياسة كما
ينبغي أن تكون»

وذلك لإبراز أصالة الفكر الإسلامي العربي في فلسفة الفعل والتصدي للتصور السائد، حسب اقتناعه. في الفكر العربي الحديث، ذاك التصور القائم على الفصل بينهما. يريد الجابري أن تكون نظرتة إلى الموضوع «أكثر اقترابا من الرؤية القديمة للأخلاق والسياسة (٠)» ويكون هو «أكثر قربا من مفكرينا الذين تناولوا في تراثنا مسألة الأخلاق والقيم، وربما أكثر بعدا من المفكرين والفلاسفة في العصر الحديث والعصر الحاضر الذين عالجوا المسألة الأخلاقية على أساس ذلك الفصل الكامل والنهائي (١) الذي أقامه ماكيافيل بين الأخلاق والسياسة» (ص 27-28).

أضف إلى هذا أن الجابري يصنف نفسه منذ البداية في إطار المؤرخين للفكر العربي ليتناول مسألة الأخلاق من الزاوية التاريخية وليس من الزاوية الفلسفية. لهذا فإننا لا نقع في الكتاب على دراسة الأسس التي ينبني عليها (أو ينبغي أن ينبني عليها) الفعل الإنساني الأخلاقي بوجه عام، بقدر ما نقع على أهم القيم الأخلاقية التي سادت المجتمعات الإسلامية العربية عبر التاريخ، والتي نظر لها ودافع عنها المفكرون المسلمون العرب. ولكن تجدر الإشارة مع ذلك إلى أن مجهود الجابري بهذا الصدد كبير ومتميز وطموح.

إنه يعرض للمجال الأخلاقي في الفكر العربي منذ ما يسمى بالعصر الجاهلي إلى ما نطلق عليه عصر النهضة. متناولا الحكماء والأدباء والفقهاء والسياسيين والفلاسفة. ولا يكتفي في عرضه هذا بذكر القيم الأخلاقية التي عرفتتها المجتمعات العربية وتبنتها عبر التاريخ. إنه يقوم بتحليلها لرؤية مدى تأثيرها وتحكمها في سلوك الناس وبالأخص مدى توجيهها للمدينة والأمة. لهذا نجده يعمد إلى فكرة التراتبية داخل تلك القيم، لأن الهدف من إدراجها في التحليل والتصنيف هو إثارة مدى تأسيس قيمة قمة الهرم للهرم بأسره، ومدى انشغال تلك القيمة بهذه الغاية وحدها أي الإبقاء على الهرم أولا وعلى وحدة أساسه ثانيا. فالمطلوب رصده في التاريخ للأخلاق هو النظم المتحكمة في الترتيب السائد داخل أخلاق المجتمعات العربية. ويشير الجابري منذ البداية إلى أن المقصود بالنظام داخل الأخلاق، في نهاية المطاف، هو «القيمة المركزية» المتحكمة في سائر القيم السائدة والموجهة للعلاقات السائدة بين أفراد المجتمع. وبالأخص بين فئات هذا المجتمع. «يمكن التمييز، حسب الجابري، في كل ثقافة بين ما ندعوه هنا بالقيمة المركزية (التشديد من عند الكاتب) التي تنتظم حولها جميع القيم في عصر من العصور وبين القيم الأخرى المندرجة تحتها» (ص 22).



أضف إلى هذا أن الجابري يصنف نفسه منذ البداية في إطار المؤرخين للفكر العربي ليتناول مسألة الأخلاق من الزاوية التاريخية وليس من الزاوية الفلسفية. لهذا فإننا لا نقع في الكتاب على دراسة الأسس التي ينبني عليها (أو ينبغي أن ينبني عليها) الفعل الإنساني الأخلاقي بوجه عام

يتميز مجهود الجابري إذن بما يمكن تسميته بعملية التركيب وهي عملية لا نقع عليها دائما في الكتابات المؤرخة للفكر العربي الإسلامي خاصة في المستوى الذي تحضر به داخل العقل الأخلاقي العربي.

لا يمكن نعت مثل هذا المشروع إلا بالطموح مادام أنه يسعى إلى التعرض لجميع القيم المركزية التي انتظمت وفقها سياسات المجتمعات العربية واقتصادياتها عبر التاريخ. غير أن استعمالنا لكلمة طموح جاء نتيجة حضور بعد آخر غير هذا داخل الكتاب وهو مرتبط بحضور الحاضر والمستقبل العربيين في الهدف من التأريخ للأخلاق في الفكر العربي. ماذا نقصد بهذا الارتباط؟

القصد الأول هو كون نظم القيم التي عرفتھا الثقافة العربية قديما مازالت تتحكم بشكل قوي وحاسم في العلاقات المنظمة للمجتمعات العربية الإسلامية. والقصد الثاني هو أن المخطط للمستقبل العربي في مجال السياسة بالمعنى الأخلاقي للمفهوم يتمكن، برجوعه إلى تاريخ الأخلاق في الفكر العربي، من إيجاد المنفذ الصحيح إن لم نقل الأمثل، للتوجه السياسي الذي ينبغي تبنيه مع الحفاظ على أصالته العربية الإسلامية. ذلك لأن الأخلاق العربية الإسلامية تمدنا، في نهاية المطاف، بتصور لنظام

العلاقات الإنسانية لا نعثر عليه في الثقافات الأخرى، وبوجه خاص في الثقافة الغربية التي أصبحت سيادتها توهم كثيرا من العرب والمسلمين أن تأسيس الفعل السياسي لن يجد قوامه إلا في الإنتاج الحاصل داخل منطقتها ومفاهيمها ومنطقاتها.

إن انتهائي في هذا التقديم إلى دفاع الجابري عن أهمية مساهمة الفكر العربي الإسلامي وعمقها في مجال الأخلاق سيفرض علي الانتقال مباشرة إلى التعرض لهذا الإسهام من أجل تحديده. وبابتدائي بهذه النقطة سأعكس الترتيب الذي اعتمده كاتب **العقل الأخلاقي العربي** لأنني سأبدأ بما جعله الكاتب تتويجا لمؤلفه، وسأحاول تركيز المقال على هذه النقطة بالذات.

يتشكل الكتاب من قسمين متفاوتين بشكل كبير من حيث الحجم. يكتفي المؤلف بتجزئة القسم الأول إلى فصول، ويعمد في القسم الثاني إلى التبويب حتى يدرج الفصول داخل الباب الواحد وليس داخل القسم بأسره. يستقر تجزيته للقسم الثاني على خمسة أبواب يحمل آخرها عنوان الموروث الإسلامي، من أجل أخلاق إسلامية.

إن كنت سأركز على التعرض لهذا الباب فذلك لأنه يمكننا من رصد الأخلاق (أو السياسة من منظور

يتميز مجهود الجابري إذن بما يمكن تسميته بعملية التركيب وهي عملية لا نقع عليها دائما في الكتابات المؤرخة للفكر العربي الإسلامي خاصة في المستوى الذي تحضر به داخل العقل الأخلاقي العربي.

العربي.

أخلاقي) من وجهة نظر الإسلام، أي يمكننا من استخلاص "القيمة المركزية" في الأخلاق الإسلامية، وكذلك من معرفة التحول الحاصل في موقف الجابري من الثقافة العربية المركزية في الأخلاق الإسلامية، وكذلك من معرفة التحول الحاصل في موقف الجابري من الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية، والتحول الحاصل أيضا في تصوره للسياسة المستقبلية للعالم العربي والإسلامي. وأكد منذ البداية أن الجابري تخطى بشكل كبير في كتابه الأخير عن موقفه من الفكر العربي الإسلامي والفكر الغربي الذي بدأ به مسيرته العلمية، والذي لعب دورا كبيرا، إن لم أقل حاسما، في فرض نفسه داخل الساحة الثقافية العربية، وبالخصوص في جلبه للفضول المعرفي عند الشباب العربي.

أين يكمن التحول؟ نقول بكل اختصار إنه يكمن في إعادة الجابري الاعتبار للفكر العربي الإسلامي بالاعتماد على إبراز أصالته وتميزه عن الفكر الغربي بعدما كان يميل في بداية مسيرته الفكرية إلى التركيز على ما يلتقي فيه الفكر العربي الإسلامي مع الفكر الغربي وبالخصوص تلك الأوجه التي تجعل من الفكر العربي فكرا تقديميا ماديا علميا فلسفيا حقا. الخ. إنه توجه نلاحظ اختفاءه بوضوح في كتاب

العقل الأخلاقي العربي حيث يغيب ذاك التقدير السابق للفكر الغربي رغم استمرار الكاتب في استعمال مجموعة من المصطلحات والمفاهيم ذات المكانة البارزة في الفكر الغربي المعاصر، مثل القطيعة والاختلاف والتفكيك⁽²⁾. والحركة التنويرية الخ. وأعتقد أن ميله إلى التخلي عن نموذجية الفكر الغربي أدى به في كثير من فصول الكتاب إلى إصدار أحكام سلبية على هذا الفكر بشكل قوي، وأحيانا تعسفي، لأنها أحكام لا يراعي بصدها مفكرين غربيين مشهورين يستشهد بهم الجابري نفسه وفي مجالات مغايرة متعددة ومناسبات أخرى كثيرة.

أين يكمن التحول؟
نقول بكل اختصار إنه
يكمن في إعادة
الجابري الاعتبار للفكر
العربي الإسلامي
بالاعتماد على إبراز
أصالته وتميزه عن
الفكر الغربي بعدما
كان يميل في بداية

إن المثير للانتباه في انتقاد الجابري للفكر الغربي هو حديثه عن هذا الفكر باعتباره هذه المرة فكرا واحدا متطابقا دون مراعاة أدنى تناقض أو انشطار داخل هذا الفكر. أي إن النظرة الجدلية التي شكلت منطلق تفكيره وأساس مرحلة من نشاطه الفكري اختفت في كتاب العقل الأخلاقي العربي.

فحينما يحكم الجابري على « المفكرين والفلاسفة في العصر الحديث والعصر الحاضر بأنهم عالجوا المسألة الأخلاقية على أساس الفصل الكامل والنهائي الذي أقامه مكيا فيلي بين الأخلاق والسياسة » فإنه لا يلجأ

فيما بعد إلى مراعاة الاستثناءات الكثيرة داخل الفكر الغربي التي سارت في اتجاه معاكس تماماً لهذا التصور. ولعل أبرز مثال يفرض نفسه فيما يخص العلاقة بين السياسة والأخلاق هو مؤسس الفكر الجدلي، الفيلسوف الألماني الذي طالما استشهد به الجابري في مختلف كتاباته ومحاضراته ونقصد هيجل. إذ كيف يمكن إدراج هذا الأخير في الخط الذي رسمه مكيافيل وهو يجعل من ضرورة ربط السياسة بالبعد الأخلاقي أطروحة كتاب يعتبره مؤرخو الفلسفة تنويجا للنسق الهيجلي ونقصد أسس فلسفة الحق؟ ما مبرر وجود الدولة بالنسبة لهيجل غير ضمان البعد الأخلاقي (الصالح العام) للفعل السياسي؟ وما مبرر إقرار هيجل بأسبقية الدولة على المجتمع المدني غير ربطه لتأسيس السياسة على الأخلاق؟

لم يكن هيجل حالة شاذة في الفكر الغربي المعاصر فيما يخص التأكيد على الربط بين الأخلاق والسياسة. لقد ذهبت الماركسية في الاتجاه ذاته مع التأكيد على تعميقه. ثم هل يمكن تغييب موضوع الربط بين السياسة والأخلاق في تفجير الصراع بين الماركسيين أنفسهم؟ ثم ألا ترتبط أصالة المدرسة الفينومينولوجية الفرنسية بتأكيداتها على الربط بين السياسة والأخلاق؟ ألم

يكن إخراج سارتر من دائرة الفكر السياسي من طرف أصحابه ومعظم المؤرخين للفكر السياسي رجعاً إلى تغليبهم، في نظرهم، للرؤية الأخلاقية على الأبعاد السياسية؟ أو لم يكن هو نفسه ينادي باستمرار بترسيخ الأخلاق داخل كل نظرية وممارسة سياسية؟

إن انتقالنا من القارة الأوروبية إلى القارة الأمريكية لن يضع حداً لتساؤلنا هذا. ذلك أن مفكرين كباراً اهتموا بالفكر السياسي ليؤكدوا بالدرجة الأولى على الطعن فيما يسمونه بالتوجه المكيافيلي للسياسة والفكر السياسي، وليحاولوا إعادة الاعتبار لمسألة القيم داخل الممارسة السياسية، قيم لا يمكن أن تستمد في نظرهم إلا من مجال خارج عن الدائرة السياسية والمنطق السياسي. وإذا كان أبرز ممثل هذا الاتجاه ليوستروس يسعى إلى الطعن في ما يسميه بالمذهب التاريخي في الفكر السياسي ويدعو إلى إعادة العلاقة المفقودة (والتي كانت سائدة) بين السياسة والأخلاق في الفكر اليوناني، فإننا نجد مفكراً آخر فرض نفسه بقوة فيما يخص الربط بين السياسة والأخلاق وهو جون روس حينما جعل من العدالة الغاية المثلى للسياسة.

فتحنا هذا القوس لنبين إهمال الجابري لما عبرنا عنه أعلاه بالانشطار

إذ كيف يمكن إدراج هذا الأخير في الخط الذي رسمه مكيافيل وهو يجعل من ضرورة ربط السياسة بالبعد الأخلاقي أطروحة كتاب يعتبره مؤرخو الفلسفة تنويجا للنسق الهيجلي ونقصد أسس فلسفة الحق؟ ما مبرر وجود الدولة بالنسبة لهيجل غير ضمان البعد الأخلاقي (الصالح العام) للفعل السياسي؟

القائم داخل الفكر الغربي وبالضبط فيما يخص العلاقة بين السياسة والأخلاق. ويشكل هذا الإهمال تحولا واضحا، في نظرنا، في موقف الجابري من الغرب. لقد حصل هذا التحول نتيجة تحول آخر في علاقة بالفكر العربي الإسلامي. ويمكن القول فيما يخص هذا التحول الثاني، إن الجابري أصبح في غنى هذه المرة (أو في هذه المرحلة) عن الفكر الغربي لتبيان أصالة الفكر العربي الإسلامي وبالخصوص في التنظير للعمل السياسي مستقبلا داخل العالم العربي. إنه وجد داخل الموروث الإسلامي الخالص، الأسس الحقة للممارسة السياسية التي ستضع نهاية "للقيمة المركزية" المتمثلة في "الطاعة" والتي سيطرت عبر تاريخ المجتمع العربي على المستويين الفكري والعملي معا.

إن كنا نتحدث عن تحول في موقف الجابري من الفكر العربي الإسلامي فإننا ننطلق مما يستخلص بكل وضوح من كتاب **العقل الأخلاقي العربي** من كون أصالة هذا الفكر لم تعد تقاس بموازاته مع الفكر الغربي، وإنما أصبحت تحدد انطلاقا من تضمنه لأسس قادرة على تفعيل الإيجابي للواقع العربي. ولم تعد المسألة تلخص في الدفاع عن كوننا كالغرب لأن فكرنا يزخر بما ينتجه

الفكر الغربي من قيم ومنطلقات كونية، وإنما أصبحت المسألة تكمن في التأكيد على ما يتوفر عليه الفكر العربي الإسلامي من مقومات قادرة على تجسيم المستقبل الذي طالما حلم به الإنسان العربي، ذاك الحلم الذي نشأ في الحقيقة مع ظهور الإسلام وليس مع بداية النهضة⁽³⁾.

إن تغيير الموقف من الفكر الغربي يليه تغيير في المرجعية داخل الفكر العربي الإسلامي. والمسألة طبيعية ومنطقية. ذلك لأن مكان أصالة الذات لا توجد بالضرورة في الحقول المعرفية التي كانت تستخلص منها نقط الالتقاء مع الغرب. هكذا نجد الجابري يتخلى عن الفلاسفة والمتكلمين وكذلك عن الفقهاء لأنهم يظلون في نهاية المطاف ذوي ارتباط قوي بالفلسفة والكلام. ولأن الفرق بينهم قد لا يتجاوز التعارض في الأجوبة المقدمة عن الأسئلة الواحدة. وحينما نتحدث عن تخلي الجابري عن المتكلمين والفلاسفة (والفقهاء) فإننا لا نقصد إهماله لهم بقدر ما نود إثارة تغيير موقفه من هذه الحقول المعرفية. لا يمكن للكلام ولا للفلسفة (ولا للفقهاء) تأسيس الأخلاق.

لقد أبعد الجابري المتكلمين، المعتزلة والأشاعرة على حد سواء، عن مجال الأخلاق لأن انشغالاتهم

إن تغيير الموقف من الفكر العربي يليه تغيير في المرجعية داخل الفكر العربي الإسلامي. والمسألة طبيعية ومنطقية. ذلك لأن مكان أصالة الذات لا توجد بالضرورة في الحقول المعرفية التي كانت تستخلص منها نقط الالتقاء مع الغرب.

الفكرية ظلت مرتبطة بمواضيع ميتافيزيقية. «إن المفكر فيه في مناقشات المعتزلة في موضوع العدل وخلق الأفعال لم يكن من مجالات البحث في الأخلاق ولا كان يتسع لمثل هذا الاهتمام⁽⁴⁾. إن همهم واهتمامهم كان مركزا ومنحصرا في موضوع واحد هو ترتيب العلاقة بين أفعال الله وأفعال البشر، بين قدرته وقدرتهم^(٥). نعم إن نسبة الأفعال إلى الإنسان تترتب عنها المسؤولية والجزاء، وهذا كان الهدف الأصلي من القول بخلق الأفعال. غير أن الجزاء المفكر فيه عندهم لا علاقة له بالأخلاق ولا بالضمير لأنه يكون في الآخرة^(٦). ولو أن كلمة أخلاق تقال في حقه تعالى لصح أن ننسب إلى المعتزلة بحثا نظريا في الأخلاق، ولكنه سيكون حينئذ خاصا بالألوهية وليس بالبشر، أما الأشاعرة فإنهم لم يعرضوا [بدورهم] قط لمسائل الأخلاق التي كانت جزءا من الفلسفة اليونانية وثمرتها لها. لقد بقوا يتحركون في نفس المجال الذي تحرك فيه أسلافهم المتكلمون، مجال جليل الكلام الذي نقلوا إليه مفاهيم وأطروحات ابن سينا في هذا المجال. أما محاولات بعض الأشاعرة، من غير المتكلمين، أسلمة الأخلاق اليونانية أو كتابة أخلاق الآخرة أو أخلاق القرآن فقد جرت خارج علم الكلام وقضاياها وتحت ضغط عوامل وظروف أخرى» (ص 98-99).

لقد كان هدف الجابري من تناوله للفلاسفة المسلمين في العقل الأخلاقي العربي هو استخراج طبيعة الأخلاق التي نظروا لها، وبالأخص استخراج القيمة المركزية التي قام عليها الإنتاج الأخلاقي للمفكرين المسلمين

قد يقال إن الجابري لم يهتم كثيرا بعلم الكلام خلال مسيرته المعرفية، وأن دفاعه عن أصالة الفكر الفلسفي العربي الإسلامي استند إلى الحقل الفلسفي العقلي المتجسم في كتابات الفلاسفة العرب. ولكن يبقى مع ذلك مثيرا للانتباه في كتاب العقل الأخلاقي العربي تمديد النظرة السلبية الغالبة على مجال الكلام إلى مجال الفلسفة ذاتها.

لقد كان هدف الجابري من تناوله للفلاسفة المسلمين في العقل الأخلاقي العربي هو استخراج طبيعة الأخلاق التي نظروا لها، وبالأخص استخراج القيمة المركزية التي قام عليها الإنتاج الأخلاقي للفلاسفة المسلمين، ويتضح من خلال عنوان الباب الثاني ومن خلال تصنيفه للفلاسفة المسلمين وتطويره لأفكارهم أن المنطلق في هذا الإطار - الفلسفة - هو الفكر اليوناني. إن القيمة المركزية عند الفلاسفة المسلمين هي السعادة أي، حسب الجابري، القيمة المركزية التي قامت عليها الفلسفة اليونانية. يبذل الجابري مجهودا كبيرا لتبيان التعدد السائد داخل الفلسفة الإسلامية فيما يخص الإنتاج الأخلاقي حيث يميز بين اتجاهات ثلاثة: اتجاه طبي علمي واتجاه فلسفي محض وآخر تلفيقي.

ولكننا نلاحظ مع ذلك عدم استخلاصه لفكرة ما (من أطول باب يتضمنه كتابه هذا) يحافظ عليها ويتبناها ليَجعل منها أساسا للأخلاق التي يسعى إلى تأسيسها. لا تتجاوز إيجابية موقفه من الموروث الفلسفي دفاعه عما يعتبره إضافة من طرف بعض الفلاسفة المسلمين إلى كتابات أفلاطون وأرسطو. ولعل المسألة الوحيدة التي يحافظ عليها الجابري هنا من مواقفه القديمة هي إعلاؤه من قيمة الفكر العربي في الغرب الإسلامي وبالخصوص إنتاج ابن رشد، وحمله على الفكر العربي في الشرق الإسلامي، أساسا الفارابي وابن سينا.

يبقى السؤال المتصل بسلبية موقف الجابري من الإنتاج الفلسفي في مجال الأخلاق مطروحا. ونعتقد أن الجواب بسيط جدا حينما ندرك الأطروحة المركزية للكتاب والمتلخصة في الفكرة الآتية: هناك إنتاج مهم داخل الفكر العربي في موضوع الأخلاق وهو إنتاج يذهب في معظمه إلى تأسيس أخلاق الطاعة وترسيخها، نموذجها أردشير، وينحو في جزء قليل منه إلى التخلص من هذا التوجه لبناء أخلاق قائمة على الصالح العام ونشرها. وإذا كان هناك فرق في الغاية بين التوجهين فإن هناك فرقا بينهما أيضا فيما يخص المصدر. فبقدر ما استعان التوجه

الأول بثقافة خارجة عن المحيط العربي الإسلامي بقدر ما ركز التوجه الثاني على أبرز مصدر في الثقافة العربية الإسلامية ألا وهو القرآن الكريم.

إن وضوح المعيار يجعلنا ندرك جيدا موقف الجابري من الفلسفة المسلمين. إنهم لا يمدوننا (ولا يمكنهم أن يمدوننا) بفكر مهم في هذا المجال من البحث لأن القيمة المركزية التي انشغلوا بها بعيدة عن القيمة المركزية المستمدة من القرآن الكريم. أضف إلى هذا أن أغلبية المفكرين الذين تناولهم الجابري في إطار الفلسفة ينحون في نهاية المطاف، ورغم ارتباطهم بقيمة السعادة، نحو خدمة الطاعة والاستبداد، أي خدمة نموذج أردشير. فهذه الأدبيات الأخلاقية السياسية في الإسلام التي تغرف من الموروث اليوناني، بما في ذلك مدينة الفارابي تلغي السعادة (.) إما بتأجيلها إلى الحياة الأخرى وإما بربطها في هذه الدنيا بنموذج أردشير، الحاكم المستبد الحارس للدين مظهرًا، والحارس لحكمه من الدين (أي من الشعب) واقعيًا (.) سواء أعلق الأمر بخطاب فلسفي ميتافيزيقي كما عند الفارابي أم بخطاب أخلاقي تطبيقي واعظ، كما عند العامري ومسكويه، فالمفارقة قائمة، وتتمثل في تبني أخلاق السعادة على صعيد الخطاب

ولعل المسألة الوحيدة التي يحافظ عليها الجابري هنا من مواقف القديمة هي إعلاؤه من قيمة الفكر العربي في الغرب الإسلامي وبالخصوص إنتاج ابن رشد، وحمله على الفكر العربي في الشرق الإسلامي، أساسا الفارابي وابن سينا.

أخلاق السعادة على صعيد الخطاب والوقوع تحت هيمنة القيم الكسروية على صعيد النموذج المهيمن على العقل العارض لذلك الخطاب». (ص. 420).

ولا يفوت الجابري في نهاية الكتاب التعبير بكل صراحة عن موقفه السلبي من الفلسفة والراجع بالأساس إلى التفسير الذي قدمناه أعلاه حيث نقرأ في الصفحة 607 : «الفرق بين طريقة الفلسفة وطريقة التصوف فرق في الدرجة وليس في النوع، طريق الفلسفة يتوخى قمع النفس لتحقيق العدل، أي التوازن الذي تصبح فيه النفس خاضعة للعقل البشري وهو فرع أو امتداد للعقل/الإله. وطريق التصوف يريد قمع النفس لتحقيق الفناء بغية الوصول إلى الاتصال، إلى نوع من الوحدة مع العقل/الإله. قد تختلف الأسماء ولكن المسمى واحد. البنية الميتافيزيقية الأساس هي في جميع الأحوال بنية يونانية». (ص. 607) (5).

ماهي المرجعية الجديدة بالنسبة للجابري؟ وأين تكمن أصالتها؟

نقول باختصار شديد في البداية إن المرجعية الجديدة هي كتابات المفكرين المسلمين الذين تعاملوا مع مصادر الفكر الإسلامي خارج تأثير الموروثات الأجنبية الفارسية منها واليونانية، والذين كان هدفهم

الأساسي في تنظيرهم للأخلاق هو التعريف بالقيم التي جاء بها القرآن الكريم. يمكن القول إن الجابري عازم في كتابه العقل الأخلاقي العربي على الانطلاق من القرآن الكريم باعتباره السبيل الأمثل (وربما الوحيد) للحد من تأثيرات الثقافات الأجنبية على العالم العربي الإسلامي، تلك التأثيرات التي يوضح التاريخ بماضيه وحاضره خدمتها لقيم تتنافى كلياً مع الرسالة المحمدية وهي تحرير الإنسان العربي من العبودية بمختلف أشكالها.

أعتقد أن هذه هي النقطة المهمة والأساسية في كتاب الجابري **نقد العقل الأخلاقي**. إنها تشكل الفصل الأخير لهذا المؤلف وتمثل خاتمة مشروع نقد العقل العربي وبداية منعطف في اقتناعات الجابري. لهذا سنحاول تدقيق هذه النقطة حتى نبين بكل وضوح اختلاف كاتبنا عن باقي الباحثين المنشغلين بالموضوع نفسه والميالين إلى التوجه ذاته.

ينبغي الاعتراف للجابري في توجهه الجديد بالأمور التالية :

- هناك في الإسلام مصدران اثنان مقدسان لا غير، وهما القرآن والحديث.

- هناك طريقة غير طريقة الفقهاء للتعامل مع المصدرين وهي ما يمكن تسميته بطريقة العلماء أو المفكرين، إنها الطريقة التي تخرج

- هناك طريقة غير
طريقة الفقهاء
للتعامل مع
المصدرين وهي ما
يمكن تسميته
بطريقة العلماء أو
المفكرين، إنها
الطريقة التي تخرج
عن إطار الحلال
والحرام للتركيز على
المعاني الكبرى التي
ينطوي عليها
المصدران.

عن إطار الحلال والحرام للتركيز على المعاني الكبرى التي ينطوي عليها المصدران.

- المقصود بالمعاني الكبرى في نهاية المطاف هو القيم الأساسية التي يمكن (أو ينبغي) أن تنتظم وفقها العلاقات الاجتماعية بأسرها. أي العلاقات المتعلقة بالفرد مع الفرد وبالفرد مع المجتمع وبالمجتمع مع الفرد وبالفئة مع الفئة وأيضا بالمجتمع مع المجتمع.

- وبما أن هذه القيم تخص العلاقة بين الإنسان والإنسان ومحيطه، فإن الأمر ينبغي أن يقوم «على التمييز الصريح بين عبادة الله وبين خلافة الله في الأرض» (ص 624). يدخل الشطر الأول في مجال الفقه، وتنفرد الأخلاق السياسية بالشطر الثاني.

- ليس الدين الإسلامي أبداً أساس الثقافة الداعية إلى جعل «طاعة السلطان من طاعة الله، والدين والملك توأمين: الدين أساس الملك والملك حارس الدين» (627). إن مصدر هذا التأويل للدين الإسلامي ثقافة معينة ظهرت فعلاً داخل المجتمع العربي ولكنها استندت على موروثين أجنيين الفارسي واليوناني (وبالخصوص الموروث الفارسي).

- الأصل في الوجود بالنسبة للدين الإسلامي هو «المساواة بين

الناس» (ص 61) والغاية منه هي تحقيق «المصلحة العامة»، أي الإبقاء على المساواة في الحقوق والواجبات الدنيوية.

- لا مبرر في الإسلام للتخلي عن مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات، وغريب عنه ذلك المبرر الذي يتم اللجوء إليه لترسيخ اللامساواة والاستبداد في المجتمع العربي عبر تاريخه ألا وهو مبرر «اتقاء الفتنة».

- إن إدراك عمق القيمة المركزية المؤسسة للإسلام (المصلحة العامة) وتخليصه من القيم المستوردة من ثقافات التسلط والجور والاستبداد يجعلنا نرقى إلى التفكير في استعادة الروح الخالدة للدين الإسلامي بدل التفكير في انتقاء مرحلة معينة من التاريخ العربي الإسلامي والعمل على استعادتها.

ولعل هذه النقطة الأخيرة هي بيت القصيد بالنسبة للجابري، وبصددتها سيتميز - سياسياً - عن التوجهات الإسلامية السياسية الكاسحة للساحة العربية الإسلامية في وقتنا الحاضر. يمكن إعادة الروح للمبادئ ولكن لا يمكن إحياء مرحلة تاريخية.

لا يمكن للقارئ إلا أن يسجل عمق هذه الفكرة التي نقع عليها في بداية كتاب العقل الأخلاقي العربي وفي آخر صفحة منه. ويكمن هذا العمق في جانبين :

- لا مبرر في الإسلام للتخلي عن مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات، وغريب عنه ذلك المبرر الذي يتم اللجوء إليه لترسيخ اللامساواة والاستبداد في المجتمع العربي عبر تاريخه ألا وهو مبرر «اتقاء الفتنة».

أ - نسبة الحكم السائد عند كثير من المثقفين العرب المسلمين والتنظيمات السياسية الإسلامية بصدد مرحلة الخلفاء الراشدين.

ب - فهم الأصول الفكرية للاستبداد والتسلط في تاريخ المجتمع العربي الإسلامي وفهم القيمة الأخلاقية المركزية في الإسلام أهم بكثير من تحديد المرحلة المثلى في تاريخ العرب.

نلاحظ، فيما يخص النقطة الأولى، تمييز الجابري لفترة الخلفاء الراشدين داخل التاريخ العربي الإسلامي بتسجيله بصدها مبدأ الشورى في الحكم، وبتأكيد على نزاهة الخلفاء الراشدين خاصة عمر بن الخطاب. غير أن القراءة المتأنية تفرض علينا الانتباه إلى تقليل الجابري من أهميتها فيما يتصل بالمكانة التي تسند إليها أحياناً في تشييد أخلاق عربية إسلامية تستجيب لمتطلبات مستقبل الأمة. ويتجلى هذا الموقف في الإشارة الواردة في الصفحة الأخيرة من الكتاب حيث يقول: «ومع أن الخلافة الراشدة - التي لم تدم إلا نحواً من ثلاثين سنة - قد بقيت تتحدد في ضمير المسلمين، على مر العصور، بكونها الحكم المبني على الشورى، فإن الملك العضوض الذي بلغ من العمر الآن 1380 سنة لم يسبق أن عرف التعريف الذي يعطيه

أما المرحلة التي تلت وفاة الرسول [فهي مرحلة «فرضت فيها

الطبيعة البشرية نفسها، وظهرت فيها مجموعة من المشاكل تخص تولي الخلافة وتدبير شأن المدينة نتجت عنها في نهاية المطاف ما يسميه الجابري بأزمة القيم.

مضموناً يبقى حياً في ضمير الأجيال المتعاقبة». (ص. 630) التشديد من عندنا). واضح الميل هنا إلى أسبقية فهم «الملك العضوض» على تقدير «الحكم المبني على الشورى» عند الخلفاء الراشدين. والمسألة أوضح حينما ننتقل إلى الصفحات التي يتعرض فيها الجابري داخل الفصل الأول للخلفاء الراشدين في إطار ما يسميه بأزمة القيم.

إن المرحلة المثلى بالنسبة للجابري هي المرحلة التي كان فيها النبي محمد [مسؤولاً مباشراً عن تطبيق القرآن الكريم وتسيير المدينة الإسلامية]. «بدأت الدعوة تؤتي ثمارها فحولت مجتمع اللادولة إلى مجتمع الدولة ونشأت مدينة فاضلة قادها نبي شهد له الكتاب المنزل أنه كان على خلق عظيم، ودعا أتباعه إلى أن يتخذوا من سيرته أسوة حسنة، فكان القانون والأخلاق سيان في هذه المدينة، لنقل توأمين. وأحسب أن الناس في ذلك الزمان لم يكونوا يفصلون بين آيات الأحكام وآيات الأخلاق. فكل شيء في القرآن كان حكماً وكل شيء فيه كان أخلاقاً (.) والحق أن القرآن كتاب أخلاق، والسيرة النبوية هي هذه الأخلاق مطبقة» (ص. 61) التشديد من عند الكاتب).

أما المرحلة التي تلت وفاة الرسول [فهي مرحلة «فرضت فيها

الطبيعة البشرية نفسها، وظهرت فيها مجموعة من المشاكل تخص تولي الخلافة وتدبير شأن المدينة نتجت عنها في نهاية المطاف ما يسميه الجابري بأزمة القيم. وإذا كان الجابري يحسم في ربط مرحلة الأزمة بالخليفة عثمان فإنه لا يتوارى في إدراج أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب في التمهيد لمرحلة الأزمة. يقول الجابري: « وإذا نحن اعتبرنا الأزمة التي نشبت في سقيفة بني ساعدة والتي انتهت بمبايعة أبي بكر خليفة للنبي في تدبير المدينة وتلك التي نشبت حين الشورى والتي أسفرت عن تعيين عثمان خليفة بعد عمر بن الخطاب، إذا اعتبرنا هاتين الأزمتين من الأزمات السياسية العادية في دولة لم تترسخ فيها تقاليد الحكم فإن الأزمة التي عرفها عهد عثمان كانت في الحقيقة والواقع أكثر من مجرد أزمة سياسية ظرفية. وهذا ليس بالنظر إلى نتائجها وحسب بل أيضا إلى أسبابها وبواعثها. لقد كانت في الحقيقة والواقع أزمة في القيم فضلا عن مظهرها السياسي » (ص 61).

إذا كانت الإشارة تقتصر في هذه الفقرة على أبي بكر وعثمان فإن الفقرة الموالية لا تستثني عمر بن الخطاب من تأزيم الوضع وخلخلة القيم الإسلامية داخل المدينة الجديدة، « لقد كان من نتائج الطريقة التي اعتمدها عمر بن الخطاب، يكتب

الجابري، في توزيع الغنائم على أساس القرابة من النبي مع اعتبار السابقة في الإسلام أن تكدست الثروات في أيدي كبراء بني هاشم وبني أمية إذ كان جل قادة جيوش المسلمين من قريش وفي مقدمتهم بنو أمية. أما أولئك الذين كانوا في الأصل عبيداً أو موالى أو من قبائل هامشية فقد كان نصيبهم من العطاء هزيلا بالقياس إلى أشرف قريش، بما فيهم الطلقاء الذين لم يلتحقوا بالإسلام إلا بعد أن عفا عنهم النبي [عند فتح مكة].

إذا اعتبرنا هاتين
الأزمتين من الأزمات
السياسية العادية في

«لقد بقي هؤلاء المستضعفون حين الدعوة مستضعفين زمن الدولة. لقد ازداد الأغنياء غنى والأقوياء قوة، ولكن المستضعفين لم تتحسن أوضاعهم بنفس النسبة. فعلا، كانت أسباب الغنى الذي ناله جل الصحابة شرعيا ومشروعا على مستوى أحكام القرآن (الغنائم والتجارة)، ولكن كثيرا من سلوك المترفين لم يكن يستجيب لأخلاق القرآن. بل إن بعض مظاهره كانت تتناقض حتى مع أحكامه نفسها، مما كان لابد أن يستنكره أولئك المستضعفون من الصحابة الأوائل. وهكذا أصبحوا يمثلون الضمير الديني وسط ذلك الوضع الدنيوي، المعن في الدنيا وثرواتها وترفها ونعيمها على حساب الدين وقيمه ومثله، على حساب الآخرة؛ فرفعوا عقيرتهم بالاحتجاج، لا تلومهم في الله لومة لائم » (ص 63).

دولة لم تترسخ فيها
تقاليد الحكم فإن
الأزمة التي عرفها عهد
عثمان كانت في
الحقيقة والواقع أكثر
من مجرد أزمة سياسية
ظرفية. وهذا ليس
بالنظر إلى نتائجها
وحسب بل أيضا إلى
أسبابها وبواعثها.

لماذا لم تسلم، في نظر الجابري، مرحلة الخلفاء الراشدين من بعض مظاهر التسلط ومن نوع من الظلم؟ هناك بالتأكيد الطبيعة البشرية كما رأينا في بداية الاستشهادات التي قدمناها أعلاه، ولكن الأصل في الانحراف راجع أساساً إلى اختزال الاجتهاد في الفقه وحصره على الفقهاء، فأهمّل بذلك دور الأخلاق والتفكير فيها وتطورها. والمقصود بالبحث الأخلاقي طبعاً الأخلاق القرآنية والقيم المثلى التي ينطوي عليها الكتاب الكريم. ذلك لأن هذا النوع من البحث والتفكير يكون أكثر انفتاحاً على المجالات المشكلة لحياة المجتمع، وأكثر جرأة في طرح الأسئلة، وأكثر حرية في اقتراح الأجوبة، وربما أكثر صرامة في تطبيق الحلول المناسبة. يمكن القول باختصار، مع الوفاء لتوجه الجابري، إن البحث الأخلاقي أكثر إدراكاً لأبعاد العلاقات الاجتماعية، وأكثر إلماماً بالطموحات الإنسانية (خيرها وشرها). إنه يراعي الطابع الإنساني (الديني) للإنسان، الشيء الذي قد يغيب عن الدراسات التي تختزل قراءة القرآن في إطار الفقه. وهذا ما حصل للأسف، بالنسبة للجابري، في مرحلة الخلفاء الراشدين.

« وأحسب أن الناس في ذلك الزمان [زمان رسول الله] لم يكونوا يفصلون بين آيات الأحكام وآيات

الأخلاق. فكل شيء في القرآن كان حكماً وكل شيء فيه كان أخلاقاً. ولعل هذا التداخل بل الوحدة بين الأحكام والأخلاق في القرآن هو ما جعل علماء الإسلام يرون في علم الفقه (والحديث والأصول) العلم الديني الذي يشمل الأحكام والأخلاق ويغني بالتالي عن الاشتغال بعلم الأخلاق، أو بما سمي في مرحلة متأخرة [مرحلة المحاسبي وابن عبد السلام وابن تيمية] بأخلاق القرآن» (ص 61).

لا يفوت القارئ الاعتراف للجابري هنا بعمق الفكرة الكامنة وراء دفاعه عن الفصل بين علم الأخلاق والفقه، ووراء تفضيله للموقف الساعي إلى فهم الأصول الفكرية للتسلط والاستبداد في التاريخ العربي الإسلامي عن الموقف المتشبه بالبحث عن المرحلة (أو المراحل) المثلى في هذا التاريخ. ينم موقف الجابري هنا، في نظرنا، عن الفكرة الآتية وهي كون الأخلاق السياسية تستدعي الإبداع وليس المحاكاة. ذلك لأن السياسة تناول للحاضر في أفق المستقبل، والإبداع أكثر استجابة لهذا المعطى من المحاكاة. ثم إن الإبداع يستدعي الاستمرارية في العمل، ويقر بإمكانية الوقوع على الجديد واستيعابه. يقوم الإبداع على الاستيعاب والتجاوز أي على التطور، وهي مفاهيم أساسية في السياسة قليلاً

ينم موقف الجابري هنا، في نظرنا، عن الفكرة الآتية وهي كون الأخلاق السياسية تستدعي الإبداع وليس المحاكاة. ذلك لأن السياسة تناول للحاضر في أفق المستقبل، والإبداع أكثر استجابة لهذا المعطى من المحاكاة. ثم إن الإبداع يستدعي الاستمرارية في العمل، ويقر بإمكانية الوقوع على الجديد واستيعابه.

ما تسمح بها المحاكاة.

يفرض الإبداع على الإنسان الاعتماد على النفس أي على المقومات الذاتية، فينتج عن ذلك مراعاة الشروط والظروف، أي مراعاة النسبية وتقاسم المسؤوليات بين مختلف مكونات المحيط المعني. أما المحاكاة فإنها غالباً ما تعمل خارج هذه الاعتبارات كلها، مما يجعل الإطلاق غالباً على فعلها بما في ذلك تحديد المسؤوليات. ونحن نلاحظ على العموم أن من يهمل التاريخ داخل عمله كثيراً ما يجد نفسه في هامش التاريخ.

لاشك أن الجابري يستحضر، عند استعادته لمحاكاة فترات تاريخية من العمل السياسي، تجارب من التاريخ المعاصر بوجه عام والعربي بوجه خاص. فكم من شعوب سلكت طريق المحاكاة واستعانت بتجارب ناجحة عند شعب آخر (أو شعوب أخرى) ساقى نفسها، من حيث لا تدري إلى أوضاع مأساوية.

إن التخلص من وضع سياسي متعفن يستدعي رصد «القيم المركزية» المغذية للتعفن والقضاء عليها، حتى تتمكن القيم الجديدة من الانفراد بتأسيس الفعل وضبطه وتوجيهه. وفي مثل هذه الحالة ينبني النموذج بالتدريج عبر التسرب إلى مختلف مجالات الفعل محطماً بقايا

النظام الذي قام ضده فيكسب ما نصطلح عليه بالتأصيل ومن ثم الاستمرارية.

أعتقد أننا قد بينا التحول الجديد الذي حصل في فكر الجابري مع كتابته لنقد العقل الأخلاقي بإبرازنا لتغيير موقفه من الفكر الغربي وتوضيحنا لاستبداله للمرجعية داخل التراث العربي الإسلامي. غير أننا حرصنا مع ذلك أن نبرز تميز الجابري داخل توجهه الجديد وفاء للمجهود الفكري الجبار المبذول في خاتمة مشروع نقد العقل العربي، وتنبيهها على التصنيفات المتسرفة التي قد تصدر عن بعض القراء خاصة تلك التصنيفات التي تستهويها الثنائيات. إن عدم إثارة النقاط الأخيرة المتصلة بربط مجال الأخلاق في الفكر العربي الإسلامي بالقرآن والحديث وبالكتابات الأخلاقية التي خرجت عن إطار الحلال والحرام (والتي ركزت على المصلحة العامة في مصدري المرجعية الإسلامية) قد يؤدي بسهولة إلى وضع الجابري بجانب الإسلاميين المعاصرين الذين يستمرون، نتيجة ممارستهم «للسياسة كما هي»، في الدمج بين الأخلاق والفقه، أي تصنيفه في إطار الإسلام السياسي السائد في الوقت الحاضر. خاصة حينما يركز كاتبنا على إثارة بعض المفاهيم وتوضيحها عند من يعتبرهم مساهمين في تأسيس أخلاق

لاشك أن الجابري

يستحضر، عند

استعادته لمحاكاة

فترات تاريخية من

العمل السياسي، تجارب

من التاريخ المعاصر

بوجه عام والعربي

بوجه خاص. فكم من

شعوب سلكت طريق

المحاكاة واستعانت

بتجارب ناجحة عند

شعب آخر (أو شعوب

أخرى) ساقى نفسها،

من حيث لا تدري إلى

أوضاع مأساوية.

عربية إسلامية مثل مفهومي الإحسان والعدل. وأعتقد أن هدف الجابري من نقد العقل الأخلاقي العربي هو المساهمة في فتح آفاق لسياسة إسلامية قصد وضع حد للإسلام السياسي أي الإسلام الذي يحكمه المنطق السياسي. لدي رغبة في تلخيص موقف الجابري في الجملة الآتية، نجح النبي الكريم محمد [في تطبيق سياسة إسلامية قائمة على «السياسة كما ينبغي أن تكون»، ولكن الخلافة تحولت، مع الأسف الشديد، إلى إسلام سياسي، أي أنها طبقت الإسلام بمنطق سياسي (بدل العكس). هناك استثناءات مهمة عبر تاريخ المجتمعات العربية الإسلامية فيما يخص هذه المسألة ولكنها استثناءات انحصرت في مستوى الفكر ويمثلها بالخصوص، وبتفاوت واضح، كل من المحاسبي وابن عبد السلام وابن تيمية].

ربما لن نكون مخطئين إن دفعنا بقراءتنا لكتاب العقل الأخلاقي العربي نحو بعد آخر لا يفصح عنه المؤلف. وأعتقد أن القراءة الحقة تستدعي بالضبط استخراج الأبعاد التي لم يفصح عنها، ولم لا الأبعاد التي لم يفكر فيها. وإن سعينا إلى إثارة مثل هذا البعد فذلك حرصا منا، مرة أخرى، على الوفاء لمضمون الكتاب من جهة، وعلى تقدير وتبيان أهميته من جهة ثانية. لقد أوضحنا فيما سبق

يتضح بعد الانتهاء من

قراءة الكتاب أن

الجابري لم يسلم من

تلقي ما أسمح لنفسي

بتسميته «دهاء

الفلسفة»، بمعنى أن

انشغاله الطويل

بالفلسفة واستيعابه

لمنطقها جعله يبقى

فيلسوبا حتى في

إطار الكتاب الذي

حاول في بعض

فصوله التهجم عليها أو

الابتعاد عنها،

تغيير الجابري لموقفه من الفكر الغربي ومن التراث الإسلامي معا، وذهنا إلى حدود الاستشهاد بأقوال للجابري تسمح باستخلاص نظره سلبا إلى الفلسفة ذاتها. وإن كنا قد عمدنا إلى ذلك فالأمر راجع بالخصوص إلى توضيح الفكرة التي كنا بصدد تطويرها أي التغيير الحاصل في موقف الجابري من الفكر الغربي ومن التراث العربي.

يتضح بعد الانتهاء من قراءة الكتاب أن الجابري لم يسلم من تلقي ما أسمح لنفسي بتسميته «دهاء الفلسفة»، بمعنى أن انشغاله الطويل بالفلسفة واستيعابه لمنطقها جعله يبقى فيلسوبا حتى في إطار الكتاب الذي حاول في بعض فصوله التهجم عليها أو الابتعاد عنها، إنه يسعى بكل وضوح إلى إدراج التأويل في تفسير الدين الإسلامي، ذلك التأويل الذي يسمى داخل الفكر الغربي بالهرمينوتيقا.

لا يشير الجابري في أي فقرة من فقرات الكتاب إلى هذا المجال الفكري الذي نقترح ربطه به. ولكن الفصل الأخير من الكتاب وطريقة تعامل المؤلف مع ممثلي من يصنفهم في اتجاه أسلمة الأخلاق يساعدنا على الانتهاء إلى مثل هذه الخلاصة، لقد وقع اختياره على مجموعة من المفكرين أبرزهم المحاسبي وابن عبد

اعترافاته التي اقتبسنا منها فقرات، بل فعل ذلك أيضا في أنضج كتبه (ص. 540 - 542).

إذا كان هذا القول المستشهد به هنا يخص المحاسبي فإنه ينطبق أيضا على ابن عبد السلام وابن تيمية لأن الكاتب يستعمل في الصفحات المخصصة لهما تعابير كثيرة تفيد استقلاليتهما الفكرية وانطلاقهما مباشرة من القرآن واعتمادهما على تطوير المبادئ والمعاني التي يحملها الكتاب المنزل.

يورد الجابري عند تناوله للمحاسبي، بالإضافة إلى هذه النقاط، مصطلحا آخر يدعم قولنا بميل الجابري إلى الهرمينوتيقا وهو مصطلح الفهم وبالضبط «فهم القرآن». إنه مصطلح أو تعبير استعمله المحاسبي نفسه وجعله عنوانا لأحد كتبه. ويفيد الفهم هنا تقديم المعنى بالتركيز على محتوى النص واعتمادا على الذات. لهذا يستشهد الجابري بقول المحاسبي «لا كشف ولا عرفان وإنما تدبر بالعقل للقرآن» (ص. 252). هكذا تصبح قراءة القرآن ممكنة بالنسبة لكل مفكر مسلم وليس بالنسبة للفقهاء فقط. ستظل شروط القراءة طبعاً واردة دائماً غير أن الشروط المطلوبة لن تكون تلك التي يقتضيها الفقه ويفرضها الفقهاء. وإنما هي الشروط

السلام وابن تيمية. ولعل القاسم المشترك بين هؤلاء هو خروجهم عن دائرة الفقه وعن مجال تفسير الحلال والحرام اعتمادا على نصوص القرآن والحديث في إطار مذهب معين من المذاهب الفقهية المعروفة، نقول خروجهم عن دائرة توضيح القواعد والمساطر للخوض في مسألة المعاني التي تحملها النصوص الدينية وبالخصوص النص القرآني.

إننا نسجل بكل وضوح تأكيد الجابري على الاستقلالية الفكرية التي برهن عليها وتمتع بها المفكرون الثلاثة السالفو الذكر. «خرج المحاسبي، إذن، من صفوف المفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين ليلتحق بهؤلاء الذين لم يكونوا قد أسسوا لهم بعد فرقة ولا طريقة ولا كانوا انتظموا في جماعة، بل كانوا أفرادا غرباء على عصرهم (٠) لم يكن المحاسبي متكلماً وفقهياً مجادلاً ولكنه لم يكن متمذهباً» (٠) وعندما يتعلق الأمر بشخصية علمية مستقلة فإن المتمذهبين لا ينظرون إليها بوصفها كذلك، أعني مستقلة، بل يرون فيها مشروع مذهب جديد منافس خصوصاً عندما تتخذ هذه الشخصية موقفاً نقدياً من الجميع. لا تستثني الأصحاب (٠) وهذا ما حصل مع المحاسبي، فقد انتقد جميع المذاهب والتيارات في عصره سواء منها التي ترفع راية الدين أم التي ترفع رايات أخرى. انتقدهم جميعاً ليس فقط في

«لا كشف ولا عرفان وإنما تدبر بالعقل للقرآن» (ص. 252).
هكذا تصبح قراءة القرآن ممكنة بالنسبة لكل مفكر مسلم وليس بالنسبة للفقهاء فقط. ستظل شروط القراءة طبعاً واردة دائماً غير أن الشروط المطلوبة لن تكون تلك التي يقتضيها الفقه ويفرضها الفقهاء. وإنما هي الشروط

التوفر على الرصيد المعرفي الذي يسمح بإدراك المعنى وتطويره وتعميقه.

في هذا الإطار يندرج في نظرنا دفاع الجابري عن المكانية الإيجابية للعقل في التراث العربي الإسلامي وعن اعتباره أساسا للأخلاق، ونقصد دفاعه عن قدرة العقل على الخوض في تقويم السلوك الإنساني اعتمادا على ذاته. ولعل ما ينبغي تسجيله هنا هو استعراض الجابري لمكانة العقل في التراث العربي الإسلامي بأسره أو، حسب المصطلح المعتمد في كل الكتاب، في مختلف الموروثات المشكلة للفكر العربي الإسلامي. «ومن هنا، يقول الجابري، ذلك الإجماع في الثقافة العربية على اعتبار العقل أساسا للأخلاق. هذا الإجماع يؤسسه المعنى اللغوي لكلمة عقل، ابتداء. هذا فضلا عن أن القرآن دعا العرب إلى استعمال العقل، ليس فقط من أجل استنتاج وجود الله نفسه من خلال مخلوقاته (.) بل أيضا للتمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح والحق والباطل. ولم يكن القرآن ليدعوهم إلى استعمال العقل لو لم يكونوا يعترفون به أداة للمعرفة والتمييز بين الخير والشر الخ» (ص. 104) وإذا كانت هذه القولة خاصة بالموروث العربي الخالص فإن

أساسها يمتد إلى الموروث اليوناني والصوفي (حتى وإن كان هذا التوجه يحل محله القلب) والإسلامي. هكذا نجد الكاتب يستخلص بعد مناقشته للمتكلمين بصدد مسألة العقل يستخلص أن «مرجع الأخلاق وأساسها هو العقل بدون منازع، بل كل ما لا يدخل في مجال «ما تعبد الله به الناس، أي سلوك لم يدخله الشرع في العبادات والمعاملات الراجعة إليها، فهو من مجال العقل وحده» (ص. 117) ثم يختم الجابري التحليل المخصص للعقل عند العرب قائلا: «يمكن القول إن هناك إجماعا في الثقافة العربية الإسلامية على أن العقل هو أساس الأخلاق» (ص. 119).

ألسنا هنا أمام تأسيس تقليد جديد وهو الانطلاق من القرآن والحديث، والبناء اعتمادا على الفلسفة؟ أليس في الموقف بحث عن أنسنة القيم حتى وإن كانت ذات أصل غير إنساني؟ إن القراءة المتأنية للكتاب تجعلنا نجيب بالإيجاب، وتجعل كتاب الجابري بعيدا عن كل إطار معرفي غير إطار الفلسفة.

ألا يسعى الكاتب عبر هذا التوجه إلى تحرير دائرة الفكر من أجل ضبط دائرة السلوك بدل العمل على توضيق الأولى وتمييع الثانية؟

ألسنا هنا أمام تأسيس تقليد جديد وهو الانطلاق من القرآن والحديث، والبناء اعتمادا على الفلسفة؟ أليس في الموقف بحث عن أنسنة القيم حتى وإن كانت ذات أصل غير إنساني؟ إن القراءة المتأنية للكتاب تجعلنا نجيب بالإيجاب، وتجعل كتاب الجابري بعيدا عن كل إطار معرفي غير إطار الفلسفة.

هوامش:

- 1- التشديد من عند الكاتب.
- 2- قلت إننا نقع في الكتاب على المصطلحات وليس المفاهيم فقط. وأبرز مثال يمكن أن أقدمه بهذا الصدد هو مصطلح القارة. يستعمل الجابري كثيرا هذا المصطلح في كتابه الأخير وقد لعب هذا المصطلح دورا كبيرا في تقسيمه للموروثات الثقافية التي انبنى عليها الفكر الأخلاقي العربي إلى خمسة أي إلى عدد القارات التي تتشكل منها الكرة الأرضية. ونحن نعلم أن استعمال المصطلح في مجال الفكر الفلسفي يرجع إلى الفيلسوف الفرنسي الماركسي الذي احتك الجابري بكتابات في مرحلة السبعينات وهو لويس التوسير.
- 3- سنعود إلى تطوير هذه النقطة فيما بعد.
- 4- التشديد من عندنا.
- 5- لتصور الجابري قارنا لهذا الحكم في السبعينات والثمانينات. أقول قارنا فقط وما بالك كاتباً له !



مبارك الشنتوفي

الثابت والمتحوّل بالأطلس الكبير: قبيلة غجدامة نموذجا*

من الأطلس الكبير من تغيرات في
بناها ومؤسساتها ومحيطها البيئي
تحت تأثير عوامل شتى.

وأولى اللوحات التي توفق الباحث
في إقامتها، بعد أن أفرد الفصل الأول
لوضع الإطار الطبيعي والتاريخي
لقبيلة غجدامة، تلك المتصلة
بموضوع العائلة، باعتبارها اللبنة
الأولى في بنية القرابة الاجتماعية.
ولإضاءة هذا الموضوع، استند الباحث
إلى المنظور التاريخي في بداية
رصده لهذا الشكل من القرابة.
فالوثائق العائلية المكتوبة والرواية
الشفاهية وتقييدات الفقهاء تزرخ
بمادة غنية لمعرفة مواقع العائلات
الكبرى وعلاقاتها بالجماعة والمخزن،
كما تساعد على تتبع أشكال
الاستراتيجية التصاهرية وأنماط
امتلاك الأراضي واقتسامها واكتساب
الجاه الخ. ومن أهم المخطوطات التي
وظفها الباحث، مخطوط العجدامي
«التسلي عن الإفاتة بذكر الأحوال

البحث في التحولات التي تلحق
بالبنيات الاجتماعية ورصد عناصر
الاستمرارية في أنماط عيش السكان
وما تبقى في ممارساتهم الثقافية
التقليدية يشكل محورا هاما في
الدراسات الأنثروبولوجية. وفي حالة
المغرب، تسعى ثلة من الباحثين في
هذا المجال، منذ بداية الثمانينات،
إلى الاقتراب من واقع المدن والبوادي
- والانغماس في عمقه أحيانا - وذلك
بتوظيف ما توفره العلوم الإنسانية
من أدوات تحليل ومقاربات وما
خلفته الأنثروبولوجيا الاستعمارية
والمدرسة الأنجلو- ساكسونية من
أعمال لم تفتقد، في جزء هام منها
ولحد الآن، جدواها وإجرائيتها. نلّمس
هذا، بجلاء، عند الباحث علي أمهان
الذي اختار قبيلة غجدامة الواقعة على
مسافة 70 كلم من مراكش لرسم
لوحات دالة عما شهدته هذه المنطقة

البحث في التحولات التي
تلحق بالبنيات
الاجتماعية ورصد
عناصر الاستمرارية في
أنماط عيش السكان وما
تبقى في ممارساتهم
الثقافية التقليدية يشكل
محورا هاما في
الدراسات
الأنثروبولوجية.

* قراءة في كتاب : علي أمهان، التحولات الاجتماعية بالأطلس الكبير، غجدامة
نموذجاً، (بالفرنسية)، منشورات دار علوم الإنسان، باريس، بالاشتراك مع دار
النشر لآبورت، الرباط، سلسلة جنوب البحر الأبيض المتوسط، 1998، 325 ص

والوفاة، الذي يعطي لمحة عن تطور عائلة على امتداد سنوات وتشكيلها لسلالة عرفت أمجادا وفترات من الانحدار والاضمحلال. ولعل ما يثير انتباه القارئ أكثر فأكثر هو توزيع السلطة داخل العائلة الواحدة ووضع المرأة ضمن أفرادها. يبدو أن العجدامية كانت، دوما، تتمتع بحرية التحرك والعمل بفعل العادة السائدة سواء بالمساهمة، عند الضرورة، في تدبير شؤون الجماعة أو بالسماح لها بإبرام عمليات بيع وشراء، ولقد كان للهجرة نحو المدن المغربية أو خارج المغرب مفعول ملموس في تنامي أدوارها الاجتماعية والاقتصادية. علاوة على هذا، مازالت المرأة العجدامية تحتل مكانة رمزية ذات دلالة لكونها الرابطة الأساسية بين أفراد العائلة مهما تباعدوا واختلفت مواقعهم.

الحديث عن العائلة يفضي، بالتتابع، إلى دراسة البنيات الاجتماعية. الباحث حاول، في الفصل الثالث، فك الخيوط المتشابكة التي لفت البناء القبلي قبل حلول نظام الحماية. أكد أن الباحث ظل، عند وصفه لمستويات هذا البناء وتدرجاته، قريبا مما توصلت إليه الأبحاث الاستعمارية من خلاصات وملاحظات. لكن هذا لم يمنعه من تدقيق وتصحيح بعض المعطيات والوقائع التي وردت في هذه الأبحاث

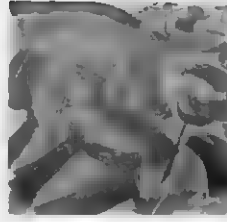
وتقديم خلاصة ما توصل إليه باستغلاله لوثائق وتقييدات تهم القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ومنها كناش القائد الجيلالي الذي سبق لأحمد توفيق في بحثه حول إينولتان أن وظفه.

عن تاريخ قبيلة غجدامة، يذكر الباحث أنها كانت دوما، في الماضي، جزءا من مجموع قبائل هسكورة الشمالية التي اتخذت من دمنات عاصمة لها، وظلت لفترة طويلة، تحت حكم قواد هذه المدينة. ومما يسجله ابن خلدون في «تاريخ البربر» أن غجدامة تعرضت، على عهد المهدي بن تومرت، للتخريب بعد اغتيال أحد قواده - أبو محمد عطية - ومن جهته يذكر حسن الوزان في «وصف إفريقيا» أن الطبيعة الجبلية لقبيلة غجدامة أمنت لسكانها الانفلات من قوة المخزن. إن استقلال القبيلة تجاه هذا الأخير لم تكن مطلقة، إذ كانت، من حين لآخر، تخضع لسلطة المخزن والقبول بتعيين قواد ترتضيهم.

على عكس ما تذهب إليه بعض الدراسات التي ترى في القبيلة المغربية جسدا اجتماعيا جامدا. يخلص الباحث إلى كون هذه الوحدة الترابية لم تكن منسجمة لما يضمن ديمومتها التاريخية، بل كانت مختزقة بتناقضات من أسفلها إلى

عن تاريخ قبيلة
غجدامة، يذكر
الباحث أنها كانت
دوما، في الماضي،
جزءا من مجموع
قبائل هسكورة
الشمالية التي
اتخذت من دمنات
عاصمة لها، وظلت
لفترة طويلة، تحت
حكم قواد هذه
المدينة.

الشرفاء ضمنها مكانة متميزة، فهم ينحدرون من رباطات وزوايا أقيمت منذ القرن السادس عشر بقبيلة غجدامة كرباط الحكيم ورباط أمشكضاض ورباط تامسماط. ولقد شهدت هذه الرباطات والزوايا نموا ملحوظا في القرن الثامن عشر ولا سيما تلك التي ارتبطت بالزاوية الناصرية - زاوية تامكروت. أهم الوظائف التي نهضت بها هذه الزوايا، وظيفة تأمين مرور القوافل التجارية عبر تراب القبيلة، وإقامة الصلح والتراضي بين العائلات والسلالات والمكونات الأخرى للقبيلة. زيادة على هذه الوظيفة التي تلتصق بما يمثله الشرفاء من قداسة واحترام وتوقير، يذكر الباحث أن الزوايا لعبت أدوارا اقتصادية وسياسية. فهي راكمت أملاكا سواء بما تلقته من «صدقات» من لدن من استضافوا الشرفاء وتبنوهم أو بما اشتراه هؤلاء. أما الدور السياسي لهذه الزوايا فيمكن استحضاره من أمثلة عدة. فمعروف عن الزاوية الموجودة بآيت ويسعدن أنها قدمت عوناً للسلطان السعدي المتوكل في صراع مع عميه عبد المالك وأحمد المنصور. كل زاوية من زوايا غجدامة استقطبت خداما ومريدين شكلوا مجموعة بشرية عرفت «بالفقرا». هؤلاء ازداد عددهم وتعاضم دورهم إبان الحماية وبدعم وتشجيع من القائد الكلاوي للطرق



Mutations sociales
dans le Haut Atlas
Liban

ومن الظواهر الاجتماعية التي تعرض الباحث إلى دراستها، ظاهرة تواجد مجموعات بشرية تتمتع بوضع خاص داخل القبيلة. يحتل الشرفاء ضمنها مكانة متميزة، فهم ينحدرون من رباطات وزوايا أقيمت منذ القرن السادس عشر بقبيلة غجدامة كرباط الحكيم ورباط أمشكضاض ورباط تامسماط.

أعلاها، تناقضات تحتد أو تنخفض بحسب درجة الأخطار الخارجية وفي ظل التوازنات بين مختلف مكوناتها. عائلات وسلالات تنتقل من فرقة إلى أخرى وفرق تهاجر من قبيلة لتستقر بأخرى.

لعل الهجرة في الماضي، ولاسيما في ظروف المجاعات والأوبئة أو بفعل الحروب التي تلت نهاية بعض السلالات الحاكمة للمغرب. أحد الأسباب في التحولات التي مست بنية السكان بغجدامة. وهذا ما يمكن استشفافه من حكايات وأساطير بعض المجموعات البشرية: فسلالة آيت تيزكي في كل من آيت إكتل وأدار تنتمي، حسب ما يتداول، إلى قبيلة آيت تيزكي بواويزغت، في حين تدعي سلالة آيت تمسولت انحدارها من جد سوسي ورد من فرقة تمسولت من قبيلة بتارودانت. إن «ذكاء» القبيلة يكمن بالأساس في تدبير هذه التناقضات واستيعاب العناصر البرانية، وذلك بالحفاظ على حد أدنى من اشتغال مؤسساتها من مثل الجماعة ومجلس أعيانها - آيت الأربعين - وتحالفاتها في شكل لفوف (ج لف).

ومن الظواهر الاجتماعية التي تعرض الباحث إلى دراستها، ظاهرة تواجد مجموعات بشرية تتمتع بوضع خاص داخل القبيلة. يحتل

الدينية كالناصرية والقادرية والكتانية والتيجانية. مجموعات بشرية أخرى أتى الباحث على ذكرها استوطنت القبيلة. فالحدادون، (إمزيلن) وقد استقدمهم سكان آيت سعدلي من إادي درعة لم يكونوا يحظون بحق المشاركة في تدبير شؤون الجماعة. كما أنهم حرموا من إمكانية التصاهر مع أفراد القبيلة. إلا أنهم أحيطوا بهالة من التقديس وتم الاعتقاد في قدرتهم على مداواة بعض الأمراض.

تواجدت بقبيلة غجدامة جالية يهودية منذ القدم وتوزعت على ملاحين: ملاح بفرقة آيت الحكيم ضم، حسب إحصاء 1938، 119 يهوديا وآخر بتاغزوت قدر سكانه حسب نفس الإحصاء بـ 153. لقد تم استقدام هذه الجالية المقيمة بفرقة آيت سعدلي من واويزغت لتشغيلهم صناعات تقليديين وتجاراً. هذه المجموعة البشرية كانت تخضع لقوانين خاصة بها. ويبدو أن أفراداً من هذه الجالية ظلوا، حتى بعد رحيلهم، على اتصال بأفراد من القبيلة.

لأمد طويل. ظلت القبيلة تحظى باستقلالية وتوازن نسبي في تدبير شؤونها. ولهذا الغرض، حافظت، رغم كل التقلبات في مواقع السلطة المحلية للعائلات والسلالات، على أداة أساسية تتجسد في مؤسسة «اجماعة». هذه الأخيرة نهضت، قبل حلول نظام

لأمد طويل، ظلت القبيلة تحظى باستقلالية وتوازن نسبي في تدبير شؤونها. ولهذا الغرض، حافظت،

رغم كل التقلبات في مواقع السلطة المحلية للعائلات والسلالات، على أداة أساسية تتجسد في مؤسسة «اجماعة». هذه الأخيرة نهضت، قبل حلول نظام الحماية، بمسؤوليات ومهام

الحماية، بمسؤوليات ومهام من قبيل تأطير المساجد وتنظيم الحفلات والمواسم والسهر على توزيع حصص الري وإصلاح القنوات وعلى حراسة المزروعات والغلات. ولهذه المهام يعين مقدمون وضمان وخلائف يتمتعون بحسن السيرة والكفاءة. ولعل ما يميز «اجماعة» هو أنها تهم مجموعات سكانية محدودة العدد في شكل «مواضع» (دواوير). كما أن علاقاتها مع «اجماعات» الأخرى تكتسي طابعاً أفقياً.

هذه الاستقلالية لن تدوم طويلاً بعد أن شملت سلطة الحماية هذه القبيلة. وهذا يشكل أول التحولات التي نجح الباحث في رصد وقوعها على البنيات القبلية التقليدية. فمذ سنة 1917 بدأت غجدامة تفتقد استقلالها بإلحاقها بمكتب الشؤون الأهلية بدمنات وبعد ذلك بمكتب سيدي رحال. وفي سنة 1929 أصبحت تحت مراقبة مكتب آيت أورير. لكن مما زاد من استياء الغجداميين من سلطة الحماية هو إقدامها على توسيع قبضة الكلاويين على القبيلة بتعيين خلائف لهم - 12 خليفة من سنة 1925 إلى سنة 1944 - ومن ضمنهم ابنان لباشا مراکش.

إن افتقاد غجدامة للاستقلال تجسد في عدة إجراءات اقتصادية واجتماعية. ولعل أهم هذه الإجراءات

والذي قلص من تحرك القبيلة ومن مواردها هو انتقال جل الأملاك الجماعية من تدبير جماعات «المواضع» والفرق إلى أملاك المخزن (الدولة). فالغابات التي كانت تشكل مراعي للقبيلة ومصدرا للحطب ومواد البناء أصبح استغلالها مقننا وتحت حراسة المراقبين الغابويين. ومازال المسنون يتذكرون ويتداولون حكايات عن الحارسين «كيط» و«كاريس» اللذين كانا يعاملان السكان بقساوة بإثقال كاهلهم بالذعائر أو أحيانا بسجنهم. إجراء آخر مس السكان وجماعاتهم يهم الشؤون الدينية للقبيلة. فبعد أن تكلف باشا مراکش الحاج التهامي الكلاوي، بإحصاء أملاك الحبوس في كل من دمنات، فطواكة، توغانة وغجدامة، تم تجريد مساجد هذه الأخيرة وزواياها من الأملاك المحبسة عليها وأصبحت مدبرة من نظارة مراکش. وكان من نتائج هذا الإجراء تضاؤل هالة القدسية التي أحيطت بهذه الأملاك وتدهور وضعية المساجد والزوايا من الناحية الاقتصادية.

وكما ساد في كل قبائل المغرب، أجبر سكان غجدامة على النهوض بكلفات وأعمال. ولأن بعض قبائل الأطلس الكبير لم تكن قد أخضعت و«هدئت»، عملت سلطة الحماية وأداتها القائد التهامي الكلاوي بامتياز على تنظيم الغجداميين في «حركات»

لنقمعها. وهكذا ساهم هؤلاء في الهجوم على أحنصال حيث قتل ابن الكلاوي سي عبد المالك وذلك في سنة 1917. وستان بعد ذلك، جندت قبيلة غجدامة للمشاركة في عمليات «التهدة» بالجهة الجنوبية للأطلس الكبير، بدءا من سكتانة إلى حدود وادي درعة. علاوة على كل هذا، سخر الغجداميون في كلفات وأعمال إجبارية سواء ببناء الطرق وشق المسالك وإعادة التشجير أم بالعمل لثلاثة إلى ثمانية أيام بدون أجر لصالح الكلاوي في ثلاث فترات من السنة. هذا الأخير كان يعفي الشرفاء والطلبة والفقهاء وعائلات من تجندوا في الجيش الفرنسي من هذا الإجراء. ضرائب على الأملاك و«الأذن» وهدايا تقدم للكلاوي و«الفريضات» و«المونة» و«السُّخرات» وما يستخلصه القضاة من المتقاضين، كلها إجراءات ساهمت في الحد من حرية السكان وبالتالي في إقبار أهم المؤسسات المحلية.

ولتسهيل إحكام قبضة السلطات الاستعمارية وممثليها، لجأت إدارة الحماية إلى تغيير الهيكلة التنظيمية للقبيلة باعتماد مؤسسة الدّوار لتحل محل «الموضع» وجماعته. والهدف من إحداث هذه الوحدة الإدارية هو فك الروابط العائلية والتحالفات القائمة بين سلالات مختلف «المواضع» والفرق (ج فرقة) كما أنه

إن افتقاد غجدامة للاستقلال تجسد في عدة إجراءات اقتصادية واجتماعية. ولعل أهم هذه الإجراءات والذي قلص من تحرك القبيلة ومن مواردها هو انتقال جل الأملاك الجماعية من تدبير جماعات «المواضع» والفرق إلى أملاك المخزن (الدولة).

لم يراع في قيام هذه الدواوير إلا قربها الجغرافي أو عدد «كوانينها» ولم تأخذ بعين الاعتبار الانتماءات المختلفة للإثنيات.

على المستوى الفلاحي، سعت سلطات الحماية إلى إدخال أساليب حديثة لضمان تحول في نمط عيش السكان، وذلك من قبيل توزيع جرارات على بعض الأعيان ومدهم بالحبوب المنتقة للزراعة وأغراس الزيتون والأسمدة، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل لعدم تحمس السكان لتبني هذه التحديثات خوفا من ترامي السلطة الاستعمارية وأعوانها على أراضيهم.

ثقافيا، ما استرعى انتباه الباحث هو، بالدرجة الأولى، تنامي أدوار الزوايا والطرق الدينية التي احتضنتها. وقد جذبت الزاوية التيجانية إليها معظم الأعيان منذ الثلاثينات، ومما يذكره الباحث أن خدام هذه الزاوية ومريديها سرعان ما غيروا تسابيحهم ببطاقات حزب الاستقلال بمجرد انتهاء عهد الحماية، كما تعرض المتشددون منهم للإهانة والقتل أحيانا.

لأن قبيلة غجدامة عانت كثيرا من سطوة كلاوة، فهي اضطرت للمساهمة في عمليات لم تشرف سكانها. خلال سنتين، أقدم الكلاوي وخلائفه على تنظيم حملات تمشيط في الأسواق

والقرى لتجنيد غجداميين في ميليشياته المشهورة التي توجهت لمراكش لقمع المظاهرات ولحماية السلطان بن عرفة خلال جولاته وتحركاته. وكان للطلبة الذين يتابعون دراساتهم بجامعة بن يوسف بمراكش دور في إشاعة أفكار الوطنيين وتنظيم المقاومة في أنحاء المغرب.

في الجزء الثالث من دراسته، اهتم الباحث أساسا برصد التحولات الناجمة عن انفتاح القبيلة على محيطها الخارجي في ظروف استقلال المغرب، كما سعى إلى تلمس مدى صمود بعض المؤسسات والطبقات الثقافية في وجه المتغيرات الطارئة على البنيان القبلي. بمجرد الإعلان عن استقلال البلاد، تنفس الغجداميون الصعداء بتخلصهم، أولا، من سلطة كلاوة التي دامت ما يقرب من أربعين سنة. وإن أمكن للقبيلة ومكوناتها استرداد جزء من حريتها بإنعاش مؤسسة «أجماعة» لتدبير شؤونها، فهي سرعان ما شعرت بخيبة أمل بوقوعها تحت هيمنة حزب الاستقلال الذي مارس أعضاؤه تعسفات في شكل فرض اشتراكات حزبية شهرية وعمليات جمع جلود الأضحيات والأعشار واستلام ما يدره قطع الأشجار بالمقابر القبليّة، إحدى الكوارث الإيكولوجية التي لازالت عالقة بذاكرة السكان. ومن جانب ثانٍ فإن عناصر جيش التحرير تعاملت

في الجزء الثالث من دراسته، اهتم الباحث أساسا برصد التحولات الناجمة عن انفتاح القبيلة على محيطها الخارجي في ظروف استقلال المغرب، كما سعى إلى تلمس مدى صمود بعض المؤسسات والطبقات الثقافية في وجه المتغيرات الطارئة على البنيان القبلي.

يتقاضون أجورا محترمة من لدن الدولة، كالمقدمين والشيوخ.

التحولات الملموسة التي دشنها الاستقلال تجلت أساسا على مستوى التمدرس وفي حركة الهجرة وفي قيام مراكز اقتصادية وإدارية كان لها وقع مؤثر على حياة قبيلة غجدامة منذ بداية السبعينات. أول مدرسة عرفتها القبيلة بنيت سنة 1954 بدوار أعبادو إلا أنها لم تفتح أبوابها إلا سنة 1956. بهذا الدوار سجلت السنة الدراسية 1957 - 1958 تمدرس أربعين تلميذا أمكن لهم بعد 4 سنوات التحدث بالدارجة العربية وقراءة القرآن وفهمه بشكل أحسن ممن تلقوا تعليما تقليديا، واكتساب معارف حديثة. ولا أدل على ذلك من كون 18 تلميذا من ضمن 22 تفوقوا في اجتياز امتحان شهادة الدراسات الابتدائية. واعتبارا للصعوبات المادية لجل العائلات، لم يحظ سوى بعض التلاميذ بمتابعة دراستهم بإعدادية ابن الحجاج بقرية سيدي رحال. ثلاثة من هؤلاء تمكنوا من ولوج الثانوية. وبعد إعطاء صورة عن مسار الدفعات الأولى من المتخرجين من مدرسة أعبادو، يخلص الباحث إلى كون عائلات الأعيان هي التي استفادت من المرحلة الأولى لحركة التمدرس بغجدامة، كما أن المدرسة مثلت إحدى البوابات التي أفضت إلى توسيع رقعة الهجرة بكل أشكالها.

أكد أن الهجرة اتخذت أشكالا

بقساوة مع بعض الأعيان حيث استولت بدعوى البحث عن الأسلحة، على أموالهم وحليهم من الذهب والفضة. ولعل عودة الزعماء والمقدمين من العهد البائد إلى ممارسة نفوذ ومهام في الخريطة الإدارية الجديدة وتعيين بعض المتعاونين مع سلطة الحماية قوادا وخلائف، كل هذا كَوّن لدى الغجداميين شعورا بأن علاقاتهم بالمخزن لم يطرأ عليها تحول ملموس. وفي هذا المضمار يقيم الباحث نوعا من التوازي بين ما شهدته بعض المدن التاريخية (فاس، مراكش) وما عاشته القبائل إبان السنوات الأولى من الاستقلال.

التحولات الملموسة التي دشنها الاستقلال تجلت أساسا على مستوى التمدرس وفي حركة الهجرة وفي قيام مراكز اقتصادية وإدارية كان لها وقع مؤثر على حياة قبيلة غجدامة منذ بداية السبعينات.

فيما يتعلق بالتنظيم الإداري المحدث. يسجل الباحث أنه تم الحفاظ، بشكل عام، على الهيكلة التي أقامتها سلطة الحماية. فلنفس الغرض تم فك لحمة الجماعات وإضعاف تحالفات السلاطات. لم يتم التخلي عن الدوار كوحدة إدارية أساسية في البنيان القبلي رغم إقدام السلطات المركزية على إنشاء الجماعة القروية سنة 1958. ولضبط القبيلة ومراقبتها عن كثب، عينت السلطة 16 مقدا على الدواوير التي تشكل الفرق الخمس للقبيلة التي يحكمها قائد وخليفة له. بعض الممارسات التي سادت عهد الحماية استمرت في تصرفات بعض أعوان الإدارة ولاسيما أولئك الذين لا

ومسارات قبل بدء حركة التمدرس، فقد اعتاد الغجداميون التوجه خارج قبيلتهم للعمل مدة ثلاثة أو أربعة أسابيع من السنة خلال موسم الحصاد بسهولة الحوز وتادلا. هذه الهجرة الموسمية كانت تضمن لأصحابها دخلا لا يستهان به وتساهم في تغيير نمط عيشهم وتصوراتهم عن المستجديات في أكثر من ميدان. أما الهجرة الدائمة فظهورها بدأ مع تجنيد أفراد من القبيلة في صفوف الجيش الفرنسي لكنها ستعرف تناميا انطلاقا من الخمسينات ولاسيما بفضل تحسن وسائل النقل الرابطة بين غجدامة ومراكش. لكن قيام أوراش كبرى بالدار البيضاء مثل نقطة انجذاب لعدد كبير من الغجداميين تحول جزء منهم إلى مشرفين على الأوراش ورؤساء فرق العمل ومقاولين في قطاع البناء. بناء سد آيت العادل من سنة 1968 إلى سنة 1970 ساهم، من جهته، في تزايد وتيرة الهجرة الدائمة نحو المدينة والجهات التي شهدت إنجاز أشغال كبرى (سدود، موانئ، ومطارات). وهذا ما أهلهم لاكتساب مهارات عديدة في أكثر من مهنة.

بالنسبة للهجرة خارج المغرب، ولاسيما نحو فرنسا، فهي لم تبدأ إلا في سنة 1967، وبالضبط عندما تمكن طالب مهاجر من إقناع أحد المشغلين الفرنسيين باستقدام أفراد من دوار أعبادو، وإلى حدود سنة

1972، توجه 60 فردا من آيت سعدلي لفرنسا. وقدر الباحث، فترة إنجازه لدراسته، حجم جالية غجدامة المقيمة بهذا البلد ب 300 فرد.

للهجرة الدائمة آثار اجتماعية واقتصادية ملموسة. فجل العائلات، إن لم يكن كلها، ترتبط بفرد من أفرادها المهاجرين. وبالنسبة لمجموع القبيلة، قدر، في سنة 1989، عدد المهاجرين - داخل المغرب وخارجه - ب 3721 من ضمن 18433 فردا أي ما يمثل أكثر من 20 ٪ من سكان القبيلة.

تحولت الهجرة الدائمة، في ظرف ثلاثين سنة، إلى مورد اقتصادي أساسي لسكان القبيلة. فبفضلها تنامت وتنوعت أنشطة اقتصادية وتطورت حركة النقل وتوسعت الشبكة التجارية وأمكن لبعض الأسواق أو التجمعات السكنية الارتقاء إلى مصاف مراكز تجارية وإدارية من قبيل سوق الأربعاء.

كما هو الشأن بالنسبة لبعض جهات المغرب، شهدت منطقة مراكش في السبعينات، حضورا هاما للدولة في شكل استثمارات في البنى التحتية. فالشروع في بناء سد آيت العادل دل على تحول في خريطة قبيلة غجدامة. فبعد أن تم الانتهاء من هذا المشروع، اضطر العمال الذين اكتسبوا تكوينا عاليا خلال

تحولت الهجرة الدائمة، في ظرف ثلاثين سنة، إلى مورد اقتصادي أساسي لسكان القبيلة. فبفضلها تنامت وتنوعت أنشطة اقتصادية وتطورت حركة النقل وتوسعت الشبكة التجارية وأمكن لبعض الأسواق أو التجمعات السكنية الارتقاء إلى مصاف مراكز تجارية وإدارية من قبيل سوق الأربعاء.

خمس سنوات من الشغل، إلى الهجرة نحو مناطق أخرى للحفاظ على نمط عيش عائلاتهم الجديد.

ومن الآثار التي ترتبت عن بناء سد آيت العادل تنقيل أكثر من خمسين عائلة من آيت العادل وآيت مسعود وتيمنوتين لتوطينهم بمكان يبعد عن السد بعشرين كلم، وتحديدًا بالعطاوية بوسط قبيلة السراغنة. وبالمقابل أمكن لكل واحدة من هذه العائلات الحصول على دار للسكنى و12 هكتاراً من الأرض في إطار تعاونية تحت وصاية مصالح المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي. السنوات الخمس الأولى من توطينهم شكلت بالنسبة لهؤلاء المهجرين فترة عصيبة لصعوبة تأقلمهم وتراكم الديون عند البعض منهم. لكن أبناءهم بدأوا في تحسين مردودية هذه الأراضي. ولقد كان لتطور مركز العطاوية بفعل الحركة التجارية والبناء أن شرع في استقطاب أفراد آخرين من نفس العائلات ولاسيما المهاجرين منهم نظراً لما يوفره من مصالح أساسية (البريد، الهاتف، النقل).

من أبرز التحولات التي اعتنى الباحث برصدها، تلك التي مست النظام البيئي للمجال القبلي. فمنذ السنوات الأولى للاستقلال، تعرض الفضاء الغابوي لأكبر عملية إتلاف حيث تنافست عائلات الأعيان لاقتطاع أجزاء منه قصد تحويلها إلى أراض

فلاحية بتواطؤ الحراس الغابويين. إلى حدود الستينات، شكلت الغابات 30% من مجموع التراب القبلي إلا أنها اليوم لا تتجاوز 12% من هذا المجموع.

الفصول 13, 14, 15, 16, و17 (من ص 191 إلى ص 247) لا تقل أهمية وغنى عن سابقتها لأنها تحكي عن أساليب الاستغلال الفلاحي وأنماطه وعن بنية العقار. هذه الفصول حاولت تقريب القارئ، بدءاً من أشكال السكن السائدة بالمنطقة المدروسة وأنواع تأثيث المنازل وفنون زخرفتها، وانتهاءً بمختلف الألبسة وما يرافقها عند الرجال والنساء وما أحدثته التحولات في هذا المجال، من تأثير على نمط عيش السكان.

حتى الأسماء التي سادت في الماضي لم تنج من التغيرات والتعديلات.

إن تعريب الأسماء العائلية والشخصية أمر عملت مكاتب الحالة المدنية على إقراره أحياناً، لكن مفعول التمدرس والهجرة حد من الأسباب الأساسية في تزايد وتيرة التعريب الذي أفقد القبيلة الرأسمال الرمزي الذي يمثله الانتماء إلى سلالة أو إثنية. ولقد ذهب الباحث إلى حد القول إن تحديث الأسماء وتعريبها لهو أشرس من عنف المخزن القديم. إن الفصل 18 الذي أفرده الباحث لإثارة هذه المسألة يجعل القارئ ينتظر منه

من أبرز التحولات التي اعتنى الباحث برصدها، تلك التي مست النظام البيئي للمجال القبلي. فمنذ السنوات الأولى للاستقلال، تعرض الفضاء الغابوي لأكبر عملية إتلاف حيث

تنافست عائلات الأعيان لاقتطاع أجزاء منه قصد تحويلها إلى

أراض فلاحية بتواطؤ الحراس الغابويين.

التفصيل في هذا التحول الثقافي الذي يتم التغافل عن الخوض في تشابكاته وتشعباته. الفصل 19 الذي اختتم به الباحث دراسته يهتم الطقوس الاحتفالية التي تكتسي في هذه الجهة من المغرب أكثر من دلالة لكونها، على ما يبدو، تلحم نسيج القبيلة والسلالات وتذكرها بماض أخذ يبتعد أكثر فأكثر في تلابيب الزمن.

بعد الجهد الهائل الذي بذله الباحث علي أمهان بغية الإلمام «بشمولية» واقع قبيلة بالأطلس الكبير، تستوقفنا خلاصة دراسته. خلاصة في شكل تساؤل عن مدى التحولات وآثارها الفعلية على نمط عيش السكان والبنىات التقليدية. لحد الآن، يلاحظ الباحث أنه لم يتم التخلي، بالمطلق، عن شبكة علاقات القرابة بين العائلات والسلالات. فهذه العلاقات بدأت تنمو وتحيا في السنوات الأخيرة لما تمثله من رهانات في سلوكات السلطات العمومية والأحزاب السياسية والجمعيات المحلية. ومن جهة أخرى، تبدو كل الآثار الإيجابية التي خلفتها الهجرة وحركة التمدرس غير كافية لتفعيل تنمية تشمل، بالدرجة الأولى، وسائل الإنتاج المحلية دون إحداث اختلالات في النظام البيئي لفجدة. أسئلة عدة تثيرها دراسة علي أمهان بمجرد الانتهاء من قراءتها ومنها بالخصوص تلك المتعلقة بالمقاربات

التي وظفها الباحث. فالرغبة في تتبع مراحل التحول وأشكاله ورصدها قادته إلى توظيف التاريخ وعلم الاجتماع والجغرافية البشرية وعلم البيئة والآداب... بما يتلاءم مع موضوعات دراسته. إلا أن هذا لم يجعله يلتزم، إلى حد ما، بالتمايزات التي تحدّد مجال الأنثروبولوجيا (نفس الملاحظة يمكن إيرادها في شأن بعض الأبحاث التي أنجزت في شعبي التاريخ وعلم الاجتماع بالجامعات المغربية). ولعل تعدد مجال اهتمام الباحث علي أمهان كما يدل على ذلك «الاستيطان والحياة اليومية بإحدى قرى الأطلس الكبير المغربي، أعبادو نموذجاً»، «من العلامة إلى الصورة: الزربية المغربية» ومقالاته حول العمارة والتراث المغربي، هذا التعدد أغنى دراسته بتفاصيل شكلت مصدر تشويق وفضول لدى القارئ لاكتشاف عالم الأطلس الكبير دون السقوط في غرابة المكان. القارئ يجد في خاتمة الكتاب جرداً للمراجع التي اعتمدها الباحث وقاموساً للمفردات الأمازيغية والعربية ومقابلها باللغة الفرنسية ولائحة بالاستعمالات اللغوية السائدة بفجدة ومجموعة الأسماء التي ورد ذكرها. الصور بالألوان أو بالأبيض والأسود التي ثبتها الباحث في بداية الكتاب ومنتصفه لا تخلو من متعة للعين وتستحق أن تنشر في ألبوم مستقل*.

بعد الجهد الهائل
الذي بذله الباحث
علي أمهان بغية
الإلمام «بشمولية»
واقع قبيلة بالأطلس
الكبير، تستوقفنا
خلاصة دراسته.
خلاصة في شكل
تساؤل عن مدى
التحولات وآثارها
الفعلية على نمط
عيش السكان والبنىات
التقليدية.

لعنوان الأصلي للكتاب :

Ali Amahan, Mutations sociales dans LE Haut Atlas : Les Ghoujdama, Editions De la Maison De Sciences de l'Homme, Paris, Editions La Porte, Rabat 1998, 325 p.



محمد جادور

الذاكرة وبناء الخطاب التاريخي

(معركة الملوك الثلاثة)

في مؤلفها تحت عنوان :

“ Fables de la mémoire :la glorieuse bataille des trois rois ”

والذي نشر سنة 1992 ضمن سلسلة
L'univers Historique ، ذكرت
Lucette Valensi أن معركة الملوك
الثلاثة بقيت محفورة في الذاكرة
لأنها كانت تمثل مواجهة بين الإسلام
والمسيحية من جهة وبين انتصار
ساحق وهزيمة نكراء من جهة أخرى.

استهلت الكاتبة عملها بتقديم
استبيان محدد كفيل برسم معالم
دراستها، تجسدت صياغته فيما يلي :
ما هي الذكريات المتبقية حول
معركة من هذا القبيل؟ وما الذي
يحتفظ به الطرف المنتصر؟ وكيف يتم
نسيان هزيمة مرة؟ ومن ينقل
الذكريات حينما تختفي الشواهد
الأخيرة؟ ولماذا؟

فالمؤلفة حاولت تتبع خيط
الذكرى - من 1578 إلى اليوم - لدى

خلف المنتصرين والمنهزمين، من
خلال التساؤل عن طرق استخدام
الفئات الاجتماعية للذاكرة، وبالتالي
عن علاقات هذه الطرق بالتاريخ.

لاحظت المؤلفة لأول وهلة أن
هذه الذكريات متنافرة، ففي الوقت
الذي رزح فيه البرتغال تحت وطأة
الحداد، وتحت أمل عودة منتطرة
للملك سباستيان، احتفل في المغرب
بحلاوة النصر.

انطلقت L. Valensi من الأسئلة
التي يثيرها هذا التنافر فاعتبرت أن
الأمر يتعلق أولاً بذاكرة "متفجرة"
éclatée "لأن كل مجتمع شهد فترات
مأساوية، أو قطيعة، أو أزمات فرضت
مراجعة الذات، ودراسة النكبة
المعيشة. ومع مرور الزمن حدث
انحراف في الذاكرة، فتم إما كتمان
الذكريات، أو تضخيمها تحت تأثير
الكتابات، والشهادات المتجانسة أو
المحرفة بفعل إقحام معطيات

لاحظت المؤلفة لأول

وهلة أن هذه الذكريات

متنافرة، ففي الوقت

الذي رزح فيه البرتغال

تحت وطأة الحداد،

وتحت أمل عودة منتطرة

للملك سباستيان، احتفل

في المغرب بحلاوة

النصر.

أجنبية. إذن فالهدف يكمن في تكوين ذاكرة جماعية وفي صياغة نوع من الوعي التاريخي.

إن الذاكرة تعانق الوقائع ذات الصلة بالموضوع، بينما يكون النسيان مصير الأحداث غير الدالة. غير أنه تؤثر في زوج الذاكرة/النسيان - بالإضافة إلى إنتاج الذكرى، سيرورات فعالة تتمثل بالخصوص في الصمت، الرقابة، الشمس، الكبت، فقد الذاكرة، الإنكار، والكذب.

من هنا تنطلق فرضية قراءة هذا الكتاب، لأن الذاكرة الجماعية تنبثق بنفس الطريقة، ولذا حاولت الكاتبة اختبار صلاحية هذه الإشكالية من خلال تحديد مختلف العمليات التي تعقب حدثا حاسما ونكبة جماعية: «يتعلق الأمر إذن بتتبع كيفية تعامل المنتصرين والمنهزمين مع الحدث، وبالبحث عن الآثار التي خلفها لدى المعنيين» (ص 17).

بني تصميم الكتاب على ثلاثة محاور أولها مضمون الذكريات لدى الجانبين أو النظرة التأويلية المختلفة لنفس التاريخ: ماذا نحفظ به من المعركة؟ وما هي الدلالة التي نضفي عليها بالنظر إلى أهمية هذا الحدث؟ وثانيهما يتعلق بوسائل إنتاج ونقل الذكرى مادام نفس التاريخ تعاد صياغته بأشكال مختلفة بواسطة نصوص أو سلوكات جماعية، أو عن

طريق طقوس مدنية أو دينية أو عبر وسائل صوتية وأيقونية Jeconographiques. أما المحور الثالث فيرتبط بالتعدد الصوتي Polyphonie من خلال طرح الأسئلة التالية: من ينطق بكلمات السر؟ ولأي أطراف ترسل؟

عدة أسئلة تبقى معلقة لأنه كان هناك «من يسمعون بصمت، ومن يهمسون بالأخبار الرائجة، ومن يقرأون حكايات دون أن يقدموا لنا تعليقاتهم».

يعالج الفصل الأول المعنون بـ «همسات، نواح، صمت» الرقابة الرسمية بالبرتغال بعد الهزيمة، ثم بداية تمظهرات مشاعر الحزن التي تباينت حسب الوضعية الاجتماعية.

فكل الروايات المنشورة باللغات الأجنبية عن المعركة لم تكن في صالح البرتغاليين الذين التزم بعضهم الصمت وتمادى في إخفاء الحدث المسبب للنكبة، ووجد صعوبة في التعبير عن الحقيقة التي لا تطاق، في حين أنكر البعض الآخر الذكرى التي اعتبرت مؤشرا للشؤم.

نجد أنفسنا إذن أمام حالة «رفض الذاكرة» (Refus de mémoire) ، ولكن أيضا حالة «رفض للتصديق» (refus de croire) يعقب هذين الصنفين من الرفض بناء الزمن المرتبط بالذاكرة (الذاكرة الجماعية).

إن الذاكرة تعانق الوقائع ذات الصلة بالموضوع، بينما يكون النسيان مصير الأحداث غير الدالة. غير أنه تؤثر في زوج الذاكرة/النسيان - بالإضافة إلى إنتاج الذكرى، سيرورات فعالة تتمثل بالخصوص في الصمت، الرقابة، الشمس، الكبت، فقد الذاكرة، الإنكار، والكذب.

على حساب عبد الملك الذي ظل اسمه متداولاً في النصوص المسيحية.

خصصت المؤلفة الفصل الثالث لـ "خيط الذكرى" الذي انتقل بواسطة المثقفين الذين عظموا دور أحمد المنصور وأطبّقوا الصمت على عبد الملك وعلى المحاربين، لكنها أشارت إلى كون المجهول السعدي قدم لوحة لا تخدم أحمد المنصور، فأفرز تاريخاً مفروغاً في قالب مسرحي أي فلكلوريا قائماً على الذاكرة المكتوبة والذاكرة الشفوية، وهو نفس التاريخ الذي دونه الإفرائي حينما أرخ للمعركة من خلال إقحام الخيال، والعجب، وحتى السخرية، وكأن الأمر يتعلق بذاكرة فلكلورية.

أما القادري فاعتبر أن المعركة تحمل في طياتها عدة روايات احتفظ منها بصور نكبة المتوكل، وتسميم عبد الملك وإعدام القائد رضوان.

وبعد قرنين من الزمن أفرد أبو القاسم الزياني وصفاً مطلعاً للمعركة التي تطرق إليها أكنسوس بإيجاز في إحدى صفحات مؤلفه «الجيش». بينما راهن الناصري على المعالجة الموسوعية، فشدد على الإسلام وعلى انتصار ملة التوحيد وأورد روايات عدة إخباريين وعلق عليها.

ومما سبق حاولت L. Valensi تبیان كيفية انتقال ذكرى المعركة



يتطرق الفصل الثاني للذكريات العابرة والذاكرة الراهنة، فبالنسبة للمغاربة تبقى ذكريات المعركة ملموسة، غنيمة ضخمة، أسرى بالآلاف، لكنها ذكريات عابرة لأنه لم يتم تشييد أي بناء أو تنظيم أي احتفال لتخليد النصر، ففي رأي L. Valensi إنه «مغرب متكشف حيث لا يسمح إلا باستعمال الكلمات» كما هو حال لقب «المنصور» الذي أطلق على السلطان.

بالمقابل كان لهذه المعركة أصداء بعيدة على الخصوص في المشرق، فالجنابي أورد تأويلاً خاصاً للحدث، لكن روايته لا تغذي الذاكرة الجماعية.

إن بناء الذاكرة ارتكز منذ ذلك الحين - خصوصاً في المغرب - على الذاكرة الراهنة أو الآنية التي تتخذ من الإسناد قاعدة لها، وفي هذا الإطار تستشهد المؤلفة بالخفاجي، ومحمد الفشتالي، وابن القاضي الذي حول التاريخ إلى أسطورة من خلال تشبيه الحدث بمعركة بدر، في حين اهتم المنجور في فهرسه بالسلطان الذي أضحى يلازم الذاكرة، أما عبد العزيز الفشتالي فاعتبر المعركة انتصاراً على مشكل ولاية العهد، وعلى التمردات، وعلى الكفار، ففي نسقه السردى الواسع يمكن أن نرصد عدة مواقف، تشكيل «ذاكرة رسمية» لفائدة أحمد المنصور مع التأكيد على شرعية سلطته مقارنة بالعثمانيين، وتمجيده

إن بناء الذاكرة ارتكز منذ ذلك الحين - خصوصاً في المغرب - على الذاكرة الراهنة أو الآنية التي تتخذ من الإسناد قاعدة لها، وفي هذا الإطار تستشهد المؤلفة بالخفاجي، ومحمد الفشتالي، وابن القاضي الذي حول التاريخ إلى أسطورة من خلال تشبيه الحدث بمعركة بدر

من القرن XVI إلى القرن XIX بواسطة المخطوطات التي استحوذت على الحيز الأكبر من هذه العملية بالرغم من احتضانها لبعض المقاطع من التاريخ الشفوي، وبذلك استنتجت أن التاريخ الحديث لا تختزنه الذاكرة إلا إذا أصبح أسطوريا وخرافيا.

إن المغزى الذي تحمله هذه الروايات يعكس مضمونا كونيا، فاتحاد المؤمنين يضمن النصر ضد العدو المشترك، ومعركة وادي المخازن خير مثال على ذلك، لأنها ليست حاضرة في الذاكرة فقط، بل تجسد رمزا لانتصار الإسلام على المسيحية ودليلا على سمو الديانة الأولى على الثانية، ومن هنا يظهر لنا كيف يمكن توظيف حدث تاريخي معين كأساس لبرهنة سياسية ودينية، فكل الحكايات والنصوص تشهد أنه منذ 4 غشت 1578 احتفظ بذكرى النصر في المغرب.

أكدت المؤلفة في الفصل الرابع أن الجماعات اليهودية بالمغرب كانت أول من احتفل بالمعركة لأنها رأت في قدوم جيش سباستيان تهديدا بالاعتناق القسري للمسيحية، وبالمثل أمام محاكم التفتيش، وبذلك شكلت معركة الملوك الثلاثة وسيلة للخلاص بالنسبة لتلك الجماعات.

يبين الفصل الخامس أن معركة 4

غشت شكلت دمارا بالنسبة للبرتغاليين الذين لم يصدقوا وفاة سباستيان، وظلوا يعيشون تحت وطأة عودة ثلاثة من الملوك الأشباه غير الحقيقيين، والذين يبدو أنهم استجابوا لانتظار شعبي عميق.

ينفتح الفصل السادس على البناء الميتولوجي الذي أحاط بالمعركة في البرتغال، فالعديد من الإشارات تقيم الدليل على أن الهزيمة كانت قدرا من الله لإنزال العقاب بالبلاد، مما يثبت أن تحول التاريخ إلى خرافات يزيد من قدرة هذه الأخيرة على أن تبقى راسخة في الذاكرة.

«ولتصحيح الوضع الذي لا يشفي الغليل» يتم استحضار نصوص Orvique لسنة 1139م بهدف محو مآسي الحاضر وطمسها، وإخفاء الزمن التاريخي وراء زمن ميتولوجي وطني.

أفردت الفصول (7- 8 - 9)، إلى الأبعاد المختلفة لوفاة سباستيان أو ما أطلقت عليه المؤلفة «السباستيانية» "Sebastianisme"، لأنه بالرغم من الهزيمة المحرقة في إفريقيا ظل الحلم الاستعماري دائما حيا. وأضحى نفي مأساة القصر الكبير أمرا ضروريا.

فالمذهب السباستيانى أصبح مرجعية وطنية طبعت كل مجالات

إن المغزى الذي تحمله هذه الروايات يعكس مضمونا كونيا، فاتحاد المؤمنين يضمن النصر ضد العدو المشترك، ومعركة وادي المخازن خير مثال على ذلك، لأنها ليست حاضرة في الذاكرة فقط، بل تجسد رمزا لانتصار الإسلام على المسيحية

الكتابة، ووفرت الإطار الملائم لمقاومة الوجود الإسباني، ما دامت وفاة سباستيان ظلت منفية في البرتغال، والهيمنة الإسبانية مرفوضة، ولعل هذا الوضع أفضى إلى بزوغ «الإيديولوجيا السباستيانية» (سباستيان الحي الذي لا يموت) التي انتقلت حماها إلى البرازيل، وكا، وحتى للهند الشرقية، فاتخذت شخصية سباستيان على سبيل المثال صورا أسطورية متعددة بالبرازيل. بل إن هموم البرتغاليين وآمالهم عبر القرون، والتي تعكسها النصوص النثرية والشعرية المكتوبة، تؤكد بجلاء تمسك الخطاب «السباستيانى» - وبغناد شديد - بمسح هزيمة القصر عبر ترديد كل الانتصارات التي تم تحقيقها على حساب المغرب والأتراك والمسلمين بصفة عامة، فتمت «أسطورة» الملك سباستيان بهدف المماثلة بين محنه ومحن المسيح.

لكن منذ القرن XIX لاحظت الكاتبة أن المذهب السباستيانى حاول الانتقال من الذاكرة الحلمية أو الهاذية إلى شكل إدراكي جديد يميل إلى فهم الماضي بطريقة عقلانية. بل حدث تحول بعد الاجتياحات الفرنسية للبلاد وعودة الملك Don-Miguel بدليل أن ذاكرة سباستيان تم تطعيمها بواسطة كتب، ومقالات صحفية، ومجلات أدبية معروفة

أضفت على التاريخ البرتغالي قراءة جديدة تدعو إلى التحرر من ثقافة الأموات وإرثهم لمواجهة المستقبل.

يتناول الفصل العاشر الإنتاجات المغربية التي عمدت إلى إحياء حدث المعركة : فبعد كتابات الناصري، وبعد التوظيفات المختلفة لوادي المخازن في المواجهة بين المغاربة والأوروبيين في بداية القرن 20، أوردت L. Valensi نصين أحدهما رواية عبد العزيز بنعبد الله، ثم قصيدة الشيخ ماء العينين، فاعتبرت مع مؤشرا على كون ذكريات المعركة التي تم استرجاعها خلال العشرينات من القرن الماضي استمرت حتى نهاية فترة الحماية.

لكن أول تدشين لعملية إحياء ذكرى هذه المعركة الكبيرة تمثل في زيارة منطقة القصر الكبير سنة 1957 من طرف علال الفاسي الذي لم يشارك في حكومة ما بعد الاستقلال والذي اتخذ خطابه - بعد توطئة تاريخية - امتدادا دينيا، حيث ربط الغزو البرتغالي بالحروب الصليبية، مما جعله خطابا تهيمن عليه اللغة السياسية للقرن 20 والتي مكنت - حسب المؤلفة - من تشخيص أعداء الأمس واليوم.

واعتبر علال الفاسي أن علماء فاس هم الذين ثاروا ضد "المسلوخ" دفاعا عن البلاد وأن الزاوية الشاذلية بزعامة

يتناول الفصل العاشر
الإنتاجات المغربية
التي عمدت إلى إحياء
حدث المعركة : فبعد
كتابات الناصري، وبعد
التوظيفات المختلفة
لوادي المخازن في
المواجهة بين المغاربة
والأوروبيين في بداية
القرن 20، أوردت
L. Valensi نصين
أحدهما رواية عبد
العزيز بنعبد الله، ثم
قصيدة الشيخ ماء
العينين

أبو المحاسن يوسف الفاسي كان لها دور حاسم في تحقيق النصر، في حين ترك المنصور وعبد الملك وبقية الفاعلين في الظل.

وبذلك انتهت الكتابة إلى أن الزعيم الاستقلالي حاول تأويل التاريخ لفائدته باعتباره من أصل فاسي ومن أتباع الزاوية الشاذلية، فخطابه لسنة 1957 ينم عن برنامج سياسي يهدف إلى تعزيز استقلال المغرب ومواصلة مقاومة الإمبريالية الأوروبية.

فعلال الفاسي من خلال احتفاله بالمعركة، جعل من هذا الحدث التاريخي مناسبة وطنية، يجب تسجيلها في الذاكرة الجماعية بمثابة رمز للحظات الكبرى لتأكيد الهوية الوطنية. لكن المغرب المستقل كان يحتضن قوى أخرى تسير الوعي التاريخي، القصر، الأحزاب، النقابات، وبالإجمال الدولة التي تتدخل في كل ما من شأنه أن يساهم في بناء تاريخ موحد، وتتبنى بالتالي عملية فرض ذاكرة رسمية.

إن عدة أحداث من الماضي تمر في صمت، لكنها تنفلت من قبضة التاريخ الرسمي، فمعركة وادي المخازن التي تشكل سنويا عنوانا رئيسيا لجرائد الرابع من غشت، تخضع لعدة تأويلات، كما أن المنشورات حولها بالرغم من قلتها

تبقى مستمرة (علي الريسوني، يونس نكروف).

لقد خلف تخليد الذكرى الأربعمئة للمعركة سنة 1978، باعتبارها إرثا للمغرب بأكمله موجة من الكتابات، بل تم حفر اسمها في ذاكرة المغاربة من خلال تحديد مكانها بواسطة محطة وسد.

ونستشف مما سبق، أن الكتابة رأت في معركة الملوك الثلاثة، موضوعا للتاريخ شكل منذ زمن طويل محورا للتاريخ السردى والحديثي، فحاولت أن تعرف كيف تكونت وانتقلت آثار الهزيمة، وكيف كانت ردود الأفعال الجماعية تجاهها تتخذ من الإنكار والرفض والصمت مظهرا لها، ومن الأوهام والأساطير شكلا لها، إلى درجة أن الواقع أصبح بالنسبة للبرتغاليين "حلمًا مرًا" وأن الحلم حل مكان التاريخ.

في الضفة الأخرى تم الاحتفال بالنصر بصفة محدودة، ويعزى ذلك إلى كون التقاليد المغربية تعتبر الشهادة والجهاد من واجبات المسلم، ولا تستحضر ذكرى النصر إلا حينما تتعرض البلاد لتهديدات خارجية ضاغطة.

في أوروبا وفي المشرق خلفت صدى كبيرا، حيث اجتاحت شخصية سباستيان الساحة الأدبية باعتبارها رمزا للبطولة.

فعلال الفاسي من خلال احتفاله بالمعركة، جعل من

هذا الحدث التاريخي مناسبة وطنية، يجب تسجيلها في الذاكرة الجماعية بمثابة رمز للحظات الكبرى لتأكيد الهوية الوطنية. لكن المغرب المستقل كان يحتضن قوى أخرى تسير الوعي التاريخي، القصر، الأحزاب، النقابات،

والآخر زمن مجرد تعسفي مبني
عمدا خارج الزمن المعيش».

- هل الذاكرة الجماعية تتركز
بالأساس على مجموعة من التواريخ أو
على لوائح من الوقائع التاريخية، ولا
تلعب إلا دورا ثانويا في تحديد
ذكرياتنا؟(5).

- وهل يمكننا القول إن الذاكرة
تحتفظ بأصداء المعركة وليس
بالحدث؟

- وأخيرا نتساءل مع S. Citron هل
يخفي التاريخ وراء نجاحاته هشاشة
ما؟ فهل يريد الحفاظ على أحداث
الماضي، وتحصين حدوده، كعلم أو
كأسطورة(6)؟ أم هل إن التاريخ لا
يمثل كل الماضي ولا يجسد أيضا كل
ما تبقى من الماضي(7)؟

الهوامش

1 - Suzanne Citron : "Enseigner l'histoire
aujourd'hui la mémoire perdue et
retrouvée" les éditions Ouvrières. Paris
1984 p. 32

2- S. Citron : Op. Cit. P. 34

3- S. Citron : Op. Cit. P. 39

4- Maurice Halbwachs : "la mémoire
collective" Albin Michel. Paris 1997, p. 35

5- M. Op Halbwachs Cit. P. 40

6- S. Citron : Op. Cit. P. 40

7- M. Halbwachs. Op. Cit. P. 113

من خلال هذا الكتاب يظهر
التاريخ بوصفه نشاطاً ثقافياً، وتبدو
الذاكرة بمثابة ملجأ للانفعال، وبمثابة
خزان للذكريات، تسائل وترغب في
الفهم، وتقدم برنامجا للبحث
التاريخي.

إن قراءة هذا العمل الهام مكننا من
استشفاف بعض الملاحظات :

إن مفهوم الذاكرة الجماعية مفهوم
معقد وعلاقته بالتاريخ يتم التعامل
معه بطرق مختلفة(1).

إن التاريخ لا يصبح ذاكرة جماعية
إلا إذا أصبح هو نفسه ذا دلالة(2).

إن انتقال ذكرى المعركة يعكس
التباين الحاصل بين الذاكرة البرتغالية
والذاكرة المغربية.

إن ذاكرة المعركة تتجذر في
المتخيل «الذي يجمع بين الديني
والمقدس»(3).

تعكس المعركة قطيعة بين ذاكرة
المثقفين وبين ذاكرات الفئات
الاجتماعية الأخرى.

- إذن فما هي القرابة التي يمكن أن
ننسجها بين الذاكرات الجماعية وبين
التاريخ ما دام ليسا متماثلين؟
فبالنسبة M. Halbwach (4) «أحدهما
زمن حقيقي مترسخ في حياة
الأشخاص، ومتجذر في أزمنة
جماعية متعددة، غير متجانسة،



محمد أديوان

بصد محو الأمية والتنمية المستديمة بالمغرب *

آخر. غير أن البحث السوسيولوجي الذي أنجزه الباحثان فاطمة أكناو وأحمد بوكوس، يعبر عن وجهة موضوعية في المنهج تقرر الوصف المجرد والمحايد بالتحليل الدقيق للمعطيات، دون أثر للهواجس الإيديولوجية التي أضحت مفسدة للبحث السوسيولوجي منذ ظهور الأبحاث الماركسية وضررتها اليمينية المتطرفة. فقد كانت «الحقيقة» الاجتماعية في نسبتها الإنسانية تهدر على محفة البحث وتجل المسابقات الإيديولوجية محلها.

إن الدراسة التي أنجزها الباحثان المذكوران تحمل عنواناً دالاً وهو «محو الأمية والتنمية المستديمة في المغرب : واقع وآفاق».

وقد انطلق الباحثان من واقع الأمية المزرية في المغرب، ولاحظا أنه على الرغم من كون البلاد قد انخرطت في صراع طويل ضد هذا

لقد اعتادت الدراسات السوسيولوجية على دراسة الظواهر انطلاقاً من مجموعة من المسلمات المنهجية التي تدخل في صميم ثقافة الباحث السوسيولوجي سواء كان يمينياً أو يسارياً، مما يؤدي بالبحث الاجتماعي إلى الانحراف عن أهدافه الأساس، وهي الوصف الدقيق للظاهرة والمعالجة الميدانية القائمة على أسس الملاحظة المباشرة أو ما يدخل في سياق المعالجة وجمع المعطيات، مما يؤهل الباحث بعد ذلك للدراسة والتحليل والاستنتاج.

ولعلّ هذا الاتجاه العلمي الموضوعي قليل الانتشار في البحث السوسيولوجي نظراً لانضواء البحث الاجتماعي تحت ألوية الإيديولوجيا اليمينية أو اليسارية بأساليب مواربة ومختلطة مختلفة من ميدان إلى

* قراءة في كتاب : أحمد بوكوس - فاطمة أكناو، محو الأمية والتنمية المستديمة بالمغرب : واقع وآفاق، سلسلة أبحاث ودراسات، رقم 28، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2001.

الوباء الحضاري، ظل التصور الذي كان لأصحاب القرار تصوراً تقليدياً⁽¹⁾ لم يؤدّ إلا إلى نتائج مازال متواضعة جداً وتشكو من غير قليل من الصعاب والعوائق على مستوى التصورات والمناهج المنتجة في حقول محو الأمية.

وللردّ على هذه التصورات التقليدية سعى الباحثان جاهدين إلى تعرية مواطن النقص في البرنامج الوطني العام المتبع في مضمار محو الأمية لاسيما في صفوف النساء بمعدل 80٪ والرجال بمعدل 20٪ وما يدخل ضمن التربية المستديمة خاصة في التجمعات النسائية.

تتألف الدراسة من عشرة فصول تتفاوت قيمتها النظرية والتطبيقية. فالباحثان قد استفرغا الوسع في إقامة توازن واضح بين السياقات النظرية والتصورية التي تمثل أرضية البحث ومرجعياته الفكرية، والسياقات التطبيقية التي يظهر فيها جهدهما العملي في النزول إلى أرض المعاينة لمجابهة المشكلات المنهجية والتصورية في أشكالها الواقعية ومظهراتها الميدانية.

إن الشرائح التي صبت عليها الدراسة اهتمامها هي شرائح الكبار. خاصة النساء اللواتي ينخرطن بحكم وجودهن في مناطق مغربية في سياق برنامج التربية المستديمة

ومحو الأمية عند الكبار. وهذا البرنامج لا يقتصر على المغرب دون غيره من البلدان، بل هو برنامج أممي وعالمي ساري المفعول في أغلب دول العالم المتخلف، ويحتل المغرب في برنامج التنمية المستمرة وخصوصا في مجال محو الأمية عند الكبار المركز 126 عالميا حسب مؤشر تطور الموارد البشرية⁽²⁾.

وإذا كان الوضع على هذه الصورة من القتامة بحيث حوالي نصف السكان من الأميين، فإن أسئلة محو الأمية والتربية المستديمة وتطوير البنيات التحتية للتربية والتعليم تظل أسئلة محرّجة ومحرّجة لاستراتيجية وطنية خليقة برفع هذه التحديات الكبيرة.

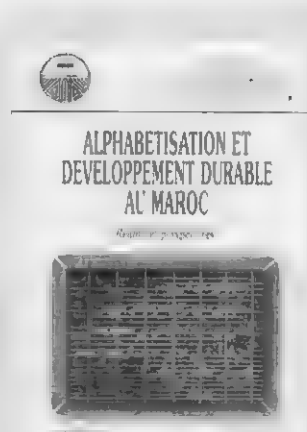
وفي هذا السياق لاحظ صاحبا الدراسة، أن ظاهرة محو الأمية عند الكبار لم تحظ دائما باهتمام كبير باستثناء الدوائر العالمية كاليونسكو. أما في المغرب فقد لوحظ أن الاهتمام متجه بخاصة لمحو الأمية عند الشباب، أما عند الكبار فالأبحاث قليلة وما تزال الظاهرة في حاجة إلى معالجة عميقة⁽³⁾.

وانطلاقا من هذه الملاحظة انتدب الباحثان دراستهما للبحث في مجموعة من الاعتبارات تمت صياغتها في شكل أسئلة بحث هي التي ستظل موجهة لعمليهما الميداني

تتألف الدراسة من عشرة فصول تتفاوت قيمتها النظرية والتطبيقية. فالباحثان قد استفرغا الوسع في إقامة توازن واضح بين السياقات النظرية والتصورية التي تمثل أرضية البحث ومرجعياته الفكرية، والسياقات التطبيقية التي يظهر فيها جهدهما العملي في النزول إلى أرض المعاينة

وقد لاحظ الباحثان أن التربية عند بورديو ومدرسته الاجتماعية ليست مجرد مجموعة من التقنيات للكفايات والمهارات، وإنما هي نظام يستجيب للقواعد العامة للنظام الاجتماعي ويخضع لإكراهاته، غير أن هذه النظرة قد تصدق على تربية الشباب، أما تربية الكبار وتعليمهم فقد ترحح هذا التصور لاسيما وأنها تساهم في تعرية قصور النظام التربوي والسياسة التربوية وتكشف عن عجزها عن خلق التوازنات الضرورية في المجتمع، وتكشف في الوقت ذاته عن استبداد الدولة واحتكارها للتربية لاسيما في مجال تربية الكبار. فالدولة لم تضع استراتيجية في هذا الشأن إلا مؤخرا لأنها كانت راغبة في إبقاء الأوضاع الاجتماعية على ما هي عليه مع إبعاد الأغلبية عن مدارج السياسة وأساليب الوعي وأولها التربية(5).

فالأهداف التي تسطرها الدولة لتربية الكبار هي تعليم القراءة والكتابة، غير أن هذه السياسة التعليمية فاشلة بالقياس إلى توقعات هؤلاء المتعلمين، فهم يطمحون إلى تحقيق ذواتهم في المجال الاجتماعي والمحيط الاقتصادي كفاعلين حيويين لهم أهداف أخرى ينتظرون تحقيقها، كقراءة وصل الكهرباء والماء وفهم ما يكتب على الشيك وقراءة معلومات معينة بخصوص طرد بريدي أو



للإجابة عن هذه الأسئلة الجوهرية، اختار الباحثان إنجاز دراستهما الميدانية بين سنتي 1997 و 1999، وكانت الفئة المستهدفة هي مجموعة الكبار الذين ليست لهم أعمال قارة يقومون بها، كما أنهم يستفيدون من برنامج وزارة التربية في إطار الحملة الواسعة لمحو الأمية بالبلاد.

ومراجعتهما النظرية. وهذه الأسئلة المركزية هي :

1 - ما هي استراتيجية محو الأمية المتبناة؟

2 - من هم المكونون الذين يقومون بدروس محو الأمية؟

3 - من هم المستفيدون من برنامج محو الأمية؟

4 - إلى أي حد اكتسب المستفيدون المهارات الأساسية في القراءة والكتابة والحساب؟ وهل يتم استغلال هذه المهارات بشكل وظيفي لتلبية حاجياتهم؟

للإجابة عن هذه الأسئلة الجوهرية، اختار الباحثان إنجاز دراستهما الميدانية بين سنتي 1997 و 1999، وكانت الفئة المستهدفة هي مجموعة الكبار الذين ليست لهم أعمال قارة يقومون بها، كما أنهم يستفيدون من برنامج وزارة التربية في إطار الحملة الواسعة لمحو الأمية بالبلاد.

وتضم العينة المدروسة 500 شخص من الكبار المتعلمين في هذه المعازل تحت إشراف المنظمات غير الحكومية في عدد من الأقاليم والجهات المغربية التي تضم عينات من الشمال إلى الجنوب (4).

تحويل مبلغ معين من الدرهم إلى الريال وما شابه ذلك⁽⁶⁾.

وقد تبين من الدراسة أن الأهداف التي سطرته برامج محو الأمية هي برامج نظرية، يطفئ عليها الجانب التعليمي الذي يعتمد بوجه خاص على تعلم مهارات القراءة والكتابة، وتبين أيضا أن هذه المهارات غير كافية لدى الكبار لأنها قد تكون كافية للصغار في السن لأنهم بعيدون نسبياً عن دوايب الحياة الاجتماعية ومشكلاتها المعقدة. ولكن بالنسبة للكبار فهم يحتاجون إلى تدبير الشأن اليومي والتواصل مع الآخرين، وفهم الأخبار وما يجري في الصحف والقنوات الإذاعية الوطنية والدولية بما فيها العربية بالطبع، كما أن هذه الشرائح من الكبار تحتاج إلى تدبير شؤونها الإدارية وفهم مالها من حقوق وما عليها من واجبات حسب مقتضيات الأعراف والقواعد القانونية المسطرة، والتي لا يُعَدُّ أحد بجهلها.

ولقد عبّر بعض المستجوبين إلى جانب ما ذكرناه عن رغبتهم الملحة في التعرف على أمور الدين وتحديد الواجبات الدينية التي ينبغي القيام بها بوصفهم مسلمين وعلى رأسها قراءة القرآن وفهم بعض آياته ولاسيما تلك التي لها طابع عملي وتشريعي.

وبالإضافة إلى ذلك كله، كان هؤلاء الكبار ينتظرون من برنامج

محو الأمية أن يجعلهم قادرين على التعرف على الطرق والشوارع والمعالم في المناطق الحضرية التي يرتادونها بقراءة العلامات وضبط قوانين السير مما ييسر لهم سبل التنقل في حرية وأمان، وغير ذلك من ضرورات الحياة اليومية.

وفوق هذا كله، فإن جماعة المستجوبين في هذه الدراسة الميدانية، صرّحوا بأنهم انخرطوا في برنامج محو الأمية للكبار للغايات الآتية :

1 - الغاية الذاتية. وهي تتمثل في أن الحافز ذاتي عند طائفة من المتعلمين الذين يرومون تحقيق الذات والاستقلال عن الآخرين وزرع الثقة في النفس.

2 - الحافز الآلي، وهو عند طائفة تعتبر أن محو الأمية هو السبيل إلى الرقي بوضعهم الاجتماعي. والحصول على رصيد رمزي يميزهم عن غيرهم.

3 - الحافز الاندماجي، وهو عند الطائفة التي تنظر إلى محو الأمية كطريق لتحقيق الاندماج الاجتماعي في الثقافة كنظام رمزي، بأبعاده الفكرية والدينية.

لقد استطاعت هذه الدراسة أن تصل من خلال مجموعة من

وقد تبين من الدراسة أن الأهداف التي سطرته برامج محو الأمية هي برامج نظرية، يطفئ عليها الجانب التعليمي الذي يعتمد بوجه خاص على تعلم مهارات القراءة والكتابة، وتبين أيضا أن هذه المهارات غير كافية لدى الكبار

المجالات التي فشلت فيها برامج محو الأمية عند الكبار، وذلك بالكشف عن عمق القوة الفاصلة بين السياسة التربوية التي تتبناها السلطة والنظام التعليمي، والتوقعات وآفاق الانتظار لدى فئة الكبار المتعلمين.

فحدود هذه السياسة واضحة ومشاكلها كثيرة، أهمها المشكل المبدئي القائم على صياغة أهداف نظرية ومنطقية بعيدة عن الحاجيات الحقيقية والعملية للمستهدفين. ولهذا لم يحقق هذا البرنامج محو الأمية إلا بنسب ضئيلة جداً.

إن ما اقترحته الدراسة من حلول للمشاكل السابقة، يتلخص في ما يأتي :

1 - التعامل بجدية وصرامة مع مشكلة محو الأمية وفق نظرة شمولية مستقصية لأعداد المتعلمين أولاً حتى يعرف عدد الأميين بالدقة اللازمة وبالتحديد.

2 - تحديد الاستراتيجية الشاملة لمحو الأمية، وهي الاستراتيجية التي تأخذ بعين الاعتبار الحاجيات المختلفة للمتعلمين بما فيها الحاجيات العملية كمهارات القراءة والكتابة والحساب وسائر المعارف الوظيفية، والحاجيات الاستراتيجية كتغيير الوضع الاجتماعي والأدوار الاجتماعية والإسهام في الإدارة والتسيير .. الخ.

3 - تحديد أنواع الشرائح المستهدفة، بضبط خواصها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وتحديد حاجياتها وحوافزها.

4 - تهييء برامج لمحو الأمية، فحدود هذه السياسة موافقة لهذه الشريحة من كبار السن، بحيث تشمل تكوينهم مهنياً في قطاعات يعملون فيها في واقعهم اليومي، وينبغي السهر على التسيير الإداري الإيجابي لمراكز محو الأمية ودعم البرنامج في هذا الصدد بالإمكانات المالية اللازمة(7).

هذه هي مجمل الاقتراحات التي تقدمها الدراسة مبينة أن أصل المشكل يكمن في أن المغرب لم يضع استراتيجية تعليمية شاملة لأنه لا يتوافر على الإمكانيات المادية من جهة والإرادة السياسية التربوية من جهة أخرى، وقد آن الأوان أن يتجه التفكير إلى هذه النواحي من الشأن الاجتماعي العام، لما تفرضه المقررات الدولية اليوم من ضرورة تعميم التعليم في سائر الأوساط الشعبية استجابة لدعوات حقوق الإنسان في الشرق والغرب.

ومن الملاحظ أن الطموحات التي صاغت هذه الدراسة الميدانية، هي ذات صيغة عملية، تمكن من إحداث التغييرات الجوهرية في النظام التعليمي للكبار، من حيث هو مجال

التعليمي للكبار، من حيث هو مجال لاستغلال مجموعة من الطاقات التي لم يتم استغلالها إلا جزئياً وفي نطاق ضيق في التصور الاندراكوغي الحالي.

إن السياسة التربوية التي ينبغي اتباعها تجاه الكبار، ينبغي أن تنبع من الحاجيات الحقيقية لهؤلاء ومن مساءلتهم عن آفاق انتظارهم، ونوعية توقعاتهم في المدى القريب والبعيد.

وكل سياسة تربوية في مجال الاندراكوغيا إذا لم تتحلّ بهذه الصفة الاندماجية والواقعية، ستظل مقرّرات نظرية متعالية عن واقع تلك الشرائح الاجتماعية ولن تحقّق النجاح المرغوب إلا في نطاق ضيق جداً، لأن المتعلم الكبير لا يرغب أن يعرف القراءة والكتابة، من أجل القراءة

والكتابة وإنما يرغب أن يحقق بفضل القراءة والكتابة الاندماج الحقيقي في نسيج المجتمع، ويتمنى أن يصير عضواً «صالحاً» ومواطناً يحمل علامة «المواطنة» وهي المشاركة في تسيير دواليب المجتمع بعد فهمها، والإسهام في قطاعات الحياة العادية بنفس حجم إسهامه في الحياة السياسية والاقتصادية متى دعت الضرورات الحياتية لذلك.

إن اندراكوغيا المستقبل تعتمد على إحصاء حاجيات المتعلمين وضبط الأهداف العملية التي يسعون لتحقيقها من وراء عملية التعلم، لأن الاندراكوغيا الحالية تعتمد على توهم الحاجيات، وتسبح في عوالم نظرية وتكتفي بأهداف عامة بعيدا عن خصوصيات المتعلمين وحيثياتهم المتنوعة.

إن السياسة التربوية التي ينبغي اتباعها تجاه الكبار، ينبغي أن تنبع من الحاجيات الحقيقية لهؤلاء ومن مساءلتهم عن آفاق انتظارهم، ونوعية توقعاتهم في المدى القريب والبعيد.

هوامش :

1 - Alphabetisation, p. 10

2 - Alphabetisation, p. 14

3 - ibid, p. 17

4 - ibid, p. 20

5 - ibid, p. 26

6 - انظر نتائج الاستجابات الميدانية حول هذه المسألة وتوقعات المستفيدين من برنامج محو الأمية عند الكبار.

Alphabetisation, p. 106

7 - للتفصيل انظر الدراسة ص 192.

عنوان الدراسة :

Ahmed Boukous

Fatima Agnaou

Al phabetisation et développement durable au Maroc : Réalité et perspective.

Série essais et études n° 28. Faculté des lettres et science humaine - Rabat - 2001



سعيد بنگراد

البناء الأسطوري في "حكاية وهم" لأحمد المديني

والأساطير والخرافات جملة من الخصائص التي تضعه ضمن كون قيمي مستقل يميزه عن باقي شخصيات النص الروائي.

وبطبيعة الحال لن نتناول، في هذه القراءة، ثيمة البطل في ذاتها ولذاتها. فهذا عمل لا يكتسي أية أهمية، ولا فائدة ترجى من ورائه، وإنما سنحاول تتبع تجلياتها وآثارها على البناء الشكلي للنص. فالكشف عن القوانين المؤسسة للبنية السردية التي تتجلى هذه الثيمة فيها وعبرها (ما نطلق عليه الوجود الدلالي المشخص) هو وحده الكفيل بإلقاء الكثير من الأضواء على الطريقة التي يتصور من خلالها المجتمع نفسه، ويصوغ عليها صورته لأبطاله.

وعلى هذا الأساس، فإن ما يهمنا من هذه القراءة هو إجلاء السنن وليس البحث عن إرسالية ما. فالإصرار على تعيين معنى للعالم الروائي هو سلب

لن نقدم في هذه الصفحات قراءة كلية وشاملة لهذا النص، فالرواية متعددة وغنية ومركبة وتحتاج إلى أكثر من قراءة. ما نود القيام به لا يتجاوز حدود الكشف عن المنطق الذي يحكم الصياغة الفنية لشخصية البطل. وهو أمر لا يمكن أن يتم دون ضبط المضمون الدلالي الذي يتحدد من خلاله الشكل الوجودي لهذا الكيان الغامض

لن نقدم في هذه الصفحات قراءة كلية وشاملة لهذا النص، فالرواية متعددة وغنية ومركبة وتحتاج إلى أكثر من قراءة. ما نود القيام به لا يتجاوز حدود الكشف عن المنطق الذي يحكم الصياغة الفنية لشخصية البطل. وهو أمر لا يمكن أن يتم دون ضبط المضمون الدلالي الذي يتحدد من خلاله الشكل الوجودي لهذا الكيان الغامض، وبالتحديد ما يمكن أن نطلق عليه البناء الأسطوري للبطل.

وما نقصده بالمضمون الدلالي يتلخص في الآثار المعنوية المترتبة عن النمط الخاص بصياغة كينونة البطل المناضل؛ ما يعود إلى طريقته في الظهور وما يبدو من خلال سلوكه وما يحدد حالات اختفائه أيضاً. إنه بطل بالمفهوم الحربي للكلمة، وليس مجرد عنصر رئيس داخل السرد. إنه كذلك لأنه يستعير من الحكايات الشعبية

النص غناه وتنوعه وعمقه. ولذا، فإننا سنتناول هذا المسار التأويلي من خلال عنصرين اثنين؛

- سنحاول تحديد استراتيجية الأنا المتلفظة من خلال ما يصدر عنها قولاً وفعلاً وسرداً، وهو ما أطلقنا عليه: تراوح «الأنا» بين التجريد والتشخيص. وفي هذه الحالة سنحاول تحديد علاقة هذه «الأنا» بعالم متموج ومتداخل لا يستقر على حال من جهة، ونقوم بتحديد علاقتها بالحدث السردى بحصر المعنى من جهة ثانية.

- وسنتناول في النقطة الثانية العوالم التي تحيل عليها شخصية البطل كما تصوغها هذه «الأنا» في خطابها التجريدي أولاً، وكما تصوغه الأحداث ثانياً.

وسيدرك القارئ أن مصدر هذا التركيب الذي يميز البناء السردى للرواية هو الطبيعة المركبة والغامضة لشخصية البطل المناضل كما تتحقق كينونته في النص، وكما يتم تداولها في الأدبيات السياسية والأيدولوجية.

«الأنا» والعالم: من الكوني إلى الحدث المخصوص

نحتاج «حكاية وهم»⁽¹⁾ لأحمد المديني إلى قراءة خاصة لأنها بناء سردي خاص. فهي رواية كما يعلن

الغلاف عن ذلك، إلا أنها تختفي في ثانياً مجموعة من الحكايات المستقلة عن بعضها البعض يؤطرها خطاب تجريدي هو أقرب إلى مناجاة «أنا» لنفسها منه إلى بناء حدثي يقود من أصل مولد يمثل على شكل صنفه قيمية تصف الكون وتصنف مكوناته وتحكم على ظواهره، إلى حدث يشخص القيم ويمنحها أبعاداً مرئية من خلال عناصر الزمنية الإنسانية ذاتها. فالقصة هي انفجار الكون المجرد في عناصر مشخصة تستوعبها غاية سردية ضمنية أو صريحة. ذلك أن الحدث هو الحد الفاصل بين المتصل وبين بناء قصة. فهو يشير، كما يتصور ذلك لوتمان على الأقل، إلى «تنقل الشخصية عبر حدود الحقل الدلالي». ومن هذه الزاوية، يشكل الحدث أفق القراءة بكل امتداداتها، فالذي يندرج ضمن المؤلف والعادي لا يشكل قصة، وإنما يصنف ضمن الممارسة العادية للحياة.

وعن قصد يسير النص في الاتجاه المعاكس، ويعمل جاهداً على تأجيل الحدث. فالحدث صياغة لحدود وتحديد لاتجاه وإرساء لمسارات تفرض اختيارات وتخضع لإرغامات. والنص لا يريد ذلك، في هذه المرحلة على الأقل. إنه يريد أن يقول كل شيء خارج كل الحدود. وهذا ما يبرر غياب ضبط الكتابة وتحديد الدلالات من خلال الوقف

- سنحاول تحديد

استراتيجية الأنا

المتلفظة من خلال

ما يصدر عنها قولاً

وفعلاً وسرداً، وهو ما

أطلقنا عليه: تراوح

«الأنا» بين التجريد

والتشخيص. وفي

هذه الحالة سنحاول

تحديد علاقة هذه

«الأنا» بعالم متموج

ومتداخل لا يستقر

على حال من جهة،

ونقوم بتحديد

علاقتها بالحدث

السردى بحصر

المعنى من جهة

ثانية.

والفصل : لا وجود لنقط أو فواصل أو استفهامات. إن النص ينساب خارج الحدث وخارج الغايات وخارج أي بناء مسبق. إن الذات تشتم الأشياء والكائنات وتمسك بالأرض وتطاول السماء وتشق البحار.

إن النص يكتفي، في مرحلة أولى، بوصف عالم لا تستقيم داخله الأحداث، وكأن الأمر يتعلق بخطيئة أصلية لم تصح، أو لم يتدارك الإنسان آثارها، أو كأن العالم لم يستكمل بناءه بعد.

إن بداية الرواية مفاجئة :

«كأنني سأنحت جبلا أو أكسر صخرا كأنني سأمسك بالأرض مدورة كاملة أو مسطحة بين يدي وأشرع للمرة الأولى بقراءة طالع العالم ومنه إلى استكناه أسرار البشرية وسر ما يجعلني أكتب الكلمة الأولى تصطادني قاذفة بي في مطلق لا يمسك به إلا الجنون» ص 7.

وعلى هذا المنوال ستكتب الحلقات الأولى للرواية : فليس هناك نظام محدد للأحداث وليس هناك منطق يحكمها، ولا وجود لخطة سردية قادرة على جمع شتات الوقائع ضمن نفس حكايتي واحد. إن الأمر على خلاف ذلك، فالذات لا تستوقفها الوقائع، ولا تثير اهتمامها ؛ إنها مشدودة بهلع ومأساوية إلى ما يشكل

عالمنا منحطاً منكفئاً على ذاته لا نقرأ فيه سوى الانقراض : أنقاض المدن والمنازل والكائنات. فما أن تبدأ «الأنا» بشتم الجنرالات وحكام العالم قاطبة، حتى تقفز إلى الحديث عن «ثيران وتلال من أجساد الأنبياء والأجداد والنساء الشهيات». فالرغبة في التكسير والتحطيم والشتم لا تضاهيها سوى رغبة في الغوص عميقا داخل لذة لا يحد من جبروتها شيء.

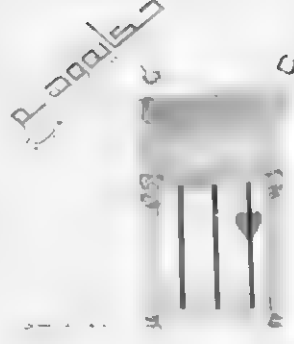
ضمن هذا العالم، أو نتيجة له، ستولد الحكاية، وستمنح هذا الموصوف على شكل أحكام ومعانيات وجها مشخضا في وقائع مرئية. ولن يتأتى بناء هذه الحكاية إلا عبر إخلال بنظام ما. وهكذا، وعلى غرار الحكايات الشعبية (والأساطير أيضا) حيث تبدأ الحكاية عندما تستشعر الذات وجود نقص ما. سيكون الاختفاء، باعتباره فعلا مخلا بحالة إنسانية (فالحضور يشكل الوجود الفعلي للإنسان)، هو نقطة البداية ومبرر وجود النص. ومن هذه الزاوية يجب النظر إلى اختفاء «ميم» و«ميم» هو الشخصية الرئيسية في الرواية وحوله تدور الأحداث وتبنى الوقائع. إن الاختفاء يشكل الحلقة المركزية التي تنسج حولها كل مداخل القصة ومخارجها، فعلى أساسه سيبنى الحدث وستصاغ حدود الحكايات التي ستأتي.

إن النص يكتفي، في مرحلة أولى، بوصف عالم لا تستقيم داخله الأحداث، وكأن الأمر يتعلق بخطيئة أصلية لم تصح، أو لم يتدارك الإنسان آثارها، أو كأن العالم لم يستكمل بناءه بعد.

إن «ميم» - الشخصية التي يفترض فيها أنها تلعب الدور الرئيس في الرواية - كائن مغرق في الغرابة. إنه متعدد المهن والاختصاصات والميول والانشغالات. لذا كان من الصعب على حكاية واحدة أن تستوعبه ضمن تسلسل حدثي واحد. فهو معلم وصاحب دكان ومراقب في إدارة من الإدارات، وسائح، إضافة إلى أبعاد سلوكية أخرى لا يعرف سرها سوى الصوت الذي تصدر عنه مجموع الحكايات. وتلك أولى المفارقات، أو هي أول الألفاظ وبدائتها. وقد يكون هذا البناء خرقا صريحا لإحدى قواعد التفكير المنطقي السليم؛ كيف يمكن للمرء أن يكون ولا يكون في ذات الوقت؟

إلا أن النص الروائي له مبرراته في ذلك. ف«ميم» شخصية مبهمه فقط إذا نظرنا إليها من منظور النسخة. أما إذا تأملناها من منظور النموذج فستبدو في كامل قوتها وانسجامها. فالحضور عبر النموذج ليس هو الحضور عبر الفعل الخاص. إن النموذج قيم ومفاهيم عامة تحيل على نقاء مطلق كالخير والصدق والأمانة ومقاومة الظلم. أما النسخة، فسلوك إنساني مخصوص تمتزج فيه القيم بوجوهها المتعددة السلبية منها والإيجابية.

ولهذا السبب، وهذا مما سنراه



إن النص الروائي، من خلال مجمل إحياءاته، هو إحالة على نموذج أمثل يحتوي على كل الصور الممكنة للأبطال وليس تصويرا لكائن بشري له تاريخ وأهواء وزلات.

وللنص في هذا الاختيار وسائله وغاياته ومبرراته أيضا. لقد اختفى «ميم» وعلينا إذن إعادة بناء تاريخه.

وستبدى الأمر على خلاف ما تصورنا. فما كان يشكل بداية غير مرتكزة على أساس مشخص، يعد في واقع الأمر أصلا للحكاية وبداية ونهاية لها. من هنا وجب النظر إلى النص الروائي بشقيه - المجرد حيث يحيل هذان الأنا على الوقائع المتحققة، والم مشخص، حيث تقود الوقائع إلى استحضار الوجه البشع لعالم فقد إنسانيته - باعتباره محاولة لصياغة صورة كلية لبطل لا يشبه الأبطال، ولا يبني كما يبني الأبطال. فهو موزع بين عالم محسوس (ما تدركه العين مجسدا في أحداث)، وبين عالم مجرد (ما يحضر في الذهن على شكل مفاهيم كالقهر والحيف والقمع والاستبداد). وليس غريبا أن يكون «ميم» هنا مميزا عن باقي الأبطال؛ فللبطل قصة، و«ميم» له قصص شتى، وللبطل مهنة ولميم مهن متعددة. وللبطل تاريخ، و«ميم» يحتضن «تاريخ» البشرية جمعاء.

ويحق لنا القول وفق هذه البداية المركبة إن النص الروائي، من خلال مجمل إحياءاته، هو إحالة على نموذج أمثل يحتوي على كل الصور الممكنة للأبطال وليس تصويرا لكائن بشري له تاريخ وأهواء وزلات. وللنص في هذا الاختيار وسائله وغاياته ومبرراته أيضا. لقد اختفى «ميم» وعلينا إذن إعادة بناء تاريخه.

لاحقا، يتحاشى النص ولوج التفاصيل (الأمارات) ليركز على ما يشكل الوظائف الأساسية. وليس غريبا أن يأتي البطل إلى القصة عبر اختفائه لا عبر دخوله إلى الفعل، إنه حاضر من خلال غيابه. إن الباعث على القصة ليس رغبة في المضي إلى الأمام، بل هو حنين إلى العودة إلى أصل سابق. ولهذا فما يشكل العمق الحقيقي للقصة هو الاختفاء وليس الوجود، والرواية من بدايتها إلى نهايتها لا تكف عن التذكير بذلك :

- «لأن الاختفاء عموما يكاد يكون ظاهرة طبيعية في حياتنا ونادرا ما نجد من يعتبره شذوذا أو أمرا خارقا للعادة إلى حد أننا بتنا نعلن ببداية مطلقة أن الأصل في الأشياء اختفاء» ص 14.

- «ولمن لا يظهر لهم أثر كما لو أنهم ما وجدوا على الإطلاق رغم ثبوت أسمائهم في سجلات الحالة المدنية ووجود العشرات وأحيانا المئات ممن عرفوهم» ص 18.

ويمكن العودة إلى صفحات أخرى تشير إلى ذلك (انظر مثلا ص 24 - 37 - 42 - 43 - 44 - 45 - 52).

ولهذا فإنه يسرب للوجود القصصي عبر «أنا» مركزية تصوغ خطابا حول نفسها :

«كأنني سأنحت جبلا أو أكسر صخرا كأنني سأمسك بالأرض مدورة كاملة أو مسطحة بين يدي وأشرع للمرة الأولى بقراءة طالع العالم ومنه إلى استكناه أسرار البشرية وسر ما يجعلني أكتب الكلمة الأولى تصطادني قاذفة بي في مطلق لا يمسك به إلا الجنون» ص 7.

وتصوغ في نفس الآن خطابا آخر حول الاختفاء الغريب لـ «ميم».

«ما حدث بعد ذلك تتعدد الروايات عنه تتناقض تتقارب حينما إما لغياب السند أو ضعفه أو لتداخله مع غيره ذلك أن التلف لحق كثيرا من الوثائق والمحاضر التي كانت تسجل فيها الوقائع المادية ومجريات الأحداث..» ص 57.

الخطاب الأول تجريدي تتداخل فيه الأشياء من منظور محفل سردي غامض ومبهم هو الآخر. صوت سردي لا نعرف عنه أي شيء، ويصف الأحداث من كل الزوايا. إنها «أنا» كيان يطاول الكون بكل ظواهره، فهي تشق الأرض وتمسك بها وتنفذ من بين الثقوب وتلك الجبال وتقاتل الجنرالات وتشهد لحظة الخلق الأولى وتتوعد بالانتقام من قوى غير محددة المعالم :

«حيث أبدأ في البحث عن تغلغل سكانني عن قبائل أو شعوب انقرضت

إن الباعث على القصة

ليس رغبة في المضي

إلى الأمام، بل هو

حنين إلى العودة إلى

أصل سابق. ولهذا فما

يشكل العمق الحقيقي

للقصة هو الاختفاء

وليس الوجود، والرواية

من بدايتها إلى نهايتها

لا تكف عن التذكير

بذلك :

وأخرى تلهث وراء انقراضها وقد
اهترأ فيها اللحم تآكل العظم اختنق
النفس اختفت الملامح التي اكتسبت
وما بمقدور علم الآثار ولا
الأنثروبولوجيا من أي صنف كانت أن
تتعرف ما إن كانت قد وجدت قبل
عام أو مئات القرون» (ص7).

أما الخطاب الثاني فهو خطاب
مشخص يعيد صياغة ما قدمته هذه
«الأنا» في خطابها الأول من خلال
حدود زمنية، أي على شكل وقائع
تروي المرعب والمفزع والخارق من
خلال أفعال إنسانية تستدعي إخراجا
سرديا يضع على الخشبة زمانا ومكانا
وشخصيات وعلاقات. فكل الأحداث
المسجلة في هذا الخطاب تندرج
ضمن كون إنساني مدرك من خلال
المنطق العادي للفعل الإنساني.
فالاعتقال والتعذيب والسجن والنفي
والتنكيل بالناس صيغ نستعيد من
خلالها هלוسة الذات في بداية
الرواية. إنها تصوغ كونا يصنف البلاد
والعباد إلى قسمين :

- الأخيار، ومنهم «ميم» (قد يكون
المهدي أو المهداوي أو المعطي أو
منصور أو هو مناضل من عشرات
المناضلين الذين اختفوا أو قتلوا).
إنهم مسالمون لا يطلبون من الحياة
سوى العزة والكرامة.

- وهناك الأشرار كوجه نقيض
للقسم الأول، أي أولئك الذين

يختطفون العزل في الفجر ويغتالون
الرجال ويزرعون الرعب في نفوس
الأطفال والنساء.

وكما كان البطل كيانا يستعصي
على الضبط ضمن صيغة سردية أو
وصفية وحيدة البعد والاتجاه
والامتداد، فإن هؤلاء هم أيضا ليسوا
كائنات بشرية بالمعنى الحقيقي
للكلمة. إنهم كائنات بلا وجوه ولا
تاريخ ولا مصير، إنهم أدوات لا تتكلم
ولا تضحك ولا تفكر، إنهم زوار لا
يأتون إلا في الفجر (ويرمز الفجر هنا
إلى اللحظة الفاصلة بين الليل
والنهار، بين النور والظلام، بين الموت
والحياة).

وفي المقابل، لا يقل زوار «ميم»
غربة عن هؤلاء. فهم أيضا لا يأتون
إلا مع حلول المساء، ملثمين يتسللون
إلى بيت «ميم» خفية :

«مجموعة زوار يطرقون بيته كل
مساء ثم تبين للجيران الزوار دائما
غرباء الذين كانوا يسندون آذانهم
إلى الجدران أنه يتعاطى السياسة
لكثرة سماعهم كلمات مثل الحزب
النقابة الحكومة الديمقراطية
الحقوق البطالة الاستقلال (.) وحدث
أن انضمت إليهم مجموعة ذات شكل
غير معهود في الحي لارتدائها
جلابيب سوداء قاتمة وبدل أن تدخل
من الباب نزلت من السقف أو سطح
الدار فاقتحمت المجلس وانبرى من

وكما كان البطل
كيانا يستعصي على
الضبط ضمن صيغة
سردية أو وصفية
وحيدة شالبع
والاتجاه والامتداد،
فإن هؤلاء هم أيضا
ليسوا كائنات بشرية
بالمعنى الحقيقي
للكلمة. إنهم كائنات
بلا وجوه ولا تاريخ
ولا مصير، إنهم
أدوات لا تتكلم ولا
تضحك ولا تفكر،
إنهم زوار لا يأتون
إلا في الفجر

بينها واحد يفتش الجيوب..» (ص 20 - 21).

فما يحكم بناء العالم الأول يحكم بناء الثاني، فالأول لا يمكن أن يوجد إلا بوجود الثاني. فالأصل في الحياة متعة ولذة وانسراح وانطلاق. وما بين هذا وذاك خرق للنظام الإنساني.

ويحق لنا الآن أن نتجاوز الأسماء لنقف عند الصفات. فـ«ميم» ليس شخصا ولا حتى مجموعة من الأشخاص. وإنما هو المناضل في صيغته المثلى، كما يمكن أن يتجسد في عشرات النسخ النضالية. وبالمثل فإن هؤلاء ليسوا كائنات بل هم القمع في صيغته التجريدية القصوى. إنهم ليسوا أشخاصا، بل رموز لحالات سلطوية تأتي بها الرواية من أجل استعادة ما قدمته «الأنا» في الفصلين الأول والثاني على شكل قوى قابلة للإدراك والضبط والتحديد. وليس غريبا أن يتم الربط باستمرار بين قوى طبيعية لا يعرف لجبروتها حد (الفصلين الأول والثاني)، وبين قوى الشر البشري مجسدا في أبشع صورة ابتدعها الإنسان: الاختطاف والاغتيال.

فما يبدو وكأنه هلوسة لا طائل من ورائها يخفي في واقع الأمر البدايات الأولى للخيطة السردية. فـ«الأنا» التي فقدت السيطرة على نفسها وبدأت تشك في كل شيء، كما

يبدو ذلك من خلال الصيغة الاستهلاكية «كأنني»، تقوم برسم حدود كون موسوم بالتشظي والغرابة واللاعقلانية، إنه كون يحكمه جنرالات قساة لا يرحمون. وعندما تنتهي من ذلك، تمر إلى تحديد حالة مخصوصة في الزمان وفي المكان: «ميم» الذي اختفى. فكل ما سيحدث بعد إعلان «الأنا» عن نفسها من خلال هذه الصيغة سيتأرجح بين الشك واليقين، بين الحلم واليقظة، بين الوهم والحقيقة، بين الواقع والخيال. وكل ما في هذا العالم يدفع إلى ذلك، فالموت نهاية، أما الاختفاء فبداية لكل الاحتمالات.

وهذا ما يفسر توزع الرواية إلى قسمين متميزين من حيث الانتماء والبناء والصوت. فبينما لا نقرأ في القسم الأول الممتد من ص 7 إلى ص 18 سوى أحكام على أشياء ومواقف من حالات ووصف لأوضاع، تنتقل بنا الرواية إلى سرد أحداث مرتبطة بحياة شخص له منزل وجيران ووظيفة، وهو القسم الذي يشتمل على الحكايات الأربع.

فابتداء من الصفحة 18 ستنسل هذه «الأنا» شيئا فشيئا من هذا العالم الكفكاوي الذي لا ضابط لعناصره، لكي تبدأ في الاقتراب من التشخيص الحديثي، أي تقص علينا أحداثا. وستحول القوى الموصوفة سابقا

فما يحكم بناء العالم الأول يحكم بناء الثاني، فالأول لا يمكن أن يوجد إلا بوجود الثاني. فالأصل في الحياة متعة ولذة وانسراح وانطلاق. وما بين هذا وذاك خرق للنظام الإنساني.

على شكل تداخلات فضائية وزمانية لا رابط بينها، إلى عناصر محسوسة ومدركة من خلال صيغ الفعل البشري المعقول. لحظتها يظهر «ميم» منفردا و«معزولا» ومميزا عن باقي شخصيات النص، فهو لا يكلم أحدا ولا ينظر إلى أحد، تقول الرواية :

« وقد راعني حقا أن يقع بصري وأنا في حركتي المتموجة على عينين سبق لي أن عرفت صاحبهما وقتا لا بأس به فالرجل كان يجلس صدفة دائما إلى جوار طاولتي في المقهى الذي تعودت ارتياده للقاء بعض الأصحاب يدخل من الباب ملقيا نظرة مركزة على مقعده المعتاد وتراه منفرج الأسارير إذا بدا له خاليا من أي جليس فيرتمي عليه وقد صدر عنه بعض الهمس السلام عليكم لا يوجهها إلى شخص محدد وخلافا لرواد المقهى لا تراه يتهافت على قراءة الصحف المتداولة بالمجان..» (ص 18).

فكل ما يمكن أن نقرأه في بداية السرد هو خطاب يروم التمييز والتخصيص وخلق حالة للتفرد، إنها الخاصة الأولى، وربما الوحيدة، التي يدخل من خلالها البطل إلى الأحداث، وهي التي ستلازمه حتى لحظة (أولحظات) اختفائه. إلا أن التقديم ذاته ليس بريئا. فهو في ذاته لحظة انفصال عن المعتاد والمألوف،

إنه إعلان عن ميلاد بطل، أو هو بشرى للكون بظهور ولي يخرج عن المعتاد من خلال سلوكه وضحه وكلامه.

ولأن هذا البطل لا يشبه الأبطال العاديين، فإن النص الروائي يسارع ويقدم لنا أربع حكايات كلها تتحدث عن «ميم» : حياة المعلم الذي ظهر فجأة في الحي ثم اختفى، ثم حكاية التاجر الذي ظهر أيضا ثم اختفى، تليها بعد ذلك حكاية المراقب الذي راح يدبج مقالات عن الفساد والمحسوبية ليلقى نفس المصير، وفي الأخير تقدم لنا الحكاية الرابعة مستحما لا يهتم الاستحمام في شاطئ سيدي بوزيد، فقد تجرأ واقترب من «البنية الكبيرة» وكلم الأسماك لكي لا يظهر له بعد ذلك أثر. إنها حكايات ترصد الخارق والشاذ وغير المعتاد في سيرة البطل الذي لا يولد إلا لكي يختفي عن الأنظار. وهي ذاتها لا يمكن أن تفهم إلا في علاقتها بخطاب «الأناء» التي هددت كيان العالم وأدانت حكاه وقوانينه.

إنها حكايات ترصد

الخارق والشاذ وغير

المعتاد في سيرة البطل

الذي لا يولد إلا لكي

يختفي عن الأنظار. وهي

ذاتها لا يمكن أن تفهم إلا

في علاقتها بخطاب «الأناء»

التي هددت كيان العالم

وأدانت حكاه وقوانينه.

البطل بين الحدث الواقعي والبعد الأسطوري

استنادا إلى هذا، فإن «الأناء» التي تصوغ خطابا حول موقفها من الأرض والسماء والانفجارات والجنرات وكل أبعاد التوتر الإنساني، ستكون هي وحدها القادرة على الكشف عن العمق التشخيصي لهذا

التوتر في وقائع حدثية تلقي للتداول السردى كائنات تتحرك ضمن فضاء اجتماعي قابل للإدراك والمعاناة. فهذه الوقائع المشخصة هي السبيل الوحيد لفهم ما يقامه القسم الأول وإدراك مضامينه كلها.

وهكذا ، إذا كان النص الروائي يسمح لنا، من خلال تنظيمه التيبوغرافي ذاته، يقودنا إلى عزل وحدات نصية قابلة للقراءة في استقلال عن بعضها البعض، بفعل وجود فواصل مرئية مؤسسة لدلالة جزئية (كل حكاية قابلة للقراءة وفق قوانينها الداخلية وفي انفصال عن الحكايات الأخرى)، فإن الانتقال من هذه الوحدة النصية إلى تلك أو من هذه الحكاية إلى تلك، لا يسير وفق شروط خطية الحكى، فلا شيء يربط، على مستوى الحدث، بين الحكاية الأولى والثانية أو بين الثالثة والرابعة، فبالإمكان تغيير ترتيب الحكايات دون أن يلحق بالرواية أي خلل. إن هذا الانتقال ممكن فقط من خلال ما يمكن أن يشكل توترا على مستوى بناء الوحدات الدلالية ذاتها، أي ما يمكن أن ينتج عن محاولة البحث عن تناظر دلالي عام قد يكون قادرا على أن يوحد بين أنسجة سردية لا رابط بينها على مستوى الحكى الظاهري.

ونقصد بالتناظر الدلالي العام تلك العناصر التي تسند المسار

التأويلي المنتقى الذي يقود، من خلال البناء السردى ذاته، إلى الكشف عن الوحدات المضمونية المتولدة عن بناء شخصية البطل من جهة، وعن المضامين المرتبطة بثيمة اختفائه من جهة ثانية.

فكما أن البناء الروائي مغرق في الغرابة، فإن الاختفاء لا يمكن أن يكون هو الآخر إلا غريبا. إذ كيف يمكن أن نصالح بين المعلم والتاجر والمراقب والمنتزه على شاطئ البحر، وكلهم ينتمون إلى عوالم لا يوحد بينها سوى إشارات يسر بها السارد من حين إلى آخر في غفلة عن القراء، إخفاء الأصل، والزيارات السرية، واستقبال زوار غرباء، ثم الاجتماعات تحت جناح الليل بأشخاص ملثمين، لا يكشف سرهم سوى زوار آخرين يرتدون زيا أسود، فيحدث الاختفاء ثم الظهور ثم يتلوه اختفاء جديد. وعلى الرغم من ذلك فبالإمكان إقامة المصالحة بينهم وإيجاد رابط دلالي خفي يوحد بين المصائر والحكايات، وهذا الرابط هو وحده الكفيل بأن يعيد للخيوط السردية انسجامه ومنطقيته. إن السبيل الوحيد للوصول إلى ذلك يمر، بالتأكيد، عبر البحث في الصفات المسندة إلى الشخصيات الأربع. فهذه الشخصيات، بغض النظر عما يربطها بالكائن البشري في صورته العادية،

ونقصد بالتناظر
الدلالي العام تلك
العناصر التي تسند
المسار التأويلي المنتقى
الذي يقود، من خلال
البناء السردى ذاته، إلى
الكشف عن الوحدات
المضمونية المتولدة عن
بناء شخصية البطل من
جهة، وعن المضامين
المرتبطة بثيمة اختفائه
من جهة ثانية.

تأتي كلها إلى الوجود القصصي من خلال صفات لا تسند إلا للأولياء والصالحين ومن شابههم.. إنها صفات تجعل من المعلم والتاجر والمراقب «ميمات»، أو تجعل منهم «ميماء» مفردا يحتوي على كل الميمات الممكنة.

إننا لا نستطيع أن ندرك كنه هذا النمط من البناء الحكائي إلا من خلال الكشف عن ثلاثة إجراءات سردية تقود، مجتمعة، إلى نحت الصورة الكلية والممكنة المرسومة للبطل المناضل. فمن خلال هذه الإجراءات تتوحد «الأنا» بـ «الميمات» المختلفة وتضع نفسها ضمن عالم اكتفت في البداية بوصف حدوده ومفاصله :

- الإجراءات الأول هو ما أطلقنا عليه في الفقرة السابقة إضفاء الطابع الأسطوري على أجواء الحكاية. والأسطوري هنا ليس خلقا لعالم خيالي لا رابط بينه وبين ما يؤث الكون الإنساني العادي، وإنما هو إجراء يقوم «بنقل الحدث الواقعي داخل حدود الخرافة» على حد تعبير توماس بافيل⁽²⁾. إنه ما يمكن الكائنات والأحداث من خلق مسافة بينها وبين القارئ. وهذه المسافة وحدها تجعل من حقيقة الحكاية أكبر من حقيقة الواقع وأكثر منها تأثيرا. فبقدر ما تصبح هذه «الأحداث» وهذه الكائنات مستعصية على

الإمساك «الواقعي»، تصبح قريبة ومرئية بشكل أكبر⁽³⁾. إن الأمر يتعلق بصيغة للتخلص من لخاص في أفق الاحتفاء بالعام وتمجيده. وهذا ما تقوم الرواية، عبر صوتها السارد، بصياغته بطريقتها الخاصة. إنها تضخم وتهول أحيانا، وترسم كونا تنتفي فيه مقاييس الأرض أحيانا أخرى. وهي بين هذا وذاك تقدم عالما أشبه ما يكون بالأساطير (أشخاص يظهرون ثم يختفون، زوار لا نعرف من أين يأتون، أسماك تتكلم).

- استنادا إلى هذا الإجراء يمكن فهم الصيغة السردية الثانية. فالرواية لا تتحدث، من خلال تقديم شخصياتها ومن خلال صياغة أحداثها، عن شخصية مخصوصة لها من العمق والسبك ما يجعل منها كيانا متفردا، إنها، على النقيض من ذلك، تنسج صورة إنسانية كلية تحتضن كل الصفات التي يمكن أن تسند للبطل المناضل. فالبطل هنا يحيل على نموذج وليس على نسخة، إنه الأصل التجريدي وليس الفرع المشخص.

- وهذا ما يقودنا إلى الإجراء الثالث، وهو إجراء خاص بالوصف الفيزيقي للشخصيات. فالنص يتحاشى الاقتراب من وصف الوجوه أو القامات أو الألوان. إنه يكتفي

فالرواية لا تتحدث،
من خلال تقديم
شخصياتها ومن
خلال صياغة
أحداثها، عن
شخصية مخصوصة

لها من العمق
والسبك ما يجعل
منها كيانا متفردا،
إنها، على النقيض
من ذلك، تنسج
صورة إنسانية كلية
تحتضن كل الصفات
التي يمكن أن تسند
للبطل المناضل.

بالإحالة على مواصفات معنوية لها علاقة باللفظ وحسن المعاملة والكماسة. إنه، بذلك، يقدم لنا بنية شكلية نتعرف من خلالها على نوعية من الناس وليس على كائن مخصص.

ولعل هذا ما يجعل من الحكايات الأربع، إضافة إلى خطاب «الأنا»، حكاية واحدة، ويجعل من المعلم والتاجر والمراقب والمتجول في شاطئ سيدي بوزيد شخصية واحدة، أي «ميم»، ميم المناضل الذي نذر حياته خدمة للوطن وقضاياه.

وهذا ما يفسر انتقال السارد، وبدون سابق إنذار، من الصياغة التجريدية إلى الفعل الحدثي بحصر المعنى. والفعل الحدثي يبدأ حين ينقل لنا السارد ما تقوله حارسة العمارة عنه، أي ما تقوله عن «الأنا» التي تأتي بأخبار «ميم».

«وأنا أحيانا أنظر إليه فأرى في عينيه بريقا غريبا لا أجده عند غيره ولا أفصح أن أتحدثه إذا ما التقيت به صدفة فأجدني منجذبة وراءه وهو صامت قل أن يتكلم وفهمت لماذا شاهدت يوما تجمهرا عند مدخل العمارة حين رأيت رجالا ونساء متعلقين حوله وأبصارهم متطلعة إليه بخشوع ولهفة ما بعدها إلا العبادة وهو واقف وسطهم أصم وبعد دقائق أوما لهم بحركة فأخذوا يقتربون ويتمسحون بثيابه وينصرفون واحدا

واحدا فسألت زوجي وهو محب للصالحين هل يكون بيننا ولي صالح ولا نعرف» (ص 53).

إننا نغادر عالم الأحكام والصفات المطلقة لنلج عالم تسريد الصفات والأفعال بامتياز. فكما ينسل العالم المشخص (حالات الفعل الإنساني المسرد) من العالم المجرد، ينسل «ميم» من أحشاء «الأنا» ويصدر عنها، فهي «نسخه» والنسخ هو اللب والنقش والأصل. إنها الأصل والمنطق والمنتهى. إنها كذلك لأنها هي المالكة للرؤيا وهي التائهة والطائرة والمبحرة، وفي المقابل، فإن «ميم» هو العارف بالرؤيا وبسر البشرى والمرتبط بقضايا الأرض. تقول «الأنا» مرة أخرى:

«واقتادوني نحو عمود كهربائي وقالوا سنعلقك من أنفاسك رغم أنك تطير وسنسد جميع المنافذ جهة البر والبحر ولن تستطيع أن تتسلل بعد إلى خيال أحد وتعشش فيه وتفتن الدنيا عن الدنيا. وأنا الآن معلق بين أرض وسما ولا أرى. وهم آتون إليك قلت ألا أكفيكم دعوه وشأنه، أجابوا كلا هو نسخك وهو العارف بتأويل الرؤيا وأنواعها فهل يعقل أن يمضي دون أن يشرح لنا معنى البشرى والتحذير والمنام إنكم واهمون فطريقي غير طريقكم وأنا وحدي أراه ولن أبقى لكم في الأرض سوى خيال شاحب من ظلي» (ص 56).

ولعل هذا ما يجعل من الحكايات الأربع، إضافة إلى خطاب «الأنا»، حكاية واحدة، ويجعل من المعلم والتاجر والمراقب والمتجول في شاطئ سيدي بوزيد شخصية واحدة، أي «ميم»، ميم المناضل الذي نذر حياته خدمة للوطن وقضاياه.

وهكذا نكون أمام حالة تشبه حالات الحلول، الحلول هنا بالمفهوم الصوفي والسحري للكلمة معاً. فالنص يأبى أن يفصل بين عوالم الكيانين، وغايته من ذلك، خلق حالة امتداد لا تنتهي : الامتداد في الفكرة والامتداد في كل الذوات الممكنة. فالرؤيا معرفة للغيب واستشراف للآفاق، وهي القدرة أيضاً على التأثير في مصائر الناس. وهذا لا يصدر إلا عن ذوي الكرامات.

إن البناء الأسطوري (والبناء الخرافي كذلك) لا يختلف في شيء عن هذا. فالذات العارفة هي غير ذات التشخيص، فلا بد من وجود محفل أعلى غير مرئي يحرك سرا أو علناً ذواتاً منذورة للموت أو الاختفاء. ولهذا فإن الصوت السردى ينطلق من ممتد حكائي لا يمكن أن تُعرف له بداية لكي تبحث له بعد ذلك عن منبع يفسره.

وعلى هذا الأساس، فإن ما تعيشه «الأنا» بمثابة إمساك كلي بالكون، تنديد مطلق بكل ما يحد ومن يحد من انطلاقة الإنسان وتحرره، يقوم «ميم» بتجسيده في حكايات صغيرة تروي تفاصيل الحياة وهموم الحارات والأزقة والأحياء المنسية. وكما في الحكايات الشعبية، حيث يأتي البطل من مكان قصي ليخلص أهل القرية من جبروت الطاغية، يأتي البطل في

الرواية من مكان بعيد (من البادية أو الريف عموماً) ليعيد للأشياء رونقها، ويعيد للعلاقات صفاءها، إنه يأتي لكي يصلح بين الناس ويراضيهم ويبعث الأمل في القلوب.

- «وهو فقيه وسبحان الله النور شاعل من عينيه وابن بركة» (ص 83).

- «وكان يوماً أشبه بالعيد تبودل فيه العناق وساده المرح وسمعت النسوة وهن يدعون له بطول العمر ويلتمسن منه البركة» (ص 87).

- «أبصارهم متطلعة إليه بخشوع ولهفة ما بعدها إلا العبادة» (ص 53).

وبالتأكيد فلسنا هنا أمام عالم الأساطير ولا الخرافات، فالبطل لا يخلق في السماء ولا تبليه الأرض ولا يمشي فوق الماء كما تفعل ذلك كائنات الأساطير، ولكنه مع ذلك له شيء من الأساطير والخرافات، فهو محاط بهالة من الأسرار، فلا أحد يعرف اسمه ومهنته ولا أحد يعرف من أين جاء ولماذا، إنه يدخل فجأة إلى الحي ليملأه حبا، ثم يختفي بنفس الطريقة :

- «لم يكن اسمه الحقيقي معروفا» (ص 80).

- «لم يكن أحد يعرف مهنته» (80).

- «ولذلك حين جاء هو انتبهنا إلى

وكما في الحكايات

الشعبية، حيث يأتي البطل

من مكان قصي ليخلص

أهل القرية من جبروت

الطاغية، يأتي البطل في

الرواية من مكان بعيد

(من البادية أو الريف

عموماً) ليعيد للأشياء

رونقها، ويعيد للعلاقات

صفاءها، إنه يأتي لكي

يصلح بين الناس

ويراضيهم ويبعث الأمل

في القلوب.

شكله واشتغلنا في البحث عن أصله وفصله» (ص 94).

إلا أن التشخيص الذي يقود إليه الفعل السردي لا يحد من غلواء خطاب «الأنا» الأولى. فـ «هو» الجديد لا يقل غرابة عن «الأنا» الأولى. وما يفصل بينهما هو أن الأولى تتهدد وتتوعد في حين يدعو الثاني الآخرين إلى الفعل. إن «الهو» مركز لا بالنسبة لنفسه بل في علاقته بالآخرين. إنها منبع الخير والصدق والأمانة والبركة. إنها كينونة لتجسيد خير مطلق وصدق مطلق. وما قلناه في الفقرة السابقة، يمكن أن نعيده هنا. فالفعل التشخيصي لا يقدم لنا ذاتا مخصوصة، بل يضعنا أمام نموذج تثوي داخله النسخ القابلة لتجسيد الخير أو الصدق. إن القصة المخصصة لا تشكل سوى سند لنموذج قصصي يجد امتداده في حكايات أصحاب الكرامات وأولياء الله الصالحين. وتلك هي طريقة المجتمع «الشعبي» في تبجيل أبطاله. فعادة ما تعود الحكايات إلى تاريخ البطل، ميلاده وطفولته لإثبات صفة البطولة المبكرة.

وهكذا فمن أجل تأكيد الحقيقة

المثلية كان لابد للنص الروائي أن يتخلص من ظلال القصة الحقيقية». وستمتلك الذات الساردة، بتخلصها من هذه «القصة» حرية في التأليف، بإمكانها حينئذ أن تحذف وتضيف وتضخم دون حرج أو تحفظ. وبذلك تبدأ الحدود الواقعية المسيجة للقصة بالاضمحلال شيئا فشيئا، لتفتح المجال للعنصر الأسطوري لكي يفرض «حقيقته»، وحقيقته الوحيدة، في حالتنا، هي كلية الصورة التي يجب أن تعطى للبطل.

وبذلك تبدأ الحدود
الواقعية المسيجة
للقصة بالاضمحلال
شيئا فشيئا، لتفتح
المجال للعنصر
الأسطوري لكي يفرض
«حقيقته»، وحقيقته
الوحيدة، في حالتنا،
هي كلية الصورة التي
يجب أن تعطى للبطل.

إن الطابع المثلي للقصة يستمد جذوره من حقيقة غير خيالية (يمكن بالفعل أن نجد في تاريخنا المعاصر نظيرا أو نظائر لهذه «الميم»)، وذلك من أجل تعميم الحقيقة المثلية ونشرها. ولهذا فإن كل الامتدادات التي ستأتي بعد ذلك لن يتحكم فيها أحد. فالقصة عندما تتخلص من إرغامات الإحالة الواقعية تصبح بؤرة لتوالد كل القصص الممكنة، وما رواية أحمد المديني سوى شاهد على ذلك، فهي نسخة ضمن عشرات النسخ المنتشرة في المغرب حول «ميم» وكل «الميمات» الذين ماتوا أو اختفوا من أجل هذا الوطن.

هوامش

١ - حكاية وهم : أحمد المديني، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢

٢ - Thomas Pavel : Univers de la fiction, éd Seuil, Paris 1988, p. 100

٣ - Thomas Pavel : Univers de la fiction, éd Seuil, Paris 1988, p. 102



عبد الرحيم مؤذن

الأعمال غير الكاملة

لـ "محمد زفزاف"*

للجنس الإبداعي من جهة، ومن المسهمين في تطويره من جهة ثانية، ومن المحافظين على استمراره من جهة ثالثة.

2- إعادة الاعتبار للذاكرة المغربية التي يدين قسم كبير منها للمنتوج الإبداعي.

3 - ترميم المسار الثقافي المغربي، وردم الهوة بين الأجيال والتيارات أو المدارس، ووصل اللاحق بالسابق والسابق باللاحق.

هذه الدوافع المفترضة في النشر، تسمح لنا بالانتقال إلى النصوص ذاتها بعيدا عن سياقاتها الخارجية. ومن ثم سنحاول قراءة النص [النصوص] في انتسابه النصي أو النوعي [المرجعي] قبل انتسابه الخارجي [إخراج النص]، دون أن يمنع ذلك من المراوحة بين الداخل والخارج. فالنص يتنفس برئتين عوض رئة واحدة.

لعل نشر الأعمال الكاملة⁽¹⁾ - أو على الأصح غير الكاملة - لـ محمد زفزاف، في ميدان القصة والرواية، من أهم المنجزات الرمزية، في المغرب، مع نهاية الألفية الثانية.

ولاشكّ أن كتاباً مغاربة سابقين⁽²⁾، ولاحقين أيضاً، قد جمعت أعمالهم، أو أهمها على الأقل، في السياق ذاته، خاصة أن تجربتهم الإبداعية هي تجربة الثقافة الحديثة بالمغرب. ولم تقف هذه التجربة عند حدود الإضافة الإبداعية، كمّاً وكيفاً، بل إنها امتدت إلى صياغة التاريخ والوجدان لهذه الأمة.

بإمكاننا قراءة الدوافع الأساسية لهذا النشر، والتي يمكن إجمالها في التالي،

1 - الريادة الزمنية لهؤلاء الكتاب. فهم، من ناحية، من المؤسسين

* واضح من سياق هذه القراءة ومسارها أنها كتبت قبل وفاة الأديب القاص والروائي محمد زفزاف (1945-2001).



بواقعيتهما الحادة المسربلة، أحيانا، بالنفحة الوجودية الستينية(6)، و«بائعة الورد»، كآخر مجموعة في الجزء الثاني، مسافة عريضة من الصيغ والأساليب القصصية المنضوية تحت لواء الواقعية، التي اغتنت بتنويعاتها العديدة عبر التجربة العريضة للكاتب.

ج- والواقعية- بفضل هذا التجاور النصي - تصبح «واقعيات»، إذا صح التعبير، فإلى عهد قريب كان النقد الصحافي يلخص تجربة «محمد زفزاف»، في انتمائها إلى الواقعية النقدية(7). ولم تسلم من ذلك بعض الدراسات الجامعية، غير أن الكتابة الواقعية لدى «محمد زفزاف»(8)، لم تكن- بالرغم من إيهامها بذلك- نصا مرأويا مطعماً بالحاسة النقدية، بل كانت هذه الكتابة الواقعية متميزة بالتالي :

+ - بتقديم المختفي وراء الظاهر. أو بعبارة أخرى : تقديم الحياة السرية للمظهر الإنساني. وهذا السبيل هو الذي سلكه كبار كتاب الواقعية الذين ركزوا على وصف العلاقات الخفية المتحكمة في المسلكيات الإنسانية(9).

+ ظل الراوي المحايد - وهو أقنوم من أقانيم هذه الواقعية - في هذه التجربة ممسكا بخيوط اللعبة. وبإمعانه في الحياء، يزداد إمعانا في اختراق الظاهر بهدف الوصول إلى

1 - في القصة القصيرة(3) ،
الجزءان المخصصان للقصة القصيرة عند «محمد زفزاف»، يقدمان التجربة القصصية للكاتب، انطلاقا من المجموعة الأولى(4)، إلى آخر - وليس آخر - نصوصه المنتسبة إلى المجموعة(5) ما قبل الأخيرة. وإذا كانت النصوص القصصية لـ «محمد زفزاف» قد حظيت بحفاوة نقدية، في المشرق والمغرب، فإن إعادة نشرها، متجاوزة، بين دفتي كتاب ينتج الملاحظات التالية، من خلال عامل «التجاور» المتحكم في هذه النصوص، بأبعاد مختلفة :

أ - التجاور منتج للتراتبية الزمنية بين النصوص الخاضعة للمفهوم «الكرنولوجي» التعاقبي بين النص الأول والنص ما قبل الأخير. ومن الطبيعي أن يسمح هذا التجاور النصي للقارئ بمتابعة هذه التجربة في مختلف مراحلها ومحطاتها الزمنية أو التاريخية، على اختلاف القراء، علما أن الجانب الكمي له أهميته ووظيفته المرجعية والفنية أثناء القراءة.

ب - هذا - التجاور - يسمح، أيضاً، برصد التجربة فنيا أو بنائياً مادامت هذه النصوص القصصية تجسد أنماطاً من الكتابة القصصية، وأنساقاً من الصياغة السردية المخلصة لثوابت الكتابة القصصية لدى «محمد زفزاف». فبين «حوار في ليل متأخر»

وإذا كانت النصوص القصصية لـ «محمد زفزاف» قد حظيت بحفاوة نقدية، في المشرق والمغرب، فإن إعادة نشرها، متجاوزة، بين دفتي كتاب ينتج الملاحظات التالية، من خلال عامل «التجاور» المتحكم في هذه النصوص، بأبعاد مختلفة :

الباطن. وهذه هي المقدرة الإبداعية المميزة للكاتب «محمد زفزاف» الذي يظل محافظاً، في قصصه، على المسافة الضرورية بين السارد ونصه. ومن ثم فالراوي المحايد هو راوٍ منفصل عن النص ومنتسب إليه في آنٍ واحد.

+ استطاع عنصر التجاور أن يقدم لنا التطور الهادئ للواقعية عند «محمد زفزاف»، إنها واقعية لا تدبر ظهرها للأسلاف، ولكنها ترهف السمع، جيداً، للأحفاد. واقعية تنمو، على مهل، عبر هذه النصوص، مستفيدة من الرصيد المتجدد لهذا الاتجاه الأدبي الذي يبدو أنه قدّر لا مفر منه للأدب والأدباء، بالرغم من الإضافات الجديدة، والمستمرة، لهذا الاتجاه في تجارب عالمية مختلفة.

+ قدم لنا عنصر التجاور بعض المؤشرات الدالة منها: ما العلاقة بين الأدب المغربي والأدب الشرقي في مجال الإنتاج والنشر؟ ما العلاقة بين الأدبين - من حيث التأثير والتأثير - بحكم التوازي والتقاطع بين «محمد زفزاف» والعديد من كتاب القصة في مصر ولبنان وسوريا؟(10).

ما العلاقة بين التيار الستيني ب «مصر»، وبداية التيار الستيني في الأدب المغربي الحديث؟

إنّ هذا الطبع لهذه النصوص

المجموعة، في دفتي كتاب، يسمح لنا باسترجاع «ذاكرة النص». وذاكرة النص قد تضعف، أحياناً، بسبب عدم التواصل بين أجيال الكتابة، أو قد، يتم إضعافها، أحياناً أخرى، لأسباب عديدة، عن جهل أو تجاهل، كما هو الشأن في العلاقة بين السياسي والثقافي، مما دفع بالبعض إلى البحث عن بداية وهمية للقصة المغربية(11).

+ استطاع عنصر التجاور

أن يقدم لنا التطور

الهادئ للواقعية عند

«محمد زفزاف»، إنها

واقعية لا تدبر ظهرها

للأسلاف، ولكنها ترهف

السمع، جيداً، للأحفاد.

واقعية تنمو، على مهل،

عبر هذه النصوص،

مستفيدة من الرصيد

المتجدد لهذا الاتجاه

الأدبي

والمأمل لهذه الطبعة. لا يقف عند حدود العلاقات الزمنية المؤطرة للنص، بل يمتد إلى العلاقات الفضائية على مستوى النص، تلك التي تفاعلت عناوينها وشخصياتها ولغاتها. فعناوين النصوص على سبيل المثال، تقدّم لنا تاريخاً رمزياً أو استعارياً للمجتمع المغربي انطلاقاً من تحولات المهمشين - الفئة الأثيرة لدى الكاتب - مروراً بالمحطات الدالة مثل «الشجرة المقدسة»، فضلاً عن مظاهر الفساد والانحراف التي عبرت عنها قصص كثيرة في مجاميعه القصصية المتعددة.

+ وإذا كانت هذه الطبعة الهامة

لنصوص «زفزاف» متابعة

«بانورامية» لمجموع هذه التجربة إلى

حد الآن، فإنها متابعة «مشهدية»

أيضاً لهذه التجربة. فنصوص القصة

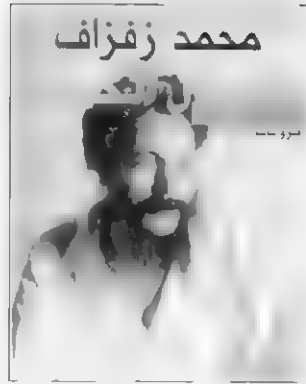
القصيرة الواردة تكشف عن ما أسماه

«محمد برادة» بـ«التقنية الزفزافية»

الصراع على المواقع السردية بين الطرفين عبر هذا المتن السردى الخصب لـ «محمد زفزاف».

3 - سمحت المساحة الروائية ببلورة الحس الساخر لدى الكاتب. وتجلت هذه السخرية في المعجم وتجلياته اللغوية البارزة في الحوارات المحبوبة من جهة، أو في التنوع اللهجي للمتكلمين من جهة ثانية. كما أن هذه السخرية قامت على عنصر المفارقة المبكي والمضحك في آن واحد. والقارئ لهذه الطبعة الجديدة لأعمال «محمد زفزاف» يلمس هذا التنوع الغني للمظاهر الساخرة في اللغات والمسلكات والأوضاع الاجتماعية والنفسية للشخصيات الروائية، فضلا عن استثمار الكاتب للغة الجسدية في أفق العرض الساخر للمشاهد الروائية المتعددة.

4 - ظل «محمد زفزاف» يعزف على الحمولة اللغوية - أسلوبا - المتوزعة بين اللغة في درجة الصفر، واللغة أو الأسلوب القابل للتأويل المتعدد. لقد استطاع «محمد زفزاف»، من خلال هذه الطبعة الجديدة، أن يقدم لنا هذه الصياغة الأسلوبية ذات الخصائص المميزة، والتي أصبحت تدل على وجودها قبل أن تدل على وجود صاحبها. وأصبح بإمكاننا أن نتعرف على هذه النصوص ولو في حالة عدم وجود



محمد زفزاف

في الرواية : استطاع
«محمد زفزاف»، منذ
روايته الأولى (المرأة
والوردة) إلى آخر نص
روائي [أفواه واسعة]

أن يؤسس سرداً مميزاً ضم
الكثير من ثوابته الحكائية
[الراوي المحايد/المختفي
الدال على الظاهر/الوصف
الخديم للسرد]

التي أشرنا إلى بعض ملامحها الأساسية. ومن ثم، يسهل على القارئ امتلاك حس نقدي قد لا يخلو من عفوية، غير أنه عن طريق هذا التراكم يصبح قادراً على ملامسة الثابت والمتغير في هذه التجربة (12).

II - في الرواية : استطاع «محمد زفزاف»، منذ روايته الأولى (المرأة والوردة) إلى آخر نص روائي [أفواه واسعة] أو النص ما قبل الأخير، أن يؤسس سرداً مميزاً ضم الكثير من ثوابته الحكائية [الراوي المحايد/المختفي الدال على الظاهر/الوصف الخديم للسرد] المنسجبة على القصة القصيرة والرواية في آن واحد، كما أن هذا السرد الروائي يحمل وبفضل هذا الطبع الجديد خصائصه البارزة التي يمكن إجمالها في الآتي :

1 - الحضور السردى للراوي - الشاهد على المروي. فالتجربة السردية لـ «محمد زفزاف» تقوم على هذه الشهادة الاستعارية الممارسة من قبل راوي يوجد خارج النص، وهو، في نفس الآن، يحل في شخصياته التي تأخذ نصيبها من السرد بدون زيادة أو نقصان.

2 - هكذا يصبح [السارد العليم] قادراً على تحقيق المعادلة الصعبة بين احتكاره للسرد وديمقراطيته، في الوقت ذاته ، ولم يحدث أن برز

عقود، تغيرت فيها موضوعات هذه
الكتابة من جهة، وتأرجحت، أجناسياً،
بين القصة القصيرة والرواية من جهة
ثانية، ولكنها، بالإضافة إلى هذا
وذاك، كانت تزداد يناعة في الوقت
الذي تزداد فيه عتاقة وتجذراً.

اسم العلم. ومن ثم، يمكن القول، إن
«محمد زفزاف»، يكتب بعينين
مغمضتين. إن هذه الطبعة الجديدة
لأعماله الكاملة تقدم لنا تجربة سرّية
غنية امتدت ما يقرب من أربعة

هوامش

- 1- وهي الأعمال الصادرة عن وزارة الثقافة، في أربعة أجزاء، التي قامت، مشكورة، بجمع ما نشره الكاتب في القصة القصيرة والرواية. (منشورات وزارة الشؤون الثقافية 1999). وتجدر الإشارة إلى أن العنوان، على أهميته، الذي تحمله هذه السلسلة كان من الأفضل. والكاتب كان آنئذ مازال يمارس وجوده الإبداعي في الساحة المغربية. أن يكون، الأعمال غير الكاملة، كما هو متعارف عليه في هذا المجال، انظر مثلاً، تجربة «غادة السمان» في أعمالها غير الكاملة، وهناك أمثلة أخرى.
- 2- أعمال عبد الكريم الطبال على سبيل المثال.
- 3- الأعمال الكاملة.
- 4- وهي مجموعة «حوار في ليل متأخر».
- 5- وهي مجموعة.
- 6- انظر كتابنا: الشكل القصصي في القصة المغربية، ج. 2، دار عكاظ، الرباط، ص 409 وما بعدها.
- 7- وساهم فيها النقد الجامعي المغرم بالتوصيفات القبلية للمفاهيم النظرية المخلوعة على التجربة الإبداعية أحياناً، والمقايضة لنص غائب أحياناً أخرى.
- 8- وإلى عهد قريب، كان «نجيب محفوظ، [زولاً] العرب، وكان «عبد الكريم غلاب» في «فنا الماضي» [محفوظ المغرب] واللائحة مفتوحة. وهذه العلاقات من التأثير والتأثير المتوفرة في كل منتوج أدبي ليست قدراً لا فكاك منه، بل إنها تفاعلات نصية يحولها الكاتب اللاحق، بصيغ عديدة، سواء عن قصد أم عن غير قصد.
- 9- وهذا هو جوهر الواقعية المرادفة لكل أدب عظيم، فالواقعية لا زمن لها، انطلاقاً من «هوميروس» إلى «توماس مان» على حد تعبير «لوكاتش». أو بعبارة أخرى: الواقعية هي معرفة قوانين الظاهرة الاجتماعية في جوهرها الحقيقي الذي لا يشكل الجزء الظاهر منه سوى ثلث جبل الجليد العائم، و«هيمنجواي» كان يدعو دائماً إلى وصف العلاقات قبل وصف المظاهر.
- 10- لم يلتفت النقد المغربي إلى هذه «العلاقات المقارنة» في الكتابة القصصية بين تجربة «محمد زفزاف» وكبار الكتاب المشاركة مثل نجيب محفوظ، و«يوسف إدريس» من جهة، وبين كاتبنا وبعض التجارب الأخرى، من جهة ثانية، الواردة عند «غادة السمان».
- 11- مثل الآراء التي تقول ببداية الأدب المغربي الحديث الستينية مع إغفال تام لتاريخية هذا الأدب ومحطاته السابقة.
- 12- ولا نحتاج إلى التذكير بأن جمع النصوص السردية في طبعة واحدة قائمة الذات، يسمح بامتلاك - والكثير منها نفذ من السوق الثقافية - النصوص مادياً، كما أنها - من جهة أخرى - تمكن من امتلاك الأدوات المنهجية الأولى في القراءة والمقارنة والترتيب والنمذجة، الخ.



عزيز أزغاي

«حلقة رواة طنجة»*

أو الديكة التي تبيض ذهباً!

قليل من الجهد الواضح، جعل كثيراً من هذه الأحكام الحذرة والمسبقة تتوارى بعض الشيء، متيحة الفرصة لإعمال رحمة الاشتغال المتفحص على هذه النصوص ومساءلتها، انطلاقاً من خلفيتها الاجتماعية الملحة من جهة، وانطلاقاً كذلك من جودة مكوناتها الجمالي والتخييلي وفرداته من جهة أخرى، الأمر الذي أفرز في الأخير ملامح كتابية مختلفة، غنية وبحاجة إلى مزيد من المسائلة والتحليل والتعريف على نطاق أوسع.

وفي هذا السياق يفاجئنا الأستاذ الباحث حسن بحراوي، وانسجاماً مع طبيعة اشتغاله الخاصة على المنسي والمهمش والعرضي، بعد سلسلة كتبه: «بنية الشكل الروائي» 1990 و«المسرح المغربي: بحث في الأصول السوسيولوجية-ثقافية» 1993 و«عبد الصمد الكنفاري: «سيرة إنسان ومسار فنان» 1999 و«ذاكرة المغرب الساخر: حالة بزي وبناز» 2001، يفاجئنا مرة أخرى

حتى وقت قريب، كان الاهتمام بطينة معينة من الكتاب المغاربة، ممن تعاطوا الكتابة الإبداعية بدون مرجعية عالمية، أو حصول أكاديمي معلوم، يعتبر أمراً غير مطروح أو بالأحرى غير مفكر فيه في الأصل،

حتى وقت قريب، كان الاهتمام بطينة معينة من الكتاب المغاربة، ممن تعاطوا الكتابة الإبداعية بدون مرجعية عالمية، أو حصول أكاديمي معلوم، يعتبر أمراً غير مطروح أو بالأحرى غير مفكر فيه في الأصل، وذلك انطلاقاً من الاقتناع الملتبس، الذي كان سائداً من قبل، القاضي بكون إمطة اللثام عن هؤلاء الكتاب وإنتاجهم الإبداعي، أمر قد لا يخلو من منزلقات إن لم نقل مغامرة غير مضمونة العواقب، فمادام هذا النوع من التجارب الكتابية قد اكتشف وبقي دائماً موجهاً من طرف كتاب غربيين، لطالما حامت حولهم كثير من الشكوك وردود الفعل المتباينة.

غير أن انتباه كتاب ونقاد مغاربة، مشهود لهم بمصداقية المبادرة والإنتاج الرصين، إلى هذا «الإرث» الإبداعي المنسي وملامسته بغير

* قراءة في كتاب: حسن بحراوي، حلقة رواة طنجة: دراسة ونماذج، منشورات عكاظ، يناير 2002، ص 137.

بكتابه الأخير «حلقة رواة طنجة»، هذا المؤلف الذي ذهب بعيدا في البحث والتنقيب داخل مناطق الظل التي يقبع داخلها كتاب مغاربة فجائيون ومن نوع استثنائي، ممن شاءت لهم صدفهم الطيبة الالتقاء، في زمن مضى وكل حسب هواه، بالكاتب والمؤلف الموسيقي والإثنوغرافي الأمريكي الراحل بول بولز، والتعرف عليه عن قرب، الأمر الذي أفرز أدبا غير مسبوق وذا ملامح وعوالم خاصة، باح به حكاؤون مهمشون كانوا نتاج تربية أزقة طنجة المعتمدة وعوالمها المنحطة، التي لا يكاد ينتبه إليها، وإلى أناسها المسحوقين، أولئك الكتاب والمبدعون من ذوي الوضع الاعتباري المكرس.

والحديث هنا عن هؤلاء الكتاب - الرواة يقودنا من قبل، بالضرورة، وكما جاء ذلك في التسلسل المنهجي لكتاب الأستاذ بحرواي، إلى الوقوف عند بعض عوالم ومسارات هذا الأمريكي الانعزالي المسمى بول بولز، والذي يبقى، رغم كل ما قيل عنه، أحد أبرز الكتاب الغربيين الذين اختاروا، كل حسب سياقه الخاص، الاستقرار بالمغرب.

فبعد مغادرته لأمريكا في نهاية الأربعينيات من القرن الماضي، والتي كان قد جرب فيها أن يكون مكتبيا دون أن يفلح في أي واحدة من تلك

الوظائف العرضية المتنوعة، سيحاول بول بولز أن يجرب حياة الرّحل والمتسكعين، هذه التجربة التي قادته إلى العديد من العواصم الأوروبية، ستنتهي به في آخر المطاف إلى الاستقرار بعض الوقت عند السيدة ستاين بالعاصمة الفرنسية باريس، «تلك المرأة الشديدة التملك»، كما وصفها الكاتب الأمريكي إرنست همنغواي، التي كانت تمارس ما يشبه الوصاية على الأدباء الأمريكيين، ممن كانت تقذف بهم مغامراتهم الحمقاء إلى عاصمة الأنوار.

كان الشاب بولز في تلك الأثناء يعيش حالة اكتئاب حادة، الأمر الذي جعل السيدة ستاين تحدد وجهته إلى إقامة تقع في الطرف الآخر من المتوسط، وذلك في محاولة لاستجماع بعض قواه المنهارة واكتشاف جمال آخر لم تعبث به بعد «سكيزوفرنيا» آلة شمال المتوسط التكنولوجية. وسوف لن تكون هذه الوجهة سوى طنجة، التي كانت آنذاك، أي في نهاية الأربعينيات، منطقة دولية تتعايش فيها كثير من الأجناس واللغات والثقافات، كما كانت، إلى جانب ذلك، تعتبر قبلة لكثير من محبطين لبوسات الحضارة الغربية، ممن كانوا يطعمون في تجريب حياة أقرب إلى البدائية وممغنة في عوالم الصعلكة، ومحاولة مختلف أصناف التخدير والممارسات المنفلتة من أية سلطة لاجمة.

الأمر الذي أفرز أدبا غير مسبوق وذا ملامح وعوالم خاصة، باح به حكاؤون مهمشون كانوا نتاج تربية أزقة طنجة المعتمدة وعوالمها المنحطة، التي لا يكاد ينتبه إليها، وإلى أناسها المسحوقين، أولئك الكتاب والمبدعون من ذوي الوضع الاعتباري المكرس.

الطلب، كما أن الاستماع إليها مرة واحدة لا يكفي لاستظهارها فيما بعد بغاية التدوين، وبالتالي، فلا سبيل إلى الحفاظ عليها إلا بالتقاط مجرياتها أولاً بأول من أفواه الرواة».

وحدث، بعد تجربة مؤسسة تكاد تكون خجولة وعابرة مع أحمد اليعقوبي، والتي ترجع بوادرها الأولى إلى أواخر حقبة الأربعينيات، وبعد محاولة ثانية مع سائق الطاكسي الطنجاوي عبد السلام بولعيش، حدث أن صادف بولز، بعد ذلك بسنوات، وبالضبط في سنة 1960، بينما كان يقوم بإحدى تلك الجولات التي كانت تقوده إلى ضواحي مدينة طنجة، أحد المهمشين الذي كان يعمل حارساً لمقهى مهجور في إحدى أقصى نقاط شاطئ «مراقبة» على البحر المتوسط، ولم يكن القيم على حراسة ذلك القفر المعزول عن صخب المدينة العارمة، سوى العربي العياشي، الذي قاده معرفته ببولز وتعدد لقاءاتهما إلى إصدار رواية «حياة مليئة بالثقوب»، التي يسترجع فيها العياشي، من خلال لغة بولز الإنجليزية، سيرة حياته الخاصة، وتجربته المريرة التي قضى جزءاً غير يسير منها في العديد من السجون المغربية، قبل أن يستقر به المطاف وحيداً وفي منأى عن كل المشاكل التي تجلبها له احتكاكاته اليومية بفصيلة الكائن البشري.



وقد وجد بولز في طنجة، حينما حل بها في سنة 1947، بعضاً من ذلك الإحساس المفقود، الذي كان يطمع في أن يساعده على قطع حبل السرة الذي كان يربطه بعالمه الغربي «المتوحش»، ذلك العالم الذي لم يمنحه، إلا مزيداً من الإحباط والنكوص والغربة المضاعفة.

وقد وجد بولز في طنجة، حينما حل بها في سنة 1947، بعضاً من ذلك الإحساس المفقود، الذي كان يطمع في أن يساعده على قطع حبل السرة الذي كان يربطه بعالمه الغربي «المتوحش»، ذلك العالم الذي لم يمنحه، في نهاية ائتمال بعض وعيه بالأمكنة والطباع والأشخاص، إلا مزيداً من الإحباط والنكوص والغربة المضاعفة.

وعلى عكس ما كان متوقفاً أو مخططاً له، كما يفيد الكاتب، سيحط بولز خيمة وجوده بطنجة، والتي سيمكث بها إلى أن توفي بإحدى مستشفياتها في سنة 1999، دون أن يغادرها مكرهاً إلا لماماً، ودون أن تكون له علاقات، سواء مع مجتمعها اليومي أو نخبتها المثقفة أو السياسية أو الاجتماعية بالمرّة، حتى ذهب البعض إلى تفسير ذلك بكون بولز كان يحب المغرب ولا يحب المغاربة.

انطلاقاً من هذا الطارئ، الذي حمل بولز على اختيار مدينة طنجة مكاناً دائماً لإقامته، يبدأ الباحث حسن بحراوي سرد حكاية «رواية طنجة»، التي لم يبدأ الكاتب الأمريكي ينظر إليها باعتبارها فكرة جديدة بالترصد والتسجيل إلا في سنة 1952، «عندما ترسخ لديه الاعتقاد أن الطابع الارتجالي المعقد لتلك الحكايات يجعل من الصعب تكرار سردها عند

وبعد الانتشار الكبير الذي قدر لهذا العمل، لا سيما بالدول الأنجلوساكسونية، وفي ظروف أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها غامضة ومليئة بدورها بالثقوب والالتباسات (على حد عنوان روايته)، سينتقل العياشي، أو إدريس أبو حامد الشراي وهو إسم شهرته، للعيش بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث سيطوي بذلك أول اسم من بين تلك الأسماء التي اختارها بولز لأن تكون حبل سرتة الجديد، الذي سيربطه مجددا بأصحاب دور النشر في الولايات المتحدة الأمريكية وأنجلترا، ممن استهوتهم، في حينه، تلك الكتابات التي لم تكن تعد ذلك النوع من النزوع الغرائبي المجنون الذي ميز خيال حكي «رواة طنجة».

وحسب التسلسل الذي جاء به المؤلف، ستقع الصدف هذه المرة على اسم آخر هو محمد الحجام، الذي اشتهر فيما بعد داخل الأوساط الأدبية والتشكيلية العالمية باسم محمد المرباط. ولم يكن محمد المرباط بدوره، يملك من متع حياة طنجة سوى تلك السحنة الوسيمة والعضلات البارزة، وعدد غير يسير من الدروس التي علمتها إياه حياة الأزقة الخلفية المعتمدة ومعاشرة المهمشين من ذوي الميولات المجابهة، الذين أنتجتهم آلة الشوارع والفوضى والعضلات الفائضة عن لزوم الاستعمالات السوية في

الحياة اليومية. هذا الواقع الطاحن أهل المرباط، على عكس كثير من أتراكه، لأن يكون ذا ذكاء حاد وذاكرة محلقة في سماوات الخيال الذي لا تحده حقيقة الأرض الحارقة.

سيتعرف بولز، بحسه الميركانتيلي، على محمد المرباط، عن طريق زوجته الكاتبة جين أور، التي سبق لها أن تعرفت على محمد المرباط، في أحد اللقاءات التي كانت تحضرها بيت أحد الأمريكيين المقيمين بطنجة، لمدارة حاجز الجليد الذي أخذ يباعد بينها وبين زوجها. وبعدما خبر طاقته الحكائية الخارقة التي يدخرها لتبديد وحدته ولتسلية الآخرين، وبعد عودته من هجرة استغرقت ثلاث سنوات (ما بين 1959 و1961)، قضاها المرباط بالولايات المتحدة الأمريكية رفقة عائلة أمريكية كان يسهر على خدمتها، «سيبادر بولز إلى دعوته للتعاون معه ويعمل كل ما في وسعه لاستدراجه إلى خوض تجربة التأليف المشترك، على غرار تجربته السابقة مع العياشي، الذي كان المرباط على معرفة سابقة به».

وسوف يكون من ثمرات هذا «التعاون» الإبداعي ظهور العديد من القصص والروايات الموروثة منها والمرتجل، «التي بدأت تتتالي تباعا على إيقاع هدير آلة التسجيل العجيبة،

ولم يكن محمد المرباط

بدوره، يملك من متع

حياة طنجة سوى تلك

السحنة الوسيمة والعضلات

البارزة، وعدد غير يسير

من الدروس التي علمتها

إياه حياة الأزقة الخلفية

المعتمدة ومعاشرة

المهمشين من ذوي

الميولات المجابهة

التي مكنه منها بولز لهذا الغرض، ونفثات دخان الكيف، الأمر الذي كان يعني لبولز أنه «قد عثر أخيرا على ضالته التي بدت أشبه ما تكون بهوميروس معاصر».

وقد بقي الوضع على هذه الحالة، إلى أن بدأت بعض بوادر الفتور والتذبذب تلقي بظلالها على هذه العلاقة التي جمعت بين الرجلين، الأمر الذي كان يعني للمرابط أن «سيده» (كان بولز قد شغل المرباط قيما على خدمته المنزلية) قد تخلى عنه ليرتبط باسم آخر لنفس المهمة ولنفس الغرض.

وحسب الأستاذ بحراوي، فإن الاسم الجديد الذي «سيتعاقد» معه بولز لإتمام حلقة روايته، سوف لن يكون إلا الكاتب العالمي محمد شكري. ذلك أن العلاقة بين شكري وبولز كانت قد بدأت في نهاية الستينات، «عندما قدمه الكاتب والمترجم الأمريكي إدوار روديتي إلى بولز ببيته». وعلى الرغم من أن بداية التعاون بين الرجلين في مجال الكتابة والترجمة لم تعرف أية صعوبة في بدايتها، إذ كللت بترجمة العديد من قصص شكري إلى اللغة الإنجليزية إلى جانب كتابه الشهير «من أجل الخبز وحده» في سنة 1973، قبل أن يتحول إلي «الخبز الحافي» باللغة الفرنسية وبعدها إلى اللغة العربية، إلا أن

حرص شكري، وهو العارف بأبجديات القراءة والكتابة على عكس سابقه، على إبداء ملاحظاته وآرائه في كل كبيرة وصغيرة، بل والاعتراض على جملة من الأشياء الأخرى التي لم تكن تروقه، سيجعل حبل الود ينشد بين الرجلين، إلى أن أنهى شكري هذا التوتر بإعلان طلاق تعاونه مع بولز في سنة 1996، حين أصدر كتابه المعنون بـ «بولز وعزلة طنجة»، الذي اعتبر، حين إصداره، ترسيما للقطيعة بين الرجلين، وإسداءا للستار الذي رفعه بولز، في بداية الخمسينات من القرن الماضي، للكشف عن تجربة أراد لها أن تكون الحبل الظاهر الذي يشده إلى عالمه الماضي.

وقبل أن يسدل بدوره ستار الحكي، يورد الأستاذ بحراوي هامشا لا يقل أهمية عن كل ما سبق، ويتعلق الأمر بترجمته لنماذج قصصية من كتابات هؤلاء الرواة، وبخاصة العياشي والمرابط، مادام شكري قد واصل، بمجهوده الخاص وباعتماده على ذكائه الخارق، نحت اسمه بكثير من الجاذبية الحكاية والجمالية اللغوية المبهرة.

وبهذا الفصل، الذي لا يقل متعة، يكون كتاب «حلقة رواة طنجة»، للأستاذ الباحث حسن بحراوي، قد فتح بابا آخر أمام عموم الدارسين والباحثين، سواء في المغرب أم في

العالم العربي، لأشكال أخرى من الكتابة، شئت لها حساسيات فترة معينة من تاريخ أدبنا الحديث أن تبقى حبيسة لغات أخرى أجنبية وبخاصة اللغة الانجليزية، أشكال قلما جربناها أقلامنا الإبداعية.

وتبقى الإشارة هنا، إلى أن الإحاطة بهذه التجربة والتعريف بأصحابها، كما رصدها الكتاب، لم تخل من انتقائية مقصودة من المؤلف، وذلك بالنظر إلى عدم التركيز، بما فيه الكفاية على كل من عبد السلام بولعيش وأحمد اليعقوبي، هذا الأخير الذي يعتبر صاحب الفضل على باقي زملائه من رواة طنجة في الحكي، على اعتبار أنه كان السبب المباشر الذي دفع بولز، فضلا عن التدوين، إلى الاهتمام بما يوجد به خيالهم الجامح إلى قتل الوقت وتبديد الرقابة ومدارة قلة اليد.

ويرجع السبب في عدم إدراج الكاتب لهذين الاسمين إلى كون بولز لم يفتن، في حالة أحمد اليعقوبي

تحديداً، إلى ضرورة تسجيل ما كان ينطق به، على الرغم من أهميته في تلك البدايات المبكرة التي جمعت بين الرجلين من جهة، ولسطحية ما كان يرويه عبد السلام بولعيش وعدم أهميته، مقارنة مع ثراء ما كان يحكيه كل من العياشي أو المرابط وإدهاشه، أو ما كان يكتبه شكري، فيما بعد، من جهة أخرى. إلا أن هذا الأمر لم يمنع الكاتب من التذكير بذلك المؤلف الذي حاول بولز أن يجمع فيه نماذج من قصص كل هؤلاء، والذي كان قد أصدره باللغة الإنجليزية في بداية السبعينيات تحت عنوان «خمس عيون».

هذه، إذن، بعض الإشارات المختزلة، التي حرصنا على أن ندرجها بمثابة حكاية تؤشر على ما حصل لبولز في اكتشاف «حلقة رواة طنجة»، وهي الحكاية التي يأتي على سردها الأستاذ بحراوي بتفصيل شيق، كما عودنا على ذلك في مختلف كتاباته النوعية الذكية، الأمر الذي يمنح للكتاب متعة مضاعفة.

هذه، إذن، بعض الإشارات المختزلة، التي حرصنا على أن ندرجها بمثابة حكاية تؤشر على ما حصل لبولز في اكتشاف «حلقة رواة طنجة»، وهي الحكاية التي يأتي على سردها الأستاذ بحراوي بتفصيل شيق، كما عودنا على ذلك في مختلف كتاباته النوعية الذكية، الأمر الذي يمنح للكتاب متعة مضاعفة.



حسن يوسفى

الملحون فى المسرح المغربى من التمسرح إلى المسرحة

الملحون والتمسرح :

والثمانينات، فإن المسرح المغربى ما فتئ يعود بين الفينة والأخرى إلى الملحون كما هو الشأن مثلا عند عبد المجيد فنيش الذى عمل فى الآونة الأخيرة على العودة إلى بعض القصائد المعروفة بـ «الخصام»، ونقلها إلى المسرح تحت عنوان «خصام الباهيات»، بالإضافة إلى عمله الأخير المعنون بـ «كوكيتيل شهرزاد».

وإذا كانت العودة إلى الملحون تجد ما يبررها فى ضوء الاختيارات الثقافية لمسرح مغربى يحاول تثبيت جذوره فى التربة المحلية من خلال التفاعل وربط الجسور مع تراثه، فإن ما تم التفاوض عنه، ربما، هو المبررات الجمالية لهذا التوجه نحو الملحون، لاسيما وأننا نعرف أن هذا الفن هو عبارة عن قصائد شعرية كتبت من أجل أن تنشد، وبالتالي فرهانها الأساسى هو الغناء والطرب أكثر من أي شيء آخر. فما الذى يسوغ جماليا نقل قصائد الملحون إلى مسرحيات؟

مما لا شك فيه أن المسرح المغربى يعد أحد أبرز مظاهر الممارسة الأدبية والفنية عندنا التى أفادت كثيرا من فن الملحون، ذلك أن تفاعل المسرحيين المغاربة مع تراثهم الشفوي والمكتوب سرعان ما فتح أعينهم على ذخيرة الملحون بكل ما تحويه من روائع وجدوا أغلبها أقرب إلى روح المسرح وعوالمه.

فى هذا السياق، تندرج الأعمال الدرامية لعبد السلام الشرايبي الذى حول قصائد مثل «الحراز» للمكي القرشي وغيرها من «الحراريز» الأخرى، و«فاطمة» و«الدار» لسيدى قدور العلمي، إلى نصوص مسرحية قام بإخراج بعضها الطيب الصديقي، كما قدمت البعض الآخر «فرقة الوفاء المراكشية». وإذا كانت هذه الأعمال تحسب على الريبيرتوار المسرحي المغربى للسبعينات

مما لا شك فيه أن المسرح المغربى يعد أحد أبرز مظاهر الممارسة الأدبية والفنية عندنا التى أفادت كثيرا من فن الملحون، ذلك أن تفاعل المسرحيين المغاربة مع تراثهم الشفوي والمكتوب سرعان ما فتح أعينهم على ذخيرة الملحون بكل ما تحويه من روائع وجدوا أغلبها أقرب إلى روح المسرح وعوالمه.

فى هذا السياق، تندرج الأعمال الدرامية لعبد السلام الشرايبي الذى حول قصائد مثل «الحراز» للمكي القرشي وغيرها من «الحراريز» الأخرى، و«فاطمة» و«الدار» لسيدى قدور العلمي، إلى نصوص مسرحية قام بإخراج بعضها الطيب الصديقي، كما قدمت البعض الآخر «فرقة الوفاء المراكشية». وإذا كانت هذه الأعمال تحسب على الريبيرتوار المسرحي المغربى للسبعينات

هل هو تمثيل مبكر من لدن المسرحيين المغاربة للمبدأ القائل إن «بإمكاننا مسرحة كل شيء» (أنطوان فيتز)، أم بالأحرى استجابة لحس فني استطاع أن يكشف عن التمسرح السكن في القصيدة قبل أن تتحول إلى مسرحية؟

كيفما كان التفسير الذي يمكن أن نقدمه لهذه الظاهرة، فإنه لا يمكن أن يصب في نهاية الأمر سوى فيما أشار إليه المرحوم الأستاذ محمد الفاسي في معلمته الشهيرة عن الملحن عندما أدرج مجموعة من أنواع القصائد في ما أسماه بـ «النوع المسرحي».

ففي الباب الثاني، في القسم الأول من الجزء الأول من «معلمة الملحن» والذي عنوانه بـ «موضوعات الملحن» يقول - بعد أن يستعرض أنواعا مختلفة مما نظم فيه شعراء الملحن كالشعر الغنائي والغراميات والخمريات والهجاء والرثاء وغيره - «وزيادة على هذه الألوان التي توجد في الأدب العربي الفصيح، فقد امتاز شعراء الملحن بطرق مواضيع إما لا توجد مطلقا في الشعر العربي القديم، أو لأن الإنتاج فيها كان ضئيلا وضعيفا. من ذلك، النوع المسرحي الذي مع الأسف لم يلهموا إخراجه في شكل تمثيلي حقيقي، وإنما بقي في طوره الموسيقي المحض، وإن كنت

أرى أنهم اقتبسوا هذه المحاورات والمواقف المسرحية التي نجدها في القصائد التي نظمت في هذا النوع من الألعاب التي كانت تجري بفاس وبمراكش أيام عيد الأضحى، وتسمى الفراجة أو بالشيخ، حيث تعرض روايات هزلية يقوم بتمثيلها أشخاص معروفون بإتقان أدوار خاصة. وهذا النوع الأدبي يسمى عندهم ترجمة» (1).

قبل استعراض مختلف القصائد التي تندرج في هذا النوع المسرحي المعروف بـ «التراجم»، لابد أن نتأمل هذا القول الذي حشد فيه الأستاذ محمد الفاسي مجموعة من الإشكالات الأدبية والفنية والتاريخية والثقافية المرتبطة بهذه القضية.

فالإشارة إلى أن الملحن طرق مواضيع لا توجد مطلقا في الشعر العربي القديم، وعلى رأسها المسرح، يمكنه أن يفتح أفقا آخر للباحثين في الأصول السوسيوثقافية لفن المسرح داخل التراث الأدبي المغربي، وذلك من زاوية اعتبار الملحن خزاناً خصبا للتمسرح. إلا أن استدراك الأستاذ محمد الفاسي الذي أكد فيه أن شعراء الملحن رغم إبداعهم للنوع المسرحي، إلا أنهم «لم يلهموا إخراجه في شكل تمثيلي حقيقي، وإنما بقي في طوره الموسيقي المحض» ربما يرسم الحدود الفنية

فقد امتاز شعراء
الملحن بطرق
مواضيع إما لا توجد
مطلقا في الشعر
العربي القديم، أو لأن
الإنتاج فيها كان
ضئيلا وضعيفا. من
ذلك، النوع
المسرحي الذي مع
الأسف لم يلهموا
إخراجه في شكل
تمثيلي حقيقي،
وإنما بقي في طوره
الموسيقي المحض

لتأمل هذا النوع من التمسرح، الذي يمكن اعتباره تمسرحا مسموعا وليس مرثيا، أو بعبارة أخرى تمسرحا غنائيا وليس تمسرحا تمثيليا⁽²⁾.

ولعل صعوبة الحسم في هذا التمييز هي التي تفسر، إلى حد ما، الإشكال المصطلحي الذي واجهه البعض في تسمية هذا النوع من قصائد الملحون، كما هو الشأن لدى الأستاذ عبد الله شقرون عندما يقول «وفي ضمن الأغراض التي يتناولها شعر الملحون نشير بصدد موضوع «التمثيل» إلى «الحراز» على أساس أن هذا الغرض نموذج حي من نماذج التمثيل الشعري أو الزجل التمثيلي»⁽³⁾.

على كل حال مهما كانت التسمية التي يمكن إطلاقها على هذا النوع من القصائد، فإن الأهم هو الإجماع الحاصل بخصوص احتوائها على إمكانات التمسرح التي شجعت المسرحيين على إخراجها من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، إن صح التعبير، من خلال أعمال درامية مثيرة.

لكن على الرغم من تأكيد الأستاذ محمد الفاسي على هيمنة الطابع الموسيقي المحض على هذا النوع من التمسرح، إلا أنه يشير إلى الخلفية الثقافية التي انبنى عليها هذا التمسرح والمتمثلة في اقتباسه من الفرجات

الشعبية التي كانت تعرفها بعض المدن المغربية العتيقة كفاس ومراكش. وهو بهذا يفتح أمامنا أفقا آخر لتأمل قصائد الملحون ذات الطابع المسرحي في ضوء دراسات الفرجة.

ولعل ما يشجع أكثر على هذا التوجه هو وجود هذه الخلفية الفرجوية، إن صح القول، بوصفها معطى إبداعيا حتى لدى شعراء الملحون أنفسهم. ففي بعض قصائد «الخصام» نجد الشاعر نفسه يقدم حكايته على أساس كونها «فرجة وفراجة»، نذكر من ذلك مثلاً قصيدة «خصومة جوج عيالات العجوز والشابة» للشاعر الحاج إبراهيم ولد الموشوم التي اعتبرها محمد الفاسي من «روائع الملحون» وأدخلها في الجزء المخصص لذلك من معلمته «وحربتها».

فرجة وفراجة في المهيفات
مناين يتعايروا وتوقع العداوة

بالسم ينتفوا بعضهم كيف نتف
الديك»⁽⁴⁾

علاوة على هذا فقصائد «الحراز» نفسها تختم بإشارات من الشاعر تؤكد على أن حكاياتها متخيلة، وأن الهدف منها هو الفرجة. ففي «حراز عويشة» يقول الشاعر: «ماشفت عويشة ولا ادابزت مع حراز» وبالتالي فهذه

على كل حال مهما كانت التسمية التي يمكن إطلاقها على هذا النوع من القصائد، فإن الأهم هو الإجماع الحاصل بخصوص احتوائها على إمكانات التمسرح التي شجعت المسرحيين على إخراجها من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، إن صح التعبير، من خلال أعمال درامية مثيرة.

الحكاية ما هي «غير فراجا وشجبية». وفي «حراز راضيا» يؤكد الشاعر «لني ما ارجحت بحراز، ألا مشيت له افصيها»، وأن حكايته إن هي إلا «حيلة وشطارا فالكلام وفرحا لصحاب الغرام».

إن الإطار الملائم إذن لفهم «الحرايز» وتأويل حكاياتها هو المتخيل الذي يعتبر هنا سندا أساسيا لنوع من الفرجة، يمكن أن نسميها هنا «فرجة الفكر Spectacle de l'esprit»، ما دامت وقائعها وحركات شخوصها تجري في ذهن قارئ الملحن والمستمع لمنشديه، ولا تجري فوق خشبة مسرح حقيقية.

ولعل ما يثير أكثر في هذه الفرجات الذهنية هو كونها ترتاد بالسامع والقارئ عوالم بعيدة عن الواقع أو بالأحرى عوالم عجائبية. فإدراج القوى الخارقة المشخصة في بعض الرموز كـ «الخاتم والطاس والقطيب» في «حراز عويشة»، وامتلاك القدرة على المسخ (métamorphose) المتمثل في تحويل الحراز إلى قرد، علاوة على استحضار العفريت الذي يسهم في تحقيق الأوامر الخارقة، كل هذا يسهم في إضفاء الطابع العجائبي على الفرجات التي تتضمنها قصائد الملحن.

وسواء نظرنا إلى قصائد الملحن المسرحية في ضوء نظرية التمسرح،

أم نظرية الفرجة، فإننا سنكشف أن الأفق المسرحي الذي تعلن عنه هذه القصائد خصب ومتنوع، وذلك انسجاما مع تنوع المواضيع المطروقة. ولعل هذا ما يشرحه محمد الفاسي قائلا : «والمواضيع التي يطرقونها متنوعة، لكن أكثرها هو ما يسمى «الحراز» حيث يصورون شخصا يحب امرأة ويحاول الاتصال بها. فيأتي في صور مختلفة ليحصل على ثقة بعلمها الذي يمنعها ويحجزها. لذلك يسمى الحراز، فيصده ولا يترك له مجالا حتى يوفق إلى المجيء في صورة ينخدع فيها الحراز، فيتوصل العاشق إلى مرغوبه».

ومنه أيضا القصائد التي تسمى «الضيف» وهي تصور محبوبا يأتي عند محبه متكررا في صورة من الصور، ويطلب «ضيف الله»، وتقع بينهما محاورات ثم ينكشف له أنه حبيبه جاء عنده في غفلة من الرقباء. ومنها القصائد المسماة «القاضي»، حيث يصور الشاعر أنه يحاكم محبوبه عند القاضي، ويقدم حجج محبته وغرامه حتى يقضي له الحاكم بأنه محق في دعواه. وتارة يكون موضوع القصائد في هذا النوع المسرحي مفاخرة ما بين أشخاص كالعربية والمدينية، أي البدوية والحضرية، أو كالأمة والحررة، أو كالعجوز والشابة، وهكذا، أو بين أشياء كأزهار ونحوها. والقصائد في هذا المعنى تدعى (خصاما) (5).

وعلاوة على هذه القصائد المعروفة بـ «التراجم» والتي تندرج ضمنها «الحراريز» وكذا «الضيف» و «القاضي» و«الخصام»، يضيف الأستاذ عبد الله شقرون إلى هذا النوع المسرحي غرضاً آخر قائلاً: «ومن ألوان هذا التمثيل في شعر الملحن غرض أصيل قد يطلق عليه «التراسل» أو «المراسلة». فزيادة على القصائد الشعبية التي عرفت باسم «الورشان» - نوع من الحمام البري، والمقصود به الحمام الزاجل الذي يحمل الرسائل - هناك قصائد تمثيلية يكلف فيها الشاعر مرسولاً أو مبعوثاً عنه بتبليغ رسالة أو القيام بأداء مهمة توسط، ولعل قصيدة «يامنة» التي صاغها الشاعر المصمودي بمثابة نوع تجديدي أدخله على الملحن في وقته (...) تعتبر أو يمكن اعتبارها خير نموذج للاستدلال به على هذا اللون»⁽⁶⁾.

عندما نتأمل إذن القصائد التي تندرج ضمن كل هذه الأغراض المذكورة، نلاحظ أنها تنطوي - بالفعل - على مجموعة من العناصر الأساسية التي يقوم عليها المسرح. فحكاياتها تتضمن، على الأقل، شخصيتين أو ثلاثاً يتحكم في علاقاتها صراع درامي محوره العشق أو الخصام أو غيرهما. ويلعب التنكر أو التقنع دوراً أساسياً فيها، ولا سيما في قصائد «الحراز» و«الضيف»، ناهيك عن الحوار

الذي تتعدد أشكاله وتتنوع بتنوع الحالات التي يعالجها شعراء الملحن في نظمهم.

كل هذه المقومات المسرحية التي تنطوي عليها قصائد الملحن استأثرت باهتمام المسرحيين المغاربة، مما جعلهم يتخذون من التمسرح الثاوي فيها منطلقاً لمسرحتها (théâtralisation)⁽⁷⁾.

في هذا السياق ينخرط العمل الذي قام به عبد السلام الشرايبي في مسرحية «الحراز» التي أخرجها الطيب الصديقي. فقد انطلق الشرايبي من قصائد «حراز عويشة» للمكي بن القرشي، و«حراز الدامي» لمولاي علي البغدادي، و«حراز راضيا» لامحمد المغاري، بالإضافة إلى قصائد أخرى مثل «فاطمة» لينجز عملاً مسرحياً توليفياً وتركيبياً سنحاول من خلال قراءته إبراز الإجراءات الإبداعية التي لجأ إليها الشرايبي لتقديم نموذج رائع لـ «مسرحة الملحن» في مسرحنا المغربي.

مسرحة الملحن : نموذج «الحراز»:

واضح إذن أن المقومات المسرحية التي تنطوي عليها قصائد «الحراز» قد شكلت دعامة قوية لاتجاه مسرحي مغربي من مثل عبد السلام

في هذا السياق ينخرط العمل الذي قام به عبد

السلام الشرايبي في
مسرحية «الحراز» التي
أخرجها الطيب
الصديقي. فقد انطلق
الشرايبي من قصائد
«حراز عويشة» للمكي
بن القرشي، و«حراز
الدامي» لمولاي علي
البغدادي، و«حراز
راضيا»

الشرائبي نحو مسرحتها في نص مسرحي عنوانه ب «الحراز».

إلا أن المعروف أن المسرحية ليست عملية آلية تكتفي بنقل عوالم القصيدة بحرفيتها إلى الخشبة، وإنما هي إجراء مركب يقتضي من صاحبه الإلمام بقواعد الصنعة المسرحية، وتمثل هذه القواعد في معرفة الأنواع الدرامية وطبيعة تركيبها ونوعية شخوصها، هذا علاوة على ما تفرضه طبيعة الكتابة المسرحية من إلمام بكيفية بناء الحكايات وتجسيدها في حوارات وإشارات مسرحية، وتنظيم فضاءاتها وترتيب متوالياتها حسب ما تقتضيه الخلفية الدراماتورجية التي تنطلق منها المسرحية.

من ثم يبدو أن إلقاء الضوء على طبيعة العمل الإبداعي الذي قام به الشرايبي في مسرحته للحراز، يقتضي، على الأقل، الوقوف عند ثلاثة إجراءات مسرحية أساسية ينصب كل واحد منها على جانب هام من جوانب المسرحية، وهي :

- الإجراء السردى، وفيه نتأمل المحكي الذي قامت عليه مسرحية «الحراز»، ونقف على طبيعة شخوصها.

- الإجراء الدراماتورجي، ونبرز من خلاله نوعية المتواليات التي تتحكم في تمفصل النص، كما نقف على دور الفضاء والزمن فيه.

- الإجراء النوعي (générique) ونتعرف من خلاله على طبيعة النوع الدرامي الذي صاغ فيه الكاتب مسرحيته لتتوقف على مدى ملاءمته لنوعية الموضوع المسرح، أي الحراز.

يلاحظ قارئ مسرحية «الحراز» أنها تحكي قصة عشق بين محمود وعويشة اللذين حال بينهما الحراز، الرجل صاحب المال الذي تعلق قلبه أيضا بعويشة، فأخذها إلى قصره، وحرص على ألا يراها أحد غيره، مما جعل محمود يعمل، بمساعدة أصدقائه على الوصول إليها عن طريق الحيلة والتقنع، وذلك بتقمص صفات وأدوار اجتماعية ودينية تسمح له بمخادعة الحراز، إلى أن تحقق له ما أراده في نهاية المسرحية.

فالمسرحية، إذن، من هذه الزاوية، اتخذت من قصة العشق الواردة في «حراريز» الملحن الإطار أو البنية العامة لمحكيها. لكننا نعلم أن هذه القصائد لا تشير إلى أسماء العشاق أو من يقف إلى جانبهم، بقدر ما تشير فقط إلى اسم المعشوقة وحرازها

الحراز

بنية المسرحية، بحيث جعلها المؤلف منسجمة مع طبيعة الصراع الدرامي فيها. وعليه، فإن التمفصلات الأساسية لقصة العشق في مسرحية «الحراز» أصبحت هي تحولات محمود وانخراطه في أدوار وصفات مقنعة من أجل الظفر بمعشوقته التي يحول بينه وبينها الحراز.

وعندما نتبع المسرحية من البداية إلى النهاية، نجد أن محمود جاء عند الحراز في الصفات التالية: القاضي، ولد بويا رحال، الشیخة، الكناوي، وهي نفسها الصفات الواردة في «حراز عويشة» مما يعني أن الشرايبي اتخذ من الحكاية المتضمنة في هذه القصيدة أساساً لبنينة محكي مسرحيته. وداخل هذه البنية الكبرى تندرج محكيات صغرى تصب كلها في اتجاه واحد هو التقنع وركوب الحيل، إما من أجل الظفر بمعشوق (حالة عبد الله مثلاً) أو بالمال والإرث (حالة عثمان)، أو بالخطوة (حالة زحروق ومحروق).

لقد حرص الشرايبي على بلورة الإطار الدراماتيورجي المناسب لمحكي العشق الذي تقوم عليه مسرحيته المستوحاة من «حراريز» الملحون، ويتمثل في الدراماتيورجيا الدرامية. لذا فهو يقدم لنا حكاية متسلسلة

في الحكاية من منطلقين مختلفين ومتكاملين في آن واحد: أولهما منطلق التقليد المسرحي الذي يستحضر بعض الأدوار المعروفة كالسيد والخدام أو التابع، ومن خلاله نجد أن للحراز خادمين يحرسان باب قصره، كما أن لعويشة وصيفة زلفى مزيها هي فاطمة. وثانيهما منطلق البناء الدرامي الذي يستلزم خلق التوتر والتناقض بين مجموعتين: محمود وأصدقائه عبد الله، العربي والتهامي، بالإضافة إلى عثمان عم عويشة، من جهة، ثم الحراز وخدمه محروق وزحروق، من جهة أخرى.

ولإضفاء نوع من الدينامية والإضافة التي تقتضيها عملية المسرحية، بما هي عملية توليفية وتركيبية، عمل الشرايبي على إدماج بعض الحكايات الصغرى أو الجزئية، أي ما يعرف بـ Péripiéties، وصهرها داخل حكاية العشق الكبرى بين محمود وعويشة، ويتعلق الأمر بقصة عشق أخرى بين عبد الله وفاطمة التي استثمرت فيها المسرحية قصيدة «فاطمة»، بالإضافة إلى قضية الإرث التي يعد عثمان عم عويشة بطلها الرئيسي، وكذا الصراع الودي بين الحارسين زحروق ومحروق.

لكن الملاحظ أن هذه الحكايات الصغرى أدمجت بكيفية حاذقة في

محبوبته عويشة، وتنتهي بالوصول إليها، والظفر بها، بعد المرور من مراحل التقنع واستعمال الحيل لتحقيق ذلك. مما يعني أننا إزاء حبكة (intrigue) مسرحية واضحة المعالم.

وما دامت هذه الخلفية الدراماتورجية الكلاسيكية هي المتحكمة في محكي المسرحية، فقد حرص الشرايبي على تقديمها وبنييتها وفق ما يمليه التقليد المسرحي من حيث تقطيع النص إلى متواليات كبرى هي الفصول. والملاحظ أن الشرايبي جعلها في خمسة فصول انسجاما مع حرصه على المواضع المسرحية.

ولعل ما يؤكد هذا الحرص أكثر، إلى جانب ترسيخ وحدة الحدث في المسرحية، هو العمل على تثبيت مواصفات المكان في فضاء واحد هو قصر الحراز، وتنويع الأحداث بين داخل هذا القصر وخارجه، بين النهار والليل في إطار مستمر. مما يجعلنا نفهم أن المؤلف حريص على احترام الوحدات الثلاث في كتابته لهذه المسرحية انسجاما مع اختياره الدراماتورجي الأرسطي.

وما دامت الأجواء السائدة في «حراريز» الملحن هي أجواء الحيل والتقنع، فقد كان طبيعيا أن يختار المؤلف النوع الدرامي الملائم لمسرحتها، وتحويلها بالتالي من

مجالها الغنائي المحض الذي تعرف فيه باسم «التراجم»⁽⁹⁾، نحو المجال الدرامي الذي يبدو أنسب لاستيعاب غنائيتها من جهة، وتركيبتها الحكائية من جهة أخرى. وعليه قدم الشرايبي مسرحية «الحراز» باعتبارها «كوميديا غنائية أو موسيقية Comédie musicale»⁽¹⁰⁾، وهذا النوع المعروف عبارة عن «ملهاة خفيفة، ذات تركيبة درامية بسيطة، يمازجها غناء وموسيقى ورقص ومناظر بذخية وحيل مسرحية»⁽¹¹⁾.

فإذا نظرنا إلى مسرحية «الحراز» في ضوء هذه المكونات التي تقوم عليها الكوميديا الموسيقية، سنجد أنها تنطوي - فعلا - على تركيبة درامية بسيطة هي بمثابة علاقة بين معشوقين يحول بينهما حائل هو الحراز. علاوة على هذا، فالنص مليء بالحيل المسرحية وانقلاب الأدوار بواسطة التقنع، دون أن ننسى بطبيعة الحال الحضور القوي للرقص كالجذبة والرقصة الكناوية وغيرها، والغناء بما فيه العيطة والحوزي والدقة المراكشية وسرابات الملحن (سراة اللام في الفصل الرابع من المسرحية) ومقاطع من القصائد التي أدمجها المؤلف في حوارات المسرحية كـ «فاطمة» وغيرها.

ويبدو أن الشرايبي قد وفق في اختيار النوع الدرامي الملائم

فإذا نظرنا إلى مسرحية «الحراز» في ضوء هذه المكونات التي تقوم عليها الكوميديا الموسيقية، سنجد أنها تنطوي - فعلا - على تركيبة درامية بسيطة هي بمثابة علاقة بين معشوقين يحول بينهما حائل هو الحراز. علاوة على هذا، فالنص مليء بالحيل المسرحية وانقلاب الأدوار بواسطة التقنع

لمسرحة قصائد ملحونية من هذا النوع، أولا من حيث احترامه لقواعد النوع الذي هو الكوميديا الموسيقية ثم من حيث قدرته على تحويل وإعادة صياغة تركيبة القصائد إلى تركيبة درامية كوميدية قابلة لاحتواء أجواء السخرية والتفنن والحيل والغناء والرقص واستيعابها. لذا يمكننا أن نعتبر مسرحية «الحراز» لعبد السلام الشرايبي من أخصب التجارب التي خاض فيها المسرح المغربي غمار مسرحة الملحن، والتي عرف فيها أحد أقطابه كيف يخرج التمسرح الكامن في بعض قصائده المعروفة بـ «التراجم»

ليصبح تمسرحا ظاهرا يتوسل بلغات المسرح وأدواته المختلفة وعوالمه المقنعة.

وفي الأخير، لا بد أن نشير إلى أن تجربة كهاته، بالإضافة إلى قيمتها الجمالية المتمثلة في تطعيم المتخيل المسرحي بزخم تراث الملحن وروائعه، تنطوي على قيمة إنسانية وثقافية عميقة لأنها تخاطب الوجدان المغربي، وتوثث الذاكرة الوطنية بقيم مستمدة من روح مغربية أصيلة تعشق الجميل، وتكره الحقد والنفاق، وهي الروح التي تغنى بها شعراء الملحن في روائعهم الخالدة، والتي ما أحوجنا إليها اليوم.

يمكننا أن نعتبر مسرحية «الحراز» لعبد السلام الشرايبي من أخصب التجارب التي خاض فيها المسرح المغربي غمار مسرحة الملحن، والتي عرف فيها أحد أقطابه كيف يخرج التمسرح الكامن في بعض قصائده المعروفة بـ «التراجم»

الهوامش:

- 1 - محمد الفاسي. معلمة الملحون : القسم الأول من الجزء الأول - مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية - شعبان 1406 - أبريل 1986 - ص 37 - 38.
- 2 - إن تأمل مجموعة من الظواهر والممارسات والخطابات في ضوء «نظرية التمسرح Théâtralité» يعد من بين الإسهامات الجديدة في الدراسات المسرحية المعاصرة. ومن بين الذين استفادوا منها المستشرق جاك بيرك في دراسة مستفزة له تحت عنوان «القرآن والتمسرح» أشار فيها إلى وجود تمسرح مسموع في القرآن من خلال تواتر ظاهرة «الالتفات» في خطابه. انظر هذه الدراسة في :
J. Duvignaud - La scène, Le monde, sans relâche - Coordination charles Illouz et laurand Vidan-Maison des cultures du monde 2000.
- 3 - عبد الله شقرون - نظرات في شعر الملحون - منشورات الملتقى - مطبعة النجاح الجديدة. البيضاء. الطبعة الثانية 2001 - ص. 36.
- 4 - محمد الفاسي - معلمة الملحون - الجزء الثالث - «روائع الملحون» ص. 123.
- 5 - محمد الفاسي - معلمة الملحون : القسم الأول من الجزء الأول - ص 38.
- 6 - عبد الله شقرون - نظرات في شعر الملحون - ص 39 - 40.
- 7 - هناك فرق بين التمسرح والمسرحة. فالتمسرح هو كل ما يعبر عن الخصوصية المسرحية. سواء في النص أو العرض المسرحيين. ويمكنه أن يوجد خارج إطار المسرح في خطابات وممارسات ومواقف غير مسرحية بالضرورة. والمسرحة هي نقل نص ما إلى المسرح وصياغته في قالب مسرحي كتابة وإخراجا.
- 8 - يتم التمييز في تاريخ المسرح بين الدراماتورجيا الدرامية (dramaturgie dramatique) التي تنسب إلى أرسطو. والتي تحكمها مبادئ كالحبكة والتماهي. وتعتمد على الفصول والمشاهد. وبين الدراماتورجيا الملحمية (dramaturgie épique) التي تستند على مبادئ من قبيل القطيعة والتغريب. وتعتمد اللوحات.
- 9 - يقول محمد الفاسي عن «الترجمة» بمثابة نوع من أنواع الملحون : «يطلق هذا اللفظ على قصائد تحكي واقعة فكأنها قصة. وتكون عادة هزلية. ومن التراجم. مثلا. القصائد المسماة «الحراز». وقصائد «الصاد» ونحوها. انظر «معلمة الملحون» القسم الأول من الجزء الأول. ص. 76.
- 10 - عبد السلام الشرايبي - الحراز - دار الستوكي للنشر. فبراير 1981 - في الغلاف الأخير من هذه الطبعة. يتم توصيف المسرحية ب : «Comédie chantée»
- 11 - إبراهيم حمادة : معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية - دار المعارف القاهرة. 1985 - ص 261.



أمبرتو إيكو

من وظائف الأدب *

ترجمة عبد الرحيم حُزَل

التقليد الأدبي ؛ وأريد به جماع النصوص التي لم تنتجها البشرية لغايات ذرية (كالغايات المنشودة من كتابة السجلات، وتدوين القوانين والقواعد العلمية، وتسجيل محاضر الجلسات [في المحاكم]، أو تقديم مواقيت القطارات)، وإنما أنتجت البشرية هذه النصوص لذاتها، وحباً فيها - وترانا نقرأها طلباً للمتعة، ونشداً للسمو الفكري، وطمعاً في زيادة المعرفة وتوسيع المدارك، بل قد نقبل على قراءتها لانبغي منها غير تزجية الوقت، لايحملنا أحد على قراءتها (إلا ما دخل منها في الفروض المدرسية).

وربّ قائل إن الأشياء الأدبية ليست بالأشياء غير المادية بإطلاق؛ إذ أنها تجسّد في ناقلات تتخذ، عموماً، من الورق. بيد أن هذه الأشياء الأدبية

ومن ضمن هذه السلط
أذكر، كذلك، سلطة
التقليد الأدبي ؛ وأريد به
جماع النصوص التي لم
تنتجها البشرية لغايات
ذرية (كالغايات
المنشودة من كتابة
السجلات، وتدوين
القوانين والقواعد
العلمية، وتسجيل
محاضر الجلسات [في
المحاكم]، أو تقديم
مواقيت القطارات)،
وإنما أنتجت البشرية هذه
النصوص لذاتها

تحكي الأسطورة، التي تداولها الناس، وإن لم يتثبت من صدقها، أن ستالين سأل [البابا]، ذات يوم : «أيها البابا، كم عدد الفرق العسكرية؟». وتأكد من الأحداث التالية أن الفرق العسكرية تكون ذات أهمية في بعض الأحيان، بيد أن الأهمية ليست كلها معقودة عليها. إذ توجد سلط غير مادية، لا يمكن تقييمها بالوزن، وتكون [مع ذلك] وازنة، إذا صح التعبير.

فنحن محاطون بسلط غير مادية. لا تقتصر على ما ندعوه قيماً روحية؛ من قبيل العقيدة الدينية. فمن السلط المادية سلطة الجذور المربعة، التي ظل قانونها قائماً على مر القرون، وعمر أكثر مما عمّرت مراسيم ستالين، وأكثر مما عمّرت مراسيم البابا. ومن ضمن هذه السلط أذكر، كذلك، سلطة

X وردت هذه الدراسة في العدد 392 من مجلة Magazine Littéraire ، نونبر 2000، صص. 58-62. وقد بدا لنا من اللازم تزويد هذه الترجمة العربية ببعض الهوامش أدرجناها في نهاية الترجمة. توضيحاً لكثير من الأمور التي كانت ستظل بدونها، نهياً للغموض علماً بأن الموضوع بين معقوفين || في المتن هو من إضافتنا توخياً للدقة

كانت، في الماضي، تتناقل بأصوات الرواة والحكواتيين، أو تُدَوَّن على الحجارة. وها إننا قد صرنا نتجادل، اليوم، في مستقبل الكتب الإلكترونية، التي ستتيح لنا أن نقرأ مجموعات الأقوال المأثورة عن شخص من الأشخاص، مثلما نقرأ "الكوميديا الإلهية"، على شاشة من بلّورات سائلة. وبدوّي أن أنبه، منذ الآن، إلى أنني لأنوي إبداء موقفٍ من قضية "الكتاب الإلكتروني"، تلك القضية الشائكة. فأنا، بطبيعة الحال، من أولئك الذين يفضلون قراءة الرواية، أو القصيدة، مدوّنة في حزمة من الورق، فأظن أن تذكر شكل ذلك الورق، وصفحاته مثانة الزوايا. لكنني سمعت من يتحدث عن جيل من هواة المعلومات، ممن لم يسبق لهم أن قرأوا كتاباً [واحداً] طيلة حياتهم، قد صار في مقدورهم، على أيامنا هذه، بفضل الكتب الإلكترونية، أن يرتادوا رواية كرواية «ضون كيخوطي»، ويستمتعوا بها. وسوف يكون في ذلك فائدة جمة لأذهانهم، وخسارة فادحة لأبصارهم. ولو قيض للأجيال المقبلة أن تقيم علاقة جيّدة (نفسية وجسمية) بالكتاب الإلكتروني، فسوف لا يبدل ذلك من سلطة «ضون كيخوطي».

فما هي وظيفة هذا الشيء غير المادي المسمّى أدباً؟ حسبنا أن نجيب، كما أسلفت القول، إنه شيءٌ يستهلك

لذاته، وبالتالي فهو لا يليق لشيء. بيد أن رؤية بهذا التجرد إلى المتعة الأدبية من شأنها أن تنحط بالأدب، فتجعله كرياضة المشي، أو كلعبة الكلمات المتقاطعة - وهما الاثنتان تستعملان لغرض معيّن، فالغاية من الأولى الصحة الجسمانية، ومن الثانية التكوين المعجمي. وأمّا ما أنوي الحديث فيه اليوم، فهي سلسلة من الوظائف التي يقوم بها الأدب في حياتنا الفردية، وفي الحياة المجتمعية على حد سواء.

الأدب يُخضع اللسانَ لتمرين دائم

فالأدب يُوقع هذا التمرين الدائم على اللسان، باعتبار اللسان، في المقام الأول، تراثاً جماعياً. فاللسان، في جوهره، يسير على سجيته؛ ليس في مقدور أي مرسوم أن ينزل عليه من عل؛ لا من السياسة، ولا من الأكاديمية، فيوقف سيره، أو يجعله ينحرف إلى مواقف يزعم لها الأفضلية.

إن اللسان يسير حيثما شاء. لكنه يُعتبر في مسيره بما يقترح الأدب عليه. فلو لم يوجد دانتي، لما وُجد لسانٌ إيطالي موحد. فقد تصدى دانتي، في كتابه "الفصاحة العامة" بالتشريح والتقويض لمختلف اللهجات الإيطالية. ثم قفّى على ذلك باقتراح تكوين لسان جديد دارج يجتمع عليه

فالأدب يُوقع هذا
التمرين الدائم على
اللسان، باعتبار
اللسان، في المقام
الأول، تراثاً جماعياً.
فاللسان، في
جوهره، يسير على
سجيته؛ ليس في
مقدور أي مرسوم أن
ينزل عليه من عل

سائر الإيطاليين. وقد ارتاب الناس في نجاح هذا العمل، وما رأوا فيه إلا تعبيراً عن زهو وخيلاء يتملكان صاحبه. لكن أفلاح دانتي في تحقيق هذا الطموح في كتابه «الكوميديا الإلهية». وإذا كان اللسان الدارج الذي جاء به دانتي قد تطلب عدة قرون ليصير اللسان الذي يتكلمه سائر الإيطاليين، فقد تحقق له هذا المراد، لأن جماعة الناس المؤمنين بالأدب قد واطبت على الاستيحاء من هذا النموذج. ولو لم يُقيض لهذا النموذج أن يرى النور، فربما لم يكن ليكتب، بأي حال، لفكرة الوحدة السياسية [الإيطالية]. كذلك، أن تخرج إلى الوجود.

والأدب إذ يسهم في تكوين اللسان، يخلق هوية وينشئ جماعة. وقد ضربنا لهما مثيلاً بصنيع دانتي، ولنحاول أن نفكر في ما كان سيصير إليه أمر الحضارة الإغريقية من دون هوميروس، وكيف كان سيكون أمر الهوية الألمانية من دون الترجمة التي وضعها [مارثن] لوثر لـ «التوراة»، وإلّا كان سيؤول أمر اللسان الروسي من دون [ألكسندر سيركفيتش] پوشكين، وإلّا كان سيؤول أمر الحضارة الهندية من دون قصائدها التأسيسية؟

بيد أن الممارسة الأدبية توقع ذلك التمرين، كذلك، على لساننا الفردي. فما أكثر الناس الذين أصبحوا

يتذمرون، في الوقت الحاضر، من ظهور لغة برقية جديدة في البريد الإلكتروني، والنصوص التي صار في الإمكان كتابتها بالهاتف المحمول، والتي وصلت إلى حد صار معه في الإمكان كتابة عبارة «أحبك» بالحرف الأول من كلمة. لكن لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن هؤلاء الشبان الذين يرسلون الرسائل بهذا الاختزال الجديد، هم أنفسهم - أو جزء منهم - الذين يتجولون في تلك الكاتدرائيات الجديدة التي أنشئت للكتب، أقصد المكتبات ذات المخازن الكبرى. ولئن اقتصروا على تصفّح الكتب، دون شرائها، فحسبهم أنهم، بذلك التجوال، يتصلون بأساليب أدبية مهذبة، غاية في الإتقان، لم يكتب لأبائهم، ولا كتب يقيناً، لأجدادهم، أن يتفرجوا عليها.

قراءة الأعمال الأدبية وحرية في التأويل

شاعت في عصرنا هذا، بدعة خطيرة، مفادها أننا لسنا أحراراً في التعامل مع الأعمال الأدبية بحسب ما نشاء، أو قراءتها بكل ما تزيّن لنا نزواتنا وميولاتنا وما لانستطيع التحكم فيه من رغباتنا وأهوائنا. وهذا ليس بالأمر الصحيح. فالأعمال الأدبية تدعونا إلى أن نركب الحرية في التأويل، لأنها تأتينا بخطاب تتنوع مستويات قراءته، وتضعنا في مواجهة التباس اللغة، وفي خضم

والأدب إذ يسهم في تكوين اللسان، يخلق هوية وينشئ جماعة. وقد ضربنا لهما مثيلاً بصنيع دانتي، ولنحاول أن نفكر في ما كان سيصير إليه أمر الحضارة الإغريقية من دون هوميروس، وكيف كان سيكون أمر الهوية الألمانية من دون الترجمة التي وضعها [مارثن] لوثر لـ «التوراة»،

التباس الحياة. لكن يلزمنا للتقدم في هذه اللعبة، التي تقضي بأن يقرأ كل جيل من الأجيال الأعمال الأدبية قراءة مختلفة، أن نحرص شديد الحرص، على احترام ما أسمىته، في موضع آخر، بمقصد النص.

فنحن يلوح لنا، من جهة، أن العالم كتاب "مغلق" لايسمح بغير قراءة واحدة، لأن ثمة قانوناً يحكم الجاذبية الأرضية، سواء أكان قانوناً باطلاً، أم قانوناً عادلاً. ويبدو لنا عالم الكتاب، من جهة أخرى، أشبه بعالم مفتوح.

لكن لنحاول أن نتبصر عملاً من الأعمال السردية، ولنعقد مقابلة بين الأقوال التي يمكن أن نقولها في شأن هذا العمل، والأقوال التي نطلقها في شأن العالم. فأما العالم، فنحن نقول، [من ضمن ما نقول] في شأنه إن قوانين الجاذبية التي أعلنها نيوتن قوانين كونية فيه، أو نقول إن من الثابت أن نابوليون مات في سانت هيلين في 5 ماي 1821. ومع ذلك، فإذا كنا نتحلى بذهن متفتح، فسنكون على استعداد، دائماً، لإعادة النظر في اقتناعاتنا، كيوم يطلق العلم تركيبة مختلفة عن تلك القوانين الكبرى التي تحكم الكون، أو كيوم يقع مؤرخ من المؤرخين على وثائق غميسة تثبت أن نابوليون قتل على متن سفينة بوناپارتية، كان يسعى بها إلى الهرب. وعلى العكس من ذلك، فإن أقوالاً من

إن النصوص الأدبية تأتينا بأقوال لايعود في مقدورها أن نفنّدها أو نجرّحها، بأي حال من الأحوال. وتذكر لنا هذه النصوص، بمطلقية السلطة، ما ينبغي أن نأخذه فيها مأخذ التسليم، فلايجوز لنا أن نركب إليه ما يعنّ لنا من مراكب التأويل.

قبيل «كان شيرلوك هولمز أعزب»، و«ذات القبعة الحمراء التهمها الذنب، لكن خلّصها الصياد»، و«أنا كارينينا تقتل نفسها»، تبقى أقوالاً ثابتة إلى الأبد، ليس في مستطاع أحد أن يفنّدها. وإنك لتجد من الناس من ينكر عن المسيح أن يكون ابن الله، وتجد فئة أخرى تنكر وجوده التاريخي، وطائفة ثالثة تؤكد أنه السبيل، والحقيقة والحياة، وتجد جماعة رابعة تؤمن بمجيء المخلص، لايساورها فيه ريب. وترى الناس، على اختلاف آرائهم [ومعتقداتهم]، يحترمون هذه الأقوال، ولاينالونها بالتسفيه. لكن سوف لاتجد من ينظر بعين الاحترام إلى المرء يجزم بأن هاملت تزوج أوفيليا⁽¹⁾. أو يؤكد أن السوبرمان ليس هو كلارك كانط⁽²⁾.

إن النصوص الأدبية تأتينا بأقوال لايعود في مقدورها أن نفنّدها أو نجرّحها، بأي حال من الأحوال. وتذكر لنا هذه النصوص، بمطلقية السلطة، ما ينبغي أن نأخذه فيها مأخذ التسليم، فلايجوز لنا أن نركب إليه ما يعنّ لنا من مراكب التأويل. وليس الشأن كذلك، في ما نطالع من أمور العالم.

يقال لنا، في نهاية الفصل الخامس والثلاثين من رواية [بليز پاسكال] «الأحمر والأسود» إن [بطلها] جوليان سوريل يتوجه إلى الكنيسة،

ويطلق النار على السيدة دي رينال. فإذا لاحظ ستانداال ارتعاد ذراع سوريل اليمنى، عاد يخبرنا أن سوريل أطلق طلقة أولى، فأخطأ ضحيته، ثم أتبعها بطلقة ثانية، تهاوت لها السيدة أرضاً. ولتتخيل الآن، أحد قراء هذه الرواية جاء يؤكد لنا أن الذراع المرتجفة وضياح الطلقة الأولى في الفراغ تدلان على أن جوليان سوريل لم يأت إلى الكنيسة بنية القتل، وإنما جاءها تدفعه رغبة انفعالية غير واضحة في ذهنه. وفي وسعنا أن نقابل هذا التأويل بتأويل آخر؛ كأن نفترض أن جوليان كان ينوي، منذ البداية، أن يقتل [تلك السيدة]، إلا أنه كان جبناً رعيدياً. والنص يجيز التأويلين اثنيهما.

ثم لنفترض أن قارئاً آخر من قراء هذه الرواية جاء يتساءل عن المآل الذي تكون صارت إليه الرصاصة الأولى؟ وإنه لسؤال ذو أهمية عند هواة ستانداال. وعلى المنوال نفسه، قد يتفق لبعض هواة [دجيمس] دجويس أن يتوجهوا إلى مدينة دوبلان للبحث عن الصيدلية التي اشترى منها بلوم (3) صابونة صغيرة على هيئة ليمونة (ولا ضير في إرضاء هؤلاء الرحالة، فنخبرهم بأن هذه الصيدلية، الموجودة فعلاً، قد شرعت من جديد، في صنع ذلك النوع من الصابون)، مثلما يمكننا أن نتخيل هؤلاء المعجبين بستانداال وهم

يطوفون هذا العالم، لاكتشاف كنيسة فيريير، حتى إذا اهتمدوا إليها، شرعوا يستكشفون كل عمود من أعمدتها، بحثاً عن أثر تلك الرصاصة. إنه مشهد المتعة. لكن لنفترض الآن، أن ناقدًا يحرص على أن ينشئ تأويله الكامل لهذه الرواية على مصير تلك الرصاصة الضائعة. وهذا أمر ليس ببعيد الحدوث في الوقت الذي نعيشه، حتى لقد وجدنا من بنى قراءته برمتها [قصة إدمار آلان] بـ «السمة» [الرسالة المسروقة] (4)، على وضعة الرسالة من المدخنة. لكن إذا كان بـ «قد بين، صراحةً، مناسبة الموضوع الذي وضعت فيه الرسالة، فإن ستانداال لم يكثر لتلك الرصاصة الأولى، وهو، بالتالي، لا يدخلها في جملة الجواهر التخيلية. ولو بقينا أوفياء لنص ستانداال، لزمنا أن نقر بأن هذه الرصاصة قد ضاعت نهائياً، فلا يكون السعي إلى معرفة المكان الذي استقرت فيه بالأمر المهم من الناحية السردية. وفي المقابل، فإن عدم تصريح رواية «أرمانس» (5) بشيء عن احتمال أن تكون الشخصية المركزية فيها مصابة بالعجز (6)، يدفع القارئ إلى الإتيان بافتراضات هذيانة، عساه أن يستكمل بها ما لم تصرّح به القصة. ولاتدلنا جملة من قبيل «أجابت التعيسة» في رواية «المخطوبان» عن مبلغ الإثم الذي

لكن إذا كان بـ «قد بين، صراحةً، مناسبة الموضوع الذي وضعت فيه الرسالة، فإن ستانداال لم يكثر لتلك الرصاصة الأولى، وهو، بالتالي، لا يدخلها في جملة الجواهر التخيلية.

ارتكبتَه كيرترود مع إيجيدو، لكن الافتراضات الكثيرة التي ينساق إليها القارئ تشكل جزءاً من سحر هذه الصفحة الموسومة بإيجاز وحياء شديدين.

ونقرأ في مستهل رواية الفرسان الثلاثة أن أרטانان (6) وصل إلى [مدينة] مونج، على صهوة فرس، في الرابعة عشر من العمر، في يوم الإثنين الأول من شهر أبريل عام 1625. ولو تقصينا ذلك التاريخ في برنامج حاسوبي جيد، لأمكنا أن نهتدي، في الحال، إلى أن ذلك الإثنين كان يوافق 7 أبريل. وهذا إفراط في التدقيق في أمور تافهة، لأهمية لها في خضم الإطلاقة التي تميز كتابة ما دوما. فهل يجوز لنا أن نتمسك بهذا المعطى في تأويلنا لهذه الرواية؟ أزعم أن لا. لأن الصفحات الموالية من تلك الرواية لاتولي أية أهمية لهذا الأمر. بل إن مجرى الرواية لايولي من أهمية لكون ذلك الأمر قد حدث في شهر أبريل (ولنتذكر أن پورتوس (7) كان يرتدي معطفاً مخملياً قرمزيّاً طويلاً، لايلىق بالفصل الذي هو فيه - بحيث سيكون على الفارس أن يتصنع الإصابة بالزكام، لكي لا يظهر أن حمّالته الفاخرة ليست مطرزة إلا من جهة المقدمة).

ورب قائل إن ما ذكرنا هنا، يُعدّ من البديهيّات. بيد أن هذه البديهيّات

(التي كثيراً ما تُنسى) تفيدنا أن عالم الأدب يَجيز أقوالاً ليس في الإمكان الشك فيها، وهو، بالتالي، يعطينا نموذجاً، متخيلاً بقدر التخيل الذي تريده له، للحقيقة. وهذه الحقيقة الأدبية تنعكس على ما ندعوه حقائق تأويلية. ذلك بأن من يزعم لنا أن أרטانان كانت تحركه رغبة جنسية مثلية نحو پاثوس، وإن الرجل انقاد إلى الشر بفعل عقدة أوديبيّة قهّارة، وإن متديّنة مونزا، كما قد يزعم بعض رجال السياسة اليوم، أفسدتها الشيوعية، أو إن پانورج (9) يفعل ما يفعل بدافع الحقد على الرأسمالية الناشئة، يمكننا أن نردّ على من يأتي بهذه الزعم، بأنه من المستحيل أن نقع في النص الذي يريده بكلامه على أي تأكيد، أو أي إichاء، أو أي تلميح يسمح لنا بالرضوخ إلى هذه الانحرافات التأويلية. فعالم الأدب يُقدّرنا على القيام باختبارات للتحقق من أن القارئ يدرك الواقع، أو يدرك أن ما هو فيه لا يعدو أن يكون هلوساتٍ تملك عليه نفسه.

الشخص تهاجر

يمكننا أن نأتي بتأكيدات حقيقية في شأن الشخص الأدبية، لأن ما يحدث لها يكون مسجلاً في النص. والنص هو كالمقطوعة الموسيقية. فالثابت أن أنا كارينينا تموت منتحرة، والثابت، كذلك، أن [السمفونية]

هذه البديهيّات (التي كثيراً ما تُنسى) تفيدنا أن عالم الأدب يَجيز أقوالاً ليس في الإمكان الشك فيها، وهو، بالتالي، يعطينا نموذجاً، متخيلاً بقدر التخيل الذي تريده له، للحقيقة. وهذه الحقيقة الأدبية تنعكس على ما ندعوه حقائق تأويلية.

والجدة إلى الحياة. وتكون هذه النهاية السعيدة نهايةً للقصة.

ولنتصور الآن، أما تحكي هذه الخرافة لأطفالها، فتقف بها عند لحظة التهام الذئب لذات القبعة الحمراء الصغيرة. فحينئذ، سيحتج الأطفال على الأم، مطالبينها بالقصة "الحقيقية"؛ تلك القصة التي تعود فيها ذات القبعة الحمراء الصغيرة إلى الحياة. ولن يجدي الأم فتيلاً أن تتعلل بكونها فقيهة صارمة في أمر النصوص وطرائق انتقالها. فالأطفال يعرفون قصة "حقيقية" تبث فيها ذات القبعة الحمراء الصغيرة حقاً، وهي قصة أقرب إلى رواية الأخوين كريم منها إلى رواية بيرو. إلا أن هذه القصة لا تتطابق مع رواية الأخوين كريم، لاستغنائها عن مجموعة من الشؤون غير ذات الأهمية - عدا أنها شؤون يختلف بشأنها بيرو والأخوان كريم؛ من قبيل نوع الهدايا التي تحملها ذات القبعة الحمراء الصغيرة إلى جدتها، والتي يكون الأطفال على كبير استعداد للتساهل بشأنها، لأنها تتعلق بفرد أشد ما يكون غموضاً، وتقلباً بتقلب التقاليد، وتوزعاً بين عدة توليفات، أكثرها شفاهية.

وبذا، تصير ذات القبعة الحمراء الصغيرة، ويصير أرطنان. ويصير عوليس، وتصير السيدة بوفاري(16)

الخامسة لبيتوفن قد وضعت على «دو» أصغر (وليست من «فا» أكبر، على غرار السمفونية السادسة)، وتبتدئ بـ «صول، صول، صول، مي بيمول». لكن يحدث لبعض الشخص الأدبية - وليس لها جميعها - أن تخرج من النص الذي كان فيه منشؤها، لتهاجر إلى منطقة من الكون يكون من العسير جداً تحديدها.

لكن يحدث لبعض الشخص الأدبية - وليس لها جميعها - أن تخرج من النص الذي كان فيه منشؤها، لتهاجر إلى منطقة من الكون يكون من العسير جداً تحديدها. إن هجرات النص إلى نص آخر (من خلال الاقتباسات المختلفة في جوهرها، كأن تكون هجرات من الكتاب إلى الفيلم، أو إلى الباليه، أو من الحكى الشفاهي إلى الكتاب) تحدث، كذلك، في شخوص الأسطورة، وشخوص السرد «اللائكي»، وعوليس(10)، وجاسون(11)، وأرثور(12)، وپارزيفال(13)، وأليس(14)، وپينوکیو(15)، وأرطانان. لكن عندما نتحدث عن شخوص من هذا القبيل، هل ترانا نحيل بحديثنا إلى توليفة بعينها؟ ولنمثل لما نقول بذات القبعة الحمراء الصغيرة. فالتوليفتان الأكثر شهرة؛ وأعني بهما توليفة [شارل] بيرو وتوليفة الأخوين كريم، تختلفان في ما بينهما أيما اختلاف. ففي التوليفة الأولى، يلتهم الذئب الصبية، فتكون تلك نهاية القصة. وهي نهاية توحى بأفكار أخلاقية قاسية عن مخاطر التهور. وأما في التوليفة الثانية، فيأتي الصياد، ويقتل الذئب، ويعيد الصبية

إلى هجرات النص إلى نص آخر (من خلال الاقتباسات المختلفة في جوهرها، كأن تكون هجرات من الكتاب إلى الفيلم، أو إلى الباليه، أو من الحكى الشفاهي إلى الكتاب) تحدث، كذلك، في شخوص الأسطورة، وشخوص السرد «اللائكي»، وعوليس(10)، وجاسون(11)، وأرثور(12)، وپارزيفال(13)، وأليس(14)، وپينوکیو(15)، وأرطانان. لكن عندما نتحدث عن شخوص من هذا القبيل، هل ترانا نحيل بحديثنا إلى توليفة بعينها؟ ولنمثل لما نقول بذات القبعة الحمراء الصغيرة. فالتوليفتان الأكثر شهرة؛ وأعني بهما توليفة [شارل] بيرو وتوليفة الأخوين كريم، تختلفان في ما بينهما أيما اختلاف. ففي التوليفة الأولى، يلتهم الذئب الصبية، فتكون تلك نهاية القصة. وهي نهاية توحى بأفكار أخلاقية قاسية عن مخاطر التهور. وأما في التوليفة الثانية، فيأتي الصياد، ويقتل الذئب، ويعيد الصبية

شارع باكر وول، وان كلارك كانط هو
السوپرمان نفسه.

لكن جاء في ما لا عدّ له من
الروايات والقصائد - أخلق أمثلةً
بمحض الصدفة - أن أسدروبال يقتل
كورين، أو يشغف ثيوفراست حباً
بثيودولند، ومع ذلك، فلا تجد من
يعتقد أن في الإمكان الإتيان
بتأكيدات حقيقية في شأن هؤلاء
الشخص، لأنهم شخصٌ سيئو
الحظ، أو سيئو الطباع، لم يهاجروا
أبداً، فلم يدخلوا في تكوين الذاكرة
الجمعية. فلماذا يكون في هذا العالم
عدم زواج هاملت بأوفيليا أدخل في
الحقيقة من زواج ثيوفراستي
بثيودولند؟ فما هو القسم من هذا
العالم الذي يسكنه هاملت وأوفيليا،
ولا يسكنه التعيس ثيوكراست؟

إن شخصاً من أمثال هاملت وأنا
كارينينا قد صاروا، إذا صح التعبير،
شخصاً حقيقيين جمعياً، لأن الجماعة
أفرغت عليهم، طوال قرون وأعوام،
توظيفات عاطفية. فنحن نقوم
بتوظيفات عاطفية فردية على ركام
من الاستيهامات، يمكننا أن ننشئها
ونحن مفتحي الأعين، أو أثناء ما نكون
فيه من إغفاء. فيمكننا حقاً أن ننفعل
بالتفكير في موت شخصية ممن نحب
من الشخص، أو نحس بانفعالات
فيزيقية أثناء ما نكون نتخيل أنفسنا
في اتصال شبقى وإياها. وعلى النحو

أفراداً يحيون خارج توليفاتهم
الأصلية، حتى لتجد من الناس من لم
يتفق لهم أبداً، أن قرأوا التوليفة
الأصلية، فلايتورعون عن الإتيان
بتأكيدات حقيقية بشأنهم. فأنا قد
علمت، حتى من قبل أن أقرأ مسرحية
«أوديب ملكاً» (17)، أن أوديب يتزوج
جوكست (18). وبرغم ما يطبع هذه
التوليفات من تقلب، فليس من
المتعذر التحقق منها، فالذي يقول إن
السيدة بوشاري تتصالح مع شارل
بوشاري (19)، وتعيش سعيدة معه،
سيلقى الرفض من كل ذي عقل سليم،
وكأننا بهؤلاء قد اتفقوا بشأن شخصية
إيما.

فأين يقيم هؤلاء الأفراد
المتقلبون؟ إن ذلك يتوقف على مقاس
أنطولوجيتنا، فهي إذا كانت تحتضن،
كذلك، الجذور المربعة، واللسان
الأثروري (20)، وتصورين عن الثالوث
المقدس، التصور الروماني الذي كان
(على الأقل، إلى الأمس القريب) يجعل
الروح القدس يفيض عن الأب والابن،
والتصور البيزنطي الذي يجعل الروح
القدس يفيض عن الأب وحده. بيد أن
هذه المنطقة ذات وضع شديد
الغموض، وتحتضن كيانات مختلفة
الأحجام، إذ أن بطريرك القسطنطينية
(المستعد للاصطدام بالبابا في شأن
القول بـ «الإبن»)، سيتفق مع البابا (أو
ذلك، على الأقل، ما أوْمَل)، في القول
إن شيرلوك هولمز كان يسكن حقاً،

نفسه، يمكننا أن نفعل، عبر عمليات تطابق أو إسقاط، للمصير الذي تصلاه إيما بوغاري. وقد يصل بنا الأمر، كما وصل ببعض الأجيال، إلى الانتحار متأثرين بالخيالات التي يُمْنى بها فيرتر⁽²¹⁾، أو يلقاها جاكوب أورتييس⁽²²⁾. لكن لو سألنا أحد هل الشخصية التي نتخيل موتها ماتت حقاً، فإن ردنا على سؤاله يكون بالنفي، فما هو إلا خيالنا الجامح يصور لنا موتها. وفي المقابل، فلو سألنا سائل هل يكون فيرتر لم ينتحر حقاً، فإننا نجيبه بالنفي، ولا يعود الخيال الذي نتحدث عنه، حينئذٍ، بالخاص، بل يكون واقعاً ثقافياً تتفق حوله جماعة القراء برمتها. بحيث نرمي بالجنون كل من يقدم على الانتحار بمجرد أنه تخيل (مع معرفته بأن الأمر محض خيال) أن محبوبته قد ماتت. فيما نحاول أن نلتمس المبررات، بصورة من الصور، لشخص آخر يقدم على الانتحار (مع علمه بأنه إنما يبكي شخصية متخيلة) بسبب من انتحار فيرتر.

يلزمنا أن نجد فضاء من العالم الذي تعيش فيه هؤلاء الأشخاص، وتحدد سلوكياتنا، حتى نتخذهم لنا نماذج في الحياة، حياتنا، وحياة الآخرين، ونفهم المقصود من قول القائل عن الشخص من الأشخاص إنه يحمل في نفسه عقدة أوديب، ونقول عن شخص آخر إن له شهية

كاركانتية⁽²³⁾، وعن شخص ثالث إنه يسلك سلوكاً ضون كيخوطياً، إنسبة إلى ضون كيخوطه، بطل قصة ميكويل دي سيربانطيس الحاملة للاسم نفسه وعن شخص رابع إنه يغار غيرة عطيل بطل مسرحية أنشأها المؤلف في عام 1606، وعن خامس إنه يشك شكاً هاملياً، أو إنه يتصف بضون جوانية⁽²⁴⁾ لا سبيل إلى البرء منها. وهذه أمور لا تحدث في الأدب للشخص وحدهم، وإنما تسري، كذلك، على المقامات، سريانها على الأشياء. فما الذي جعل تلك الحوريات الخالدة، والمطر الهائل في ذلك اليوم، فوق بريست، والخامسة مساءً⁽²⁵⁾، تصير استعارات مستحوذة على الناس، تعرفهم، في كل لحظة وحين، من يكونون، ومن ليسوه؟

إن هذه الكيانات الأدبية تعيش بيننا. وهي لم توجد منذ الأزل، على غرار (ربما) الجذور المربعة، ومبرهنات فيثاغوراس، لكنها الآن، وقد خلقها الأدب، وغدتها توظيفاتنا الانفعالية، صار لها وجود، وصار لزاماً علينا أن نأخذها في الحسبان. وننقل، تحاشياً للنقاشات الوجودية والميتافيزيقية، إن هذه الشخصيات توجد في صورة عادات ثقافية، واستعدادات اجتماعية. إن الطابو الكوني المتمثل في زنى المحارم يُعتبر، هو نفسه، عادة ثقافية،

إن هذه الكيانات الأدبية تعيش بيننا. وهي لم توجد منذ الأزل، على غرار (ربما) الجذور المربعة، ومبرهنات فيثاغوراس، لكنها الآن، وقد خلقها الأدب، وغدتها توظيفاتنا الانفعالية، صار لها وجود، وصار لزاماً علينا أن نأخذها في الحسبان. وننقل، تحاشياً للنقاشات الوجودية والميتافيزيقية، إن هذه الشخصيات توجد في صورة عادات ثقافية، واستعدادات اجتماعية.

وفكرة، واستعداداً، ومع ذلك، فقد كان لهذا الطابو من القوة ما استطاع به أن يحرك مصائر المجتمعات البشرية.

محوّلات (26) مفتوحة وقصص

متناهية

قد يقول اليوم قائل ، إن الشخصوس الأدبية نفسها توشك أن تصبح متغيرة، ومتقلبة، وتوشك أن تفقد ثباتها الذي كان يلزمنا بالتسليم بما تصير إليه من المصائر. فقد دخلنا عهد النص المحوّل، والنص المحوّل الإلكتروني لايسمح بالسفر عبر كبة نصية (سواء أكانت موسوعة كاملة، أم مغناة من مغنيات شكسبير)، من دون أن «يفضي» بالخبر الذي يحتويه بكامله، بإدخاله، مثل قضيب حبك، في كبة من الصوف، بل إن النص اللاحق يولد ممارسة كتابة مبتكرة وحرّة. وإنكم لو اجدون، في الأنترنت، برامج تتيح لكم أن تكتبوا قصصاً، كتابةً جماعية، بالاشتراك في سرودٍ ليس في الإمكان التغيير في مسارها، إلى ما لا نهاية. وإذا أمكن فعل ذلك بواسطة نص نكون نبتركه رفقة مجموعة من الأصدقاء المحتملين، فكيف لانفعله، كذلك، بواسطة نصوص أدبية موجودة، باقتنائنا برامج تسمح بتغيير القصص الكبرى التي تملّكنا وتستحوذ علينا منذ زمن، ربما قدر بآلاف السنين؟

ولتتصوروا لبرهة من الوقت، أنكم تقرأون رواية «الحرب والسلام»⁽²⁷⁾ في شغب، فتنساءلون هل سينتهي الأمر بنتاشا⁽²⁸⁾ إلى الاستسلام لغزل أناتولي، وهل سيموت ذلك الأمير الرائع أندريه⁽²⁹⁾ حقاً، وهل سيقوى پيير على رمي ناپوليون بالرصاص؟ والآن يمكنكم أن تعيدوا كتابة هذه الرواية، بمنح أندريه حياة طويلة وسعيدة، وبأن تجعلوا پيير محرراً لأوروبا، أو يمكنكم، جرياً على المنوال نفسه، أن تصلحوا ذات البين بين إيما بوفاري وزوجها المسكين شارل، وتجعلوها تعيش أما سعيدة ومطمئنة، ويمكنكم أن تقرّروا، كذلك، أن تدخل ذات القبعة الحمراء الصغيرة في الغابة، وتجعلوها تلتقي هناك بينوكيو، أو تقدروا على الصبية أن تتعرض للاختطاف من زوجة الأب، فتسخرها، مستعيرة لها اسم ساندريلا، للخدمة لدى سكارليت أوهارا⁽³⁰⁾، أو أن تجعلوها تلتقي، في الغابة، واهباً سحرياً، يدعى فلاديمير يا، پروپ⁽³¹⁾، فيهبها دمليجاً سحرياً، تكتشف، بفضلها، فوق جزيرة عجيبة، الألف، تلك النقطة التي نرى من خلالها العالم برمته، ونرى، في البعيد البعيد جداً، في ما وراء مرآة أليس، خورخي لويس بورخيس، وهو يذكر فونيس الميموريوسو بوجوب إعادة رواية «أنا كارينينا» إلى مكتبة بابل.

هل في هذا الذي أسلفنا من سوء؟ كلا، لأنه من الأمور التي طرقها

قد يقول اليوم قائل
، إن الشخصوس
الأدبية نفسها توشك
أن تصبح متغيرة،
ومتقلبة، وتوشك أن
تفقد ثباتها الذي
كان يلزمنا بالتسليم
بما تصير إليه من
المصائر. فقد دخلنا
عهد النص المحوّل

الأدب، كذلك، منذ قديم الزمان؛ حتى من قبل حتى أن تظهر النصوص اللواحق؛ كما في مشروع "الكتاب" لمالارميه⁽³²⁾، والجثث الساحرة التي وظفها السوراليون، وملايير القصائد لـ [رايمون] كونو⁽³³⁾. والكتب المتحركة للطليعة الثانية (...).

زعم أحدهم أن الإفراط في اللعب بآليات النصوص المحولة، يجعلنا نتخلص من شكلين من الضغط؛ الخضوع لمغامرات قررها شخص آخر، والخضوع للانقسام الاجتماعي بين من يكتبون ومن يقرأون. يبدو لي هذا أمراً سخيفاً. إلا أنه من المؤكد أن اللعب الخلاق بالنصوص المحولة، بالتغيير من القصص، والإسهام في ابتكار قصص أخرى، يمكن أن يكون نشاطاً أخذاً، وتمريناً من المفيد مباشرة في المدرسة، وشكلاً جديداً في الكتابة (...). وأعتقد أنه سيكون من الحسن، ومن المفيد من الناحية التربوية أن نحاول إعادة تسجيل [معزوفات] شوبان على آلة المندولين؛ إن من شأن ذلك أن يشحذ الابتكارية الموسيقية، ويسعفنا على أن نفهم ما جعل رنة البيان تكون شديدة الانسجام مع سونيتة من سلم موسيقي شديد الانخفاض. إن من شأن الإمعان في اللصق أن يربي الذوق البصري، واكتشاف الأشكال، مع الحرص على تأليف جماعي لقطعة موسيقية لتنف

من «آنسات أفينيون»⁽³⁴⁾، والقصة الأخيرة؛ قصة بوكيمون. والحقيقة أن هذا أمر زاوله كثير من الموسيقيين.

بيد أن هذه الألعاب لا تغني عن وظيفة الأدب الحقيقية؛ أريد بها الوظيفة التربوية التي لا يمكن اختصارها في بث الأفكار الأخلاقية، لا فرق بين حسنها وسيئها، ولا يمكن اختزالها في تهذيب الأذواق.

يعيد علينا يوري لوتمان في كتابه «الثقافة والانفجار» تلك النصيحة المأثورة عن تشيخوف، والقائلة إننا إذا رأينا في مطلع قصة من القصص أو مسرحية من المسرحيات، ببندقيّة، فلا بد أن تطلق النار قبل نهاية تلك القصة، وقبل ختام تلك المسرحية. فلوتمان يقصد من هذا القول إن المشكلة الحقيقية ليست في أن نعرف هل ستطلق البندقيّة النار حقاً، بل إن عدم معرفتنا بذلك، أو بعدمه، هو الذي يمنح للعقدة دلالتها. وقراءة قصة من القصص تعني كذلك، أن نكون نهياً لتوتر، أو انقباض. واكتشافنا في الأخير، أن البندقيّة قد أطلقت النار، أو لم تطلقها، أمر يتعالى بقيمته عن أن يكون مجرد خبر. فبموجبه يكتشف القارئ أن الأمور تسير في تطور دائم، على نحو من الأنحاء، من دون اعتبار لرغباته. ويتحتم على القارئ أن يقبل بهذا الحرمان، ويحس، من خلاله، برعشة

من المؤكد أن اللعب

الخلاق بالنصوص

المحوّلة، بالتغيير من

القصص، والإسهام في

ابتكار قصص أخرى،

يمكن أن يكون نشاطاً

أخذاً، وتمريناً من المفيد

مباشرة في المدرسة،

وشكلاً جديداً في الكتابة

(...)

القدر. فلو كان يمكن أن نقرر في شأن مصير الشخص، لكان ذلك أشبه بالذهاب إلى مكتب وكالة للأسفار، «أين ستطلب الحوت؟ هل في السامو، أم في الألوتين؟ ومتى؟ وهل تريد أن تقتله بنفسك، أم ستترك هذا الأمر لكويكيك أن ينفذه؟». إن العبرة الحقيقية من رواية «موبي ديك»⁽³⁵⁾ (تكمُن) في أن الحوت يمضي إلى حيث يشاء.

وأنفكروا في الأوصاف والتساوير التي صور بها هوكو معركة واترلو في روايته «البؤساء»⁽³⁶⁾. فهو على خلاف ستاندال، الذي يصف المعركة كما يراها [بطل روايته] فابريس⁽³⁷⁾، الذي يكون في أتونها، ولا يعي ما يجري من حوله، فإن هوكو يصف تلك المعركة كما يراها الإله، فهو يرى من أعلى، فهو يعرف أنه لو علم نابوليون بوجود واد على الجانب الآخر من قمة هضبة مونتي كارلو (بيد أن مرشده لن يخبره بذلك)، لما تعرّضت مدرعاته للانسحاق تحت أقدام الجيش الإنجليزي، ولو أن المرشد الصغير اقترح سلوك سبيل أخرى مختلفة، لما كان للجيش البروسي أن يصل في الوقت المناسب لحسم المعركة.

ويمكننا أن نعيد، بواسطة بنية نصية لاحقة، كتابة معركة واترلو، فنجعل فرنسيي كروشي يصلون إلى

ذلك هو الفحوى الذي عليه

مدار سائر القصص

العظيمة. وقد تستبدل هذه

القصص، عند الحاجة، الله

بالقدر، أو بالقوانين

القاسية التي تتحكم في

الحياة. إن وظيفة المحكيّات

«غير القابلة للتبديل فيها»،

تتمثل، على وجه التحديد،

في معاكسة رغبتنا في

تغيير القدر، فتجعلنا نلمس

بأصابعنا استحالة تغييره.

موقع ألماني بلوشير. وتوجد أساليب حربية تسعف على تحقيق هذا المرام. وإنه لأمر ممتع. لكن الأهمية المأساوية لصفحات هوكو تكمن في أن الأمور تسير (في غير اعتبار لرغباتنا) كما يُراد لها. ويمكن جمال رواية «الحرب والسلام» في أن احتضار الأمير أندريه ينتهي بالموت، رغم أن ذلك يسوؤنا. إن الافتتان المؤلم الذي نجده في قراءة روائع المسرحيات المأساوية، مرده إلى أن أبطالها وإن كانوا يقدرّون على الإفلات من المصير الفظيع الذي يتهددهم، فإنهم لا يفتنون، أكان ذلك منهم عن ضعف أم عن عماء، إلى الوجهة التي إليها انسياقهم، فما يكونون إلا مسرعين صوب الحفرة التي حفروها بأيديهم. وذلك هو عين ما يقول هوكو لنا، بعد أن يبيّن لنا الفرص التي كان يمكن لنابوليون أن يغتنمها: «هل كان يمكن لنابوليون أن ينتصر في تلك المعركة؟ نجيب أن لا. ولماذا؟ أبسبب ويلنكتون؟ أم بسبب بلوشير؟ كلا. بل بسبب الله».

ذلك هو الفحوى الذي عليه مدار سائر القصص العظيمة. وقد تستبدل هذه القصص، عند الحاجة، الله بالقدر، أو بالقوانين القاسية التي تتحكم في الحياة. إن وظيفة المحكيّات «غير القابلة للتبديل فيها»، تتمثل، على وجه التحديد، في معاكسة رغبتنا في تغيير القدر، فتجعلنا نلمس بأصابعنا استحالة

تغييره. وبذلك، تكون القصة التي تحكيها هذه المحكيات، مهما اختلفت ضروباً وأنواعاً، إنما تحكي، كذلك، قصتنا. ولذلك ترانا نقبل على قراءتها، وترانا مفتونين بها محبين لها. فنحن في حاجة إلى درسها "الزجري" القاسي. إذ يمكن لسردية اللواحق النصية أن تعلمنا الحرية والخلق. وتلك من الأمور المحمودة.

لكن ليس ذلك كل ما نحتاج تعلمه. فالمحكيات "المكتملة" تعلمنا كذلك، أن نموت.

وأعتقد أن تعليم المرء [معنى] القدر، وتعليمه [معنى] الموت هما من وظائف الأدب الرئيسية. وربما كان للأدب وظائف أخرى عداها، لكن لا تحضرني سواهما في هذا المساء.

هوامش المترجم:

- 1 - والحال أن هاملت. في مسرحية شكسبير "هاملت". لم يتزوج أوفيليا، بسبب عجزها عن فهم هاملت. وبحته المجنون عن الحقيقة. لأنها لم يسبق لها. أبداً. أن سعت إلى البحث عن حقيقة نفسها. وهي المنشطرة بين شخصيتي الملك والمرأة فتتهدر إلى الجنون. ثم إلى الموت، الذي به تجمع شطري صورتها.
- 2 - والحال أن السوبرمان شخصية سينمائية. اشتهر بتشخيصها الممثل كلارك كانط.
- 3 - بلوم. واسمه الكامل "ليوپولد بلوم". بطل رواية "عوليس" التي كتبها الروائي الإيرلندي دجيمس دجويس. وقد صار بلوم يعرف، في العالم، باسم "السيد بلوم". وهو يهودي من هنكارييا.
- 4 - "الرسالة المسروقة". أكثر قصص إدكار آلان پو المفصحة عن معالم القصة البوليسية. وقد وُظف فيها الاشتغال اللامتعذر على العقل للاستدلال المنطقي، فهو وحده القادر على إعادة بناء الوحدة انطلاقا من معطيات شذرية متناثرة. قال خورخي لويس بورخيس عن هذه القصة: "قصة "الرسالة المسروقة" أقوم على برهان بين جداً، إنها تحكي عن رسالة يسرقها أحد الوزراء. والشرطة تعلم أن الرسالة بحوزته. فتعمل على مباغتته مرتين في الشارع. ثم تفتش منزله. وتعمل الشرطة على تفتيش غرف الفندق غرفة فغرفة، مستعملة المجاهر والعدسات المكبرة. ثم تفتش الكتب التي تحويها المكتبة. كتاباً كتاباً وتقلب في تجليداتها. وتبحث في آثار الغبار على الأرضية. وعندئذ يتدخل دوبان. قائلاً إن الشرطة ضلت طريقها. وإنها تفكر كالطفل. إذ تعتقد أن الأشياء يتم إخفاؤها بعيداً عن الأنظار. فيما الواقع على خلاف ذلك تماماً ولذلك يقوم دوبان بزيارة إلى بيت ذلك السياسي - والذي هو أحد أصدقائه - فيلمح خلف مكتبه. وعلى مرأى من الجميع، ظرفاً ممزقاً. فيدرك أنها الرسالة التي دوخت الجميع بحثاً عنها". انظر :

Jorge Louis Borges, Borges oral, Biblioteca Borges, Alianza Editorial, Madrid, 1998, p. 75-76

- 5 - "أرمانس" Armance رواية لستاندال. أصدرها عام 1827
- 6 - لعله العجز الجنسي. ذلك أن زوجها يتوفى عنها. فيورثها كل ماله. شريطة أن تزوج في غضون الشهور العشرين بعد وفاته. فلاتتزوج. بل ترحل عبر البحر.
- 7 - أרטانان الشخصية الرئيسية في ثلاثية ألكسندر دوما الأب: "الفرسان الثلاثة". وبعد عشرين سنة، و"فيكونت براجلون".
- 8 - پورتوس: شخصية في ثلاثية ألكسندر دوما الأب. يجسد القوة الكريمة. مثلما يجسد الفرور المفرط. وهو في مقابل شجاعة أרטانان، وحيلة أراميس، ونبل أثوس، يجسد صورة الإنسان البدائي، والعلاقات الطيب، الذي يحيله طموحه الصريح إلى شخصية هزلية.
- 9 - پانورج: شخصية في رواية فرونسوا رابليه "كاركانتوا وپانتاكرويل". وهو شخصية يحقر الجميع. ويعتدي على الجميع.
- 10 - عوليس: شخصية في الأساطير والآداب الإغريقية. وهو ملك إيطاكة. وابن لايرت. ومن الناس من يقول إنه الابن الطبيعي لسيزيف.

- 11 - جاسون : من شخوص الأساطير والآداب الإغريقية. هو ابن إيسون، ملك لولكوس.
- 12 - أرثور : أو الملك أرثور، شخصية تاريخية عاشت في أواخر القرن الخامس الميلادي. زعم الحروب الذي جمعت بين الأنجليز والساكسونيين.
- 13 - بارريمال : بطل الرواية حكاية كرال التي كتبها كريتيان دي ثروا في نحو عام 1175.
- 14 - اليس : الأرجح أن كون المراد بها اليس بطلة قصة اليس في بلاد العجائب ورواية عبر المرأة اللتين كتبتهما لويس كارول.
- 15 - بينوكيو : الشخصية الرئيسية في رواية كارلو كولودي (1878) المسماة بالاسم نفسه.
- 16 - السيدة - أو إيما - بوفاري : بطلة رواية كوستاف فلوبيير، الحاملة للاسم نفسه .
- 17 - مسرحية لسوفوكل، كتبها في نحو 430 ق.م.
- 18 - جوكست : شخصية من شخصيات الأساطير والكتابات الإغريقية. هي أم أوديب، وزوجته. في ما بعد.
- 19 - شارل بوفاري : شخصية في رواية فلوبيير سالفة الذكر. يبدأ الخلاف بين الزوجين بفشل الزوج الطبيب في علاج أحد مرضاه ويبدلا من أن تقف الزوجة إلى جانب زوجها، تسنده في هذه المحنة. تزداد ازوارا عنه. إذ تعتبره رجلا أرعن عديم الأهمية. وأما هو، فيستسلم لحظه. ولايكف يرى الحياة عذبة بجوارها وتخوض إيما في علاقات غرامية فاتمة. تتردى بها إلى الانتحار. ثم لايلث شارل أن يحق بها منتحرا. هو الآخر، بعد ثمانية أشهر.
- 20 - اللسان الأتروري : لسان لاتعرف له قرابة واضحة بالأسلن المعروفة. كان متداولاً عند الجهة من إيطاليا الموافقة. تقريباً، لما يعرف، في الوقت الحالي، بالتوسكان.
- 21 - فيرتر : بطل رواية "آلام فيرتر" التي كتبها كوته عام 1774.
- 22 - جاكوب أورتييس : الشخصية المركزية في رواية إيجو فوسكلو السيرية رسائل جاكوب أورتييس الأخيرة (1802) وأورتييس هو مضاعف المؤلف، أكثر مما هو بطل تخيلي.
- 23 - كاركاتية : نسبة إلى شخصية كاركاتيا، في رواية فرونساو رابليه سالفة الذكر. وهي شخصية تعرف بتراتها في الأكل.
- 24 - نسبة إلى ضون جوان : شخصية أسطورية. من ابتكار العبقرية الإسبانية. وأحد أعظم الشخوص في آداب العالمية. كان أول ظهوره في المسرحية الكوميدية التي أنشأها تيرسو دي مولينا. في عام 1630. وأسماها مغوي إشبينية .
- 25 - هذه مجموعة من الصور التي تتكرر كثيراً، في الأدب، تكرارها في ألوان أخرى من الفن ومن قبيل ذلك أن المظر الذي يهطل فوق بريست - وبريست ميناء بحري لبحرية يونان . أنشئ بمبادرة من روشيليو، وصار، في الفترة من 1830 إلى 1940. مقراً للمدرسة البحرية الفرنسية - قد عادت في قصيدة باربارا، لجاك بريفير في ديوانه كلمات Paroles . والخامسة مساء جاءت في عنوان رواية لكلود موريك : الماركيزة تخسرح في الخامسة مساء .
- La Marquise sortit à cinq heures ثم جاءت في قصيدة كارسيا لوركا الشهيرة. وأعاد الشاعر المصري الراحل أمل دنقل توظيفها في قصيدته "، الخ.
- 26 - النص المحول hyperexte . في مصطلحية جيرار جنيت. هو عبارة عن علاقات تحويل ومحاكاة تتحكم في النص بـ "كنص محول للنص" كنص سابق أو محول hyperexte .
- 27 - الحرب والسنة رواية للكاتب الروسي ليف. (أو ليون). كما يعرف في اللسان الفرنسي. وهي ترجمة لكلمة "الحرب والسلام" الروسية ومعناها "الأسد" طولستوي، وعنوانها الأصلي Vain I Mir صدرت عام 1865-1869.
- 28 - باتاشا. واسمها الكامل هو "ناتالي إينيتشا روستوف" المنقبة بناتاشا. من شخوص رواية "الحرب والسلام" المذكورة.
- 29 - أندريه. واسمه الكامل هو أندريه بولكونسكي. يعتبر، مع بيبير بولكونسكي. أهم شخوص رواية "الحرب والسلام".
- 30 - سكارليت أوهارا : بطلة في رواية "ذهب مع الريح" لماركريت ميتشيل (1936). تعتبر من بين أفضل نماذج الغرابة في أدب أمريكا الشمالية.
- 31 - فلاديمير يا. پروپ (1895-1970) : باحث روسي في أمور الفولكلور. اشتغل بتدريس العراقة في جامعة ليننغراد. من مؤلفاته : "الجدور التاريخية للخرافة العجيبة" (1946) ، "تشكلية الخرافة" (1966).
- 32 - المراد بمشروع الكتاب عند الشاعر الفرنسي ستيفان مالارميه (1842-1899) : جهوده لتحقيق ما أسماه "المشهدة الفكرية" للكتابة. بإيلاء أهمية كبرى إلى الصفحة البيضاء. لكونها المجال الافتراضي. ذا الصلة الوثيقة بأدلة الكتابة. ويصير الكتاب، من هذا المنظور، أكثر من كونه مجرد "كتاب". إنه يصير مطلقاً.

وقد سعى مالمارمييه طيلة حياته لتحقيق هذا الكتاب الكبير، ليكون شهادة عن العالم.
33- المراد بملايير القصائد ديوان الشاعر الفرنسي رايمون كونو (1903 - 1976). بعنوان Cent milles milliards de poèmes "مائة ألف من ملايين القصائد" الذي أصدره الشاعر في عام 1961. قال روبير لاروز في تفسير عنوان هذا الديوان: «اشتمل هذا الكتاب على عشر سونيتات، قد قطعت كل واحدة منها إلى 14 شريطاً. وبتقليب القارئ هذه الأشرطة من اليسار إلى اليمين يتوصل إلى تكوين 1014 قصيدة واضحة ومفهومة؟» :

Rober Larose, théorie contempmoraine de la traduction, Université de Montréal, Québec, 1989, p. 127-128.

- 34- "أنسات أفينيون" لوحة للفنان بيكاسو أبدعها في عام 1707، بعد أن مهد لها بدراسات عديدة. لكن لم يتسن له أن يتمها. وقد كان أندريه سلمون هو من أفرغ عليها هذا الاسم، الذي يشير إلى بيت موصود في شارع آفينوين، في مدينة برشلونة.
- 35- "موبي ديك" رواية أنشأها هرمان ملفيل في عام 1851، تحكي صراع الإنسان مع ما يتعذر الوصول إليه، مجسداً في الحوت الأبيض.
- 36- "البؤساء" رواية أصدرها فيكتور هوغو في عام 1862. وهي رواية اجتماعية، على تعقيد شديد. قد امتزج فيها الزهد، والعجيب، وانفضحت فيها صور الظلم، مازجة بين موضوعاتها في نسيج مركب فريد. وأما معركة واترلو وهي من أهم لحظات هذه الرواية، فقد دارت رحاها في يوم 18 يونيو 1815. وعاد فيها النصر إلى انجليزي وويلينكتون وپروسيي بلوشر على ناپوليون، في مدينة واترلو، وهي مدينة بلجيكية تقع إلى جنوبي العاصمة بروكسيل.
- 37- هو فابريس ديل دونكو، شخصية في رواية ستاندال "دير پارم" (1839). شارك في معركة واترلو المذكوة، من دون أن يدرك شيئاً من أمرها.



أحمد بلحاج آية وارهام الجبة الدهرية

سَمَاءُ الرَّقَادِ

عَبَرْتُ فِي الْجِرَاحِ الْأَمَاسِي
(ادخلي) قُلْتُ

بَهُوَ الْجَذُورِ عَلَى الشَّرْبِ مُنْفَتِحِ
وَالرَّقَادِ سَمَاءُ

عَلَى اللَّارِقِ اللَّيْلِكِيِّ
تَوَزَّعَ شَارَاتِهَا،

ادخلي كَحَبْنِ الْمِيَاهِ
أَزِيلِي تَفَاسِيرَ جَبْسِ

عَلَيْهَا دَمِي يَتَمَرَّدُ

مُنْذُ انْهَلَالَ الْجَحِيمِ عَلَى زَمَنِ
الْأَصْفِيَاءِ.

حِجَارَةُ الْأَسْمَاءِ

ضَائِعًا كُنْتُ

فِي كُتُبِ الْمُسْتَحِيلِ
وَأَرْنَبِ كَاهِنَةٍ كُنْتُ
فِي كُتُبِ الْحُبِّ،

هَلْ أَلْتِظِي كُلَّمَا
سَقْتُ هَذِي السَّلَالَاتِ

صَوْبَ يَنَابِيعِ مِيلَادِيهَا؟
صَوْبَ تَحْسِينِ نَطْفَتِهَا؟

كَمْ أَظِلُّ أَسْمَنَ خَرْفَانِ أَرْمِنَةٍ
ضَائِعَةٍ

مُدُنُ الرُّوحِ تَسْرِقُنِي

وَالْجَوَادِبُ أَضْرَحَةُ

كَائِنَاتُ النَّهَارِ تُبَسِّمُ فِيهَا

بِأَشْيَائِهَا

وَتَجَرُّ انْفِلَاتِي

عَلَى عَرَبَاتِ الْعَوَاصِفِ،

خَلْفِي تَجْرِي حِجَارَةُ أَسْمَائِهِمْ

مُدُنُ الرُّوحِ تَسْرِقُنِي

وَالْجَوَادِبُ أَضْرَحَةُ

كَائِنَاتُ النَّهَارِ تُبَسِّمُ
فِيهَا

بِأَشْيَائِهَا

يَلُورُهَا وَحَدَهُ كَانَ مَاءَ الزَّمَنِ
وَالْحَرَادِينَ ظِلُّ
كَمِثْلِ الْقَصَائِدِ
يَزْحَفُ فَوْقَ ثُدَيَّ مِنَ التَّبَنِ.
هَلْ أَنْ لِي
أَنْ أَجْمَعَ مَاءَ الْعَصَافِيرِ فِي
نَبْضَةٍ

وَدِمَاءِ الْأَحَاسِيْسِ فِي ذَرَّةٍ
وَأَدْسُهُمَا تَحْتَ مَاءِ الزَّمَنِ
لِتَقُومَ الْعِظَامُ
وَتَخْرُجَ مِنْ قَبْرِهَا الْأَرْضُ
ثَانِيَةً
مِثْلَ خَفَقَةِ أَجْنِحَةِ النُّورِ
تَلْجِمُنِي وَإِيَّاهَا
الْحُرُوفُ الَّتِي مَا انْتَهَتْ فِي
الْأَزَلِّ؟

طُيُورٌ عَلَى جَنَّةِ الْمَاءِ

يَرَقَاتُ تَخِيْطُ الْوُجُودِ
خَلَايَا مُفْرَعَةٍ
سَمَكٌ حَائِزٌ
وَبَنْفَسٌ مُلْتَفِتٌ،

هَنَّاكَ الرَّمَادُ تَنَاسَلُ
فِي رَحِمِ الطِّينِ،
لَأَشْيَاءَ فِيكَ يُحَدِّقُ
إِذَا تَرَى
قَبْلُ الرَّعْبِ

وَكَوَاسِرُ أَشْبَاحِهِمْ
فِي احْتِفَالِ الْهَوَاءِ أَدُورُ
أَرَى فِي النَّبَاتَاتِ عَظْمِي اخْتَلَجُ
وَأَرَى السَّاعَةَ اللَّوَلِيَّةَ
تُخْرِجُ مِنْ سُرَّةِ الْكَوْنِ صُورَ
مُوَاجِدِهَا.

لَغَاءُ الطُّفُولَةِ

هِيَ ذَاكِرَةٌ
وَأَنَا كَسَنَابِلِ مَاءٍ
أَفْتَحُ جَفْنًا عَلَى مُلْصَقَاتِ الصَّدَى
الْدُمُويِ
وَأَغْلِقُ آخِرَ
مُنْسَرِبًا فِي لَغَاءِ الطُّفُولَةِ،
يَاقُوتَةُ الْحَلَمِ تَدْخِلْنِي

مِنْ هُبُوبِ جَنَادِبَ مِنْ حَمَاٍ
مِنْ زِيَاطِ جِبَالِ السَّدِيمِ،

هَنَّاكَ الرَّمَادُ تَنَاسَلُ
فِي رَحِمِ الطِّينِ.

لَأَشْيَاءَ فِيكَ يُحَدِّقُ
إِذَا تَرَى
قَبْلُ الرَّعْبِ

تَحْتَبَ غَيْثُ الْبِدَاهَةِ تَنْهَضُ مِنْ
نَوْمِهَا

أَسْرَةُ الْقَمْحِ

خَالَعَتْ ثَوْبَ نِسْيَانِهَا

وَالزَّوَاحِفُ تَرْفُو قَمِيصَ السَّرَابِ

وَلِلنَّحْلِ سِيرَتُهُ

تَتَفَتَّحُ أَلْوَانُهُ

فِي أَوَاوِينَ مَنْ عَبَرُوا ظِلْمُوتَ
النَّخِيلِ

وَأَرْوَقَةَ الدَّمِ

قَبْلَ قَتِيلِ الْقَتِيلِ،

جَمَاهِيرُ مَنْ حِنْطَةِ

دَخَلَتْ فِي الشَّعَاعِ

وَرَاغَتْ إِلَى حِطَّةِ

كَبْهِيمِ الْفَرَاغِ،

فَكَيْفَ سَتَغْرِسُ صَوْتَكَ

تَحْمِيلُ تِمَثَالِهِ لِلْأَقَاصِيِّ؟

أَخَافُ مِنَ الشَّكْلِ

كَمْ جَاءَنِي حَامِلًا جَنَّةَ

حَيْنَمَا عُدْتُ مِنْ دَفْنِهَا

لَمْ أَجِدْنِي

تَوَرَّمُ فِي الرَّأْسِ لَيْلٌ

وَفِي الْقَلْبِ صِلٌ

وَفِي الْعَيْنِ ظِلٌّ،

أَتَعْدُو الْمَشَاهِدُ مَذْبَحَةَ قَادِمَةٍ؟

وَالْحَلَّازِينَ أَغْنِيَةُ الْبَرَقِ؟

كَفِّي الْبَيِّ ابْتَلَعَتْ لُعْمَهَا

تَبْصِرُ الْآنَ فِي نَسْلِهَا

نَوْحَ بَيْتٍ مُعْطَلَةٍ

وَطَيُورًا عَلَى جَنَّةِ الْمَاءِ،

أَدْخُلُ بَيْنَ أَضَابِيرِ مَسْطُورَةٍ
بِالْوَجْهِ

وَأَعْتَرِفُ

أَنَّ زَهْوَ الْقَبْلِ

نَفَقَ نَارُهُ الْقَرْفِ

حَالَ كِبَرِيَّتِ أَطْبَاعِهَا

بَيْنَ قَلْبِي وَحَرْفِي

هَوَى جَسَدِي

فِي غَرِينِ الْحَسَائِفِ،

كَيْفَ أَقْبَلُ تَسْمِيَّتِي

وَالْفِخَاخَ قَبَائِلِ

تَحْتَلُّ صَمْتُ الشَّفَاهِ

وَنَوْمَ الْجِبَاهِ؟!

أَقِمِ طَرَفَكَ الْبَاطِنِيَّ لِتَحْيَا

عَلَى مَلَكُوتِ

بِلَا لُغَةٍ مِنْ حَنَادِيْسَ،

أَخَافُ مِنَ الشَّكْلِ

كَمْ جَاءَنِي حَامِلًا
جَنَّةَ

حَيْنَمَا عُدْتُ مِنْ
دَفْنِهَا

لَمْ أَجِدْنِي

تَوَرَّمُ فِي الرَّأْسِ لَيْلٌ

وَفِي الْقَلْبِ صِلٌ

هَيْتَ لَكَ .. الْآنِهَايَةَ وَقَتِكَ
خُذْ جَسَدَكَ
لَيْسَ قَتْلَكَ فِيهِ
وَصَادِمٌ بِهِ
ضِغْتٌ أَوْفَاقِهِمْ.

جَسَدٌ يَجْرِي

كُنْتُ أَجْرِي .. وَيَجْرِي مَعِي
جَسَدِي الْمَتَلَالِيءُ بِالطَّعَنَاتِ
يَضِيقُ .. وَأَجْرِي
الْعَنَاكِبُ وَالْغَنَّةُ فِي الرَّوَى
كَالْتَرَائِكِ
مِنْ أَيْنَ تَأْتِي رِيَاخُ الْأُمُومَةِ لِي
وَفَحِيحُ الزَّمَنِ
بَيْنَ صَحْوِي وَمَوْتِي كَانَ
الْجِهَاتُ؟.

أَرْضٌ تَتَوَكَّأُ عَلَى مَوْتِهَا

قَبْلَ مِنْ وَحُولِ الْجَوَاسِيسِ
ذُعُرَ دَمٌ فِي الْهَسِيسِ
اِئْتِلَاقُ عَيْنِ التَّوَاطُؤِ
كَرْكِرَةُ اللَّغَةِ الْمُسْتَحِيلَةِ
طَقْسُ قَرَاصِنَةِ الْحُلْمِ

أَفُقُ هَجِيرِ الرَّغَابِ
... تِلْكَ أَرْضٌ
عَلَى مَوْتِهَا تَتَوَكَّأُ
تَعْلُو بِهَا نَخْلَةُ اللَّيْلِ
مِثْلَ الْغَرِيبِ
تَنْوُءُ بِتَمَرِ الْكُرُوبِ،
فَمَاذَا بِأَقْتَارِهَا تَنْتَظِرُ
يَا قَتِيلَ هَوَاهَا النَّصِيرُ؟!
جَلَدٌ لَيْلِهَا مُنْتَظِرٌ بِالسَّمَادِيرِ
يَخْرُجُ لَكَ
مِنْ لِسَانِهِ
كُلُّ الْمَدَائِنِ
كُلُّ الْأَقَالِيمِ
مَمْهُورَةٌ بِالضَّنْكِ.

شَجَرُ الْحَسِّ

هَلْ تَضِيءُ اللَّغَةُ
قَسْوَةَ الظِّلِّ؟
هَلْ صَوْتُكَ الطِّفْلِ يَعْرِفُ كَيْفَ
يَضِيءُ؟
شَجَرُ حِسِّكَ
ارْتَعَدَتْ فِيهِ بَاصِرَتِي،
أَتَرَانِي أَقْتُلُ مِنْ خَارِجِ

وَأَعُوذُ لِأَقْتَلَ مِنْ دَاخِلٍ؟

أَمْ تُرَانِي أَدْخُلُ تَحْتَ خَبَاءِ النَّدَالَةِ
مُحْتَضِنًا جُوعِي الْأَبَدِي؟!.

أَعَالِي الْحُدُوسِ

أَهْ .. مِنْ جَمْرَةِ الْاِخْتِلَافِ !

تَفِيضُ انْتِشَاءٍ عَلَى مُهْجَتِي

أَهْ .. مِنْ وَرْطَتِي !

فِي أَعَالِي الْحُدُوسِ

تَقَامِرُ بِي

وَأَسْلَفَهَا رَفَرَفَ اللَّذَّةِ،

فَوْقَ نَافُورَةِ الْعُشْبِ أَجْلِسُهَا

مِثْلَ رَعْدِ الظُّنُونِ

وَأُحْكِي لَهَا

عَنْ عَشَاءِ الْمِيَاهِ

وَكَيْلِ السَّرِيرَةِ،

تُشْعِلُ فِي الرُّوحِ صَوْتَا

أَرَاهُ نَحِيلًا .. سَبُوحًا

عَلَى وَرَقِ الْمَوْجِ يَطْفُو،

وَفِي غُرْبَةِ الْحُلُمِ أُعْبِرُ صَوْبَهُ

يَا طَعْنَةَ الْوَصْلِ !

كَمْ مِنْ غَزَالٍ شَرِيدٍ سَامْسِكُ

فِي يَقْظَةِ الْعُشْبِ.

فَوْقَ الْغُصُونِ تُضِيءُ الْجَوَانِحُ

أَشْلَاءُ جِسْمِي خَارِطَةً

وَالْيَقِينُ خِرَافٌ مُسَرَّنَمَةٌ

يَعْبُرُ الْغُلْفَ وَجَدَانَهَا،

وَأَنَا كَامِنٌ تَحْتَ بَوْصَلَةِ الرُّوحِ

أَنْتَظِرُ اللَّغَةَ الرَّؤْيَوِيَّةَ

تَفْتَحُ صَدْرِي

لِتَخْرُجَ ذَاتِي

مِنْ ظَلَمُوتِ الْمَسَافَةِ

تَقْرَأُ مَا يَكْتُبُ الْقَلْبُ

فِي صُحُفِ الْاِنْخِطَافِ

تَرَشُّ الَّذِينَ يُضِيئُونَ فِي

الْوَهْمِ

كَيْ يَقْلَعُوا مِنْ كِتَابِ

الْحَشَائِشِ أَوْجَهُهُمْ.

غَرَقُ النَّاسُوتِ

فِي ضَجَّةِ الرَّؤْيَةِ وَالْعَذَابِ

تَعْلُنُ ذَاتِي حَضْرَةَ الْغِيَابِ

بِالنُّورِ هَجَسَهَا اشْتَعَلَ

وَفَاضَ فِي الْقَلْبِ التِّهَابُ

لِتَخْرُجَ ذَاتِي

مِنْ ظَلَمُوتِ الْمَسَافَةِ

تَقْرَأُ مَا يَكْتُبُ الْقَلْبُ

فِي صُحُفِ الْاِنْخِطَافِ

تَرَشُّ الَّذِينَ يُضِيئُونَ

فِي الْوَهْمِ

بِالْجَبَرُوتِ انْحَلَّ فِيهَا سِرُّ سِرِّهَا
وَأَغْرَقَتْ نَاسُوتَهَا الْفِيوضُ،
يَا مُقْلَةَ اللَّطَائِفِ
انْدَكَّتْ أَسْوَارُ ظَلَمَوْتِي،
مَنْ يُشَاهِدُ الرُّمُوزَ فِي حَدِيقَةِ
الذَّاتِ

بَغِيرِ عَيْنِ حَسِّهِ؟
وَمَنْ
فِي وَطَنِ الْمَعْنَى يَرَانِي؟
فَالْعِيَانُ فَسْحَةُ ابْتِلَاسٍ
وَالْعَقْلُ فِي سَبَابِيبِ الْعَمَى يَفِيضُ.
كَمْ لَيْلَةٍ مَحْشُوءَةٍ بِالْحُزْنِ وَالْفَرْقِ
رَقَدْتُ فِيهَا رَأْيًا جَوَانِحِي
بِالظِّلِّ تَحْتَرِقُ
وَكَمْ رَأَيْتُ عَوْرَتِي
رَاكِضَةً وَرَاءَ عَرِي ظَلِّهَا،
رَمَانَةُ الْمُغَيَّبَاتِ انْفَلَقَتْ
وَارْتَعَدَتْ بِضِدِّهَا التَّسَاوُلَاتُ
فِي انْهِدَامِي،
كَانَ دُخَانُ الْحُلُمِ تَحْتَ الْمَاءِ
يَنْبِضُ بِاسِمًا
وَكُنْتُ الْجَبَّةَ الدَّهْرِيَّةَ
أَضْمُ أَسْرَةَ الْأَصْوَاتِ وَالْأَسْمَاءِ

أَدْخُلْ أَوْ أَخْرُجْ فِي الْأَشْيَاءِ
تَحِيطُ بِي أَجْنَحَةُ السَّكِينَةِ
وَصَوْتِي الْخَفِيِّ فِي يَدِي
يَجُوسُ فِي الْأُرُوقَةِ الْعَمِيَاءِ.

مَوْجَةُ الصَّعْقِ

الْأَمَاسِي أَرَا جِيحَ مِنْ فِضَّةٍ
وَالْحَنَايَا سَرِيرُ التَّوَجُّسِ،
ثَمَّةٌ سَيِّدَةٌ

مِثْلَمَا زُرْقَةُ اللَّحْنِ
عَيْنَاهَا مَالِكَةٌ
كَعْنَاقِيدِ صَحْوِ هَتُوكِ.
تَتَأَوَّدُ مَا بَيْنَ تَسْمِيَّتِي
فِي مَقَامِ الْأَلْفِ
بِالسَّنَاءِ

وَتَسْكُرُ مِثْلَ نُهُودِ الضِّيَاءِ
بُنُونُ الْكُمُونِ
صَوْتُهَا ضِفَّةُ الْوَجْدِ،
يَا مَوْجَةَ الصَّعْقِ
رِيشَةُ أَلْسِ أَنَا؟
أَمْ مَنَارَةٌ جَذْبٍ
تَحْمَلِقُ فِيهَا الظُّنُونُ؟!

مراكش - المغرب

وَتَسْكُرُ مِثْلَ نُهُودِ
الضِّيَاءِ

بُنُونُ الْكُمُونِ
صَوْتُهَا ضِفَّةُ
الْوَجْدِ،

يَا مَوْجَةَ الصَّعْقِ
رِيشَةُ أَلْسِ أَنَا؟
أَمْ مَنَارَةٌ جَذْبٍ
تَحْمَلِقُ فِيهَا
الظُّنُونُ؟!



عبد الكريم الطبال

كَالْقَصِيدَةِ

فِي سَمَاءِ الْمَدِينَةِ

غُصْفُورَةٌ

شَبَّهَ وَاقِفَةً

تَتَرَدَّدُ

تَسْأَلُ عَاشِقَهَا الْمُتَلَفِّعَ

بِالْبُرْنَسِ النُّرْجِسِيِّ :

نَحْطُ الرِّحَالَ هُنَا

أَمْ نَظِلُّ عَلَى سَفَرٍ؟

فَيَقُولُ لَهَا :

سَنَظِلُّ

إِلَى أَنْ يُبَاغِتَنَا الْوَرْدُ

فِي يَقْظَةِ كَالْقَصِيدَةِ

حِينَئِذٍ

سَنَحْطُ الرِّحَالَ

عَلَى حِضْنِ زَيْتُونَةٍ

أَوْ عَلَى كَتِفِ السَّنْدِيَانِ

فَنَبْنِي مَعًا غُشًّا دَهَبِيَّ

وَنَرْفَعُ فَوْقَ اللَّحَافِ سَمَاءَ

فَلَا يَتَرَصَّدُنَا أَيُّ طَارِقٍ

سَنَظِلُّ

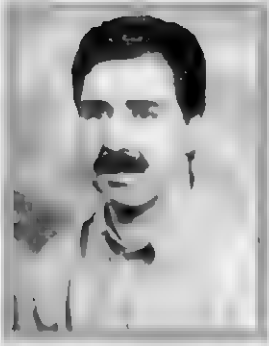
إِلَى أَنْ يُبَاغِتَنَا الْوَرْدُ

فِي يَقْظَةِ كَالْقَصِيدَةِ

حِينَئِذٍ

سَنَحْطُ الرِّحَالَ

عَلَى حِضْنِ زَيْتُونَةٍ



عبد السلام المساوي

كحل غريني عن عيني

المسافة

فغاصت حوافرها في نقطة الابتداء ..

xxxx

تستيقظين الآن

لتبدأي يومك العادي في المحبة

فتهب المعاني من جفوة الوقت

وترينني طفلا

يبحث بعين الظلام في الثوب عنك

وفي المرايا

عساه يرى وجهك - بالمحال - يخطر
فيها

فقد يخدع الضوء طيفك العابر ..

على بيتنا يعلو صوت المؤذن

فينشق الفجر إلى نصفين

واحد لصلاتك

والثاني لمسافة تفصلني عنك

وأنت تقبلين من خلل الباب

تحملين البساتين في سلة

(إلى روح أمي ..)

الأمهات شيدن للنضج احتفاله

ومجدن الوقت في عتبات الانتظار

فمن يعيد الكحل إلى فجر

غريني عن عيني

والسفر الوشيك إلى دولاب السلالة؟

xxxx

لم يزل خوفها يحرسني

من زلة فوق أرصفة

تحركها الرياح

ولم تزل عيناها تشعان بالفرح

وهي تراني مقبلا من أيما جهة

من سحب يكسرهما الرعد

أو من ليل تعثر في نصفه النجم

كأنني بخوف الأمهات تجمع في

الصدر

لحظة بين الصمت والرجاء

كأنني بخيول لم تجد متسعا من

وتواصلين رسم الحياة على الجدران ..
قريبا يعود صيفك المهاجر
من بلاد بعيدة
قريبا تحفك الأرناب البيضاء
من كل جانب ..

من ترى خلف الباب ، حقييتي المأوى
بالشوق
أم قميصي الذي لطخته الأحوال؟
يدك تغفر لإخوتي سهوهم
وتمسح على فروة الذئب التائه في
الغابة
عن أمه ..

xxxx

تستيقظين الآن في الهزيع الأخير من
أرقي
فتنتصب الأشجار مثمرة من جديد
وباسقة كارتفاع الصلاة
لحظة وينبسط الطريق إلى قرיתי
مخفورا بالصبر والصبار
لحظة وتنهض الطيور من فخاخي
شادية رغم انكسار الجناح ..
الآن أعرف
لم كنت توبخين الشيطان في كتبي
كلما ارتفع في خلوتي
دخان الحروف
وتبعثين في الحكاية، أشلاء السلالة
وتاريخ الموت
وأبواب الجنة التي دونها
شيوخ الحضرة في الأذكار ..

xxxx

يلهمني خطوك همزة وصل أرسمها
بين ما تفرق من قلوب الأحباب
.. كنت ترفعين كفيك
كلما عبرت طائرة سماء قريتنا
وتهمسين .. ليت للشوق أهلا يهاجرون
ليته يطاوع لوعة الناي
في دورة الحاكي
ويعيد إلى البيت إنا طاعنا في السفر
وتعاودين غزل الصوف ..

على نول الانتظار
أذكر أن الله قد أقام طويلا في بيتنا
ليمنع إبراهيم من ذبحي في كل عيد
ليحرس يوسف من غمزة
زوجة عمي البعيد
وليبارك أجنحة البراق
فوق قريتنا ليلة المولد ...

xxxx

باب ، ويدخل الخريف
كي يشرب شايا في عز الخريف
باب ، ويخرج الصيف
من حديقتنا
حاملا في الجراب أجراس الدوالي
وشمسا أنهكتها
منحدرات الغروب
باب يغوص إلى الرتاج في غيابه.

وشمسا أنهكتها
منحدرات الغروب
باب يغوص إلى
الرتاج في غيابه.



نِجاة الزايِر

التَّقاسيمُ القَيْسيَّةُ عَلَى الرَّيَابَةِ الوَهْمِيَّةِ

مَدُّ غَرَدَتِ بِأُبْجَدِيَّاتِ الْأَنْوْثَةِ
وَجَعَلْتَنِي أَزْرَعُ الْهَوَاءَ

هُوَ

حَتَّى اكْتَأَبْتُ شَفْرَةَ الْحُلُمِ؟!

إِلَيْهِ كَأَحْمَلِ حِمَّةٍ نَعِيرٍ قَنْظَرَةَ الْعَمْرِ

قَبْلَ لِهْوِهِ

يَقْبَلُ فَنِي

بِهَدْيِي رَهْزَانَةَ الْوَدَعِ

فَبِتُّ :

قَالَ :

- أَمَا سَمِعْتَ رَنِينَ شَمَةِ الشَّمْسِ

يَصِي فِي عَقْمِ جِرْسِكَ

فَتَنَاسَلْتُ خَفَقَاتِي

فِي سِنْعِ الدَّمْعِ؟!

أَفَلَا يَكْفِيكَ هَذَا الْجَنُونُ عَنِّي مَهْلُ؟!

يَمْطُرُكَ عَشَقًا أَخْضَرَ

كِنَمَا جَرَحَ الْقَمَرَ أَقْنَعَةُ الْأَشْيَاءِ؟!

«هَذَا تَعْرِ الدُّوَا»

بِخُوفٍ فِي شِدَائِي

أَتَرْتَنِي

أَتَأْتِي سَاعِدًا دُونَكَ

«خَيْرٌ مِنْ شَيْءٍ سِوَاكَ يَا رَبِّ

وَجَعَلْتَنِي بِرَبِّكَ أَكْثَرُ الْهَوِيِّي

بِئْسَ الْوَدَعُ بِسَائِرَةِ؟

قَالَ :

«أَخْبِرْنِي بِرَبِّكَ لَسْتُ

وَأَنْتَ بِي بِوَجْهِ الْقِصَّةِ

نَحْمَدُكَ يَا رَسْمَ الدَّيْنِ

إِلَى رَمْلِي

عِنْدَكَ تَتَمَتَّعُ

بِزَيْنَةِ سِدْرَةِ الْبَلَدِ

قَبْلَ :

- «هَذَا شَعْرُ الشَّوَارِخِ»

يُطَوِّفُ فِي أَرْهَاقَاتِي الْقَرْحَبَةِ

فَسَتَى سَتَعْوِي ذَبَابُكَ

قَالَ :

«يَا رَبِّ

فِي جَسَدِ الْحَقِيقَةِ
قَاصِبٌ فِي خَطَرَاتِ الْهَمْسِ

ندائي

أَمْ تَرَكَ سَتَبَقَى كَاهِنًا

يَضُمُّ عَنُوءَ سِرِّي

فَتَطْفُو جَنَّةُ الْحَلْمِ

فِي زَفِيرِ هَذَا الْوَطَنِ؟

قلت :

«يَاتِينِي

فِي وَرِيدِ اللَّيْلِ

يَسْرِقُ مِنْ قَسَمَاتِهِ الْكَرَى

يَهْدِينِي أَصْدَافَ التَّيِّه

يَمِزُقُنِي الشَّوْقُ

فَأَغْوِصُ فِي أَغْوَارِ الْحَنِينِ

فَكَيْفَ أَسْكُنُهُ أَحْدَاقَ صَبَاحَاتِي

وَهُوَ بَيْنَ الْقُرْبِ وَالْبَعْدِ

يَدْنِدُنْ فِي آهَاتِي؟!

- ضَمِينِي إِلَيْكَ فِي

خَطَوَاتِ الدُّجَى،

قال «وَدَعِيهِ يَطْلُ

مِنْ خَدَرٍ

كُلَّ قَصِيدَةٍ

نُورًا طَرَرَهُ الْمَدَى»

- ضَمِينِي إِلَيْكَ فِي خَطَوَاتِ الدُّجَى»

قال «وَدَعِيهِ يَطْلُ مِنْ خَدَرٍ

كُلَّ قَصِيدَةٍ

نُورًا طَرَرَهُ الْمَدَى»

قال :

- «تَرْتَجِي تَحْتَ أَلْوِيَةِ الْمَطَرِ

رُؤْيَا

عَبَرْتَ قَسَمَاتِي ذَاتَ لِقَاءٍ!!

قلت :

- «فِي قُبْلَةِ عَيْنَيْهِ

أَنْسَى أَنِّي امْرَأَةٌ

تَرْتَجِي فِي إِيْوَانِهَا

كُلَّ الرِّيحِ

فَتَنَمُو فِي كَبَدِ الشَّمْسِ

نَخْلَةٌ تَتَسَاقَطُ أَسْمَاءُ

أَعْشَقُ تَرْتَجِيهَا فِي فَمِ الضَّوِّءِ

فَأَتَدَلَّى مِنْ مَسَاءَاتِهِ عَنَاقِيدَ

تَقْرَأُ فَوْضَايَ وَتَغْسِلُ جُرْجِي».

قال :

- «أَرْحَمِي وَجْهَ الْمَسَافَاتِ،

هَامِسًا

1 مارس 2001

مراكش - المغرب



أحمد هاشم الريسوني

المساء

هنا،

ستأتين من وهج ممطرٍ

تفتحين شبابيكَ غدي

وتوزعين الأبدَ

بين ساقية اللجين

ممشوقة الحواشي

بين جرة موجٍ سريريٍّ

تعمد فتح المددَ

أو بين طولٍ أمنتَ بيضَ

الحروفِ

مثقلة الغواية

جارية كالحنين

ستودعين هفهة الجدارِ

وتوسعين فخامة اللونِ

مدركة أن المساء نبيٌّ

يمضض خصلات المسدِّ

يطوف بأرجاء القوافي

يرتب قامات أندلسية

يجيل الكلمة الضامنة

ييمم نايًا وريحاً

ويقضم ريق الطريقِ

× × ×

هنا،

ستأتين من وهج ممطرٍ

وتزرعين دمي في شقوق المحالِ

ليس لديك سوى قبضة باردة

وقفت برهة فوق المدى

ترتجي مهلة من وصالِ

ليس لديك سوى مضغعة من

ظلالِ

هنا،

ستأتين من وهج
ممطرٍ

تفتحين شبابيكَ غدي

وتوزعين الأبدَ

بين ساقية اللجين

تتباهى بالعدم

x x x

تنظر صوبَ طريقِ أعرج

هنا،

ضيّع ساقه عند غبارِ مرخ

ستأتين ممطرة..

أو قلْ عند سقاءِ نبيدٍ

مسيجةً بصمت الخطى

يجلسُ قرب المساءِ

أر قبلكِ من بعيد البعيد

يرقب مجدّ الهباءِ

أراوغي كفيّ، وأفتح شرفة روحي

لعلّك تمشين فوق بياض الكلّم

وينتظر..

علّك تأتين، أنتِ، هاهنا

لعلّك تبينين صوت الخصال

أو لعلّي - شبيهك -

مرهفة السواقي،

تمرّغين باللطخات النبوية

أنسج من وهج الرّضا

بيت أمواج آيلِ صوب ناي

أيادي الزّمن،

أوطريقِ أعرج - ذاك -

وتوسّعين - قليلا - صمتك

يمخرُ أشباح مناي

ليندلق الجلال،،،

أنفضّه - قليلاً - من أمامي

كيّ تأتي المسافات طوى

x x x

سيّدتى..

أركبها زرافات، ثمّ أجيئ ظامئاً

أرتجي قبضةً من دلال

ليس لديّ سوى قبضة من محال

ثمّ أقول لهذا الذي بيننا،

سأبعثها لك حين يجيء المساء

هل تجيء الطّريق إلينا

ثمّ لا أنظر؛ هل كنتِ هنا

أم نسير فرادى صوبَ ذاك

أم ظلّ سقاءِ التّبيدِ قربك

الطّريق؟!

يغترف

أقول؛

من وهج الجلال

أو لعلّي - شبيهك -

أنسج من وهج
الرّضا

بيت أمواج آيلِ
صوب ناي

أوطريقِ أعرج -
ذاك -

يمخرُ أشباح مناي

لماذا رضايَ وزهرَ المساء
صنوان؟!

لماذا غباري ندى؟!
وموجي ضفاف،

لم يطمثنَ إنس قبلهم ولا
جان؟!

لماذا رموشك برق
ولحظك رتق

ونهرك شوق، وجنى الجنتين
دان؟!

لماذا هنا؟!
أقول

وأنت ستأتين من وهج ممطر
مخضبة السلال

يلفك ماء الصدى، وبوخ سوسنة

طلقت المساء وعادت إلى
خصرها

تتملى في عيون السؤال

x x x

أقول

وأنت هنا..

يلفك ورد الصلابة

لماذا الطريق إلى يثرب ينحني

والمسالك - عن بكرة ريحها -
تنتفض؟!

ثم لا أحد

يعبر حلم الظهيرة

يمسك نخلات أتين بشوق وراية

أتينا بكل هذا وذاك

ثم لا أحد

والطريق غبار ينثر الكلمات

وأنت ستأتين - سيدتي -

وتوسعين - قليلاً - صمتك

ليندلق الجلال

وليس لدي سوى قبضة من محال

سأبعثها لك حين يجيء المساء

ثم..

لا أنظر

هل كنت هنا؟!

أم ظل سقاء التبيذ - قربك -

يغترف من وهج الجلال؟!

ثم..

لا أنظر

هل كنت هنا؟!

أم ظل سقاء التبيذ -

قربك -

يغترف من وهج

الجلال؟!



سعد سرحان

أندلس أخرى

قيثارة دَوَزَنَهَا الشرق

فأفْطَرَتْ أوتارها

عن

شمال

من

الموسيقى

× ×

خريز يعتمل في عروق المكان

قبل أن ينبجس من نافورة

لاتني تترتل آيات الماء.

× ×

فسيفساء أم أبجدية

قصر أم كتاب؟

× ×

ثور يرزح تحت نسر

غمزة على خد الجغرافيا

ما مر تاريخ

إلا وأوسعته إغواء.

× ×

غناء يحيا

في حنجرة بالكاد تموت.

× ×

نبض الماضي

في وريد الحاضر.

× ×

خلخال شبق

في ساق

تنضح

رقصاً.

× ×

له جناحان شاسعان

من ريش الهنود

وله مخالب

كأنها قَدَّتْ من نبالهم.

x x

هدنة حكيمة

وقعتها العواصف مع بحارة حالمين

فما عادوا بطيور غريبة فوق الأكتاف

وإنما بخرائط مرصعة بالذهب.

x x

شرفة واطئة

يلامس البحر ستائرهما

فيكاد يُجَنُّ

قمر في الصحراء.

x x

وردة

المتوسط مزهريتها

x x

مولاتي

بالباب شاعر

قد تجود قريحته

بأندلس أخرى.

مولاتي

بالباب شاعر

قد تجود قريحته

بأندلس أخرى



مراد القادري

موسكو 1989

القلب،

خَيَوطَ مِ الْقَنْبِ

لذِيكِ الْجِيْهَ

الشَّمْسُ غَرَبَتْ فِيْهَا،

مَشْدُوْدٌ ...

القلبُ مَرَمَّةً

سَدَاها قُطْنٌ ... وَطَعْمَه

القلبُ صَهْرِيْجٌ

أَلْمَا ... فِيْهْ يَفُوْتُ

القلبُ طَنْجَرَه ... دَلْكُو كُوْتُ

ع لَعَا فِيْهْ حُطِيْتُو

غَلَا شُوِيَا ... غَلَا بَزَافِ

شَفْتُ دَمَعْتُو عَ الْاِكْتَا فِ

لِلْسَمَا عَلِّيْتُو

بَيْنَ يَدِّيْكَ ... رُخِيْتُو

يرفر فر ابيَضُ

لِ الطَيْرِ الْخَر ... ابيَضُ

ويعيِّطُ بِ اسْمِكَ :

.....

بِ الطَّوْلِ، يعيِّطُ، وَبِ الْعَرَضِ

تُفِيْقُ كَأَعِ الْأَرْضِ

فَ ذِيْكَ الْجِيْهَ

كُنَّا زَوْجٌ

ثَالِثَا ... «الرُّوْبَلُ» *

وَكُنْتُ مَرُوْبِلُ

يَاكَ

أَنَا كُنْتُ وَأَيَّاكَ

يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ ... فِ السَّاحَةِ

فِ الْقَبِ لِيْمُوْنَهْ وَتَفَاحَهْ

نُجِيْكَ، هَا أَنَا، جَائِ

القلبُ مَرَمَّةً

سَدَاها قُطْنٌ ...

وَطَعْمَه

القلبُ صَهْرِيْجٌ

أَلْمَا ... فِيْهْ

يَفُوْتُ

عَارِضَكَ عَلَ كَاسٍ دَ أَتَايَ

لِمَحَبَّةِ بَزُوجٍ نَخِيطُوهَا

بِ الشَّعَا ... وَبِ الظِّلِّ

قَالَ بُوَشَكِينُ * ... وَفُشَلْ

قَالَ مَايَاكُوفْسْكِ * *

... وَفُشَلْ

قُلْتُ أَنَا ،

مَا يَخَافُ اللَّي غَادِي لَ سِيدُو

سَرَّجْ عُوْدُو

وَسَافَرُ

لَطِيُورُ الْغَابَةِ

لِلنَّارِ الْهَابَةِ

قُلْتُ :

فَ دَرَبِكَ نَنْبَتُ

نَزْرَعُ ... نَسْقِي ... نَحْرَثُ

نَرُدُّو جَنَّةَ، الْفَقْرَا مَالِيهَا

نَخْلُهُ عَالِيهِ، أَلَمَّا مُحَادِيهَا

لَكِنْ دَرَبِكَ تَلْفَنِي فِيهِ

أَشْدَّانِي لِيهِ

حَفَاتِ رَجْلِيَا

دَرَبَكَ

شَايِلَاهُ وَبِيهِ

طَوَالَ عَلِيَا ...

دَقَّ الْجَرَسُ

تَبَدَّلَ الْحَرَسُ

فَ السَّاحَةِ الْحَمْرَا

وَأَنَا مَا زَالَ كَنَقْرَا

«انتظريني» لسيمونوف * *

«انتظريني سأعود

لكن انتظارك سيطول»

وأيلاطال

صورتك اللي في البال

نتهجاها

نكتب حروفها ... ونقراها

نمرمد كمشة من ريحة شونك

- راني مازال مخبيها -

ف شوني

وأيلا عميت، نكحل بها عيوني

نشمها

ونموت،

بحال «البروسترويك» ... نموت

سلا - دجنبر 2001

x الروبل : عملة روسية

xx شعراء روس

مَا يَخَافُ اللَّي

غَادِي لَ سِيدُو

سَرَّجْ عُوْدُو

وَسَافَرُ

لَطِيُورُ الْغَابَةِ

لِلنَّارِ الْهَابَةِ



مبارك ربيع

ذات طائر. حط وحده!

(عندما انفرطوا بلحظة
من وداع، بدوا طيوراً كلهم)

نُقَاب... نُقَاب... نُقَاب...
طارَت الطيور!
حطت الطيور
طرت وحدي!
حطيت مع الطيور

نُقَاب... نُقَاب... نُقَاب...
طرت وحدي!

... ..

أم طير ناقلة تراثها إلى يفاعه
صغار. لعبة الطير من أزل إلى أبد،
تنقلها أم طير لأخرى، يتلقاها جماعة
طير عن جماعة. تطير الطيور
جماعة، تحوم حول نفسها، حول
محيطها، جماعة... جماعة...

صغار الطير يافعة. بعد، لم
تمتلك سوى إحساس واهم بدفع زغب

(عندما انفرطوا بلحظة
من وداع، بدوا طيوراً كلهم)

نُقَاب... نُقَاب... نُقَاب...
طارَت الطيور!
حطت الطيور
طرت وحدي!
حطيت مع الطيور

نُقَاب... نُقَاب... نُقَاب...
طرت وحدي!

... ..

أم طير ناقلة تراثها إلى يفاعه
صغار. لعبة الطير من أزل إلى أبد،
تنقلها أم طير لأخرى، يتلقاها جماعة
طير عن جماعة. تطير الطيور
جماعة، تحوم حول نفسها، حول
محيطها، جماعة... جماعة...

صغار الطير يافعة. بعد، لم
تمتلك سوى إحساس واهم بدفع زغب

الفضاء. تطير جماعة تحط جماعة. و.
طرت وحدي!

... ..

اللعبة لعبة. ولعبة تتعقد.

تجوب فضاءها الطيور. ذات
طائر أغر نابه، جاز التجربة، فاق وعي
الدرس، يجلي خفة، يبرز حوماً،
يسابق دوماً، يسف صاعداً، يصاعد
مسفاً، يحوم مائلاً، ذاهباً قافلاً. يعز،
يبز.

ذات طائر نابه أغر، تنقاد لسه
الطير. يعلو بها، يجاوز، تصاعد
بارتقائه صوب نجم وشعاع، يلامسها
في الأعالي نجم وشعاع.

ذات طائر نابه أغر، يجوب بها
أعال لم ترمها من قبل، لم تكسر
أديمها الكواسر، ولا اجتاحت أفقها
الجوارح. من قبل. ما أروع، ما أبهى
جمال العلى والأعالي. من حالق
حالقها، ترنو زواهي الطير، جوابة
خلف جواب، بادية لها من أسفل
سافل دقيق بعيد، وصلة امتداد من
خضرة داكن، يقسمها ملتويًا لامعاً،
ويشرق بينها مضيئاً ساطعاً، سيف
لجيني أخاذ.

تجهل الزواهي من حالقها سر ما
ترى من كون، كانت تراه كونها وتراها
به أدري، وإذا هي الأجهل. وما أبهى.
ما أبهى البهاء. ما أجمل الجمال!

وحده، ذات طائر أغر نابه يعرف
السر، يعز أن ينبهر، علمته كل السر

أم الطير، تلقن لعبتها ليفاعة
صغار. ليتقنوا اللعبة، مناورات اللعبة،
مداراتها تحويماً، مساراتها انحرافاً،
سرعة انحدار مائل، وقوة صعود
متحایل، والفضاء، الفضاء، ليس ملؤه
الأحبة والأصدقاء. لابد من وعي
الدرس بحذق لازم. حطت الطيور.
طرت وحدي!

وحده غرّ طير يافع، لا نابه ولا
منتبه، يشرد عن مناورة اللعبة، يطير
وأم الطير وحدها طارت، يحط بعد
الطير لاحقاً، يطير قبل الطير سابقاً.
أم الطير، أم الطير بقسوتها تعيد
التجربة، بانتهاز تكرر الدرس. فرد
الطائر لا يخطئ الدرس. لا يجوز.
(فرك) الطير، جمعه وسربه لا يخطئ
الدرس. لا يجوز. أم الطير بهمتها تبدأ
وتعيد. اللعبة أزلية خالدة، والطير في
التحطاط والترحال أزلي خالد، لا
ينسى الدرس. لا يجوز.

يافع الطير، أبداً نابه، أبداً منتبه.
و... طرت وحدي!

نقاب... نقاب... نقاب...

طارت الطيور!

نقاب... نقاب... نقاب...

طارت الطيور!

ذات طائر نابه أغر،
تنقاد لسه الطير.
يعلو بها، يجاوز،
تصاعد بارتقائه
صوب نجم وشعاع،
يلامسها في الأعالي
نجم وشعاع.

ذات طائر نابه أغر، تنقاد لسه الطير.
يعلو بها، يجاوز، تصاعد بارتقائه
صوب نجم وشعاع، يلامسها في
الأعالي نجم وشعاع.

ذات طائر نابه أغر، يجوب بها
أعال لم ترمها من قبل، لم تكسر
أديمها الكواسر، ولا اجتاحت أفقها
الجوارح. من قبل. ما أروع، ما أبهى
جمال العلى والأعالي. من حالق
حالقها، ترنو زواهي الطير، جوابة
خلف جواب، بادية لها من أسفل
سافل دقيق بعيد، وصلة امتداد من
خضرة داكن، يقسمها ملتويًا لامعًا،
ويشرق بينها مضيئًا ساطعًا، سيف
لجيني أخاذ.

تجهل الزواهي من حالقها سر ما
ترى من كون، كانت تراه كونها وتراها
به أدري، وإذا هي الأجهل. وما أبهى.
ما أبهى البهاء. ما أجمل الجمال!

وحده، ذات طائر أغر نابه يعرف
السر، يعز أن ينبهر، علمته كل السر
والسحر، رحاب العلى وفساح الآفاق،
تلك التي لا تعرف صغار الطير
ترومها، خوفًا من منقار كاسر أو
مظفار جارح.

ويظل بها يحوم، يظل يحوم، ذات
طائر نابه أغر، في أجواز لم تألفها
صغار طير، تجوب معه زاهية مأخوذة
بسحر الأعالي، مشدودة لبهاء
الأسافل. كون، أبدأ ما كانت قط

ترومه، ولا كانت أبدأ تروزه تجوبه،
رهبة من عصف ريح جارف، رعبًا من
لمع برق خاطف.

ويهف بها، يسف فجأة سهمًا دقيقًا
يشق الفضاء، تسف وراءه مثله، لامة ما
بها، ضامة ما عليها، مركزة كيائها
على استقامة منقار دقيق، كلها. كل
الكيان منقار دقيق. تخرق رققتها به
الفضاء، دقتها. مارقة باتجاه عمودي،
لا يكاد بها ينحرف أو يميل. تبدو لها
مسفة من حالق الأعالي، حشائش
الأرض، خشاشها، زحافها، وسلطان
النحل في بهي طيلسانه.

تدنو منها في اتجاهها صور
الأرض جامدة، متحركة، صغيرة
تكبر، كبيرة تصغر، تداني صور
الأرض، تقارب. وفي قوة اتجاهها
العمودي المسف المارق، تخالط رؤيتها
الدقيقة الحاذقة خشية، يراود
أفئدتها الهشة ارتعاب. يعمها عمق
إحساس بفقدانها سلطة الريش
والجناح وألفة الهواء. أسلمت إلى ريح،
ضاعفتها من ذاتها ريح، زادها من
سوقها العمودي ريح، من لصق أجنحة
بأضلع، دخولها في أضلع ريح، من
دقتها ورققتها ريح، من قوة دفع لشدة
جذب ريح. من كل ريح ريح. خشية
وارتعاب تغشى رؤية وعمق كيان. صور
تداني، تقارب، تتبدى على حد حرف
من ملمس. حتى سلطان النحل،
انتفض مستشعرًا في الأفق قصداً،

ويهف بها، يسف فجأة
سهمًا دقيقًا يشق الفضاء،
تسف وراءه مثله، لامة ما
بها، ضامة ما عليها،
مركزة كيائها على
استقامة منقار دقيق،
كلها. كل الكيان منقار
دقيق. تخرق رققتها به
الفضاء، دقتها. مارقة
باتجاه عمودي

نُقَاب... نُقَاب... نُقَاب...

حطت الطيور

حطيت مع الطيور

طرت وحدي!

أحياناً، ذات طائر أغر، يتطلع على إثره، إلى (فركه) المناور، وسربه المغوار، يبتئس لفرد غاب أو طائر شرد أو عطب؛ لكن مشهد القائد لا يغيب، لا ينتكس المحارب، لا يستقيل أو يوقف، وإنما يتأسى ويستأنف؛ وأم الطير تلك، لم تعد تكرر درسها وتعيد، فذات طائر، قد فاق الدرس حقاً، جاز آفاق المعاد من تجارب الجنس وبني الجنس.

نُقَاب... نُقَاب... نُقَاب...

حطت الطيور

نُقَاب... نُقَاب... نُقَاب...

طارت الطيور!

في تجوابه الآفاق، في تجواله بسرب الأعالي، في اعتناقه من ثقل وزن وتوازن، مارقاً عمودياً سهماً باتجاه الأسفل، كان يرى ومثله فرّك الطير المسف، ظللاً من صغار السمك، مضطرباً في وجهته، مذعوراً تحت صفحة الماء، من رسم ظلال الطير المسف قصده. منظر حي بهيج، لم يراود أحلام طير من

قبل. وأكثر من مرة ومرة، أبانت أفواه كواسر الماء، أسنان السمك الكبير عن شراحتها، مفتحة الأشداق، في انتظار نزلة كيان الظل الطيري، مطبقة عليه...

ذات طائر أغر، بإمكانه كان، أن يعد أسنان الحقد للسمك الكاسر الضروس، وأن يتملى خيبة الأشداق النهمة لالتهامه بظل وكيان. وكان يأسى لصغار أسماك، تعاشرها وتخالط على الدوام. شراهة أشداق، وشراشة أضراس، وتمنى. كم تمنى ذات طائر أغر، أن يرزقها أسماك الماء، قصيرة اليد والحيلة هذه، ريشاً مثله أشد وأقوى. كم تمنى لضعاف الماء هذه، من ضوارسه تلك، عزم اختراق فضاء وسماء ليعلمها لعبة الطير في الآفاق، تجواب الرحاب الصافية الزرقاء، لا نهائية الحدود. ألم يجاوز بلعبة طير مألوفة كل حد؟ ألم يطاول كواسر الطير والجوارح فضاءها المحتكر العتيد؟ فضاء الخالق الرحيم، لخلقه الكريم، ذاك الذي حددته لها وحدها، وحدته كبار طير. لها وحدها؟ ليتها، صغار أسماك في طيات السيف اللجيني، تفعل في مائها، بكبار أسماكها مثل فعيله، بكواسر الفضاء!

نُقَاب... نُقَاب... نُقَاب...

حطت الطيور

حطيت مع الطيور

طرت مع الطيور

و...

حطيت وحدي؟

وبدا ذات طائر أغر، مداوراً في
الأجواء، على إثره الفرّك جاهداً معه،
دائراً خلفه حوله، يميل به وينحرف،
يحوم نازلاً، يروم صاعداً. يرى ما بين
أعال وأسافل، مشاهد كون لم تكتحل
بها عين طير من قبل، سوى طير
علمه السر. سر أن لا يرتعب أو يرتعش.
لا، بل أن يقاوم الرهبة والرعدة ورغبة
النجاة. تلك التي عرفها في نفسه،
ونقلها لسربه، معرباً في بيانه، أن
خوف المجاهر حق وطبيعة، والجرأة
درس وتاج ونصيحة.

في تصعيدة قوية مائلة وانحدار،
يختل لها نظم السرب ورتبه، يفاجئ
ذات طائر صحبه، مسفاً يعز به
اللاحق، منقاراً رقيقاً عمودياً دقيقاً،
يخرق الفضاء، يمتطي من لا وزن
ريح، من شدة عزم ريح، من دفع أعال،
ومن جذب أسافل ريح، من كل شيء،
ومن لا شيء ريح.

يعز به اللاحق، يلتقط على بعده
الفرّك نظامه، يحوم مسفاً على هدي
ذات طائر معلم لا يبز. يسف السرب
عموداً صوب مشهد بسيطة ساحر
نادر. يعز اللاحق، ويبدو ذات طائر،
لعين طير مسفة على هديه وبعده،

يبدو مارقاً نحو البسيطة، على نحو
من شدة قصد غير مسبوق، تتابع
متوقعة حدوداً جديدة في لعبة
الطير، وهل من حد لجرأة ذات طير؟

تتابع، يبدو ذات طائر في اتجاهه
لأرض، في قوة قصده، وسرعته نحو
أرض، في مدى ما يوشك أن يلامس
به الأرض. يبدو مؤكداً أنه يرمي
قبل انحراف تصعيداً، أن يبلغ أقصى
ما يمكن من مدى ملامسة ودون. من
مدى اقتراب ودون. من مدى إشراف
ودون.

وبدا ممعناً في قصده، مجاوزاً
حدود لعبة وطبيعة، كيف ينحرف؟
متى ينحرف؟ يبدو جاوز المدى، فاق
الخرج. أيستطيع بعدها انحرافاً؟ أم
لعله يروم. ماذا يروم؟

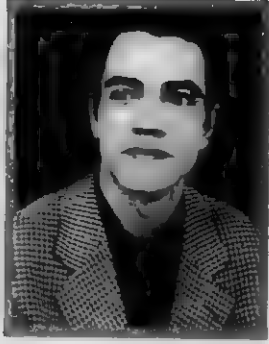
يبدو ذات طائر ممعناً في قوة
اتجاهه، لعله أن... أو... لكن...

ويبدو مخترقاً وجه البسيطة،
مارقاً كالسهم غائبا في نسيجها...
وتبدو الأرض كأنها انفتحت له،
انشقت لموعده ولقائه... مكثفة نسيج
أديمها لحضنه، بسيطاً فسيحاً...

طرت مع الطيور...

حطيت وحدي ...

في تصعيدة قوية
مائلة وانحدار، يختل
لها نظم السرب ورتبه،
يفاجئ ذات طائر
صحبه، مسفاً يعز به
اللاحق، منقاراً رقيقاً
عمودياً دقيقاً، يخرق
الفضاء، يمتطي من لا
وزن ريح، من شدة عزم
ريح، من دفع أعال،
ومن جذب أسافل ريح،
من كل شيء، ومن لا
شيء ريح.



هشام حراك

كان بالإمكان أن يكون

من والدته، وجسدا نحيفا وقنينة
حريق من والده، ثم كوخا من طوب
وقصدير وحصيرا وفانوسا غازيا
منهما معا.

x x x

يدخل احميدة إلى مقهى الدرب،
مترنحا كالمعتاد، وفي يده قنينة
حريق .. يتوقف، أسفل جهاز التلفاز
المعلق على الحائط، بعد طول
مقاومة لأجل إعادة التوازن إلى
جسده المتمايل .. يقول بصوته
المخمور، المتقطع، المدندن،
والمثاقل :

- أنا العالم، والعالم كله أنا ... أنا
لست أنا، ولست أنا، هو أنا .. من
أحبني، فهو أخي، ومن كرهني، فهو
(منتظرا إجابة) حبيبي .. في رأيكم،
من أكون أنا؟

يصمت، لحظة، منتظرا إجابة
من أحد الرواد .. لا أحد يجيبه .. الكل

يدخل احميدة إلى
مقهى الدرب، مترنحا
كالمعتاد، وفي يده قنينة
حريق .. يتوقف، أسفل
جهاز التلفاز المعلق على
الحائط، بعد طول
مقاومة لأجل إعادة
التوازن إلى جسده
المتمايل .. يقول بصوته
المخمور، المتقطع،
المدندن، والمثاقل :

كان بإمكان احميدة أن يكون
الدكتور احميدة لو أنه حقق أمنيته
التي أفصح عنها للمدرسة، حين سألته
عنها ذات يوم، وهو ما يزال تلميذا في
قسم الشهادة الابتدائية .. كان بإمكان
احميدة أن يكون الدكتور احميدة لو
أنه لم يطرد، عامها، من المدرسة، ولو
أنه تابع دراساته، وتخرج من كلية
طب العيون، أو كلية طب الأقواء، أو
كلية طب البهائم، أو كلية الطب،
هكذا، حافية .. وكان بإمكان احميدة
ألا تكون تسميته، هكذا، حافية .. كان
بإمكانه أن يكون السي احميدة لو أنه
خرج (أو تخرج) من بطن متفخة -
بفعل مرور تسعة أشهر - لامرأة
متزوجة من رجل ذي بطن متفخة ..
على أية حال، كتب لاحميدة أن يكون،
هكذا، حافيا، بدون «لكتور»، ولا
«سي»، ولاهما معا : «السي الدكتور»
.. وما دامت القاعدة تقول إن كل
الأبناء لابد وأنهم من والديهم يرثون.
فإن كل ما ورث احميدة، بشرة بيضاء

- عندك الحق أخاي .. اللي شاف شي مصيبة، يقول الله يستر.

- العفو يا مولانا ... العفو يامولانا ...

x x x

السماء، هذا المساء، ثقيلة بالسحاب والغمام كالرصاص حتى يبدو أنها سوف تنفجر .. تبدو السحب، من خلال نافذة المقهى الوحيدة، تتجه ببطء السحابة، في اتجاه الشمال .. في الواقع، قد تكون تتحرك بسرعة فائقة، وقد يكون بعدها عن المقهى بعد السماء عن الأرض هو الذي جعلها تتراءى للناظرين تتحرك حركة السحابة .. يبدو، من خلال نافذة المقهى دائما، أن أمطار الخير والنماء قد اتخذت، بكل حرية، شمال أوربا وجهة لهذا العام .. ببطء السحب في السماء، يؤكد أنها لن تنفجر أمطارا إلا حين تصل إلى سماء أرض اسكندنافيا .. هذا المساء هو أحد مساءات أواسط دجنبر .. تصل، إلى داخل المقهى، من حين لآخر، أصوات رعد مدوية، وأطياف برق تشل حركة مذيع نشرة الأخبار وصورته قبل كل ضربة رعد .. يبدو أن اصطدام السحب، في السماء، نعمة كبيرة من الرب على مخلوقاته في الأرض ... ضربة رعد واحدة، في الأرض، كفيلة بأن تجز رؤوس كل البشر والبهاائم، وخطفة برق واحدة،

منشغل بلعب الورق أو تلفيف الهاش .. الكل يتحاشى الرد عليه حتى لا يتشجع فيجالس أحدهم عله ينعم عليه بدرهم، أو سيجارة، أو عقب لفيفة هاش .. احميدة، الآن، ينفذ صبره من شدة انتظار إجابة من أحدهم .. يقول، منفعلا، بصوته المخمور، المتقطع، المدندن، والمتناقل :

- أنا (كم) يا أبناء ال (لات) (*).

هنا يفعل الجميع دفعة واحدة .. كل الرواد يحتجون، الآن، على النادل ويطالبونه بطرده من المقهى .. يقصده النادل ساخطا .. يلكمه، بعنف، لکمتين أسفل عينيه (لكل عين لكمة)، وثلاثة أسفل أنفه، ورابعة وخامسة أسفل بطنه، ثم (زدر دلاو) ضربة رأسية مدوية، كالرعد، على وجه برمته .. يسقط احميدة على الأرض متألما ومتأثرا لقوة الضربات وهمجيتها .. يبدو أنه يغمى عليه .. يجره النادل من كتفه، مثل خروف، ويلقي به خارج المقهى، فتبدأ ردود فعل الرواد تنبعث متتالية :

- هذا مسخوط هذا؟

- هذا غير مسخوط واسكتي؟ هذا راه مسخوط الشعب هذا.

- وبغيتوا ربي يحن بالشتا؟

- آسيادنا الله يهديكم .. قولوا الله يهديه، وقولو الله يستر.

السماء، هذا المساء،
ثقيلة بالسحاب
والغمام كالرصاص
حتى يبدو أنها سوف
تنفجر .. تبدو
السحب، من خلال
نافذة المقهى
الوحيدة، تتجه ببطء
السحابة، في اتجاه
الشمال .. في الواقع،
قد تكون تتحرك
بسرعة فائقة، وقد
يكون

بالفعل يكون له ما طلب : أزدف
أردف، أزدف أردف، أزدف أردف،
أزدف أردف، قرقلاف .. البطل يقتل
كل أفراد العصابة، وينقذ المرأة
الجميلة، فتغني وترقص له، ويغني
ويرقص لها، فرحين بالقضاء على
العصابة، وبميلاد قصة حب، على التو،
بينهما .. شريط هندي لا يخرج عن
المعتاد.

x x x

في هذا الوقت، بالذات، الذي
يعانق فيه البطل المرأة الجميلة،
يدخل بطل قصتنا احميدة، من
جديد، إلى مقهى الدرب مترنحا ..
هذه المرة لا يحمل قنينة حريق،
وإنما سكيناً حاداً وطويلاً .. لا أحد
من الرواد يستطيع أن يتفوه بكلمة ..
يقف أسفل جهاز التلفاز المعلق على
الحائط .. يضغط على الزر فيتوقف
الجهاز عن البث، ولا أحد يجرؤ على أن
يتفوه بكلمة .. يشرع احميدة يقلب
الطاولات ويتبول على الكراسي، ولا
أحد يجرؤ على أن يتفوه بكلمة سوى
النادل الذي يشرع يستلطفه من
بعيد :

- راه حشومة عليك آحميدة !

- ينظر إليه حميدة بسخط :

- تضربني يا وجه الطبل؟ لماذا
تضربني؟ وهؤلاء الحشاشون لماذا لا

قبلها، في الأرض، كفيلة بأن تعمي
أبصارهم جميعاً، وإلى الأبد .. (ترى
أينك الآن، وفي ظل جو هذا اليوم، يا
احميدة؟) .. مقهى الحي كلها فوضى
.. التلفزة لا تنبث منها سوى صور
متحركة، أما الصوت فقد تلاشى بين
أصوات الرواد وقهقهاتهم .. دخان
الهاش يملأ كل الفضاء .. وجوه كالحة
وعيون احمرت بالهاش .. يقول أحد
الرواد القابع في الركن الأمامي
الأيسر :

- السماء ثقيلة بالانعام
كالرصاص، ودوي الرعد يكاد يصدع
رؤوسنا، ومع ذلك لا تريد أن تمطر ..
إذا ما لم تمطر فإن حقول القمح
سوف تموت جفافاً.

يجيبه آخر يقبع في الركن
الورائي الأيمن :

- عندك الحق .. الله يحفظ
وخلص ... هذا ما يقول بنادم.

ينادي ثالث على النادل :

- عزيز ... آجي، آجي ...

يصل إليه النادل .. يسحب شريط
فيديو من داخل معطفه، ويمده به
مسترسلاً :

- استخدم هذا الشريط .. إنه أروع
ما شاهدت عيناى.

-الآن وليس غدا ...الآن...الآن...الآن ...

... ويطعن نفسه طعنات متعددة
في أماكن مختلفة من جسده ...
يحاول النادل اللحاق به وإنقاذه، لكنه
لا يصل إلا بعد فوات الأوان ...
أحميدة، الآن، يتخبط بين دمائه مثل
ديك مذبوح، وأنفاسه، بالتدريج،
تنقطع ...

x x x

(xx) كلام قبيح جدا.

تضربهم؟ لو كانت لدي دريهمات أو
بنية جسدية قوية لما تطاولت يداك
ورأسك على جسدي النحيل؟ لماذا أنت
صامت؟ تكلم يا وجه الطبل؟

يصمت .. يجلس القرفصاء على
الأرض .. يجهش بالبكاء :

- أعرف أنكم لا تطيقونني،
لذلك سأخلصكم مني الآن
وليس غدا.

يصعد من لهجته :

-الآن وليس غدا ...الآن...الآن...الآن ...
الآن ...

- أعرف أنكم لا تطيقونني، لذلك
سأخلصكم مني الآن وليس غدا.

يصعد من لهجته :



محمد قنديل بعاير

زمن الرحيل

- ... أهذا زمن الرحيل
يا زوهره؟

عام مضى على فراقنا، كأنه
البارحة فقط. ألا ما أسرع مرور الأيام
! الزمن يمضي فلا يبقى على شيء،
حتى بت أخشى أن تنسينني، كما
نسيتني كثيرون وأنا على قيد الحياة. ما
ضرك لو انتظرت قليلا، لألمم شتات
نفسي المتعبة وأضمد جروحها
العميقة التي ظلت تنزف في داخلي
زمنًا طويلًا .. إذ ما كاد صدرك
الدافئ يحتضنني، فأنعم فيه بالأمان
والهناء، كطفل وجد أمه بعد التيه،
حتى انتزعني يد الفراق بعنف، من
بين أحضانك الرخية، وطوحت بك
إلى هناك .. آه .. هناك .. لأعود إلى
الوحدة من جديد، كما كنت منذ عام
مضى ...

ها أنذا أسير وحيدا صباح جمعة

أخرى. ليس معي سوى شاص يؤنس
وحدتي .. العكازة الخشبية القديمة،
تضرب برفق وجه التراب الأسود
الصلب، تتخطى الصخور المغروسة
في قلب الأرض مخافة السقوط،
تكشط الحصى والحجارة المتناثرة
أمامها، فتتطاير متدحرجة على
جانب هذه الطريق الترابية المحجرة،
المؤدية إلى ذلك السور القديم
المتهدم الذي يتسلق على جوانبه،
فروع الطلع المتشابكة، ويفطي
الصبار بألواحه الشائكة وجذوعه
النخرة، على حجارته الصفر المتداعية
...

أول مرة رأيتك فيها عند مدخل
القرية، كنت عائدة من السوق،
تحميلين قفة على رأسك .. عندما
مررت بقربي، انجذبت نحوك،
وسحرني وجهك الأحمر اللافح بفعل
حرارة شمس الظهرية .. التفت، سهوت،

وتابعتك بعيني المتطفلتين، لأفاجأ
بعد لحظات، بالعكازة تعثر بي
مصطدمة بحجر مدفون في
الطريق، فأقتلع من مكاني، وأتهاوى
متدحرجا على الأرض المغبرة ..
انتبه الأطفال إلى المنظر، فهرولوا
نحوي ضاحكين، وأحاطوا بي
صائحين : والسكران .. والسكران ..

حاولت القيام، فخانتني رجلي
اليمنى. لم أقو على الوقوف .. أثارتك
الضجة، فالتفت جهتي. أنزلت القفة
من على رأسك، وأسرت تساعديتي
على الوقوف .. تمسكت بيديك وأنت
تحمليني، كغريق وجد شيئا يتعلق به.
أسندتني على صدرك الدافئ،
فوقفت. أعدت إلي عكازتي .. هددت
الأطفال ونهرتهم، فتفرقوا خائفين
.. قلت لي بلهجة لا تخلو من عتاب :
- مرة أخرى شوف قدامك ..

وقفت أمامك صامتا، كما لو
ضبطت متلبسا بمغامرة جنسية. ماذا
أقول لك؟ .. أنت السبب في ما حدث
لي .. من يصدقني؟ شرعت أنفض
الغبار عن ثيابي .. تأبطت عكازتي
بإحكام، وتابعت القفز .. وأنت
تبتعدين عني، سألت طفلا رقيقا لحالي :

- هل تعرف هذه المرأة التي تسمير
أمامنا؟

- إنها زوهرة.

- هل هي متزوجة؟

- سمعت بأنها مطلقة.

- وأين تعيش؟

- مع إخوتها وزوجة أبيها.

- لماذا لا تتزوج يا زوهرة؟

في ذلك الصباح، اغتنمت فرصة
انفرادي بك عند البئر، لأتكلم معك.
فمنذ أن أسندتني على صدرك
الدافئ، وأنا أترصد خطاك من بعيد،
حتى لا أثير الشبهات .. اقتربت منك
أكثر .. نبش شاص الرمل بأظفاره،
نبع بشراسة، وتحفز للهجوم علي ..
أمرته بالسكوت، فانبطح أرضا واضحا
فمه بين رجليه الأماميتين .. لم
تقولي أي شيء، بل انشغلت بإخراج
السطل من البئر، وشرعت تسكين
الماء في الدلو .. وضعت يدي على
جبهة الحمار .. قلت مستعظفا :

- الوقت يمر، ونحن نكبر .. أريد
جوابا يا زوهرة.

بقيت صامتا تدلين السطل في
البئر، وتملئينه ماء .. نبع شاص فجأة
.. من بعيد تعالت أصوات وضحكات
نساء قادمات نحو البئر .. تظاهرت

في ذلك الصباح،
اغتنمت فرصة
انفرادي بك مند
البئر، لأتكلم معك.
فمنذ أن أسندتني
على صدرك الدافئ،
وأنا أترصد خطاك
من بعيد، حتى لا
أثير الشبهات ..
اقتربت منك أكثر ..
نبش شاص الرمل
بأظفاره، نبع
بشراسة، وتحفز
للهجوم علي ..

بأنني عطشان، فاخترت السطل
منك، وشربت ثم أعدته إليك،
وابتعدت مسرعا قافزا بعكازتي،
لأختفي في الغابة ... وتكلمت النساء
عني كما أبلغتني :

- دريويش الأعرج، لا يكف عن
ملاحقتك وسيفضحك.

- ما زال يلح علي في الزواج.

- وهل ترضين بالزواج بمتقاعد
سكير؟

- المطلقة لا يسترها سوى الزواج.

- وكيف ستعاشرينه ليلا، وهو لا
يملك سوى ساق واحدة؟

- لو لم يكن يشرب الشراب
الأحمر، لكان زوجا لائقا.

- الحق معها .. إلى متى ستظل
في خصام مع زوجة أبيها؟

- «دريويش .. ما هي قصة
حياتك؟»

سأكون صريحا معك منذ البداية
يا زوهرة .. نشأت يتيما يرعى الغنم
بهذه القرية .. تلقيت الأوامر منذ
الصغر، ونفذتها دون نقاش، حتى
أصبحت الطاعة العمياء جزءا لا يتجزأ

.. صفعتني أيدي السادة
على وجهي، وركلتي
أرجلهم في مؤخرتي
.. كنت أسترق السمع
من بعيد، إلى رجل
فاقد ساقه، وآخر
ذراعه، وهما يتحدثان
مع جماعة غارقة في
لعبة (الضاما) :

مني في الكبر : نعم أسيدي .. نعم ألا
.. صفعتني أيدي السادة على وجهي،
وركلتي أرجلهم في مؤخرتي .. كنت
أسترق السمع من بعيد، إلى رجل
فاقد ساقه، وآخر ذراعه، وهما
يتحدثان مع جماعة غارقة في لعبة
(الضاما) :

- الرجل الحقيقي هو العسكري
الذي لا ينهزم.

- من لم يشارك في الحرب
دجاجة قارقة.

- طح في الواد.

- هزك الما .. خسرت الطرح ..
عمرّ واسكت ..

انخرطت في الجيش، كي أرحل
عن هذه القرية الضالة. عبرنا البحر
في الباخرة .. رحلنا إلى فرنسا،
وشاركنا معها في الحرب ضد الألمان
.. وقعت أسيرا عندهم .. وحتى
يتخلصوا منا، حملونا ذات صباح
ماطر في شاحنة .. أمرونا بالنزول
للاستراحة .. فوجئنا بمدفع رشاش
يظهر من شاحنة أخرى .. بدأوا
يطلقون الرصاص علينا كيما اتفق ..
تشتتنا .. هربنا في كل اتجاه .. لاحت
لنا غابة كثيفة معتمة .. عبرنا حقلا

أجرد طمعا في الوصول إليها،
والاختباء بها .. انفجرت الألغام تحتنا
.. تمزقت أجساد بعضنا .. تناثرت
أيدي وأرجل ... كنت أتمنى أن أعود
من الحرب بشروة، أشتري بها أرضا،
وأقيم عليها حظيرتين للغنم والبقر،
وأكلف راعيا برعيها في المروج
الخصبة ... ولكنني عدت إلى هذه
القرية الجاحدة بساق واحدة .. هذه
هي قصتي يازوهرة ... فما ذنبي أنا
في كل ما حدث؟ وهل كان مكتوبا
على جبهتي يوم ولدت : «دريويش
سيحارب إلى جانب فرنسا، ولكنه
سيعود إلى الوطن محاربا قديما،
فاقدا شكله السوي، ومتوكئا على
عكازة خشبية ...»

- «كيف ترحلين عني يازوهرة؟»

صمت ثقيل موحش .. طرقات
العكازة المصمتة، تتردد في مسمعي
بانظام .. شاص يجري هنا وهناك ..
ينبح مبتهجا .. يتشمم الأعشاب الندية،
كأنما يبحث عن طريدة جريح ..
يختفي في الغابة المعتمة، بين سيقان
الأشجار المتكاثفة، ثم يعود إلى
الظهور في مكان آخر .. يجري نحوي
منطلقا بأقصى سرعة ... وأنا أتمسك
بك خائفا قبل الرحيل، أعدت عليك
السؤال .. حاولت النطق غير أن

الآن أخرج من الغابة
المعتمة، إلى فضاء
واسع مضاء بأشعة
الشمس الطالعة .. غيوم
سود آتية من الغرب،
منذرة بسقوط أمطار
الخريف، ورياح قوية
تتلاعب بأوراق الأشجار
الذابلة .. جلدة العكازة
تنغرس في الرمل
الرخو .. عرق غزير
حار، يتصبب على
جبهتي ووجهي،

المرض الخبيث أوهن قواك .. مر
شاص بباب الكوخ المفتوح، فابتسمت
مشيرة إليه بعينيك الذابلتين ..
أتذكرين يوم اعترض سبيلنا ابن عمك
ونحن عائدين من البئر، إمعانا منه
في تخويفي ليبعدك عني .. حاولت
الدفاع عنك، ولكنه دفعني بقوة في
صدري .. سقطت العكازة من يدي،
وتهاويت أرضا .. لم أستطع فعل أي
شيء، أمام ثورته واندفاعه سوى طلب
النجدة بأعلى صوتي .. أمسك
بتلابيبيك، وشرع يجرك من شعرك ..
نبح شاص مهتاجا .. ارتمى على ساقه
يعضها بأنيابه، مما اضطره إلى
تركك، والانشغال بإبعاده عنه .. أسرع
القادمون من البئر، ففر وهو يعرج
ليختبئ في الغابة ... الآن أخرج من
الغابة المعتمة، إلى فضاء واسع مضاء
بأشعة الشمس الطالعة .. غيوم سود
آتية من الغرب، منذرة بسقوط أمطار
الخريف، ورياح قوية تتلاعب بأوراق
الأشجار الذابلة .. جلدة العكازة
تنغرس في الرمل الرخو .. عرق غزير
حار، يتصبب على جبهتي ووجهي،
ويسيل من إبطني على جسدي ..
شاص تعب من الجري، واكتفى بالسير
هادئا إلى جانبي .. أزيح بالعكازة
فروع الطلع المتشابكة التي غطت
جانبا من الباب المشرع .. أتجاوز

الصبار الذي اكتسح الحجارة المتداعية،
بجذوعه الجافة .. أتسلل من ثقب
كبير في السور القديم .. أبحث هنا
وهناك .. كل شيء هنا متشابه .. لا فرق
بين هذا وذاك .. ومع ذلك فأنا أعرف
وجهك ...

- «هل عرفتني يازوهرة؟»

أنا دريويش المحارب القديم الذي
وفى بالعهد الذي قطعه على نفسه،
منذ ارتباطه بك : أن أقلع عن
الشراب، وأداوم على الصلاة
ولأقطعها، فلم يعد أطفال القرية،
يعترضون سبيلي ويصيحون في
وجهي. وا السكران .. بل أخذوا
ينادونني : بالحاج، كلما رأوني أخرج

من المسجد، بالرغم من أنني لم أذهب
إلى الحج مطلقا، وإن كنت أمني النفس
بزيارة ذلك المقام .. ولكنك تعرفين
أن المعاش تقادم به العهد، فلم يعد
يفي حتى بالمتطلبات الضرورية ...
شاص ينبح .. أنتبه من شرودي .. نساء القرية
وأخواتك قادمات من الباب ..
امتعضن لرؤيتي، فتناقلت مشيتهن ..
أعترف لك بأن لا أحد يحتملني في
هذه القرية سوى أنت وشاص ...
سينتظرن حتى أبتعد عنك، وسيقلن
عني كعادتهن :

- ها هو دريويش المجنون عاد

يكلم الحجر.

وداعا يازوهرة، وإلى لقاء قادم ...

شاص ينبح .. أنتبه من
شرودي .. نساء القرية
وأخواتك قادمات من
الباب .. امتعضن
لرؤيتي، فتناقلت
مشيتهن .. أعترف لك
بأن لا أحد يحتملني
في هذه القرية سوى

أنت وشاص ...



مصطفى لغتيري

الفرح الجديد

حركاته .. وحتى لا يفتضح أمره دارى ارتبأكه، ثم خاتل أصدقاءه وتسلسل مبتعدا. لمح به ابن عمه يبتعد فسأله أين يذهب، تحجج بأمر ما .. ولما أصر أن يرافقه رفض بقوة .. مَوَّه على قريبه وغاص في أحد البساتين .. الحرارة تلفح جسده غير أن الاضرار الذي احتضنه بلطف خفف من قسوتها .. عيناه لا تفارقانها، تعلقتا بها بكل إصرار .. يخشى أن تضع منه إن غفل عنها برهة ... تذكر حينئذ تلك اللحظة المتوترة، حين تأججت في أحشائه لوعة لم يشعر بمثلها من قبل .. كان الوقت صباحا قابلهما قرب البئر لما رافق أحد أقاربه لجلب الماء .. ما إن اشتبكت نظراتهما حتى أحس أنه لن يستطيع الانفلات من سطوتها .. اخترقه لحظتها شيء ما، لم يتبين طبيعته .. رعشة اعترته، ودوار خفيف اكتنفه، تدفقت الدماء فجأة إلى رأسه، تسارعت نبضات قلبه .. لم يستطع أن يحدد بدقة ما إذا كانت دواخله قد

.. بغتة وبشكل لم يتوقعه، لاحت من بعيد، تحمل على رأسها كيسا، تغوص بأقدامها في اتجاه طاحونة القرية .. تسارعت خفقات قلبه، ودهم الاضطراب حركاته .. وحتى لا يفتضح أمره دارى ارتبأكه، ثم خاتل أصدقاءه وتسلسل مبتعدا.

الامتداد لا حدود له، وأشجار التين والصبار منتشرة في كل مكان .. خضرتها الياضعة تشلح عن المكان وحشته .. أكوام من التربة متراكمة تتخللها صخور تميل إلى البياض، تنغرس في أعماق الأرض فلا تبدو منها غير بقع تنتشر في غير انتظام ... والطفل يركض مع الأطفال في كل الاتجاهات، جلهم أقاربه الذين يقضي العطلة الصيفية في ضيافتهم، جسده الصغير ينضح بسيل العرق، تحت أشعة الشمس الحارقة .. وفي ظلال شاحبة انطحت كلاب ترقب الأطفال بأعين متكاسلة، لهاثها يبعث على الضحك .. البحر الذي لا يبعد عن القرية كثيرا، يرسل بين الفينة والأخرى أنفاسه المنعشة، فتتلقفها أجساد الصغار الملهته بلهفة وعشق .. بغتة وبشكل لم يتوقعه، لاحت من بعيد، تحمل على رأسها كيسا، تغوص بأقدامها في اتجاه طاحونة القرية .. تسارعت خفقات قلبه، ودهم الاضطراب

فقدت شيئاً ما أو أضيف إليها شيء جديد .. بيد أنه كان متأكداً أن نفس الشيء حدث لها .. صعب أن يبرهن على ذلك ولكنه أحس به .. انتزعت نظراتها من نظراته وانصرفت .. بينما استغرقته حالة من الذهول دامت مدة من الزمن .. فيما بعد عرف اسمها وارثشف أخبارها قطرة قطرة، علم أن الكثير يطمحون إلى الفوز بقلبها .. لم ينل ذلك من عزمه .. أحس أن انتماءه إلى المدينة يرجح كفته ويمنحه امتيازاً أثلج صدره .. انبثق لها من بين النباتات الكثيفة، فبدت سيماء المفاجأة على ملامحها .. أسرع في مشيتها، فتبعها بقدمين لا تكادان تحملانه وهو يلتفت في كل الاتجاهات خوفاً من أن يراه أحد .. دنا منها بشكل كبير .. ولما تبينت إصراره على ملاحقتها، التفتت إليه متصنعة الغضب .. ماذا تريد مني؟ اذهب إلى حالك.

أحس أن غضبها مفتعل .. عيناها الباسمتان أوحتا له بذلك .. قهر اضطرابه وبصوت متهدج خاطبها : فقط أريد أن أكلمك.

تابعت سيرها، غير أن خطواتها تباطأت قليلاً وهي تحدجه بعينيها العسليتين :

- قل ماذا تريد؟ أخاف أن يرانا أخي.

كاد نبضه يتوقف .. انحبست الكلمات في حلقه، فلم يدر ما يقول، لاحظت ارتباكها فرمقته بنظرة أجبت من حدة الوجد الذي باغته .. لم ينبس ببنت شفة .. انجذب جسده نحوها .. تقدم خطوتين .. أدخل يده اليمنى في جيبيه والاضطراب يكتفه، أخرج «علكة» التمتع لون غشائها الأصفر بين أصابعه المضطربة، وبيد متوترة مدها إليها .. بعد تردد لم يدم طويلاً بسطت يدها .. تناولتها منه وابتسامته خجلى تداعب شفثيها القرمزيتين .. فرحة غامرة اكتسحته .. استأنفت سيرها .. حاول أن يتبعها إلا أن قدميه تصلبتا .. شيعها بعينيها الذاهلتين .. وبعد هنيهة انتشل نفسه من ذهوله «لقد كلمتها وقبلت العلك مني» قال ذلك في أعماقه وقد افترت شفثاه عن ابتسامته مكرة .. انسل وسط البستان، وما هي إلا فترة قصيرة حتى أخذ مكانه بين الأطفال .. سألته قريبه عن المكان الذي ذهب إليه .. تجاهل سؤاله، وانشغل إلى أبعد الحدود بتأثيث دواخله بالفرح الجديد، الذي حل ضيفا على كيانه، محاولاً أن يفرد له أجمل مكان في قلبه.

.. سألته قريبه عن المكان الذي ذهب إليه .. تجاهل سؤاله، وانشغل إلى أبعد الحدود بتأثيث دواخله بالفرح الجديد، الذي حل ضيفا على كيانه، محاولاً أن يفرد له أجمل مكان في قلبه.



لوحة الغلاف

الفنان الراحل محمد الإدريسي (1946-2003)

من مواليد نطوان

1963 أنهى دراسته بمدرسة الفنون الجميلة
بنطوان ثم بالمدرسة العليا للفنون الجميلة
ببرشلونة سنة 1970. في سنة 1973 درس
بالمدرسة العليا للفن والهندسة المعمارية
ببروكسيل وفي سنة 1980 تلقى تكوينه
بمدرسة الفنون البحرية بنيويورك. ثم أنهى
دراسته الفنية سنة 1986 بالمدرسة العليا
للفنون الجميلة بباريس ومنذ 1981 تفرغ
الراحل لعمله الفني. فأقام معارض فردية
وجماعية بالمغرب والخارج وشارك في عدة
تظاهرات ومهرجانات وطنية ودولية وحصل
على عدة جوائز

كان محمد الإدريسي كثير النجوال وكثير
الأصدقاء من كتاب ومبدعين وغيرهم.
منخرطا في تفاصيل الحياة الاجتماعية
اليومية مهتما بهوامشها وبرواد الليل.
تدرج أعماله الفنية ضمن اتجاه تعبيرى ناقدا
ومنهككم طبع مواقف الإدريسي اليومية
بروح لا تخلو من فلسفة